التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقاً

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس والثلاثون

الدرر السنية

www.dorar.net

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية
بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد السادس والثلاثون - سورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٦٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٠٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٦٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٦٩٥

ردمك: ٠-٠٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القمر وسورة الرحمن و سورة الواقعة)

إِعْـدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإِشْـرَافُ العَـامُّ

الشَّيْخ عَلَوِي بن عَبْدِ القَادِرِ السَّقَّاف

المجلد السادس والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

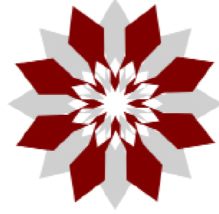
بسم الله الرحمن الرحيم

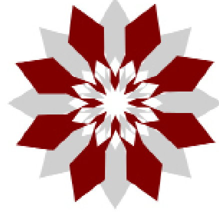
تَفْسِيرُ

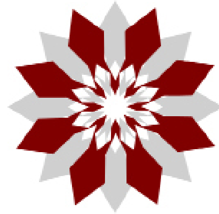
سُورَةِ القَمَرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)







سُورةُ القَمَرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَمَرِ)[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

مِنَ السُّنَّةِ قِراءةُ سُورةِ القَمَرِ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاةِ العِيدِ:

عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سأل أبا واقِدٍ اللَّيْثيَّ: ((ما كان يَقرَأُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأضحَى والفِطرِ؟ فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[ق: ١] و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[القمر: ١]))[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ القَمَرِ مَكِّيَّةٌ[٣]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ القَمَرِ؛ لاشتِمالِها على ذِكرِ انشِقاقِ القَمَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٥).

وتُسمَّى أيضًا: سورةَ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ حِكايةً لأوَّلِ كَلِمةٍ افتُتِحَت بها. وتُسمَّى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ لحديثِ أبي واقدٍ في ((صحيح مسلم)) (٨٩١). يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦١٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩١).

(٣) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ؛ مِن قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾[القمر: ٤٤] إلى قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[القمر: ٤٦]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٠).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٥)، ((مصاعد النظر)) (٣/ ٣٩).

قال القرطبي: (سُورةُ القَمَرِ مَكِّيَّةٌ كُلُّها في قَولِ الجُمهورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٥).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الحَديثُ عن سُنَنِ اللهِ تعالى في خَلْقِه، الَّتي مِن أبرَزِ مَظاهِرِها نَصرُ المؤمِنينَ، وخِذْلانُ الكافِرينَ(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- الإنذارُ باقترابِ القيامةِ، وتَسجيلُ مُكابَرةِ المُشرِكينَ في الآياتِ البَيِّنةِ، وجُحودِهم للحَقِّ بعدَ إذ جاءَهم.

٢- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم حتَّى يأتيَ قَضاءُ اللهِ فيهم.

٣- إنذارُ المُشرِكينَ بما سيَكونونَ عليه يومَ القيامةِ مِن ذِلَّةٍ ونَدامةٍ وحَسْرةٍ.

٤- ذِكرُ قَصَصِ المُكَذِّبينَ مِن سالِفي الأُمَمِ؛ كقَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وقَومِ فِرعَونَ، وما لاقَوه مِن الجزاءِ على تكذيبِهم، وما حَلَّ بهم مِن هَلاكٍ ودَمارٍ.

٥- توبيخُ المُشرِكينَ على عَدَمِ الاعتِبارِ بهذه النُّذُرِ، وذِكرُ ما يُلاقُونَه مِنَ الجَزاءِ في الآخِرةِ إهانةً وتحقيرًا لهم.

٦- بيانُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وبَليغِ حِكمتِه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَضائِه وقَدَرِه، وأنَّ مَشيئتَه نافِذةٌ فى الكَونِ، وأنَّه قد أحاط عِلمًا بأفعالِهم وبكُلِّ شَيءٍ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بتبشيرِ المتَّقينَ بحُسنِ العاقبةِ، وما يُؤتَونَه مِنَ الكَرامةِ.



---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٩٤).

الآيات (١-٨)

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ
۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ
ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ
يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ
۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾: أي: ذاهِبٌ، مِن قَولِهم: مَرَّ الشَّيءُ على وَجهِه واستَمَرَّ، أي: ذَهَبَ، وقيل: شَديدٌ قَويٌّ مُحكَمٌ؛ مِن قَولِهم: قد مرَّ الحَبْلُ: إذا صَلُبَ وقَوِيَ واشتَدَّ، وأصلُ (مرر) هنا: يدُلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ[(١)].

﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾: أي: واقِعٌ كائِنٌ، وأصلُ (قرر): يدُلُّ على تمكُّنٍ[(٢)].

﴿مُزْدَجَرٌ﴾: أي: مُتَّعَظٌ ومُنتهًى عن الشِّركِ والمَعاصي، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على الانتِهارِ[(٣)].

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: أي: الرُّسُلُ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[(٤)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢-١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٠، ٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦).

﴿نُّكُرٍ﴾: أي: مُنكَرٍ فَظيعٍ، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ(١).

﴿خُشَّعًا﴾: أي: ذَليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ(٢).

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، جَمعُ جَدَثٍ(٣).

﴿مُّهْطِعِينَ﴾: أي: مُسرِعينَ مُقبِلينَ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ وانقيادٍ(٤).

﴿عَسِرٌ﴾: أي: صَعبٌ شَديدٌ، وأصلُ (عسر): يدُلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ(٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ﴾: مَنصوبٌ على الظَّرفيَّةِ بـ﴿يَخْرُجُونَ﴾، أو على المَفعوليَّةِ بـ «اذْكُرْ» مُضمَرةً. وعليهما فيُوقَفُ على ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وَقفًا تامًّا، ثمَّ يُبدَأُ بما بَعْدَها. وجَوَّزَ بَعضُهم نَصْبَ ﴿يَوْمَ﴾ على الظَّرفيَّةِ بـ «تَوَلَّ»، معناه: فتَولَّ عنهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠).

يومَ يدعو الدَّاعي؛ لأنَّهم لَمَّا أعرَضوا حينَ دعاهم كان جزاؤُهم أن يُعرِضَ عنهم يومَ حاجتِهم إليه؛ لأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ. وعلى هذا فلا يُوقَفُ على ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾. وقيلَ غيرُ ذلك في ناصِبِ ﴿يَوْمَ﴾.

وحُذِفَت الواوُ من ﴿يَدْعُ﴾ لَفظًا؛ لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وخَطًّا؛ اتِّباعًا لِلَّفظِ.

وحُذِفَت الياءُ مِن ﴿الدَّاعِ﴾ تخفيفًا واكتِفاءً بالكَسرةِ؛ إجراءً لـ «أل» مجرى ما عاقَبَها وهو التَّنوينُ، فكما تُحذَفُ الياءُ مع التنوينِ كذلك مع ما عاقَبَها.

﴿خُشَّعًا﴾ حالٌ مُقَدَّمةٌ من فاعلِ ﴿يَخْرُجُونَ﴾. ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ فاعِلٌ باسمِ الفاعِلِ ﴿خُشَّعًا﴾: جمعُ خاشِعٍ. ﴿يَخْرُجُونَ﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾، أو جملةٌ مُستأنَفةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بدُنُوِّ القيامةِ، وبانفِلاقِ القَمَرِ فِلقَتَينِ؛ تأييدًا لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثمَّ يُخبِرُ تعالى عنْ مُشرِكي قُرَيشٍ بأنَّهم إنْ يَرَوا عَلامةً تَدُلُّهم على صِدقِ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعرِضوا عن الإيمانِ بها، ويَقولوا مُنكِرينَ لها: هذا الَّذي يُرينا محمَّدٌ إيَّاه سِحرٌ ذاهِبٌ لا حقيقةَ له!

ثمَّ بيَّن الله تعالى حالَهم، فقال: وكَذَّبوا بالحَقِّ، واتَّبَعوا ما يَشتَهونَه بلا بُرهانٍ، وكُلُّ أمرٍ مُستَقِرٌّ إلى غايةٍ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، ولقد جاء مُشرِكي قُرَيشٍ مِنَ الأنباءِ ما فيه زَجرٌ لهم عن الكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه؛ حِكمةٌ تامَّةٌ قد

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٢٣-١٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٧٩).

بَلَغَت الغايةَ، واصِلةٌ إلى المقصودِ منها، فما تَنفَعُهم النُّذُرُ، وهم مُعرِضونَ عن الآياتِ؟!

ثمَّ سلَّى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: فأَعرِضْ عنهم؛ فإنَّ الإنذارَ لا يُجدي فيهم. يومَ يَدعو الدَّاعي النَّاسَ إلى مَوقِفٍ فَظيعٍ كَثيرِ الأهوالِ يَخرُجونَ مِن قُبورِهم وأبصارُهم ذَليلةٌ خاضِعةٌ؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وفَزَعِهم، فيَتوَجَّهونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وكَثرتِهم جَرادٌ مُنتَشِرٌ، مُسرِعينَ إلى الدَّاعي؛ تلبيةً لِندائِه، يقولُ الكافِرونَ يومَ القيامةِ: هذا يومٌ شَديدُ الصُّعوبةِ والعُسرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾.

أسبابُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (انشَقَّ القَمَرُ على عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت قُرَيشٌ: هذا سِحرُ ابنِ أبي كَبْشةَ[1]! سَحَرَكم، فسَلُوا السُّفَّارَ[2]، فسَألُوهم، فقالوا: نَعَمْ، قد رَأَيْناه، فأنزَلَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾)[3].

---

(١) أبو كَبْشةَ: رجُلٌ مِن خُزاعةَ خالَفَ قُرَيشًا في عبادةِ الأوثانِ، وعَبَد الشِّعْرَى، فلمَّا خالَفَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عبادةِ الأوثانِ شَبَّهوه به، ونَسَبوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليه. وقيل: إنَّه كان جَدَّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِبَلِ أمِّه، فأرادوا أنَّه نَزَع في الشَّبَهِ إليه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٤).

(٢) السُّفَّارَ: أي: المسافِرينَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٧١)، ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: ١٤٨).

(٣) أخرجه الطَّيالسي (٢٩٣)، والطَّحاوي في ((شرح مُشْكِل الآثار)) (٦٩٧) مختصَرًا، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٢/ ٥٦٧) واللَّفظُ له. =

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (سأل أهلُ مكَّةَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آيةً، فانشَقَّ القمَرُ بمكَّةَ مرَّتَينِ[1]، فنزَلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إلى قَولِه: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، يقولُ: ذاهِبٌ)[2].

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

أي: دَنَت القيامةُ الَّتي يَبعَثُ اللهُ فيها عِبادَه للحِسابِ والجَزاءِ[3]!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بُعِثْتُ أنا والسَّاعةُ كهاتَينِ -وضَمَّ السَّبَّابةَ والوُسْطى))[4].

= صَحَّحه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٢٠٣)، وصَحَّح إسنادَه على شرطِ البخاريِّ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((شرح مُشْكِلِ الآثار)) (٦٩٧).

(١) مرَّتَينِ: أي: شِقَّتَينِ وفِلقتَينِ. يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٣٠١)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٣٠٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨٦) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥٥٤)، وأحمد (١٢٦٨٨).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصَحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥١٣) وقال: (على شرطِهما)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٨٦)، وصَحَّح إسنادَه على شرط الشَّيخينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٠/ ١١٨).

والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَينِ دونَ ذِكرِ نُزولِ الآيةِ؛ أخرجه البخاري (٤٨٦٧)، ومسلم (٢٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) واللَّفظُ له.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما أجَلُكم في أجَلِ مَن خَلا مِنَ الأُمَمِ ما بيْنَ صلاةِ العَصرِ إلى مَغرِبِ الشَّمسِ!))[1].

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإخبارُ باقترابِ السَّاعةِ يَحتاجُ عندَ المعانِدِ إلى آيةٍ دالَّةٍ عليه، وكانت الآياتُ السَّماويَّةُ أعظَمَ -فالتَّأثيرُ فيها أدَلُّ على تمامِ الاقتِدارِ-، وكان القَمَرُ أدَلَّ على الأنواءِ الَّتي بها مَنافِعُ الخَلقِ في مَعاشِهم، وكانت العَرَبُ أعرَفَ النَّاسِ بها- دَلَّهم على التَّأثيرِ فيه على اقتِرابِها، فقال[2]:

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾.

أي: وقد انفَلَق القَمَرُ، فصار فِلقَتَينِ بإذنِ اللهِ؛ تأييدًا لنبيِّه محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٥، ١٢٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ١٦٠، ١٦١، ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٣).

قال ابن كثير: (قد كان هذا في زَمانِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما ثَبَت ذلك في الأحاديثِ المُتواتِرةِ بالأسانيدِ الصَّحيحةِ، وقد ثَبَت في الصَّحيحِ عن ابنِ مَسعودٍ أنَّه قال: «خَمْسٌ قد مَضَيْنَ: الرُّومُ، والدُّخَانُ، واللِّزامُ، والبَطشةُ، والقمَرُ» [((صحيح البخاري)) (٤٧٦٧)، ((صحيح مسلم)) (٢٧٩٨)]، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه بيْنَ العُلَماءِ: أنَّ انشِقاقَ القَمَرِ قد وقع في زمانِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه كان إحدى المُعجِزاتِ الباهِراتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٢).

ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٢٩٣)، (٨/ ٥٥٨). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((انشَقَّ القَمَرُ على عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شِقَّتَينِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اشهَدوا!))[١].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أهلَ مَكَّةَ سألوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُريَهم آيةً، فأراهم القَمَرَ شِقَّتَينِ، حتَّى رأَوا حِراءً بَيْنَهما))[٢].

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّقديرُ: فأعرَضَ الكُفَّارُ عن آيةِ انشِقاقِه، وقالوا: سِحرٌ، مع عِلْمِهم بأنَّه دالٌّ قَطْعًا على صِدقِ مَن انشَقَّ لتَصديقِه؛ عَطَف عليه الإعلامَ بحالِهم في المُستَقبَلِ؛ فَطمًا لِمَن يَطلُبُ مِنَ المُؤمِنينَ إجابةَ مُقتَرَحٍ مِن مُقتَرَحاتِهم؛ رجاءَ إيمانِهم، فقال[٣]:

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾.

أي: وإنْ يَرَ مُشرِكو قُرَيشٍ عَلامةً باهِرةً تَدُلُّهم على صِدقِ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعرِضوا عن الإيمانِ بها، ويَقولوا مُنكِرينَ لها: هذا الَّذي يُرينا محمَّدٌ مِنَ المُعجِزاتِ -كانشِقاقِ القَمَرِ- سِحرٌ ذاهِبٌ باطِلٌ لا قَرارَ له، وخيالٌ لا حقيقةَ له[٤]!

= وقال الواحدي: (إلَّا ما روى عثمانُ بنُ عطاءٍ عن أبيه أنَّه قال: معناه: وسيَنشَقُّ القمرُ. وهو مَحجوجٌ بإجماعِ المفسِّرينَ على خلافِه، وبالأخبارِ المتظاهرةِ في انشقاقِ القمرِ). ((البسيط)) (٢١/ ٨٩).

(١) رواه البخاري (٣٦٣٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) رواه البخاري (٣٨٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن =

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۝٣﴾.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

أي: وكَذَّبوا بالحَقِّ، واتَّبَعوا ما يَشتَهونَه ويَختارونَه مِنَ الباطِلِ بلا دَليلٍ ولا

= كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٣، ٢٦٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ؛ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهبٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن أبي زَمَنين، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

وقيل: إنَّ المرادَ به: دائمٌ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والخازن، وابنُ جُزَي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٧٧).

وقيل: المرادُ: شديدٌ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١).

قال ابنُ جُزَي: (قيل: شديدٌ. وهو على هذا المعنى مِن المِرَّةِ، وهي القُوَّةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ: مُحكَمٌ شديدٌ قويٌّ: الضَّحَّاكُ، وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٧).

قال الفراءُ: (قال بعضُهم: سِحْرٌ يُشبِهُ بعضُه بعضًا). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٠٤).

وقال السمعاني: (فيحتمِلُ أن يكونَ معناه: فِعلُه هذا في السِّحرِ يُشبِهُ سائرَ أفعالِه في السِّحرِ. ويحتملُ أنَّ معناه: سِحرُه يُشبِهُ سِحرَ موسى وعيسى وغَيرِهما). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٧).

بُرهانٍ[(١)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾.

أي: وكُلُّ أمرٍ لا بُدَّ أن يَستَقِرَّ في نهايتِه إلى غايةٍ في الدُّنيا أو في الآخِرة؛ فالحَقُّ ثابِتٌ، والباطِلُ زائِلٌ، وأهلُ الخَيرِ يَستَقِرُّونَ في الجنَّةِ، وأهلُ الشَّرِّ يَستَقِرُّونَ في النَّارِ[(٢)].

قال تعالى: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: ولقد جاء مُشرِكي قُرَيشٍ مِنَ الأنباءِ ما فيه زَجرٌ لهم وانتِهاءٌ يَردَعُهم عن الكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).=

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾.

أي: حِكمةٌ تامَّةٌ كامِلةٌ -قد بَلَغَت الغايةَ، فلا نَقْصَ فيها ولا خَلَلَ-، واصِلةٌ إلى المقصودِ منها(١).

= قيل: الأنباءُ هنا هي أخبارُ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ لرُسُلِها، وما أصابهم مِنَ الهلاكِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

قال ابنُ عاشور: (أي: جاءهم في القُرآنِ مِن أنباءِ الأُمَمِ ما فيه مُزدَجَرٌ لهؤلاء. أو أُريدَ بالأنباءِ: الحُجَجُ الوارِدةُ في القُرآنِ، أي: جاءهم ما هو أشَدُّ في الحُجَّةِ مِن انشِقاقِ القَمَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

وقيل: يدخُلُ في المرادِ بالأنباءِ: ما ورد في القُرآنِ مِن المواعِظِ والقَصَصِ والبَراهينِ ومَثُلاتِ الأُمَمِ الكافِرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال الرَّسْعَني: (﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ بدَلٌ من «ما»، أو خَبَرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: هو حِكمةٌ تامَّةٌ قد بَلَغت الغايةَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١١).

قيل: المرادُ بالحِكمةِ البالِغةِ: القُرآنُ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

قال البغوي: (﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾، يعني: القُرآنُ حِكمةٌ تامَّةٌ قد بلغت الغايةَ في الزَّجْرِ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢). =

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

أي: فما تَنفَعُهم النُّذُرُ وهم مُعرِضونَ عن الآياتِ[١].

قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾.

= وقال الواحدي: (﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: ما أتاهم مِن أخبارِ مَنْ قَبْلَهم حِكمةٌ بالِغةٌ تامَّةٌ ليس فيها نُقصانٌ، أي: القُرآنُ؛ وذلك أنَّ تلك الأخبارَ قُصَّت عليهم في القُرآنِ). ((الوجيز)) (ص: ١٠٤٦).

وذكر الرَّازيُّ وُجوهًا؛ منها: أنَّ المرادَ: شأنُ السَّاعةِ وعَلاماتُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: في هدايتِه تعالى لِمَن هَداه، وإضلالِه لِمَن أضَلَّه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ معنى ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: تامَّةٌ وكامِلةٌ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

وقيل: المرادُ: واصِلةٌ إلى الغَرَضِ المقصودِ منها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملة: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابنُ جرير: (في «مَا» الَّتي في قَولِه: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ وجهانِ؛ أحَدُهما: أن تكونَ بمعنى الجَحدِ، فيكونَ -إذا وُجِّهَتْ إلى ذلك- معنى الكلامِ: فليسَت تُغْني عنهم النُّذُرُ، ولا يَنتَفِعونَ بها؛ لإعراضِهم عنها، وتكذيبِهم بها. والآخَرُ: أن تكونَ بمعنى: «أنَّى»، فيكونَ معنى الكلامِ إذا وُجِّهَت إلى ذلك: فأيَّ شَيءٍ تُغْني عنهم النُّذُرُ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦).

وقال الشوكاني: (والنُّذُرُ جمعُ نذيرٍ، بمعنَى المُنْذِرِ، أو بمعنَى الإنذارِ على أنَّه مَصدَرٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بان أنَّ المكذِّبينَ لا حيلةَ في هداهم؛ لم يَبْقَ إلَّا الإعراضُ والتَّولِّي عنهم، فقال(١):

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عن هؤلاء المكذِّبينَ المُعانِدينَ(٢).

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اقترابَ السَّاعةِ بالإجابةِ إلى بَعضِ مُقتَرَحاتِهم، تطَلَّعَت النُّفوسُ إلى وَصفِ السَّاعةِ؛ فأجاب عن ذلك على سَبيلِ الاستِئنافِ بذِكرِ ظَرْفِها، وذِكرِ ما يقَعُ فيه مِنَ الأهوالِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (هذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَطمينٌ له بأنَّه ما قَصَّر في أداءِ الرِّسالةِ، ولا تعَلُّقَ لهذه الآيةِ بأحكامِ قِتالِهم؛ إذْ لم يكن السِّياقُ له، ولا حدَثَت دواعيه يومَئذٍ؛ فلا وَجْهَ للقَولِ بأنَّها مَنسوخةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦).

قال الواحدي: (وهاهنا وقْفُ التَّمام). ((البسيط)) (٢١/ ٩٤).

قال أبو عَمرٍو الدَّاني: (﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تامٌّ. وقال ابنُ الأنباري: غيرُ تامٍّ. وليس كما قال؛ لأنَّ جميعَ أهلِ التَّفسيرِ يَجعلَون العاملَ في الظَّرفِ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ [القمر: ٧]. والمعنى عندَهم على [التَّقديمِ و] التَّأخيرِ، والتَّقديرُ: يَخرُجون مِن الأجْداثِ يومَ يَدْعُ الدَّاعِ، فإذا كان كذلك فالتَّمامُ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾). ((المكتفى في الوقف والابتدا)) (ص: ٢٠٧). ويُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٩).

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾.

أي: يومَ يَدعو داعي اللهِ النَّاسَ إلى مَوقِفٍ فَظيعٍ، شَديدِ البَلاءِ، كَثيرِ الأهوالِ، لم يُشاهِدِ النَّاسُ له نظيرًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١، ٤٢].

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن دُعاءَه بما هال أمرُه؛ بَيَّنَ حالَ المَدْعُوِّينَ؛ زيادةً في الهَولِ، فقال[٢]:

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم والحالُ أنَّ أبصارَهم ذَليلةٌ خاضِعةٌ؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وفَزَعِهم[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦-١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال القرطبي: (﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ العامِلُ في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾، أو ﴿خُشَّعًا﴾، أو فِعلٌ مُضمَرٌ تَقديرُه: واذكُرْ يَومَ. وقيل: على حَذفِ حَرفِ الفاءِ وما عَمِلَت فيه مِن جوابِ الأمرِ، تقديرُه: فتوَلَّ عنهم؛ فإنَّ لهم يومَ يدعو الدَّاعي. وقيل: توَلَّ عنهم -يا محمَّدُ-؛ فقد أقمْتَ الحُجَّةَ، وأبصِرْهم يومَ يدعو الدَّاعي. وقيل: أي: أعرِضْ عنهم يومَ القيامةِ، ولا تسألْ عنهم وعن أحوالِهم؛ فإنَّهم يُدْعَونَ إلى شيءٍ نُكُرٍ، ويَنالُهم عذابٌ شديدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩).

وقال أبو حيَّان: (الدَّاعِ: هو إسرافيلُ، أو جِبرائيلُ، أو مَلَكٌ غيرُهما موكَّلٌ بذلك). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ * أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ [النازعات: ٨، ٩].

﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِنَ القُبورِ، فيَتوجَّهونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وكَثرتِهم جَرادٌ مُنتَشِرٌ(١).

= (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: يعني: ذليلةً خاضعةً أبصارُهم عِندَ مُعايَنةِ العَذابِ. وقال أهل المعاني: وُصِفَت الأبصارُ بالخُشوعِ؛ لأنَّ ذِلَّةَ الذَّليلِ وعِزَّةَ العَزيزِ تَتبيَّنُ في نَظَرِه). ((البسيط)) (٢١/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابن جُزَي: (شبَّههم بالجرادِ في خروجِهم مِن الأرضِ، فكأنَّه استِدلالٌ على البعثِ، كالاستِدلالِ بخروجِ النَّباتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣).

وقال ابن جرير: (كأنَّهم في انتِشارِهم وسَعيِهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ جَرادٌ مُنتَشِرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٨).

وقال ابن كثير: (﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ أي: كأنَّهم في انتِشارِهم وسُرعةِ سَيرِهم إلى مَوقِفِ الحسابِ إجابةً للدَّاعي ﴿جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ في الآفاقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).

وقال الشوكاني: (كأنَّهم لكثرتِهم واختِلاطِ بعضِهم ببعضٍ ﴿جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، أي: مُنبَثٌّ في الأقطارِ، مُختلِطٌ بعضُه ببعضٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٧).

وقال الرَّسْعَني: (كأنَّهم في كثرتِهم واضْطِرابِهم وتمَوُّجِهم جَرادٌ مُنبَثٌّ في كلِّ مكانٍ، ليست له جِهةٌ يَقصِدُها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١٤).

وقال البِقاعي: (كأنَّهم في كثرتِهم، وتَراكُمِ بعضِهم على بعضٍ مِن كبيرِهم وصغيرِهم، وضعيفِهم وقَويِّهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠١).

وذكر ابن عاشور أنَّ التَّشبيهَ في الاكتِظاظِ، واستِتارِ بعضِهم ببعضٍ مِن شدَّةِ الخَوفِ، بالإضافةِ =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الانتِشارُ قد يكونُ على وَجهِ المَهَلِ والوَقارِ؛ قال مُبَيِّنًا أنَّ الأمرَ على خِلافِ ذلك؛ زيادةً في هَولِ ذلك اليَومِ، وتَقريرًا لِما تقَدَّمَ مِن وَصفِه[1]:

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم مُقبِلينَ مُسرِعينَ إلى الدَّاعي؛ تلبيةً لِندائِه[2].

كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨].

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

= إلى الكثرةِ والتَّحرُّكِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

قال القرطبي: (﴿مُهْطِعِينَ﴾ معناه: مُسرِعينَ... الضَّحَّاكُ: مُقبِلينَ. قَتادةُ: عامِدينَ. ابنُ عبَّاسٍ: ناظِرينَ. عِكْرِمةُ: فاتِحينَ آذانَهم إلى الصَّوتِ. والمعنى مُتقارِبٌ؛ يُقال: هَطَع الرَّجُلُ يَهطَعُ هُطوعًا: إذا أقبَلَ على الشَّيءِ ببَصَرِه لا يُقلِعُ عنه، وأهطَعَ: إذا مَدَّ عُنُقَه وصَوَّبَ رأسَه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٢/ ٣٩٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن حالَ الكُلِّ؛ حَصَرَ حالَ المُبطِلينَ، فقال[١]:

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

أي: يقولُ الكافِرونَ باللهِ يومَ القيامةِ: هذا يومٌ في غايةِ العُسْرِ والصُّعوبةِ والشِّدَّةِ[٢].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ هذا بالنِّسبةِ للقَريبينَ مِن مَكَّةَ؛ كأهلِ الجزيرةِ مثلًا، أمَّا البَعيدونَ فقد لا يَرَونَه، وكما نعلَمُ الآنَ أنَّ اللَّيلَ هنا يكونُ نَهارًا في مكانٍ آخَرَ، أو لوجودِ غيومٍ وضبابٍ كثيرٍ يَمنَعُ الرُّؤيةَ؛ ولهذا لا يُمكِنُ أبدًا لأيِّ عاقِلٍ أنْ يُنكِرَ انشِقاقَ القَمَرِ انشقاقًا حِسِّيًّا لأنه لم يُذْكَرْ في تاريخِ اليونانِ! ولم يُذْكَرْ في تاريخِ الهندِ! ولم يُذْكَرْ في كذا وكذا! هذا ليس حجَّةً يَبطُلُ به ما ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ وغَيرِهما مِن أنَّ القمرَ انشَقَّ فِعلًا انشِقاقًا حِسِّيًّا، ونحن نؤمِنُ بأنَّ القادِرَ على أنْ يَطويَ السَّمَواتِ بيَمينِه كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ قادِرٌ على أنْ يَفْلُقَ القَمرَ فِلْقتَينِ، ولا شَيءَ يُعْجِزُهُ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]؛ ولهذا لا وَجْهَ لإنكارِ مَن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

أنكَر ذلك ممَّن يَنتَسِبونَ إلى الإسلامِ، ويقولونَ: إنَّ الأفلاكَ السَّماويَّةَ لا يُمكِنُ أنْ تتغيَّرَ! نقولُ: اللهُ أكبَرُ! مَنِ الَّذي خَلَقَ الأفلاكَ السَّماويَّةَ؟ أليس اللهَ؟! بلى، إذنْ هو قادِرٌ على أنْ يُغيِّرَها ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] [يس: ٨٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ ذَكَر اللهُ تعالى انشِقاقَ القَمَرِ، وبَيَّن أنَّ اللهَ فعَلَه، وأخبَر به؛ لحِكمتَينِ عَظيمتَينِ؛ إحداهما: كَونُه مِن آياتِ النُّبُوَّةِ لَمَّا سَأَلَه المُشرِكونَ آيةً، فأراهم انشِقاقَ القمرِ. والثَّانيةُ: أنَّه دَلالةٌ على جَوازِ انشقاقِ الفَلَكِ، وأنَّ ذلك دليلٌ على ما أخبَرَتْ به الأنبياءُ مِن انشقاقِ السَّمَواتِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ * وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ * وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ * وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ * حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، فذَكَر اقتِرابَ السَّاعةِ، وانشِقاقَ القَمَرِ، وجَعَل الآيةَ في انشِقاقِ القَمَرِ دونَ الشَّمسِ وسائرِ الكواكبِ؛ لأنَّه أقرَبُ إلى الأرضِ مِن الشَّمسِ والنُّجوم، وكان الانشِقاقُ فيه دونَ سائرِ أجزاءِ الفَلَكِ؛ إذْ هو الجِسمُ المُستنيرُ الَّذي يَظهَرُ فيه الانشِقاقُ لكُلِّ مَن يَراه ظُهورًا لا يُتمارَى فيه، وأنَّه نَفْسَه إذا قَبِل الانشِقاقَ فقَبولُ مَحلِّه أَولى بذلك، وقد عايَنَه النَّاسُ وشاهَدوه، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بهذه السُّورةِ في المجامِعِ الكِبارِ، مِثلُ: صَلاةِ الجُمُعةِ والعيدَينِ؛ لِيُسمِعَ النَّاسَ ما فيها مِن آياتِ النُّبُوَّةِ ودلائِلِها، والاعتِبارِ بما فيها. وكُلُّ النَّاسِ يُقِرُّ بذلك ولا يُنكِرُه؛ فعُلِمَ أنَّ انشِقاقَ القَمَرِ كان معلومًا عندَ النَّاسِ عامَّةً، وفي الحديثِ ((أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٢). ويُنظر أيضًا: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٢٩٩) و(٨/ ٥٦٤).

عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سأل أبا واقدٍ اللَّيثيَّ: ما كان يَقرَأُ به رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأضحى والفِطرِ؟ فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] و ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[١]. ومعلومٌ بالضَّرورةِ في مُطَّرِدِ العادةِ أنَّه لو لم يكُنِ انشَقَّ لَأسرعَ المؤمِنونَ به إلى تكذيبِ ذلك، فضلًا عن أعدائِه الكُفَّارِ والمنافقينَ، ومعلومٌ أنَّه كان مِن أحرَصِ النَّاسِ على تصديقِ الخَلقِ له، واتِّباعِهم إيَّاه، فلو لم يكُنِ انشَقَّ لَمَا كان يُخبِرُ به ويَقرَؤُه على جميعِ النَّاسِ، ويَستَدِلُّ به ويَجعَلُه آيةً له[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ التَّكذيبُ واتِّباعُ الهَوى قَرينانِ؛ فإذا حَصَل اتِّباعُ الهوى فمِن شُؤمِه يَحصُلُ التَّكذيبُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُلبِّسُ على قَلبِ صاحِبِه حتَّى لا يَستَبصِرَ الرُّشدَ، أمَّا اتِّباعُ الرِّضا فمَقْرونٌ بالتَّصديقِ؛ لأنَّ اللهَ ببَركاتِ اتِّباعِ الحَقِّ يَفتَحُ عَينَ البَصيرةِ، فيَحصُلُ التَّصديقُ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌ﴾ دليلٌ على أنَّ القرآنَ -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ- غايةُ كُلِّ حُجَّةٍ، وفاتِقُ كلِّ لُبْسَةٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أنَّه ما مِن شَيءٍ يَحكُمُ اللهُ تعالى به إلَّا وهو حِكمةٌ عَظيمةٌ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أنَّ خَفْضَ البَصَرِ مِن تمامِ الخُشوعِ[٦].

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٧).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٤).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣).
(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٨).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ إجازةُ تَشبيهِ النَّاسِ بغَيرِهم، وفي ذلك حُجَّةٌ للشُّعراءِ، إذا لم يَكذِبوا كَذِبًا مَحْضًا لا تأويلَ فيه[١]، ولم يكُنْ على سبيلِ الاحتِقارِ أو السُّخريةِ، أو التَّنقُّصِ لِخَلقِ اللهِ.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «يقولُ النَّاسُ»؛ لأنَّ هذا اليومَ العَسِرَ لا شكَّ أنَّه في حَدِّ ذاتِه عَسِرٌ شديدٌ عظيمٌ، ولكِنَّه على الكافِرينَ عَسيرٌ، وعلى المؤمِنينَ يَسيرٌ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠]، وأمَّا على المؤمِنينَ فهو يَسيرٌ[٢]، وبقَدْرِ ما يكونُ الإيمانُ عند العبدِ يكونُ اليُسرُ في ذلك اليَومِ؛ لأنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العَمَلِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾

- تَصديرُ السُّورةِ بقَولِه: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ للاهتِمامِ بالمَوعظةِ؛ إذْ قد تَقرَّرَ المَقصودُ مِن تَصديقِ المُعجِزةِ، فجُعِلَت تلك المُعجِزةُ وَسيلةً للتَّذكيرِ باقترابِ السَّاعةِ على طَريقةِ الإدماجِ[٤]؛ بمُناسَبةِ أنَّ القمَرَ كائنٌ مِن

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢٥٨).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغَرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعَلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غَرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغَرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ =

الكائناتِ السَّماويَّةِ ذاتِ النِّظامِ المُسايِرِ لنَظامِ الجوِّ الأرضيِّ، فلمَّا حدَثَ تَغيُّرٌ في نِظامِه لم يكُنْ مألوفًا؛ ناسَبَ تَنبيهُ النَّاسِ للاعتبارِ بإمكانِ اضمِحلالِ هذا العالَمِ، وكان الفِعلُ الماضي مُستعمَلًا في حَقيقتِه[١].

- قولُه: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ بمعْنى قَرُبَت، وزِيادةُ المبْنى تدُلُّ على زِيادةِ المعْنى، وهنا ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ فيها زِيادةُ المبْنى على (قَرُبَت)، فيَدُلُّ على أنَّ القربَ قريبٌ جدًّا، فمعْنى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أي: قَرُبَت جِدًّا[٢]. فقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أبلَغُ من قَرُبَت، كما أنَّ (اقتدَرَ) أبلَغُ مِن (قَدَرَ)[٣].

والاقتِرابُ أصْلُه صِيغةُ مُطاوَعةٍ، أي: قَبولُ فِعلِ الفاعِلِ، وهو هنا للمُبالَغةِ في القُرْبِ، فإنْ حُمِلَ على حَقيقةِ القُربِ فهو قُرْبٌ اعتباريٌّ، أي: قُرْبُ حُلولِ السَّاعةِ فيما يأْتي مِن الزَّمانِ قُرْبًا نِسبيًّا بالنِّسبةِ لِما مَضى مِن الزَّمانِ ابتِداءً مِن خلْقِ السَّماءِ والأرضِ. وفائدةُ هذا الاعتِبارِ أنْ يُقبِلَ النَّاسُ على نَبْذِ الشِّركِ، وعلى الاستِكثارِ مِن الأعمالِ الصَّالحاتِ، واجتِنابِ الآثامِ؛ لقُرْبِ يومِ الجَزاءِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ الخبَرُ مُستعمَلٌ في لازمِ مَعناه، وهو المَوعظةُ إنْ كانت الآيةُ نزَلَت بعْدَ انشقاقِ القمَرِ؛ لأنَّ عِلْمَهم بذلك حاصلٌ، فلَيسوا بحاجةٍ

= فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفِرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفِرادِ بالحَمْد. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٨، ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٠، ١٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤).

إلى إفادتِهم حكْمَ هذا الخبَرِ، وإنَّما هم بحاجةٍ إلى التَّذكيرِ بأنَّ مِن أماراتِ حُلولِ السَّاعةِ أنْ يقَعَ خسْفٌ في القمَرِ بما تَكرَّرت مَوعظتُهم به؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧، ٨] الآيةَ؛ إذ ما يُؤمِّنُهم أنْ يكونَ ما وقَعَ مِن انشِقاقِ القمَرِ أمارةً على اقتِرابِ السَّاعةِ، فما الانشقاقُ إلَّا نوعٌ مِن الخسْفِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَذييلًا للإخبارِ بانشقاقِ القمَرِ، فيَكونَ المُرادُ بـ﴿ءَايَةً﴾ في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ القمَرَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ كلامًا مُستأنَفًا مِن ذِكرِ أحوالِ تَكذيبِهم ومُكابرتِهم، وعلى كِلا الوجْهينِ فإنَّ وُقوعَ ﴿ءَايَةً﴾ -وهو نَكرةٌ- في سِياقِ الشَّرطِ يُفيدُ العُمومَ(٢).

- وجِيءَ بهذا الخبرِ في صُورةِ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا دَيدنُهم ودأْبُهم(٣).

- وضَميرُ ﴿يَرَوْا۟﴾ عائدٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ دالٍّ عليه المَقامُ، وهم المُشرِكون(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، هذا إخبارٌ عن حالِهم فيما مَضَى، بعْدَ أنْ أخبَرَ عن حالِهم في المُستقبَلِ بالشَّرطِ الَّذي في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ [القمر: ٢]، ومُقابَلةُ ذلك بهذا فيه شِبهُ احتِباكٍ(٥)؛ كأنَّه قِيل: وإنْ يَرَوا آيةً يُعرِضوا ويَقولوا: سِحرٌ، وقد رَأَوُا الآياتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧١، ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، =

وأعْرَضوا وقالوا: سِحرٌ مُستمِرٌّ، وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءَهُم، وسيُكذِّبون ويتَّبعون أهواءَهُم[(١)].

- وعُطِفَ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ عطفَ العِلَّةِ على المَعلولِ؛ لأنَّ تَكذيبَهم لا دافعَ لهم إليه إلَّا اتِّباعُ ما تَهواهُ أنفُسُهم مِن بَقاءِ حالِهم على ما أَلِفُوه وعهِدُوه واشتُهِرَ دَوامُه[(٢)].

- وذِكرُ الفِعلينِ ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بلَفظِ الماضي؛ للإشعارِ بأنَّهما مِن عادتِهم القديمةِ، وللدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[(٣)].

- وجمَعَ الأهواءَ دونَ أنْ يقولَ: واتَّبعوا الهَوى، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]؛ حيثُ إنَّ الهَوى اسمُ جِنسٍ يَصدُقُ بالواحِدِ والمتعدِّدِ، فعُدِلَ عن الإفرادِ إلى الجمْعِ؛ لمُزاوَجةِ ضَميرِ الجمْعِ المُضافِ إليه، وللإشارةِ إلى أنَّ لهم أصنافًا مُتعدِّدةً مِن الأهواءِ: مِن حُبِّ الرِّئاسةِ، ومِن حسَدِ المؤمنينَ على ما آتاهم اللهُ، ومِن حُبِّ اتِّباعِ مِلَّةِ آبائِهم، ومِن مَحبَّةِ أصنامِهم، وإلْفٍ لعَوائدِهم، وحِفاظٍ على أنفَتِهم[(٤)].

- قولُه: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لإقناطِهم عمَّا علَّقوا به أمانيَهم الفارغةَ مِن عدَمِ استِقرارِ أمْرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حسبَما قالُوا:

= إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٢، ١٧٣).

سِحرٌ مُستمِرٌّ؛ ببَيانِ ثَباتِه ورُسوخِه، أي: وكلُّ أمْرٍ مِن الأمورِ مُستقِرٌّ، أي: مُنتَهٍ إلى غايةٍ يَستقِرُّ عليها لا مَحالةَ، ومِن جُملتِها أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَيصيرُ إلى غايةٍ يَتبيَّنُ عندَهَا حقِّيَّتُه، وعُلوُّ شَأْنِه. وإبهامُ المُستقَرِّ عليه؛ للتَّنبيهِ على كَمالِ ظُهورِ الحالِ، وعدَمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ به[١].

أو تَذييلٌ للكَلامِ السَّابقِ مِن قَولِه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ إلى قوله: ﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [القمر: ٢، ٣]، فهو اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ وجُملةِ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ [القمر: ٤]، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهو جارٍ مَجْرى المثَلِ[٢].

- و(كُلٌّ) مِن أسماءِ العُمومِ، و(أمْر): اسمٌ يدُلُّ على جِنسٍ عالٍ، ومِثلُه: شَيءٌ، ومَوجودٌ، وكائنٌ، وهو هنا يَعُمُّ الأمورَ ذواتِ التَّأثيرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ أمرَ الرَّسولِ لا بدَّ أنْ يستقِرَّ إلى غايةٍ، هي الظُّهورُ والنُّصرةُ، وأمرَ مكذبيه إلى الخذلانِ والشَّقاوةِ[٤].

- ومُستقِرٌّ: اسمُ فاعلٍ مِنِ استقَرَّ، أي: قَرَّ، والسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ؛ مِثلُ السِّينِ والتَّاءِ في استجابَ[٥].

- وقد تَضمَّنَ هذا التَّذييلُ بإجْمالِه تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَهديدًا للمُشرِكين، واستِدعاءً لنظَرِ المُتردِّدين[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).
(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾[(١)] [القمر: ٣].

- وهذه الجملةُ مؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ: باللَّامِ و(قد) في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ﴾، وبالقسَمِ المقدَّرِ الذي دلَّتْ عليه اللَّامُ[(٢)].

- و﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ بيانٌ ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾، قُدِّمَ على المُبيَّنِ، و(مِن) بيانيَّةٌ[(٣)].

- قولُه: ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ مَصدرٌ مِيمِيٌّ، وهو مُصاغٌ بِصيغةِ اسمِ المَفعولِ الَّذي فِعْلُه زائدٌ على ثَلاثةِ أحرُفٍ، ازدَجَره بمعْنى زجَرَه، ومادَّةُ الافتِعالِ فيه للمُبالَغةِ[(٤)].

- قولُه: ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه مانعٌ لهم مِن ارتكابِ ما ارتكَبُوه، والمعْنى: ما هو زاجرٌ لهم، فجُعِلَ الازدجارُ مَظروفًا فيه؛ للمُبالَغةِ في مُلازَمتِه له على طَريقةِ التَّجريدِ[(٥)]؛ كقولِه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أي: هو أُسوةٌ[(٦)].

و﴿مَا﴾ مَوصولةٌ أو مَوصوفةٌ، وهي فاعل بـ (جاءَ)، ومعناها: أنباءٌ وأخبارٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧٤، ١٧٥).

(٥) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذَّاتُ الواحدةُ ذاتَين؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

و﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ حالٌ منها(١).

٥- قولُه تعالَى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ لتَرتيبِ عدَمِ الإغناءِ على مَجيءِ الحكمةِ البالغةِ مع كَونِه مَظِنَّةً للإغناءِ(٢).

- وصِيغةُ المُضارِعِ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ عدَمِ الإغناءِ واستِمرارِه حسَبَ تَجدُّدِ مَجيءِ الزَّواجرِ واستمرارِه(٣).

- و(مَا) تَحتمِلُ النَّفيَ، أي: لا تُغْني عنهم النُّذرُ بعْدَ ذلك، وهذا تَمهيدٌ لقولِه: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ [القمر: ٦]، فالمُضارِعُ للحالِ والاستقبالِ، أي: ما هي مُغْنيةٌ، ويُفيدُ بالفَحوى أنَّ تلك الأنباءَ لم تُغْنِ عنهم فيما مَضى بطَريقِ الأَحْرى؛ لأنَّه إذا كان ما جاءهُم مِن الأنباءِ لا يُغْني عنهم مِن الانزجارِ شيئًا في الحالِ والاستقبالِ، فهو لم يُغْنِ عنهم فيما مَضى؛ إذ لو أغْنى عنهم لارْتَفَعَ اللَّومُ عليهم. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ (ما) استفهاميَّةً للإنكارِ، أي: ماذا تُفيدُ النُّذرُ في أمثالِهم المُكابِرين المُصِرِّين؟! أي: لا غَناءَ لهم في تلك الأنباءِ؛ فـ(ما) على هذا في مَحلِّ نصْبٍ على المَفعولِ المُطلَقِ لـ﴿تُغۡنِ﴾، وحُذِفَ ما أُضِيفَت إليه (ما)، والتَّقديرُ: فأيَّ غَناءٍ تُغْني النُّذرُ(٤)؟!

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٥)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾

- قولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تفريعٌ على ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[القمر: ٥]، أي: أعرِضْ عن مُجادلتِهم؛ فإنَّهم لا تُفيدُهم النُّذرُ، أي: إنَّك قد بلَّغْتَ، فما أنت بمَسؤولٍ عن استجابتِهم، وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

وقيل: قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: لعِلْمِك أنَّ الإنذارَ لا يُغْني فيهم، فالفاءُ نَتيجةٌ للكَلامِ السَّابقِ، وفي مَدخولِها معْنى المُتارَكةِ والمُوادَعةِ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا أخبَرَ عن المُعانِدين أنَّه بلَغَ إعراضُهم وتَمرُّدُهم بحيث إنْ يَرَوا آيةً يَقولوا: سِحرٌ مُستمِرٌّ، وكرَّرَ المعْنى بقولِه: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ وقولَهم: سِحرٌ مُستمِرٌّ، تَكذيبٌ ومُتابَعةٌ للهوَى، ثمَّ جاء بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ جُملةً قَسَميَّةً حالًا مُقرِّرةً لجِهةِ الإشكالِ، أي: يُكذِّبون والحالُ أنَّه جاءتْهم حِكمةٌ بالغةٌ، ثمَّ سجَّلَ عِنادَهم بقولِه: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ -قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: بعْدَ أنِ استعْلَمْتَ حالَهم وأنَّهم لا يُؤمِنون البتَّةَ، فتولَّ عنهم وأعرِضْ عن الإنذارِ؛ لأنَّ الإنذارَ إنَّما يُفيدُ إذا انتفَعَ به المُنذَرُ(٢).

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الأمْرَ بالتَّولِّي مُؤْذِنٌ بغضَبٍ ووَعيدٍ، فمِن شأْنِه أنْ يُثيرَ في نفْسِ السَّامعِ تَساؤُلًا عن مُجمَلِ هذا الوعيدِ، وهذا الاستئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْن جُملةِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ [القمر: ٤] وجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: ٩]، وإذ قد كان المُتوعَّدُ به شيئًا يَحصُلُ يومَ القيامةِ قُدِّمَ الظَّرفُ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٢١).

عامِلِه -وهو ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾-؛ ليَحصُلَ بتَقديمِه إجمالٌ يُفصِّلُه بَعضَ التَّفصيلِ ما يُذكَرُ بعْدَه، فإذا سمِعَ السَّامعُ هذا الظَّرفَ، علِمَ أنَّه ظرْفٌ لأهوالٍ تُذكَرُ بعْدَه هي تَفصيلُ ما أجْمَلَه قولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مِن الوعيدِ، بحيث لا يَحسُنُ وقْعُ شَيءٍ ممَّا في هذه الجُملةِ هذا المَوقعَ غيرُ هذا الظَّرْفِ، ولولا تَقديمُه لَجاء الكلامُ غيرَ مَوثوقِ العُرى، وانظُرْ كيف جمَعَ فيما بعْدُ قولُه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ كثيرًا مِن الأهوالِ آخِذٌ بَعضُها بحُجَزِ بَعضٍ بحُسْنِ اتِّصالٍ يَنقُلُ كلٌّ منها ذِهنَ السَّامعِ إلى الَّذي بعْدَه، مِن غيرِ شُعورٍ بأنَّه يُعدِّدُ له أشياءَ[١].

- وعُدَّ في قولِه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ سَبعةٌ مِن مَظاهرِ الأهوالِ:

أوَّلُها: دُعاءُ الدَّاعي؛ فإنَّه مُؤْذِنٌ بأنَّهم مُحضَرونَ إلى الحسابِ؛ لأنَّ مَفعولَ ﴿يَدْعُ﴾ مَحذوفٌ، بتَقديرِ: يَدْعوهم الدَّاعي؛ لدَلالةِ ضَميرِ ﴿عَنْهُمْ﴾ على تَقديرِ المَحذوفِ.

الثَّاني: أنَّه يَدْعو إلى شَيءٍ عظيمٍ؛ لأنَّ ما في لَفظِ ﴿شَيْءٍ﴾ مِن الإبهامِ يُشعِرُ بأنَّه مَهولٌ، وما في تَنكيرِه مِن التَّعظيمِ يُجسِّمُ ذلك الهَولَ.

وثالثُها: وصْفُ ﴿شَيْءٍ﴾ بأنَّه ﴿نُّكُرٍ﴾، أي: مَوصوفٌ بأنَّه تُنكِرُه النُّفوسُ وتَكرَهُه.

ورابعُها: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: ذَليلةً يَنظُرونَ مِن طرْفٍ خَفيٍّ، لا تَثبُتُ أحداقُهم في وُجوهِ النَّاسِ، وهي نَظْرةُ الخائفِ المُفتضَحِ، وهو كِنايةٌ؛ لأنَّ ذِلَّةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦، ١٧٧).

الذَّليلِ وعِزَّةَ العزيزِ تَظهَرانِ في عُيونِهما.

وخامسُها: تَشبيهُهم بالجَرادِ المُنتشِرِ في الاكتِظاظِ واستتارِ بَعضِهم ببَعضٍ مِن شِدَّةِ الخوفِ -على قولٍ-، زيادةً على ما يُفيدُه التَّشبيهُ مِن الكثرةِ والتَّحرُّكِ، وهو تَشبيهٌ تَمثيليٌّ(١)؛ لأنَّه تَشبيهُ هَيئةِ خُروجِ النَّاسِ مِن القبورِ مُتراكِمينَ، بهَيئةِ خُروجِ الجَرادِ مُتعاظِلًا (يَركَبُ بَعضُه بَعضًا) يَسيرُ غيرَ ساكنٍ، وقد أفاد هذا التَّشبيهُ تَجْسيدَ الصُّورةِ وتَشخيصَها؛ فهذه الجُموعُ الخارجةُ مِن الأجداثِ في مِثلِ رجْعِ الطَّرْفِ تُشبِهُ الجَرادَ الَّذي اشتُهِرَ بانتشارِه واحتشادِه دونَ أنْ يكونَ له هدَفٌ مِن هذا الانتشارِ والاحتشادِ، وكذلك هذه الجُموعُ قد ألْجَمَها الخَوفُ، وعقَدَ الهولُ أفهامَها، وضرَبَ عليها رَواكِدَ مِن الحَيرةِ، وغشِيَها بأمواجٍ مِن الضَّلالةِ والرَّينِ، فهي تَسيرُ تَلبيةً لدَعوةِ الدَّاعِ دونَ أنْ تَعرِفَ لِمَ يَدْعوها، ولكنَّها تَعرِفُ بصُورةٍ مُبْهَمةٍ أنَّه يَدْعوها إلى شَيءٍ نُكُرٍ لا تَكتَنِهُ حَقيقتَه، ولا تَعرِفُ فَحواهُ.

وسادسُها: وصْفُهم بمُهطِعينَ، والمُهطِعُ: الماشي سَريعًا مادًّا عُنُقَه، وهي مِشْيَةُ مَذعورٍ غيرِ مُلْتفِتٍ إلى شَيءٍ.

وسابعُها: قولُهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، وهو قولٌ مِن أثَرِ ما في نُفوسِهم مِن خَوفٍ، و﴿عَسِرٞ﴾: صِفةٌ مُشبَّهةٌ مِن العُسْرِ، وهو الشِّدَّةُ والصُّعوبةُ، ووصْفُ اليومِ بـ﴿عَسِرٞ﴾

(١) التشبيه: هو إلحاقُ شيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: إثباتُ حُكمٍ للمُشبَّه من أحكام المُشبَّه به. وينقسمُ التشبيهُ عِدَّةَ تقسيماتٍ باعتبارات عِدَّة: فمنه: التشبيه المفرَد. ومنه: التشبيه المركَّب: هو الذي يكون وجهُ الشبه فيه مُنتزَعًا من متعدِّد، أو من أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ مركَّب من أحوال الحمار. وخصَّ البيانيون لفظ «التمثيل» بالتشبيه المركَّب. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

باعتِبارِ كَونِه زَمانًا لأُمورٍ عَسِرةٍ شَديدةٍ مِن شِدَّةِ الحسابِ، وانتِظارِ العَذابِ(١).

- وفي قولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ شبَّهَهم بالجَرادِ المنتشِرِ، أي: كأنَّهم مِن كَثرتِهم، وتموُّجِ بعضِهم في بعضٍ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وسُرعةِ سَيرِهم إلى مَوقفِ الحِسابِ إجابةً للدَّاعي جرادٌ منتشِرٌ في الآفاقِ، مُسرِعينَ لا يُخالِفونَ ولا يَتأخَّرونُ(٢).

- والجرادُ المنتشِرُ هو المُنبَثُّ في الأرضِ الَّذي لا يَدْري أين وجْهُه، ليس له طريقٌ قائمةٌ، لا يَعرِفُ كيف يَنْتهي، ولكنَّهم مُنتشِرونَ، وهذا مِن أدقِّ التَّشبيهاتِ؛ لأنَّ الجرادَ المنتشِرَ تَجِدُه يَذهَبُ يَمينًا ويَسارًا لا يَدْري أين يَذهَبُ؛ فهمْ سيَخرُجون مِن الأجداثِ على هذا الوجْهِ، بيْنَما هم في الدُّنيا لهم قائدٌ، ولهم أميرٌ، ولهم مُوجِّهٌ، يَعرِفون طَريقَهم، وإنْ كان طريقًا فاسدًا(٣).

- وفي إسنادِ القولِ المَذكورِ إلى الكُفَّارِ تَلويحٌ بأنَّ المؤمنينَ ليسُوا في تلك المَرْتبةِ مِن الشِّدَّةِ(٤).

- قولُه: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لوصْفِهم بهذا الوصْفِ الذَّميمِ، وفيه تَفسيرُ الضَّمائرِ السَّابقةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧، ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٨).

الآيات (٩-١٧)

﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ
فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ
قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد
تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ
فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾: أي: انتُهِر وزُجِر وأُوعِدَ، أو استُطيرَ جُنونًا، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على انتِهارٍ[(١)].

﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾: أي: كثيرٍ، سَريعِ الانصِبابِ، وأصلُ (همر): يدُلُّ على صَبٍّ وانصِبابٍ[(٢)].

﴿قُدِرَ﴾: أي: قُضِيَ، والقَدَرُ: قَضاءُ اللهِ تعالى الأشياءَ على مَبالِغِها ونهاياتِها الَّتي أرادَها لها، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).
قال ابن عثيمين: (الزَّجرُ هو النَّهرُ بشدَّةٍ وعُنفٍ، والدَّالُ هنا مُنقلِبةٌ عن تاءٍ، وقد قال العلماءُ: إنَّ زيادةَ المبنى تدُلُّ على زيادةِ المعنى، والمعنى: أنَّه زجرٌ شديدٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠).

﴿أَلْوَٰحٍ﴾: أي: خَشَبٍ عَريضٍ، واللَّوحُ: واحِدُ ألواحِ السَّفينةِ[(١)].

﴿وَدُسُرٍ﴾: أي: مَساميرَ تُشَدُّ بها الألواحُ، وأصلُ (دسر): يدُلُّ على دَفعٍ شَديدٍ؛ لأنَّ المِسمارَ يُدفَعُ أبدًا حتَّى يَستويَ[(٢)].

﴿كُفِرَ﴾: أي: جُحِدَ، والكُفرُ في اللُّغةِ: سَترُ الشَّيءِ[(٣)].

﴿مُّدَّكِرٍ﴾: أي: مُتَذَكِّرٍ مُتَّعِظٍ، مُعتَبِرٍ خائفٍ، وأصلُه مُذْتَكِرٌ مُفْتَعِلٌ مِنَ الذِّكْرِ، فقُلِبَت التَّاءُ دالًا، وأُدْغِمَت الذَّالُ فيها، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[(٤)].

﴿وَنُذُرِ﴾: أي: إنذاري، وهو اسمٌ مِنَ الإنذارِ يقومُ مَقامَ المَصدَرِ، والإنذارُ: الإبلاغُ، ولا يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تَخويفٍ[(٥)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا عقوباتِ المكذِّبينَ في الأممِ السَّابقةِ: كذَّبَت قبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ قَومُ نوحٍ، فكذَّبوا نُوحًا، واتَّهَموه بالجُنونِ، وزجَروه عن دَعوتِهم، فدعا نوحٌ ربَّه قائِلًا: إنِّي مَغلوبٌ؛ فانتَصِرْ لي! فاستَجَبْنا لنُوحٍ دُعاءَه، ففَتَحْنا أبوابَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦).

السَّماء بماءٍ مُتدَفِّقٍ كثيرٍ شَديدٍ، وأنبَعْنا عُيونَ الماءِ مِنَ الأرضِ، فالتَقى الماءانِ: ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد كَتَبه اللهُ تعالى وقَضاه!

وحَمَلْنا نُوحًا على سَفينةٍ ذاتِ ألواحٍ ومَساميرَ، تجري تلك السَّفينةُ على الماءِ بمَرأًى وحِفظٍ مِنَّا؛ ثوابًا لنُوحٍ على صَبْرِه على أذى قَومِه وتكذيبِهم. ولقد تَرَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم عِبرةً وعِظةً لِمَن بعدَهم، وتَرَكْنا جنسَ السُّفنِ علامةً على كَمالِ قُدرةِ الله، وعِبرةً على ما جرَى لنوحٍ عليه السَّلامُ معَ قومِه، فهل مِن مُتذَكِّرٍ لِما قد فُعِل بتلك الأُمَّةِ الَّتي كفَرَت برَبِّها، وعَصَت رَسولَه؛ فيتَّعِظَ بذلك ويَعتَبِرَ؟ فكيف كان عذابي لأولئك الكُفَّارِ مِن قَومِ نُوحٍ، وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن بَعْدَهم مِنَ الكُفَّارِ؛ لِيَحذَروا أن يَحُلَّ بهم العَذابُ؟

ثُمَّ يقولُ الله تعالى مبيِّنًا مظاهرَ فضلِه ورحمتِه على هذه الأُمَّةِ: ولقد سَهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما فيه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شروعٌ في تَعدادِ بعضِ ما ذُكِر مِنَ الأنباءِ الموجِبةِ للازْدِجارِ، ونَوعُ تفصيلٍ لها وبيانٍ لعدمِ تأثُّرِهم بها؛ تقريرًا لِفَحوى قولِه تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[1] [القمر: ٥].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تبارك وتعالى حالَ المُكَذِّبينَ لِرَسولِه، وأنَّ الآياتِ لا تَنفَعُ فيهم، ولا تُجْدي عليهم شَيئًا؛ أنذَرَهم وخَوَّفَهم بعُقُوباتِ الأُمَمِ الماضيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٠).

المُكَذِّبةِ للرُّسُلِ، وكيف أهلَكَهم اللهُ وأحَلَّ بهم عِقابَه(١)؛ ففيها تهوينٌ وتَسليةٌ لقَلبِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ حالَه كحالِ مَن تقَدَّمَه(٢).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾.

أي: كذَّبَت قبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ قَومُ نوحٍ، فكذَّبوا عَبْدَنا نُوحًا حينَ أرسَلْناه إليهم(٣).

﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

أي: وقال قومُ نوحٍ عن رَسولِهم نوحٍ عليه السَّلامُ: هو مجنونٌ. وزجَروه بشدَّةٍ وعُنفٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٨، ٢٦٩).

قال البِقاعي: (﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: أعمَلوا أنفُسَهم في انتِهارِه وتوَعُّدِه وتَهديدِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٣).

وقال الشوكاني: (وقولُه: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ معطوفٌ على قالوا، أي: وزُجِرَ عن دَعْوَى النُّبُوَّةِ، وعن تَبْليغِ ما أُرْسِل به بأنواعِ الزَّجْرِ...، وقيلَ: إنَّه مَعْطوفٌ على مجنونٍ، أي: وقالوا: إنَّه ازدُجِر، أي: ازْدَجَرَتْه الجِنُّ وذَهَبَتْ بلُبِّه، والأوَّلُ أولَى. قال مُجاهِدٌ: هو مِنْ كلامِ اللهِ سُبحانَه، أخبَرَ عنه بأنَّه انتُهِر وزُجِر بالسَّبِّ وأنواعِ الأذَى. قال الرَّازيُّ: وهذا أصَحُّ؛ لأنَّ المقصودَ تقويةُ قلبِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم بذِكْرِ مَن تَقَدَّمه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَازْدُجِرَ﴾ قال المفسِّرون: زجَروه عن دعوتِه بالشَّتمِ والوعيدِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١٦).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فدعا نوحٌ ربَّه قائِلًا: إنَّ قَومي غَلَبوني بتمَرُّدِهم وكُفرِهم، وتَكذيبِهم وتخويفِهم؛ فانتَصِرْ لي منهم[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦].

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾.

أي: فاستَجَبْنا لنُوحٍ دُعاءَه على قَومِه، ففَتَحْنا أبوابَ السَّماء بماءٍ مُتدَفِّقٍ مُنصَبٍّ بكَثرةٍ وشِدَّةٍ[2].

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٩).

قال ابن جُزَي: (﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ عبارةٌ عن كثرةِ المطرِ، فكأنَّه يخرُجُ مِن أبوابٍ. وقيل: فُتِحَتْ في السَّماءِ أبوابٌ يومَئذٍ حقيقةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ القولَ الأوَّلَ لجمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤).

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾.

أي: وأنبَعْنا الماءَ بقُوَّةٍ وكَثرةٍ مِنَ الأرضِ(١).

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾.

أي: فالتَقى ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد كَتَبه اللهُ تعالى وقَضاه(٢)!

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿قَدْ قُدِرَ﴾: أنَّه أمرٌ مَكتوبٌ ومُقدَّرٌ مِنَ اللهِ تعالى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، واستظهره الشنقيطي، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال السعدي: (قد كَتَبه اللهُ في الأزَلِ وقَضاه؛ عُقوبةً لهؤلاء الظَّالِمينَ الطَّاغينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وقيل: المعنى: أنَّ ماءَ السَّماءِ وماءَ الأرضِ قَدَّرهما اللهُ، فكانا سواءً؛ لم يَزِدْ أحَدُهما على الآخَرِ.

وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٢).

وقال البِقاعي: (لَمَّا تقَرَّرَت هذه العَظَمةُ لهذه الواقِعةِ، فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّه صار جُزافًا، وزاد على الحَدِّ المأمورِ به؛ أشار إلى أنَّه بالنِّسبةِ إلى عَظمته في غايةِ الحَقارة، فقال: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ أي: مع كَونِه مَقدورًا عليه في كُلِّ وَقتٍ بغايةِ السُّهولةِ قد وَقَع تَقديرُه في الأزَلِ، فلم يَستَطِعْ أن يَزيدَ على ذلك قَطرةً فما فَوقَها، ولا أن يُهلِكَ غَيرَ مَن أمَرْناه بإهلاكِه، وأشار بالتَّخفيفِ إلى غايةِ السُّهولةِ في ذلك سُبحانَه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٥).

وقال ابن عاشور: (وُصِفَ الأمرُ بأنَّه ﴿قَدْ قُدِرَ﴾، أي: أُتقِنَ وأُحكِمَ بمِقدارٍ؛ يُقالُ: قَدَرَه -بالتَّخفيفِ-: إذا ضَبَطَه وعَيَّنَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣، ١٨٤).

أي: وحَمَلْنا نُوحًا على سَفينةٍ ذاتِ ألواحٍ مِن خَشَبٍ، وذاتِ مَسامِيرَ قد رُبِطَت بها تلك الألواحُ(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: ألواحُها: خشباتُها العريضةُ الَّتي منها جُمِعت. وفي الدُّسُرِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها المساميرُ، رواه الوالِبيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال قَتادةُ، والقُرَظيُّ، وابنُ زَيدٍ. وقال الزَّجَّاجُ: الدُّسُرُ: المساميرُ والشُّرُطُ [حبالٌ تُفْتَلُ مِن الخُوصِ] الَّتي تُشَدُّ بها الألواحُ... والثَّاني: أنَّه صَدْرُ السَّفينةِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يَدْسُرُ الماءَ، أي: يَدفَعُه، رواه العَوفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الحسَنُ وعِكْرِمةُ...

والثَّالثُ: أنَّ الدُّسُرَ: أضلاعُ السَّفينةِ، قاله مجاهدٌ.

والرَّابعُ: أنَّ الدُّسُرَ: طرَفاها وأصلُها، والألواحُ: جانِباها، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٧، ٨٨).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتِلٌ والكلبيُّ وجماعةُ المفسِّرينَ: يعني: المساميرَ والشُّروطَ، وكلَّ ما شُدَّتْ به السَّفينةُ). ((البسيط)) (٢١/ ٩٩، ١٠٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٩).

قال ابن عثيمين: (﴿وَدُسُرٍ﴾ أي: مسامير. وقيل: إنَّ الدُّسُرَ ما تُربَطُ به الأخشابُ، فيكونُ أعَمَّ من المساميرِ؛ لأنَّ الأخشابَ قد تُربَطُ بالمساميرِ وقد تُربَطُ بالحبالِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

أي: تجري سَفينةُ نُوحٍ على الماءِ بمَرأًى مِنَّا، وحِفظٍ ورعايةٍ مِنَّا[(١)].

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

أي: أغرَقْنا قومَ نُوحٍ وأنجَيْناه ومَن معه؛ ثوابًا لنُوحٍ على صَبْرِه على أذى قَومِه، وتَكذيبِهم وكُفْرِهم به[(٢)].

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزمخشري: (جعلَه مَكفورًا؛ لأنَّ النَّبيَّ نِعمةٌ مِنَ اللهِ تعالى ورَحمةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكان نوحٌ عليه السَّلامُ نِعمةً مَكفورةً!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥).

وقال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي ما قاله مجاهِدٌ، وهو أنَّ معناه: ففتَحْنا أبوابَ السَّماءِ بماءٍ مُنهَمِرٍ، وفجَّرْنا الأرضَ عُيونًا، فغرَّقْنا قَومَ نوحٍ، ونجَّيْنا نوحًا؛ عِقابًا مِن الله وثَوابًا للَّذي جحَدَ وكفَرَ؛ لأنَّ معنى الكفرِ: الجُحودُ، والَّذي جحَد أُلُوهَتَه ووحدانيَّتَه قومُ نوحٍ). وأجاز أيضًا المعنى الأوَّلَ المتقدِّمَ ذِكرُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٧، ١٢٨).

وظاهِرُ عبارةِ ابنِ كثيرٍ الجَمعُ بيْنَ المعنيَين، فقال: (أي: جزاءً لهم على كُفرِهم بالله، وانتِصارًا لنوحٍ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

قال الشوكاني: (﴿كُفِرَ﴾... قيل: هو اللهُ سُبْحانَه؛ فإنَّهم كَفَروا به، وجَحَدوا نِعْمَتَه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ الخبَرُ عن نجاتِه عليه السَّلامُ بحَمْلِه فيها؛ نَبَّه على آثارِها بقَولِه[(١)]:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾.

أي: ولقد تَرَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم عِبرةً وعِظةً لِمَن بعدَهم ليَنتَهوا عن الكُفرِ باللهِ والتَّكذيبِ برُسُلِه؛ كيلا تكونَ عاقِبتُهم مِثلَ عاقِبةِ قَومِ نُوحٍ، وأبقَيْنا جنسَ السُّفنِ علامةً على رحمةِ اللهِ وعنايتِه بخَلقِه، وكَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صَنعتِه، وعِبرةً على ما جرَى لنوحٍ معَ قومِه[(٢)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٢).

وممَّن ذهب إلى عَوْدِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ إلى سفينةِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرازي، وابن عادل، وابن عاشور، وهو ظاهرُ اختيارِ مقاتِلِ بنِ سُلَيمانَ، وابنِ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسَّمْعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨).

قال ابنُ عاشور: (أي: أبقَيْنا سفينةَ نوحٍ مَحفوظةً مِنَ البِلَى؛ لِتَكونَ آيةً يَشهَدُها الأُمَمُ الَّذين أُرسِلَت إليهم الرُّسُلُ، متى أراد واحِدٌ مِنَ النَّاسِ رُؤيتَها مِمَّن هو بجوارِ مكانِها؛ تأييدًا للرُّسُلِ، وتخويفًا بأوَّلِ عذابٍ عُذِّبَت به أمَّةٌ كَذَّبَت رَسولَها؛ فكانت حُجَّةً دائِمةً، مِثلُ ديارِ ثَمودَ، ثمَّ أخَذَت تتناقَصُ حتَّى بَقِيَ منها أخشابٌ شَهِدَها صَدرُ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ، فلم تضمَحِلَّ حتَّى رآها ناسٌ مِن جميعِ الأُمَمِ بعدَ نوحٍ، فتواتَرَ خبَرُها بالمشاهَدةِ؛ تأييدًا لتواتُرِ الطُّوفانِ بالأخبارِ المتواترةِ. وقد ذَكَر القرآنُ أنَّها استقَرَّت على جبَلِ الجُوديِّ، فمنه نزَلَ نوحٌ ومَن معه، وبَقِيَت السَّفينةُ هنالك لا ينالُها أحدٌ؛ وذلك مِن أسبابِ حِفظِها عن الاضمِحلالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦). =

= وقيل: المراد: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: ترَكْنا هذه الفَعْلةَ الَّتي فعَلْنا. وممَّن اختاره: البغويُّ، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٩).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾، قال بعضُ العلماءِ: إنَّه عائدٌ إلى هذه الفعلةِ العظيمةِ الَّتي فعَل بقَومِ نوحٍ. والمعنى: ولقد ترَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم آيةً لِمَن بَعْدَهم؛ لِيَنزَجِروا ويَكُفُّوا عن تكذيبِ الرُّسلِ؛ لئلا نَفعلَ بهم مِثلَ ما فعَلْنا بقَومِ نوحٍ، وكَوْنُ هذه الفَعلةِ آيةً نصَّ عليه تعالى بقولِه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢١].

وقال بعضُ العلماءِ: الضَّميرُ في ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ عائدٌ إلى السَّفينةِ، وكَونُ سفينةِ نوحٍ آيةً بيَّنه اللهُ تعالى في آياتٍ مِن كتابِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٨).

وقال الزَّجَّاجُ: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: ترَكْنا هذه الفَعْلةَ وأمْرَ سفينةِ نُوحٍ ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً؛ لِيُعتبَرَ بها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٨٨).

واستظهر ابنُ كثيرٍ أنَّ المعنى: ترَكْنا جِنسَ السُّفُنِ بيْنَ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

قال ابن تيميَّة: (﴿... وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فأخبَر أنَّه أبقى السُّفُنَ آيةً على قدرةِ الرَّبِّ، وعلى ما جرى لنوحٍ مع قَومِه). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (١/ ٤١٤، ٤١٥).

وقال السعدي: (أي: ولقد ترَكْنا قِصَّةَ نوحٍ مع قومِه آيةً يَتذكَّرُ بها المتذَكِّرونَ، على أنَّ مَن عصى الرُّسُلَ وعانَدَهم أهلَكَه اللهُ بعِقابٍ عامٍّ شَديدٍ، أو أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى السَّفينةِ وجِنسِها، وأنَّ أصلَ صَنعتِها تعليمٌ مِن اللهِ لعَبدِه نوحٍ عليه السَّلامُ، ثمَّ أبقى اللهُ تعالى صَنعتَها وجنسَها بيْنَ النَّاسِ؛ لِيَدُلَّ ذلك على رحمتِه بخَلقِه، وعنايتِه وكَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صَنعتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى حملِ الآيةِ على كِلا المعنيَينِ اللَّذينِ ذكَرَهما السعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: هذه الفعلةَ العظيمةَ، مِن جري السَّفينةِ على هذا الوجهِ، =

كما قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ لِما قد فُعِل بتلك الأُمَّةِ الَّتي كفَرَت برَبِّها، وعَصَت رَسولَه نُوحًا؛ فيتَّعِظَ بذلك ويَعتَبِرَ[1]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ١٦﴾.

أي: فكيف كان عذابي لأولئك الكُفَّارِ مِن قَومِ نُوحٍ؟ وكيف كان إنذاري[2]؟

= وإبقاءِ نَوعِها دالَّةً على ما لَنا مِن العظَمةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

قال الفرَّاءُ: (النُّذُرُ هاهنا مصدرٌ معناه: فكيفَ كان إنْذاري). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٠٧).

وقال ابنُ قتيبةَ: (﴿وَنُذُرِ﴾ جمعُ نَذيرٍ. ونذيرٌ بمعنى الإنذارِ، أي: فكيفَ كان عذابي وإنْذاري. ومثلُه النَّكيرُ بمعنَى الإنكارِ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٣٢).

وقال الرازي: (أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّه [أي: نُذُر] مصدرٌ هاهنا، أي: كيف كان عاقبةُ عذابي، وعاقبةُ إنذاري). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٠).

وقال الواحدي: (المعنى: كيف كان إنذاري إيَّاهم، إذ دعاهم نوحٌ إلى الإيمانِ فلمْ يؤمنوا، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سَهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به(١).

= وفي هذا تخويفٌ للمشركين). ((البسيط)) (٢١/ ١٠٢).

وقال أبو حيَّان: (﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: تهويلٌ لِمَا حلَّ بقومِ نوحٍ مِن العذابِ، وإعظامٌ له، إذ قد اسْتَأْصَل جميعَهم، وقَطَع دابِرَهم، فلم يَنْسُلْ منهم أحدٌ، أي: كيفَ كان عاقِبةُ إنذارِي؟). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥).

وقال ابن جرير: (وكيفَ كان إنذاري بما فعلْتُ بهم مِن العقوبةِ الَّتي أحْلَلْتُ بهم، بكفرِهم برَبِّهم، وتكذيبِهم رسولَه نوحًا عليه السَّلامُ مَن أنذَرْتُه به، وهذا سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِمُكَذِّبي رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قَومِه مِن قُرَيشٍ، وتحذيرٌ منه لهم، أنْ يَحِلَّ بهم على تماديهم في غَيِّهم، مِثلُ الَّذي حلَّ بقومِ نوحٍ مِن العذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠).

وقال السمرقندي: (يعني: كيفَ رأيْتَ عَذابي وإنذاري لِمَن أنذَرَهم الرُّسُلُ فلم يؤمِنوا؟). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وقال ابن كثير: (أي: كيفَ كان عذابي لِمَن كفَر بي وكذَّب رُسُلي ولم يتَّعِظْ بما جاءتْ به نُذُري؟ وكيفَ انتصرتُ لهم، وأخذْتُ لهم بالثَّأرِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

قال ابن عاشور: (معنى تيسيره يَرجِعُ إلى تيسيرِ ما يُرادُ مِن الكلامِ، وهو فَهْمُ السَّامِعِ المعانيَ الَّتي عَناها المتكلِّمُ به بدُونِ كُلْفةٍ على السَّامِعِ ولا إغلاقٍ، وهذا اليُسرُ يَحصُلُ من جانبِ الألفاظِ، وجانبِ المعاني.

فأمَّا من جانبِ الألفاظِ؛ فذلك بكَونِها في أعلى درَجاتِ فَصاحةِ الكلماتِ، وفصاحةِ التَّراكيبِ -أي: فصاحةِ الكلامِ-، وانتِظامِ مَجموعِها؛ بحيث يخِفُّ حِفظُها على الألسِنةِ.

وأمَّا مِن جانبِ المعاني؛ فبوُضوحِ انتزاعِها مِن التَّراكيبِ، ووَفرةِ ما تحتوي عليه التَّراكيبُ منها مِن مَغازي الغرَضِ المَسوقةِ هي له، وبتولُّدِ مَعانٍ مِن مَعانٍ أُخَرَ كلَّما كرَّر المتدبِّرُ تدَبُّرَه في =

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتبِرَ بما في القُرآنِ الكريمِ[(١)]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ عَبَّرَ هنا بما يُفهِمُ العِلَّةَ؛ لِيَحذَرَ السَّامِعُ وُقوعَ مِثلِ ذلك العَذابِ له إن وَقَع منه مِثلُ فِعلِ قَومِه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قوَّةٌ لرَجاءِ أهلِ الدِّينِ إذا لَقُوا في دينِ اللهِ مِحنةً؛ فإنَّ اللهَ يُهلِكُ عن قَريبٍ عَدُوَّهم، ويُمَكِّنُهم مِن ديارِهم وبِلادِهم، ويُورِثُهم ما كان إليهم[(٣)].

= فَهمِها، ووسائلُ ذلك لا يُحيطُ بها الوصفُ... ومِن أهمِّها: إيجازُ اللَّفظِ؛ لِيُسرِعَ تعلُّقُه بالحفظِ. وإجمالُ المَدلولاتِ؛ لِتَذهَبَ نُفوسُ السَّامِعينَ في انتِزاعِ المعاني منها كلَّ مَذهَبٍ يَسمَحُ به اللَّفظُ والغرَضُ والمَقامُ. ومنها: الإطنابُ بالبيانِ إذا كان في المعاني بعضُ الدِّقَّةِ والخَفاءِ. ويتأتَّى ذلك بتأليفِ نظمِ القرآنِ بلُغةٍ هي أفصَحُ لُغاتِ البشَرِ، وأسمَحُ ألفاظًا وتراكيبَ بوَفرةِ المعاني، وبكَوْنِ تراكيبِه أقْصى ما تَسمَحُ به تلك اللُّغةُ، فهو خِيارٌ مِن خيارٍ مِن خيارٍ، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨، ١٨٩).

وقال السعدي: (ولقد يسَّرْنا وسهَّلْنا هذا القرآنَ الكريمَ -ألفاظَه للحفظِ والأداءِ، ومعانيَه للفَهمِ والعِلمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ هذا التَّيسيرُ يُنبئُ بعِنايةِ اللهِ تعالى بالقُرآنِ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] تَبصِرةً للمُسلِمينَ؛ لِيَزدادوا إقبالًا على مُدارستِه، وتَعريضًا بالمُشرِكينَ عسى أن يَرعَوُوا عن صُدودِهم عنه[١].

٤- مَن تدَبَّر القُرآنَ الكريمَ جاعِلًا إيَّاه دليلًا على الحَقِّ فإنَّه لا بُدَّ أن يهتدِيَ للحَقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾، وتيسيرُه شاملٌ لتيسيرِ لَفظِه ومعناه، والعَمَلِ به، لكِنْ يحتاجُ إلى تذَكُّرٍ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ كُلُّ مَن أقبَلَ على القُرآنِ يَسَّرَ اللهُ عليه مَطلوبَه غايةَ التَّيسيرِ، وسَهَّلَه عليه، فعِلْمُ القُرآنِ حِفظًا وتَفسيرًا أسهَلُ العُلومِ، وأجَلُّها على الإطلاقِ، وهو العِلمُ النَّافِعُ الَّذي إذا طَلَبَه العَبدُ أُعِينَ عليه. قال بَعضُ السَّلَفِ عِندَ هذه الآيةِ: «هل مِن طالِبِ عِلمٍ فيُعانَ عليه؟»؛ ولهذا يدعو اللهُ تعالى عِبادَه إلى الإقبالِ عليه والتَّذَكُّرِ، بقَولِه: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[٣]. أفلا يَليقُ بنا -وقد سهَّل اللهُ القُرآنَ للذِّكْرِ- أن نتَّعِظَ ونتذكَّرَ؟ بلى، هذا هو اللَّائِقُ[٤]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلمةُ (قَومٍ) تُذكَّرُ وتؤنَّثُ؛ لأنَّ أسماءَ الجُموعِ الَّتي لا واحدَ لها مِن لفظِها إذا كانت للآدَميِّينَ تُذكَّرُ وتؤنَّثُ، مِثل رهْطٍ ونفَرٍ، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦] فذكَّرَ، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وقال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فأنَّثَ. وقيل: القَومُ مؤنَّثٌ مجازيُّ التَّأنيثِ، ويُصغَّرُ: قُوَيْمَةٌ، ويُذَكَّرُ؛ لأنَّ مَدلولَه أفرادٌ ذكورٌ عُقلاءُ. وقيل: (قَومٌ) مُذَكَّرٌ، وأُنِّث لأنَّه في معنى الأمَّةِ والجماعةِ، فتأْنيثُ (قَومٍ) باعتبارِ معناه، وتذكيرُه باعتبارِ لفظِه[١].

وقيل: أنَّث سبحانَه فِعلَهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ تحقيرًا لهم، وتهوينًا لأمرِهم في جنبِ قدرتِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾ وهو نُوحٌ عليه السَّلامُ، وَصَفَه اللهُ تعالى بالعُبوديَّةِ؛ لأنَّ العُبوديَّةَ أشرَفُ ألقابِ البَشَرِ، وهي التَّذَلُّلُ للهِ بالطَّاعةِ والإنابةِ والتَّوكُّلِ، وغيرِ ذلك[٣]. وهي أدلُّ على صِدقِه، وقُبحِ تكذيبِهم مِن قولِه: «رسولنا» لو قاله؛ لأنَّ العبدَ أقلُّ تحريفًا لكلامِ السَّيِّدِ من الرَّسولِ، فيكونُ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[٤] [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ قَولِ ذلك، مع أنَّه قد يُتوهَّمُ أنَّه لو قيل: «كَذَّبوا عَبْدَنا وزَجَروه» كان الكلامُ أكثَرَ مُناسَبةً!

الجوابُ: أنَّ المقصودَ تَقويةُ قَلبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ مَن تقَدَّمَه، فقال: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: فَعَلوا ما يُوجِبُ الانزِجارَ مِن دُعائِهم، حتَّى تَرَك دَعوتَهم، وعَدَل عن الدُّعاءِ إلى الإيمانِ إلى الدُّعاءِ عليهم! ولو قال: «زَجَروه» ما كان يفيدُ أنَّه تأذَّى منهم؛ لأنَّ في السَّعةِ يُقالُ: «آذَوني ولكِنْ ما تأذَّيتُ»، وأمَّا «أُوذيتُ» فهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٧)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).

كاللَّازمِ، لا يُقالُ إلَّا عندَ حُصولِ الفِعلِ لا قَبْلَه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ للسَّماءِ أبوابًا تُفتَحُ وتُغلَقُ[٢]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أنَّه سُبحانَه قال في السَّماءِ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنَّ السَّماءَ ذاتُ الرَّجْعِ، وما لَها فُطورٌ، ولم يقُلْ: «وشَقَقْنا السَّماءَ». وقال في الأرضِ: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾؛ لأنَّها ذاتُ الصَّدْعِ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ كأنَّ الأرضَ كلَّها كانت عُيونًا مُتفَجِّرةً، وفي هذا مِن الدَّلالةِ على قُدرةِ اللهِ تبارك وتعالى ما لا يَخفى، وأنَّ هذه الفَيَضاناتِ الَّتي تَحدُثُ إنَّما تَحدُثُ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وليست كما قال الطَّبيعيُّونَ: إنَّها مِن الطَّبيعةِ! يقولون: هاجتِ الطَّبيعةُ! غَضِبَتِ الطَّبيعةُ! وما أشْبَهَ ذلك. نسألُ اللهَ العافيةَ. بل هي بأمرِ مَن يَقولُ للشَّيءِ: كُنْ؛ فيَكونُ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ معنًى لطيفٌ، وذلك أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ذكَرَ الماءَ وذكَرَ الانهمارَ -وهو النُّزولُ بقُوَّةٍ-، فلمَّا قال: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ كان مِن الحَسَنِ البَديعِ أن يقولَ ما يُفيدُ أنَّ الماءَ نَبَع منها بقُوَّةٍ، فقال: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: مِن العَينِ فار الماءُ بقُوَّةٍ حتَّى ارتفَعَ والتقى بماءِ السَّماءِ، ولو جرى جَريًا ضَعيفًا لَما كان هو يلتقي مع ماءِ السَّماءِ، بل كان ماءُ السَّماءِ يَرِدُ عليه ويتَّصِلُ به، ولعَلَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠).

مِثلُ هذا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ بلَفظِ «القَدَرِ»[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ أنَّه سُبحانَه له عَينان -بلا كَيْف-[٣]، يَنظُرُ بهما حقيقةً على الوَجهِ اللَّائقِ به، وهما مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ الثَّابتةِ بالكِتابِ والسُّنَّةِ[٤].

١٠- صفةُ العينَينِ ثابِتةٌ للهِ تعالى، فكيف الجَمعُ بيْنَ المُثنَّى وصيغةِ الجَمعِ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقَولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾؟

الجوابُ: الجَمعُ بيْنَهما سَهلٌ، هو نظيرُ الجَمعِ بيْنَ اليدَينِ الواردِ مَجيؤُهما بصيغةِ التَّثنيةِ وبصيغةِ الجَمعِ؛ فإمَّا أنْ يُرادَ بالجَمعِ ما دونَ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ قد جاءتْ بالجمعِ مرادًا به ما دونَ الثَّلاثةِ، فيكونَ قولُه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ كقَولِه: «بعَينَينا»؛ لأنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، وإمَّا أنْ يقالَ: أقلُّ الجَمعِ ثلاثةٌ -كما هو الأكثرُ- ولكنَّ الجمعَ هنا لا يُرادُ به مَدلولُه التَّعدُّديُّ، وإنَّما يُرادُ به مَدلولُه المعنويُّ، وهو التَّعظيمُ، فيكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ جَمَعَ العينَينِ، فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ تعظيمًا لهما، وأيضًا يُضافُ إلى التَّعظيمِ المناسَبةُ؛ لأنَّ «نا» دالَّةٌ على الجَمعِ في أصلِ الوَضعِ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ المضافُ إليها مَجموعًا للتَّعظيمِ، كما هي في قَولِه تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ للتَّعظيمِ؛ فيَتناسَبُ هنا المضافُ والمضافُ إليه، وهذه المناسَبةُ لفظيَّةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((الإبانة)) للأشعري (ص: ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٠).

١١- قال تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ ظاهرُ الكلامِ أنَّ السَّفينةَ تجري وعينُ اللهِ تَرعاها وتَكلؤُها، وهذا معنى قولِ بعضِ السَّلفِ: «بمرأًى منِّي»؛ فإنَّ اللهَ تعالى إذا كان يَكلؤُهم بعَينِه لَزِمَ مِن ذلك أنْ يَراهم، ولازِمُ المعنى الصَّحيحِ جزءٌ منه، كما هو معلومٌ مِن دَلالةِ اللَّفظِ، حيثُ تكونُ بالمُطابَقةِ، والتَّضَمُّنِ، والالتِزام، ولا يُقالُ: إنَّ ظاهرَ الكلامِ وحقيقتَه أنَّ السَّفينةَ تجري في عينِ اللهِ! فهذا قول باطلٌ مِن وَجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّه لا يقتضيه الكلامُ بمقتضى الخِطابِ العربيِّ، والقرآنُ الكريمُ إنَّما نَزَلَ بلُغةِ العربِ، ولا أحدَ يَفهمُ مِن قولِ القائلِ: فلانٌ يسيرُ بعَيني: أنَّ المعنى أنَّه يسيرُ داخلَ عيْنِه!

الثَّاني: أنَّ هذا ممتنعٌ غايةَ الامتِناعِ، ولا يمكنُ لِمَن عَرَفَ اللهَ وقَدَرَه حقَّ قدْرِه أنْ يَفْهَمَه في حقِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى مُستوٍ على عرْشِه، بائِنٌ مِن خلْقِه، لا يَحُلُّ فيه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، ولا هو حالٌّ في شيءٍ مِن مخلوقاتِه، سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا. فإذا تبيَّنَ بُطلانُ هذا القولِ مِن النَّاحيةِ اللَّفظيَّةِ والمعنويَّةِ، تَعَيَّنَ أنْ يكونَ ظاهرُ الكلامِ أنَّ السَّفينةَ تجري وعينُ اللهِ تَرعاها وتَكلؤُها[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أنَّه سُبحانَه يَسَّرَ قِراءتَه على ألسِنةِ النَّاسِ، ويَسَّر عِلْمَه على قُلوبِ قَومٍ، ويَسَّر فَهْمَه على قُلوبِ قَومٍ، ويَسَّر حِفظَه على قُلوبِ قَومٍ، وكُلُّهم أهلُ القُرآنِ، وكُلُّهم أهلُ اللهِ تعالى وخاصَّتُه[(٢)]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أبقَى آياتٍ -وهي: العلاماتُ والدَّلالاتُ-؛ فدلَّ ذلك على أنَّ ما يَخُصُّه مِن أخبارِ المؤمنينَ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٨).

وحُسْنِ عاقبتِهم في الدُّنيا، وأخبارِ الكُفَّارِ وسوءِ عاقبتِهم في الدُّنيا: هو مِن بابِ الآياتِ والدَّلالاتِ الَّتي يُستدَلُّ بها، ويُعتبَرُ بها عِلمًا ووَعظًا؛ فيُفيدُ مَعرِفةَ صِحَّةِ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ، ويفيدُ التَّرغيبَ والتَّرهيبَ، ويدُلُّ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى يَرضَى عن أهلِ طاعتِه ويُكرِمُهم، ويَغضَبُ على أهلِ مَعصيتِه ويُعاقِبُهم[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ السُّفُنَ بعدَ نوحٍ مَتروكةٌ إلى القيامةِ آيةً للوَرَى[٢]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دليلٌ على أنَّ الذِّكْرَ مُلتمَسٌ منه، وطالبَه مُعانٌ عليه[٣].

١٦- بيْنَ قولِه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فرْقٌ دقيقٌ؛ فالادِّكارُ الأوَّلُ: ادِّكارُ اعتِبارٍ عن مُشاهَدةِ آثارِ الأُمَّةِ البائدةِ، والادِّكارُ الثَّاني: ادِّكارٌ عن سَماعِ مَواعظِ القرآنِ البالغةِ، وفَهْمِ مَعانيه، والاهتِداءِ به[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]؛ فإنَّ مِن أشهَرِها تَكذيبَ قَومِ نوحٍ رَسولَهم، وسبَقَ الإنباءُ به في القرآنِ في السُّوَرِ النَّازلةِ قبْلَ هذه السُّورةِ. وهو خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ، وليُفرَّعَ عليه ما بعْدَه، فالمَقصودُ النَّعيُ عليهم عدَمَ ازدجارِهم بما جاءَهُم مِن الأنْباءِ بتَعدادِ بَعضِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٠).

المُهِمِّ مِن تلك الأنباءِ[(١)].

- وفائدةُ ذِكرِ الظَّرْفِ ﴿قَبْلَهُمْ﴾ تَقريرُ تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إنَّ هذه شِنْشِنةُ -أي: عادةُ وطَبيعةُ- أهلِ الضَّلالِ، معَ ما في ذلك مِن التَّعريضِ بأنَّ هؤلاء مُعرِضون[(٢)]. وكذلك في ذِكرِ الظَّرفِ مِن غيرِ حرْفِ جَرٍّ؛ لأنَّه أعظَمُ في التَّسليةِ[(٣)].

- قيل: عُرِّفَ قومُ نُوحٍ بالإضافةِ إلى اسْمِه؛ إذ لم يَكُنْ للأُمَّةِ في زمَنِ نُوحٍ عليه السَّلامُ اسمٌ يُعرَفون به[(٤)].

- وأُسنِدَ التَّكذيبُ إلى جَميعِ القَومِ؛ لأنَّ الَّذين صدَّقوه عدَدٌ قليلٌ؛ فإنَّه ما آمَنَ به إلَّا قَليلٌ[(٥)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾ لتَفريعِ الإخبارِ بتَفصيلِ تَكذيبِهم إيَّاهُ بأنَّهم قالوا: ﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾، على الإخبارِ بأنَّهم كذَّبوه على الإجمالِ، وإنَّما جِيءَ بهذا الأُسلوبِ؛ لأنَّه لَمَّا كان المَقصودُ مِن الخبَرِ الأوَّلِ تَسليةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فُرِّعَ عليه الإخبارُ بحُصولِ المُشابَهةِ بيْن تَكذيبِ قَومِ نُوحٍ رَسولَهم وتَكذيبِ المُشرِكين محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ في أنَّه تَكذيبٌ لِمَن أرسَلَه اللهُ واصطفاهُ بالعُبوديَّةِ الخاصَّةِ، وفي أنَّه تَكذيبٌ مَشوبٌ ببُهتانٍ؛ إذ قال كِلا الفريقَينِ لرَسولِه: مَجنونٌ، ومَشوبٌ ببَذاءةٍ؛ إذ آذَى كِلا الفريقينِ رَسولَهم وازدَجَروه؛ فمَحلُّ التَّفريعِ هو وصْفُ نُوحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعُبوديَّةِ اللهِ تَكْريمًا له، والإخبارُ عن قَومِه بأنَّهم افتَروا عليه وَصْفَه بالجُنونِ، واعتَدَوا عليه بالأذَى والازدِجارِ، فأصْلُ تَركيبِ الكلامِ: كذَّبَت قبْلَهم قومُ نُوحٍ فقالوا: مَجنونٌ، وازْدُجِرَ. ولَمَّا أُرِيدَ الإيماءُ إلى تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتِداءً جُعِلَ ما بعْدَ التَّسليةِ مُفرَّعًا بفاءِ التَّفريعِ؛ ليَظهَرَ قصْدُ استِقلالِ ما قبْلَه، ولولا ذلك لَكان الكلامُ غَنيًّا عن الفاءِ؛ إذ كان يقولُ: كذَّبَت قومُ نوحٍ عبْدَنا.

ويَجوزُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مُستعمَلًا في معْنى أنَّهم اعتَقَدوا كذِبَه، فتَفريعُ ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ عليه تَفريعُ تَصريحِهم بتَكذيبِه على اعتقادِهم كذِبَه؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿فَكَذَّبُواْ﴾ مُستعمَلًا في معْنًى غيرِ الَّذي استُعْمِلَ فيه فِعلُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾، والتَّفريعُ ظاهرٌ على هذا الوجْهِ[(١)].

أو يكونُ في إعادةِ التَّكذيبِ -في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ﴾- فائدةُ حِكايةِ الواقعِ؛ وهو أنَّهم كذَّبوا تَكذيبًا بعْدَ تَكذيبٍ، كلَّما مَضى منهم قَرْنٌ مُكذِّبٌ تَبِعَه قرْنٌ مُكذِّبٌ. وفيه مَزيدةُ تَقريرٍ وتَحقيقٍ للتَّكذيبِ. أو لإفادةِ تَوكيدِ التَّكذيبِ، أي: هو تَكذيبٌ قويٌّ.

أو المعْنى: كذَّبت قَومُ نوحٍ الرُّسلَ فكذَّبوا عبْدَنا، أي: لَمَّا كانوا مُكذِّبين بالرُّسلِ جاحِدين للنُّبوَّةِ رأْسًا، كذَّبوا نوحًا؛ لأنَّه مِن جُملةِ الرُّسلِ.

أو الأوَّلُ تَكذيبُهم بالتَّوحيدِ، والثَّاني بالرِّسالةِ.

أو الأوَّلُ تَكذيبُهم باللهِ، والثَّاني برَسولِه نُوحٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

- وفي ذِكرِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعُنوانِ العُبوديَّةِ، مع الإضافةِ إلى نُونِ العظَمةِ، تَفخيمٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ورفْعٌ لمَحلِّه، وزِيادةُ تَشنيعٍ لمُكذِّبيه(١).

- وصِيغةُ الافتعالِ في لَفظِ ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمُبالَغةِ(٢).

- ونُكتةُ بِناءِ الفِعلِ ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمَجهولِ هنا التَّوصُّلُ إلى حذْفِ ما يُسنَدُ إليه فِعلُ الازدجارِ المَبْنيُّ للفاعلِ، وهو ضَميرُ ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾، فعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (وازدَجَروه) إلى قولِه: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾؛ مُحاشاةً للدَّالِّ على ذاتِ نُوحٍ -وهو ضَميرٌ- مِن أنْ يقَعَ مَفعولًا لضَميرِهم(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ تَفريعٌ على ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [القمر: ٩] وما تَفرَّعَ عليه(٤).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾؛ للإيجازِ، وللرَّعْيِ على الفاصلةِ، والتَّقديرُ: فانتصِرْ لي، أي: انصُرْني(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ مُفرَّعٌ على جُملةِ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ [القمر: ١٠]، ففُهِمَ مِن التَّفريعِ أنَّ اللهَ استجابَ دَعوتَه، وأنَّ إرسالَ هذه المياهِ عِقابٌ لقَومِ نُوحٍ. وحاصِلُ المعْنى: فأرْسَلْنا عليهم الطُّوفانَ بهذه الكيفيَّةِ المُحكَمةِ السَّريعةِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٢).

- قولُه: ﴿ فَفَتَحْنَآ ﴾ قُرِئَ ﴿فَفَتَّحْنا﴾ بالتَّشديدِ[١] على المُبالَغةِ، أو لكَثرةِ الأبوابِ[٢].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ للتَّعديةِ على المُبالَغةِ؛ حيث جُعِلَ الماءُ كأنَّه آلةٌ يُفتَحُ بها، كما تقولُ: فتَحْتُ البابَ بالمِفتاحِ، وكأنَّ الماءَ جاءَ وفتَحَ البابَ، فجُعِلَ المَقصودُ -وهو الماءُ- مُقدَّمًا في الوجودِ على فتْحِ البابِ المُغلَقِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للحالِ، أي: مُلْتبِسةً بماءٍ مُنهمِرٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أبلَغُ مِن قولِك: وفجَّرْنا عُيونَ الأرضِ؛ جُعِلَت الأرضُ مِن كَثرةِ عُيونِها كأنَّها عَينٌ تَتفجَّرُ، وفي هذا إجمالٌ جِيءَ مِن أجْلِه بالتَّمييزِ له بقَولِه: ﴿عُيُونًا﴾ لبَيانِ هذه النِّسبةِ، والمعْنى: وفجَّرْنا عُيونَ الأرضِ، ونُكتةُ ذلك: إفادةُ شُمولِ العُيونِ الأرضَ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾، أي: ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ، والإفرادُ لتحقيقِ أنَّ الْتِقاءَ الماءَينِ لم يكُنْ بطَريقِ المُجاوَرةِ والتَّقارُبِ، بلْ بطَريقِ الاختلاطِ والاتِّحادِ[٥]. ....

(١) قرأ بها أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ، وقرأ الباقون بالتَّخفيفِ. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) لابن مهران (ص: ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩).

أو أراد به جِنسَ الماءِ، ووحَّده مُوافقةً لقولِه قبْلُ: ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾(١) [القمر: ١١].

- وإنَّما قيل: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ والالتقاءُ لا يكونُ مِن واحدٍ، وإنَّما يكونُ مِن اثنينِ فصاعدًا؛ لأنَّ الماءَ قد يكونُ جمْعًا وواحدًا، وأُرِيدَ به في هذا الموضعِ: مِياهُ السَّماءِ ومياهُ الأرضِ، فخرَجَ بلَفظِ الواحدِ ومعْناهُ الجمْعُ(٢).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ للجِنسِ، وعُلِمَ مِن إسنادِ الالتقاءِ أنَّهما نَوعانِ من الماءِ: ماءُ المطَرِ، وماءُ العُيونِ(٣).

- ويَجوزُ أنْ تكونَ (على) بمعْنى (في)، ويَجوزُ أنْ تكونَ (على) للاستِعلاءِ، أي: مُلابِسًا لأمْرٍ قد قُدِرَ ومُتمكِّنًا منه، ومعْنى التَّمكُّنِ: شِدَّةُ المُطابَقةِ لِما قُدِرَ، وأنَّه لم يَحِدْ عنه قِيدَ شَعْرةٍ(٤).

- والجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ﴾ مُتعلِّقانِ بـ(الْتَقَى)، وأفادتْ (على) معْنى التَّعليلِ، والمعْنى: اجتمَعَ مِن أجْلِ إغراقِهم المَقْضِيِّ أزَلًا(٥).

- والأمْرُ: الحالُ والشَّأنُ، وتَنوينُه للتَّعظيمِ(٦).

- واكْتُفِيَ بهذا الخبَرِ عن بَقيَّةِ المعْنى -وهو طُغيانُ الطُّوفانِ عليهم- اكتِفاءً بما أفادَه تَفريعُ ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١]، انتقالًا إلى وَصْفِ إنجاءِ نُوحٍ مِن ذلك الكرْبِ العظيمِ، فجُملةُ ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾[القمر: ١٣] مَعطوفةٌ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢، ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).

على التَّفريعِ عطْفَ احتِراسٍ، والمعْنى: فأغْرَقْناهم ونَجَّيْناهُ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾

- عُدِّيَ فِعلُ (حمَلْنا) إلى ضَميرِ نُوحٍ دونَ مَن معَه مِن قَومِه؛ لأنَّ هذا الحَمْلَ كان إجابةً لدعوتِه ولنَصْرِه، فهو المَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا الحَمْلِ، وهو المَقصودُ بالإنجاءِ، وقدْ أشارَ إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢]، وقولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، ونحْوُه مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّه المَقصودُ بالإنجاءِ، وأنَّ نَجاةَ قَومِه بمَعيَّتِه، وحسْبُك قولُه في تَذييلِ هذه الآيةِ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ فإنَّ الَّذي ﴿كَانَ كُفِرَ﴾ هو نوحٌ؛ كفَرَ به قَومُه[٢].

- وحرْفُ (على) للاستِعلاءِ الَّذي يُفيدُ التَّمكُّنَ مِن الرُّكوبِ، وإلَّا فإنَّ استِقرارَه في السَّفينةِ كائنٌ في جَوفِها[٣].

- وقولُه: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ صِفةُ السَّفينةِ، أُقِيمَت مُقامَ المَوصوفِ هنا عِوَضًا عن أنْ يُقالَ: وحمَلْناه على الفُلْكِ؛ لأنَّ في هذه الصِّفةِ بَيانَ مَتانةِ هذه السَّفينةِ وإحكامِ صُنْعِها، وفي ذلك إظهارٌ لعِنايةِ اللهِ بنَجاةِ نُوحٍ ومَن معَه، وعادةُ البُلغاءِ إذا احتاجوا لذِكرِ صِفةٍ بشَيءٍ، وكان ذِكْرُها دالًّا على مَوصوفِها؛ أنْ يَستغْنُوا عن ذِكرِ الموصوفِ إيجازًا[٤].

وأيضًا مُراعاةً للآياتِ وفَواصلِها، فلو قال: حمَلْنا على فُلْكٍ أو على سَفينةٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٩).

لم تتناسَبْ هذه الآيةُ مع ما بَعْدَها ولا ما قَبْلَها، وأيضًا مِن أجْلِ أنْ يَتَعَلَّمَ النَّاسُ كيف يَصنَعونَ السُّفُنَ، وبيانِ أنَّها مِن الألواحِ والمسامير(١).

وقيل: حَذَف المَوصوفَ وأقامَ الصِّفةَ مقامَه؛ إشارةً إلى أنَّها كانت مِن ألواحٍ مُرَكَّبةٍ مُوثَقةٍ بدُسُرٍ، وكان انفِكاكُها في غايةِ السُّهولةِ ولم يَقَعْ؛ فهو بفَضلِ اللهِ(٢).

٦- قولُه تعالَى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾

- ﴿جَزَاءً﴾ مَفعولٌ لأجْلِه لـ(فتَحْنا) وما عُطِفَ عليه، أي: فَعَلْنا ذلك كلَّه جَزاءً لنُوحٍ. والمَقصودُ بقَولِه: ﴿لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ هو نوحٌ؛ فإنَّ قَومَه كَفَروا به، أي: لم يُؤمِنوا بأنَّه رسولٌ، وكان كُفْرُهم به مُنذُ جاءَهُم بالرِّسالةِ؛ فلذلك أُقحِمَ هنا فِعلُ (كان)، أي: لِمَن كُفِرَ منذُ زمانٍ مَضى(٣).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿كُفِرَ﴾؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليه، وتَقديرُه: كُفِرَ به. أو لأنَّه نصَحَ لهم ولقِيَ في ذلك أشَدَّ العَناءِ، فلم يَشكُروا له، بل كَفَروه، فهو مَكفورٌ(٤).

- وفي قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ مناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال في سورةِ (طه): ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] بحرفِ «على»، وقال تعالى هنا في سورةِ (القمرِ): ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ وفي سورةِ (هودٍ): ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] بحرفِ الباءِ؛ أمَّا في سورةِ (طه) فقد ورَدتْ في إظهارِ أمرٍ كان خفيًّا، وإبداءِ ما كان مكتومًا؛ فإنَّ الأطفالَ إذ ذاك كانوا يُغْذَونَ ويُصنعونَ سِرًّا؛ فلَمَّا أراد أنْ يُصْنَعَ موسى عليه السَّلامُ ويُغْذَى ويُرَبَّى على حالِ أَمْنٍ وظهورٍ -لا

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٥).

تحتَ خَوفٍ واستِسْرارٍ- دخلتْ «على» في اللَّفظِ؛ تنبيهًا على المعنى؛ لأنَّها تُعطي الاستِعلاءَ، والاستِعلاءُ: ظهورٌ وإبداءٌ، فكأنَّه يقولُ سُبحانَه وتعالى: «ولِتُصْنَعَ على أَمْنٍ؛ لا تحتَ خَوفٍ!»، وذَكَر العينَ لِتَضَمُّنِها معنى الرِّعايةِ والكِلاءةِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقولُه سُبحانَه: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] فإنَّه إنَّما يريدُ: «برعايةٍ مِنَّا وحِفْظٍ»، ولا يريدُ إبداءَ شيءٍ، ولا إظهارَه بعدَ كَتْمٍ! فلمْ يُحْتَجْ في الكلامِ إلى معنى «على»، بخِلافِ ما تقدَّم(١).

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾

- التَّركُ كِنايةٌ عن الإبقاءِ، وعدَمِ الإزالةِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾، وقال في (العنكبوتِ): ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وهُما وإنْ كانَا في المعْنى واحدًا، لكنَّ لَفظَ التَّركِ يَدلُّ على الجَعلِ والفراغِ بالأيَّامِ؛ فكأنَّها هنا مَذكورةٌ بالتَّفصيلِ، حيث بيَّنَ الإمطارَ مِن السَّماءِ، وتَفجيرَ الأرضِ، وذَكَر السَّفينةَ بقولِه: ﴿ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾، وذَكَر جَرْيَها فقال: ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾؛ إشارةً إلى تَمامِ الفعلِ المقدورِ، وقال هناك: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾؛ إشارةً إلى بَعضِ ذلك. فإنْ قِيل: إنْ كان الأمرُ كذلك؛ فكيف قال هاهنا: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ ولم يقُلْ: «وأصحابَه»، وقال هناك: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]؟

فالجوابُ: أنَّ النَّجاةَ هاهنا مَذكورةٌ على وجْهٍ أبلَغَ ممَّا ذَكَره هناك؛ لأنَّه قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، أي: حِفْظِنا، وحِفظُ السَّفينةِ حِفظٌ لأصحابِه، وحِفظٌ لأموالِهم

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر)) للسهيلي (ص: ٢٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦).

ودَوابِّهم والحيواناتِ الَّتي معَهم؛ فقولُه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ لا يَلزَمُ منه إنجاءُ الأموالِ إلَّا ببَيانٍ آخَرَ، والحِكايةُ في سُورةِ (هُودٍ) أشدُّ تَفصيلًا وأتمُّ؛ فلهذا قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، يَعني: المَحمول، ثمَّ قال تَعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] تَصريحًا بخَلاصِ السَّفينةِ، وإشارةً إلى خَلاصِ كلِّ مَن فيها[(١)]. وفيه وجهٌ آخَرُ، وهو أنَّه إنَّما قالَ هنا: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾، وقال في سُورةِ (العنْكبوتِ): ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ لأنَّ ذِكرَها في سُورةِ (القمَرِ) ورَدَ بعْدَ ذِكرِ كَيفيَّةِ صُنْعِها، وحُدوثِ الطُّوفانِ، وحمْلِ نُوحٍ في السَّفينةِ، فأخبَرَ بأنَّها أُبْقيَت بعْدَ تلك الأحوالِ، فالآيةُ في بَقائِها، وفي سُورةِ (العنْكبوتِ) ورَدَ ذِكرُ السَّفينةِ ابتداءً، فأخبَرَ بأنَّ اللهَ جعَلَها آيةً؛ إذ أَوحى إلى نُوحٍ بصُنْعِها، فالآيةُ في إيجادِها، وهو المُعبَّرُ عنه بـ (جَعَلْنَاهَا)[(٢)].

- قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، فُرِّعَ على إبقاءِ السَّفينةِ آيةً استِفهامٌ عمَّن يَتذكَّرُ بتلك الآيةِ، وهو استفهامٌ مُستعمَلٌ في معْنى التَّحضيضِ على التَّذكُّرِ بهذه الآيةِ واستِقْصاءِ خَبَرِها، والتَّحضيضُ مُوجَّهٌ إلى جَميعِ مَن تَبلُغُه هذه الآياتُ. و(مِن) صِلةٌ؛ للدَّلالةِ على عُمومِ الجِنسِ في الإثباتِ[(٣)].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تَفريعٌ على القصَّةِ بما تَضمَّنَتْه من قولِه: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١] إلى آخِرِه[(٤)].

- و(كيف) للاستِفهامِ عن حالةِ العذابِ، وهو عَذابُ قَومِ نُوحٍ بالطُّوفانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٦، ١٨٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٧).

والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ والتَّعجيبِ مِن شِدَّةِ هذا العذابِ المَوصوفِ، أي: كان على كيفيَّةٍ هائلةٍ لا يُحيطُ بها الوصْفُ[(١)].

- والجُملةُ في معْنى التَّذييلِ، وهو تَعريضٌ بتَهديدِ المُشرِكين أنْ يُصيبَهم عَذابٌ جَزاءَ تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإعراضِهم وأذاهُم كما أصابَ قومَ نُوحٍ عليه السَّلامُ[(٢)].

- وحُذِفَ ياءُ المُتكلِّمِ مِن ﴿وَنُذُرِ﴾، وأصْلُه: (نُذُري)، وحذْفُها في الكلامِ في الوقْفِ فَصيحٌ، وكثُرَ في القرآنِ عندَ الفواصلِ[(٣)].

- والنُّذُرُ: جمْعُ نَذيرٍ -على قولٍ- الَّذي هو اسمُ مَصدرِ (أنْذَرَ)، كالنِّذارةِ، وإنَّما جُمِعَت لتَكرُّرِ النِّذارةِ مِن الرَّسولِ لقَومِه؛ طلَبًا لإيمانِهم[(٤)].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، لَمَّا كانتْ هذه النِّذارةُ بُلِّغَت بالقرآنِ، والمُشرِكون مُعرِضون عن استِماعِه، حارِمينَ أنفُسَهم مِن فَوائدِه؛ ذُيِّل خبَرُها بتَنويهِ شأْنِ القرآنِ بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ اللهَ يسَّرَه وسهَّلَه لتَذكُّرِ الخلْقِ بما يَحتاجونَه مِن التَّذكيرِ ممَّا هو هدًى وإرشادٌ، وفيه تَعريضٌ بالمُشرِكينَ، كما أنبَأَ عنه قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[(٥)].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إلخ، جُملةٌ قَسَميَّةٌ ورَدَتْ في أواخِرِ القصصِ الأربَعِ؛ تَقريرًا لِمَضمونِ ما سبَقَ مِن قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٧، ١٨٨).

جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، وتَنبيهًا على أنَّ كلَّ قصَّةٍ منها مُستقِلَّةٌ بإيجابِ الادِّكارِ، كافيةٌ في الازدجارِ[١]!

- وتأْكيدُ الخبَرِ باللَّامِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد) مُراعًى فيه حالُ المُشرِكين الشَّاكِّينَ في أنَّه مِن عِندِ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، فُرِّعَ على تَيسيرِ القرآنِ للذِّكرِ استِفهامٌ، وهو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في معْنى التَّحضيضِ، والتَّحضيضُ مُوَجَّهٌ إلى جَميعِ مَن تَبلُغُه هذه الآياتُ. و(مِن) صِلةٌ؛ للدَّلالةِ على عُمومِ الجِنسِ[٣].

- وقيل: قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنْكارٌ ونفْيٌ للمُتَّعِظِ على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه؛ حيثُ يدُلُّ على أنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُجيبَ المُستفهِمَ بـ «نَعَمْ»[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

الآيات (١٨-٢٢)

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ
۝١٩ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۝٢٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَرْصَرًا﴾: أي: شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ الَّتي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَويٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، والتَّضعيفُ فيه للمُبالَغةِ في شِدَّتِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الَّذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ[١].

﴿نَحْسٍ﴾: أي: شُؤْمٍ وشَرٍّ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ السَّعدِ[٢].

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾: أي: تقلَعُهم مِن مَواضِعِهم، ونَزَعَ الشَّيءَ: جَذَبه مِن مقرِّه، وأصلُ (نزع): يدُلُّ على قَلْعِ شَيءٍ[٣].

﴿أَعْجَازُ﴾: أي: أُصولُ، وأصلُ (عجز) هنا: يدُلُّ على مُؤخَّرِ الشَّيءِ[٤].

﴿مُنْقَعِرٍ﴾: أي: مُنقَطِعٍ مِن أصولِه، ساقِطٍ على الأرضِ، يُقالُ: قَعَرتُ النَّخلةَ:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧-٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥١).

إذا قلَعْتَها مِن أصْلِها حتَّى تَسقُطَ، وقَعرُ الشَّيءِ: نِهايةُ أسفَلِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ عادٍ مِن نبيِّهم هودٍ عليه السَّلامُ، وما نزَل بهم مِن العِقابِ: كذَّبت عادٌ رَسولَهم هُودًا، فكيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن نَهَج نَهْجَهم؟! إنَّا بَعَثْنا عليهم رِيحًا باردةً شَديدةَ الهُبوبِ، في يَومِ شُؤمٍ مُستَمِرٍّ بهم عَذابُه، تَقتَلِعُ تلك الرِّيحُ كُفَّارَ عادٍ، فتَرْفعُهم، ثمَّ تَرْمي بهم وتَطرحُهم إلى الأرضِ فتَصرَعُهم، فتَذَرُهم بعدَ هَلاكِهم كأنَّهم أُصولُ نَخلٍ مُنقَلِعٍ مِن أصلِه! فكيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري؟!

ثمَّ ختَم الله تعالى هذه القصَّةَ بالدَّعوةِ إلى الاعتِبارِ بالقرآنِ وما فيه مِن قصصٍ وعِبَرٍ إلى غيرِ ذلك، فقال: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقضَت قِصَّةُ نوحٍ عليه السَّلامُ على هذا الهَولِ العَظيمِ؛ ذكَر قِصَّةَ عادٍ؛ لأنَّها أعظَمُ قِصَّةٍ جَرَتْ بعدَ قَومِ نُوحٍ فيما تَعرِفُه العَرَبُ[٢].

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٦).

أي: كذَّبت قَبيلةُ عادٍ رَسولَهم هُودًا، فكيف كان عذابي لهم جزاءَ تَكذيبِهم؟ وكيف كان إنذاري[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ١٩﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾.

أي: إنَّا بَعَثْنا عليهم حينَ أصَرُّوا على كُفرِهم رِيحًا بارِدةً شَديدةَ الهُبوبِ، لِصَوتِها صَريرٌ[(٢)].

﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾.

أي: في يَومِ شُؤمٍ وشَرٍّ دائمٍ على عادٍ، استمرَّ عليهم بنُحوسِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

قال ابن عثيمين: (الجوابُ: كان شَديدًا عَظيمًا واقِعًا مَوقِعَه؛ فالاستِفهامُ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ والتَّقريرِ، وهو أنَّ عذابَ اللهِ كان عظيمًا، وكان واقِعًا مَوقعَه، ﴿وَنُذُرِ﴾ يعني: آياته، كذلك كانت عَظيمةً واقِعةً مَوقِعَها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

قال ابنُ القيِّم: (كان اليَومُ نَحسًا عليهم؛ لإرسالِ العَذابِ عليهم، أي: لا يُقلِعُ عنهم كما تُقلِعُ مَصائِبُ الدُّنيا عن أهلِها، بل هذا النَّحسُ دائِمٌ على هؤلاء المكَذِّبينَ للرُّسُلِ، و﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صِفةٌ للنَّحسِ لا لليَومِ، ومَن ظَنَّ أنَّه صِفةٌ لليَومِ، وأنَّه كان يومَ أربعاءَ آخِرَ الشَّهرِ، وأنَّ هذا اليومَ نَحسٌ أبدًا؛ فقد غَلِطَ، وأخطأَ فَهْمَ القُرآنِ؛ فإنَّ اليومَ المذكورَ بحَسَبِ ما يقَعُ فيه، وكم للهِ مِن نِعمةٍ =

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: تَقتَلِعُ الرِّيحُ كُفَّارَ عادٍ بعُنفٍ وشِدَّةٍ، فتَرْفعُهم ثمَّ تَرْمي بهم وتَطرَحُهم إلى الأرضِ فتَصرَعُهم، وتكونُ جُثَثُهم بعدَ هَلاكِهم مِثلَ أُصولِ نَخلٍ مُنقَلِعٍ مِن مَنْبِتِه[١]!

= على أوليائِه في هذا اليَومِ، وإن كان له فيه بلايا ونِقَمٌ على أعدائِه! كما يقَعُ ذلك في غيرِه مِن الأيَّام). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ١٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٢٩٩).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾: أنَّ العذابَ استمَرَّ عليهم في الدُّنيا سَبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمعاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

وقيل: المرادُ بالاستِمرارِ: اتِّصالُ عَذابِهم الدُّنيويِّ بالأُخْرويِّ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).

قال البِقاعي: (وحَقَّق -لأنَّ المرادَ باليَومِ الجِنسُ لا الواحِدُ- بالوَصفِ، فقال: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١١٥).

وقال ابنُ عاشور: (أُريدَ بـ﴿يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أوَّلُ أيَّامِ الرِّيحِ الَّتي أُرسِلَت على عادٍ؛ إذ كانت سَبعةَ أيَّامٍ... والنَّحسُ: سوءُ الحالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٣، ١٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فكيف كان عَذابي لعادٍ على كُفرِهم؟ وكيف كان إنذاري[١]؟!

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[٢].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

= قال ابن جُزَي: (شبَّهَ اللهُ عادًا لَمَّا هلَكوا بذلك؛ لأنَّهم طِوالٌ عِظامُ الأجسادِ كالنَّخلِ. وقيل: كانت الرِّيحُ تَقطَعُ رؤوسَهم، فتبقى أجسادًا بلا رُؤوسٍ، فشبَّههم بأعجازِ النَّخلِ؛ لأنَّها دونَ أغصانٍ. وقيل: كانوا حفَروا حُفَرًا يَمتَنِعون بها مِن الرِّيحِ، فهلَكوا فيها، فشبَّههم بأعجازِ النَّخلِ إذا كانت في حُفَرِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٤).

وقال الواحدي: (شَبَّهَهم في طولِ قاماتِهم حينَ صَرَعتْهم الرِّيحُ وكَبَّتْهم على وُجوهِهم، بالنَّخيلِ السَّاقطةِ على الأرضِ الَّتي ليست لها رُؤوسٌ؛ وذلك أنَّ الرِّيحَ قَلَعت رُؤوسَهم أوَّلًا، ثمَّ كَبَّتْهم على وُجوهِهم!). ((الوسيط)) (٤/ ٢١٠).

وقال الرَّسْعَني: (﴿كَأَنَّهُمْ﴾ وقد بانَتْ رُؤوسُهم عن أجسادِهم، أو مالَتْ على أكتافِهم، صَرْعَى على الأرضِ، وهم جُثَثٌ طِوالٌ عِظامٌ ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ قُطعتْ فُروعُها ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ مُنقلِعٍ عن مَغارِسِها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ الكريم[١]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ كَرَّرَ اللهُ تعالى هذا عندَ آخرِ كلِّ قصَّةٍ؛ مِن أجْلِ أنْ نَحرِصَ على التَّذكُّرِ بالقُرآنِ، وتدبُّرِ القُرآنِ، وتفَهُّمِ القُرآنِ؛ لأنه مُيَسَّرٌ، والجملةُ مؤكَّدةٌ بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ: القَسَمِ، واللَّامِ، و«قد»؛ ممَّا يدُلُّ على التَّرغيبِ في تَذَكُّرِ القُرآنِ، والتَّذَكُّرِ به، فهل مِن مُدَّكِرٍ[٢]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: «فكَذَّبوا هُودًا»، كما قال تعالى في قِصَّةِ نُوحٍ: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ [القمر: ٩]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ تَكذيبَ قَومِ نُوحٍ أبلَغُ؛ لِطُولِ مُقامِه فيهم، وكَثرةِ عِنادِهم.

الثَّاني: أنَّ قِصَّةَ عادٍ ذُكِرَت مُختَصَرةً[٣].

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ أنَّ قَولَ: «هذا يومُ النَّحْسِ» لا بأسَ به إذا لم يُقصَدِ السَّبُّ والعَيبُ، وإنَّما قُصِدَ الإخبارُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ إضافةُ اليَومِ إلى النَّحسِ باعتِبارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٨٢).

المنحوسِ؛ فهو يومُ نَحسٍ للمُعَذَّبينَ، ويَومُ نَصرٍ للمُؤمِنينَ، ومَصائِبُ قَومٍ عِندَ قَومٍ فَوائِدُ، وليس في الأيَّامِ يَومٌ يُوصَفُ بنَحسٍ أو بسَعْدٍ؛ لأنَّ كُلَّ يَومٍ تَحدُثُ فيه نُحوسٌ لِقَومٍ وسُعُودٌ لآخَرينَ، وما يُروَى مِن أخبارٍ في تعيينِ بَعضِ أيَّامِ السَّنةِ للنَّحسِ هو مِن أغلاطِ القَصَّاصِينَ! فلا يُلْقي المُسلِمُ الحَقُّ إليها سَمْعَه. واشتَهَر بيْنَ كثيرٍ مِن المُسلِمينَ التَّشاؤُمُ بيَومِ الأربعاءِ، وأصلُ ذلك انجَرَّ لهم مِن عقائِدِ مَجوسِ الفُرسِ، ويُسَمُّونَ الأربِعاءَ الَّتي في آخِرِ الشَّهرِ: «الأربِعاءَ الَّتي لا تَدورُ» أي: لا تعودُ، أرادوا بهذا الوَصفِ ضبْطَ مَعنَى كَونِها آخِرَ الشَّهرِ؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّه جَميعُ النِّصفِ الأخيرِ منه، وإلَّا فأيَّةُ مُناسَبةٍ بيْن عَدَمِ الدَّورانِ وبيْن الشُّؤمِ؟! وما مِن يَومٍ إلَّا وهو يقَعُ في الأُسبوعِ الأخيرِ مِنَ الشَّهرِ، ولا يدورُ في ذلك الشَّهرِ[(١)]! فسُعُودُ الأيَّامِ ونُحوسُها إنَّما هو بسُعُودِ الأعمالِ ومُوافَقتِها لِمَرضاةِ الرَّبِّ تعالى، ونُحوسُ الأعمالِ مُخالَفتُها لِمَا جاءَتْ به الرُّسُلُ، واليومُ الواحِدُ يكونُ يومَ سَعدٍ لطائفةٍ، ونَحْسٍ لطائفةٍ، كما كان يَومُ بدرٍ يومَ سَعْدٍ للمُؤمِنينَ، ويَومَ نَحْسٍ على الكافِرينَ[(٢)]، فمَن أرادَ أنْ يعرِفَ النَّحسَ والشُّؤمَ والنَّكدَ والبَلاءَ والشَّقاءَ على الحقيقةِ، فليتحَقَّقْ أنَّ ذلك كلَّه في معصيةِ اللهِ، وعدمِ امتثالِ أمرِه[(٣)].

٤- دَلَّ قَولُه تعالى: ﴿نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ على أنَّه سُبحانَه أبادهم؛ إذ لو نَجَوا لَما كان النَّحسُ مُستَمِرًّا[(٤)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أنَّ الرِّيحَ تَنزِعُهم بعُنفٍ كأنَّهم أعجازُ نَخلٍ مُنقَعِرٍ، فيَنقَعِرونَ! وهذا إشارةٌ إلى عِظَمِ أجسادِهم، أو إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٣).

ثَباتِهم في الأرضِ، فكأنَّهم كانوا يَجعَلونَ أرجُلَهم في الأرضِ، ويَقصِدونَ المَنْعَ به على الرِّيحِ(١)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ لطيفةٌ: في أنَّه لو قال القائِلُ: أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ «النُّذُر» في هذا الموضِعِ جَمعُ «نَذيرٍ» الَّذي هو مَصدَرٌ معناه: «إنذارٌ»، فما الحِكمةُ في توحيدِ العَذابِ؛ حيثُ لم يَقُلْ: «فكيف كان أنواعُ عذابي، ووَبالُ إنذاري»؟

الجوابُ: فيه إشارةٌ إلى غَلَبةِ الرَّحمةِ للغَضَبِ؛ وذلك لأنَّ الإنذارَ إشفاقٌ ورَحمةٌ، فقال: الإنذاراتُ الَّتي هي نِعَمٌ ورَحمةٌ تواتَرَت، فلمَّا لم تَنفَعْ وَقَع العذابُ دَفعةً واحِدةً؛ فكانت النِّعَمُ كَثيرةً، والنِّقمةُ واحِدةً(٢).

٧- يُستفادُ مِن تَكرارِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فائِدتانِ:

الأُولى: رَحمةُ اللهِ بعِبادِه، وعِنايتُه بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يُصلِحُ دُنياهم وأُخراهم(٣).

الثَّانيةُ: الإيذانُ بأنَّ تيسيرَ القُرآنِ -مع إعجازِه- لا يكونُ إلَّا بعَظَمةٍ تَفُوتُ قُوى البَشَرِ، وتَعجِزُ عنها منهم القُدَرُ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مَوقِعُ هذه الجُملةِ كمَوقِعِ جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: ٩]؛ فكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ تُعطَفَ عليها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٧).

وإنَّما فُصِلَتْ عنها؛ ليكونَ في الكلامِ تكريرُ التَّوبيخِ والتَّهديدِ والنَّعْيِ عليهم عقِبَ قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، ومَقامُ التَّوبيخِ والنَّعْيِ يَقْتضي التَّكريرَ(١).

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أي: كذَّبت رَسولَها هودًا عليه السَّلامُ، ولم يُتعرَّضْ لكَيفيَّةِ تَكذيبِهم له؛ رَوْمًا للاختِصارِ، ومُسارَعةً إلى بَيانِ ما فيه الازدِجارُ(٢).

- وفي مَفعولِ ﴿كَذَّبَتْ﴾ المَحذوفِ إشعارٌ برَسولِهم الَّذي كذَّبوه، وبعْثُ الرَّسولِ وتَكذيبُهم إيَّاه يَتضمَّنُ الإنذارَ؛ لأنَّهم لَمَّا كذَّبوه حقَّ عليه إنذارُهم(٣).

- والحُكْمُ على عادٍ بالتَّكذيبِ عُمومٌ عُرْفيٌّ، بناءً على أنَّ مُعظَمَهم كذَّبوه، وما آمَنَ به إلَّا نفَرٌ قليلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾(٤) [هود: ٥٨].

- ولَمَّا كانت عادٌ عَلَمًا لقَومِ هُودٍ، ذُكِرَ العَلَمُ؛ لأنَّه أبلَغُ في الذِّكرِ من التَّعريفِ بالإضافةِ(٥).

- وفُرِّعَ على التَّذكيرِ بتَكذيبِ عادٍ قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قبْلَ أنْ يُذكَرَ في الكلامِ ما يُشعِرُ بأنَّ اللهَ عذَّبَهم، فضْلًا عن وصْفِ عَذابِهم، فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ للخبَرِ الواردِ بعْدَه؛ لأنَّ الاستِفهامَ يَستلزِمُ طلَبَ الجوابِ، والجوابُ يَتوقَّفُ على صِفةِ العَذابِ، وهي لَمَّا تُذكَرْ. وهو أيضًا مُكنًّى به عن تَهويلِ ذلك العذابِ. وفي هذا الاستِفهامِ إجمالٌ لحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١).

العَذابِ، وهو إجمالٌ يَزيدُ التَّشويقَ إلى ما يُبيِّنُه بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ الآيةَ[١].

- قولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قيل: هو لتَوجيهِ قُلوبِ السَّامِعينَ نحْوَ الإصْغاءِ إلى ما يُلْقى إليهم قبْلَ ذِكرِه، لا لتَهويلِه وتَعظيمِه وتَعجيبِهم مِن حالِه بعْدَ بَيانِه كما قَبْلَه وما بَعْدَه؛ كأنَّه قِيلَ: كذَّبتْ عادٌ، فهلْ سمِعْتُم -أو فاسْمَعُوا- كيفَ كان عذابي وإنْذاراتي لهم[٢]؟ وقيل: هو للتَّهويلِ؛ لغَرابةِ ما عُذِّبوا به مِن الرِّيحِ، وانفِرادِه بهذا النَّوعِ مِن العَذابِ[٣].

- وهذه ليست تكريرًا لنَظيرِها السَّابِقِ في خَبَرِ قَومِ نُوحٍ، ولا اللَّاحِقِ في آخِرِ قِصَّةِ عادٍ؛ للاختِلافِ بيْنَ مُفادِها ومُفادِ مُماثِلَتِها وإنِ اتَّحَدَت ألفاظُهما. والبَليغُ يَتفَطَّنُ للتَّغايُرِ بيْنَهما فيَصرِفُه عن توَهُّمِ أن تكونَ هذه تكريرًا؛ فإنَّه لَمَّا لم يَسبِقْ وصْفُ عذابِ عادٍ، لم يَستَقِمْ أن يكونَ قَولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي﴾ تعجيبًا مِن حالةِ عَذابِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَنُذُرِ﴾ عطْفٌ على ﴿عَذَابِي﴾ بتَقديرِ مُضافٍ دلَّ عليه المَقامُ، والتَّقديرُ: وعاقِبةُ نُذُري، أي: إنْذاراتي لهم، أي: كيف كان تَحقيقُ الوعيدِ الَّذي أنْذَرَهم، وهو مَوعِظةٌ مِن تَحقُّقِ وَعيدِ اللهِ إيَّاهم[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١، ١٩٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
واستدلَّ أبو الحسنِ المجاشِعيُّ على أنَّ الواوَ لا تقتضي الترتيبَ بهذه الآيةِ، قال: (والنُّذُرُ قبلَ العذابِ). ((النكت)) (ص: ١٨٠).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ بيانٌ للإجمالِ الَّذي في قولِه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وهو في صُورةِ جَوابٍ للاستِفهامِ الصُّوريِّ، وكِلْتا الجُملتينِ يُفيدُ تَعريضًا بتَهديدِ المُشركين بعَذابٍ على تَكذيبِهم، وجُملةُ البَيانِ إنَّما تَصِفُ حالَ العَذابِ دونَ حالِ الإنذارِ، أو حالِ رَسولِهم، وهو اكتِفاءٌ[1]؛ لأنَّ التَّكذيبَ يَتضمَّنُ مَجيءَ نَذيرٍ إليهم[2].

- وتَعديةُ إرسالِ الرِّيح إلى ضَميرِهم هي كإسنادِ التَّكذيبِ إليهم؛ بِناءً على الغالِبِ، وقد أنْجى اللهُ هودًا والَّذين معه، أو هو عائدٌ إلى المُكذِّبين، بقَرينةِ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾[3] [القمر: ١٨].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾، وفي (الذَّارياتِ) قال: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، فعرَّفَ الرِّيحَ هناك، ونكَّرَها هاهنا؛ قيل: وَجْهُ ذلك: أنَّ العُقْمَ في الرِّيح أظهَرُ مِن البَرْدِ الَّذي يَضُرُّ النَّباتَ، أو الشِّدَّةِ الَّتي تَعصِفُ الأشجارَ؛ لأنَّ الرِّيحَ العقيمَ هي الَّتي لا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تُلقِّحُ شَجَرًا -وهي كَثيرةُ الوُقوعِ-؛ وأمَّا الرِّيحُ المُهلِكةُ البارِدةُ فقَلَّما تُوجَدُ؛ فقال: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾، أي: هذا الجِنسَ المعروفَ، ثمَّ زادَهُ

---

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَيانًا بقولِه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، فتَميَّزَت عن الرِّيحِ العقيمِ، وأمَّا الصَّرصرُ فقَليلةُ الوُقوعِ، فلا تكونُ مَشهورةً؛ فنكَّرَها(١).

- وأيضًا قال تعالَى هنا: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، وقال في سُورةِ (فُصِّلت): ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال في (الحاقة): ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ مِن اليَومِ هنا الوقتُ والزَّمانُ، كما في قولِه: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، وقولُه: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ يُفيدُ ما يُفيدُه «الأيَّام»؛ لأنَّ الاستِمرارَ يُنبِئُ عن امتِدادِ الزَّمانِ كما تُنبِئُ عنه الأيَّامُ، والحكايةُ هنا مَذكورةٌ على سَبيلِ الاختِصارِ؛ فذُكِرَ الزَّمانُ، ولم يُذكَرْ مِقدارُه على سَبيلِ الإيجازِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً للرِّيحِ، وأنْ يكونَ حالًا منها؛ لأنَّها وُصِفت فقرُبَت من المعْرفةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿تَنزِعُ﴾ مُستأنَفًا(٣).

- وفي قولِه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ وذلك لإفادةِ العُمومِ، أي: إنَّ النَّزْعَ يعُمُّ الذُّكورَ والإناثَ جَميعًا، وإلَّا فالأصلُ: تَنزِعُهم(٤).

- في قولِه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ شبَّهَهم بأعجازِ النَّخلِ المُنقَعِرِ؛ إذ تَساقَطوا على الأرضِ أمواتًا، وهم جُثَثٌ عِظامٌ طِوالٌ، والأعجازُ: الأصولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨١).

بلا فُروعٍ قد انقلَعَت مِن مَغارِسِها. وقيل: كانتِ الرِّيحُ تَقطَعُ رُؤوسَهم، فتَبْقَى أجسادًا بلا رُؤوسٍ، فأَشْبَهَت أعجازَ النَّخلِ الَّتي انقلَعَتْ مِن مَغرِسِها[1].

- ومُنقعِرٌ: وصْفُ النَّخلِ، رُوعِيَ في إفرادِه وتَذكيرِه صُورةُ لَفظِ (نخْل) دونَ عدَدِ مَدلولِه، خِلافًا لِما في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وقولِه: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾[2] [الرحمن: ١١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هاهنا: ﴿مُنْقَعِرٍ﴾، فذكَّرَ النَّخلَ، وقال في (الحاقةِ): ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، فأنَّثَها؛ ووَجْهُ ذلك أمْرانِ:

الأوَّلُ: في تلك السُّورةِ كانتْ أواخرُ الآياتِ تَقْتضي ذلك؛ لقولِه: ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ و﴿مُنْهَمِرٍ﴾ و﴿مُنْتَشِرٌ﴾؛ فإنَّ الكلامَ كما يُزيَّنُ بحُسْنِ المعْنى يُزيَّنُ بحُسْنِ اللَّفظِ.

الثَّاني: أنَّ «النَّخلَ» لَفظُه لَفظُ الواحدِ -كالبَقلِ والنَّملِ- ومعْناهُ معْنى الجَمْعِ؛ فيَجوزُ أنْ يُقالَ فيه: نَخْلٌ مُنقعِرٌ، ومُنقَعِرةٌ، ومُنقعِراتٌ، ونخْلٌ خاوٍ، وخاويةٌ، وخاوياتٌ، ونخْلٌ باسِقٌ، وباسِقةٌ، وباسِقاتٌ.

فإذا قال قائلٌ: «مُنقعِرٌ، أو: خاوٍ، أو: باسقٌ»؛ جرَّدَ النَّظرَ إلى اللَّفظِ، ولم يُراعِ جانبَ المعْنى، وإذا قال: «مُنقعِراتٌ، أو: خاوِياتٌ، أو: باسِقاتٌ»؛ جرَّدَ النَّظرَ إلى المعْنى، ولم يُراعِ جانبَ اللَّفظِ، وإذا قال: «مُنقعِرةٌ، أو: خاويةٌ، أو: باسقةٌ»؛ جمَعَ بيْنَ الاعتِبارينِ مِن حيثُ وَحْدةُ اللَّفظِ، ورُبَّما قال: «مُنقَعِرةٌ» -على الإفرادِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨١).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٧١ - ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٤).

مِن حيث اللَّفظُ- وألْحَقَ به تاءَ التَّأنيثِ الَّتي في الجَماعةِ. إذا تقرَّرَ هذا، فنقولُ: ذكَرَ اللهُ تَعالى لَفظَ «النَّخلِ» في مَواضِعَ ثلاثةٍ، ووَصَفها على الوُجوهِ الثَّلاثةِ؛ فقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠]؛ فإنَّها حالٌ منها وهي كالوصْفِ، وقال: ﴿نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧]، وقال: ﴿نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، فحيثُ قال: ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ كان المختارُ ذلك؛ لأنَّ «المُنقعِرَ» في حَقيقةِ الأمرِ كالمفعولِ؛ لأنَّ الَّذي وَرَدَ عليه القعرُ فهو مَقعورٌ، والخاوِ والباسِقُ فاعلٌ، ومعناهُ إخلاءُ ما هو مَفعولٌ مِن عَلامةِ التَّأنيثِ أوَّلًا، كما تقولُ: امرأةٌ كفيلٌ، وامرأةٌ كَفيلةٌ، وامرأةٌ كبيرٌ، وامرأةٌ كبيرةٌ. وأمَّا «الباسِقاتُ» فهي فاعِلاتٌ حقيقةً؛ لأنَّ البُسوقَ أمْرٌ قام بها. وأمَّا «الخاويةُ» فهي مِن بابِ «حسن الوجْه»؛ لأنَّ الخاويَ مَوضِعُها؛ فكأنَّه قال: «نخْلٌ خاويةُ المَواضِعِ»، وهذا غايةُ الإعجازِ؛ حيثُ أتَى بلَفظٍ مُناسِبٍ للألفاظِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ مِن حيثُ اللَّفظُ؛ فكان الدَّليلُ يَقْتضي ذلك، وهذا بخِلافِ الشَّاعرِ الَّذي يَختارُ اللَّفظَ على المذهبِ الضَّعيفِ مِن أجْلِ الوزنِ والقافيةِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

- في إعادةِ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في قصَّةِ عادٍ عدَّةُ أوجُهٍ:

منها: أنَّ الأوَّلَ لتَحذيرِهم قبْلَ إهلاكِهم، والثَّاني لتَحذيرِ غَيرِهم بهم بعْدَ هَلاكِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٤).

وقدْ قال القُرطبيُّ في ((تفسيره)) (١٧/ ١٣٧): (وقال أبو بَكرِ بنُ الأنباريِّ: سُئِلَ المُبَرِّدُ بحَضرةِ إسماعيلَ القاضي عن ألْفِ مَسألةٍ، هذه مِن جُملتِها، فقيل له: ما الفرقُ بيْنَ قولِه تعالَى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ [الأنبياء: ٨١] و﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: ٢٢]، وقولِه: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠]؟ فقال: كلَّما ورَدَ عليك مِن هذا البابِ، فإنْ شئتَ رَدَدْتَه إلى اللَّفظِ تذكيرًا، أو إلى المعنَى تأنيثًا).

(٢) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٠).

ومنها: أنَّ الأوَّلَ سُؤالٌ؛ كقولِ المعلِّمِ للمُتعلِّمِ: كيفَ المسألةُ الفُلانيَّةُ؟ ثُمَّ بيَّنَ فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾، وأمَّا في المَرَّةِ الثَّانيةِ فاستَفهَم للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، كما يقولُ القائلُ للعارفِ المشاهِدِ: كيف فَعلتُ وصَنعتُ؟ فيقولُ: نِعْمَ ما فَعلْتَ، ويقولُ: أتيْتُ بعَجيبةٍ، فيُحقِّقُ عَظَمةَ الفِعلِ بالاستِفهامِ[١].

ومنها: تَكرَّرَ التَّهويلُ بالاستِفهامِ قبْلَ ذِكرِ ما حلَّ بهم وبَعْدَه؛ لغَرابةِ ما عُذِّبوا به مِن الرِّيحِ، وانفِرادِهم بهذا النَّوعِ مِن العذابِ، ولأنَّ الاختصارَ داعيةُ الاعتبارِ والتَّدبُّرِ[٢].

ومنها: أنَّ مَقامَ التَّهويلِ والتَّهديدِ يَقْتضي تَكريرَ ما يُفيدُهما[٣].

- و(كيف) هنا استِفهامٌ عن حالةِ العَذابِ المَوصوفةِ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ إلى ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٥).

الآيات (٢٣-٣٢)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ
الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو
النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا
كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسُعُرٍ﴾: أي: شَقاءٍ وعَناءٍ وعَذابٍ، أو جُنُونٍ؛ مِن قَولِهم: ناقةٌ مَسعورةٌ: إذا كانت كأنَّ بها جُنونًا، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ شَيءٍ واتِّقادِه(١).

﴿أَشِرٌ﴾: أي: مُتكَبِّرٌ بَطِرٌ يُريدُ أن يَتعظَّمَ علينا بالنُّبُوَّةِ. والأَشَرُ: المَرَحُ والتَّجَبُّرُ والكِبرياءُ، وأصلُ (أشر): يدُلُّ على الحِدَّةِ(٢).

﴿فِتْنَةً﴾: أي: اختِبارًا، وابتِلاءً، وامتِحانًا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ(٣).

﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾: أي: فانتَظِرْهم وتَبصَّرْ ما هم صانِعوه، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[١].

﴿شِرْبٍ﴾: أي: نصيبٍ وحظٍّ مِن المَاءِ[٢].

﴿مُّحْتَضَرٌ﴾: أي: محضورٌ مَشهودٌ، وأصلُ (حضر): يدُلُّ على الوُرودِ والمُشاهَدةِ[٣].

﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: أي: فتَناوَلَ النَّاقةَ؛ مِنَ العَطوِ: وهو التَّناوُلُ باليَدِ، وأصلُ (عطو): يدُلُّ على أخذٍ ومُناوَلةٍ[٤].

﴿فَعَقَرَ﴾: أي: قَتَلَ ونَحَر، وأصلُ (عقر) هنا: يدُلُّ على جَرحٍ[٥].

﴿صَيْحَةً﴾: الصَّيحةُ: المرَّةُ مِن الصَّوتِ الشَّديدِ، المُزعِجِ المُهلِكِ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي[٦].

﴿كَهَشِيمِ﴾: الهشيمُ: هو ما يَبِسَ مِنَ الوَرَقِ وتكَسَّرَ وتحطَّمَ، وأصلُ (هشم):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢).

يدُلُّ على الكَسرِ[(١)].

﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أي: صاحِبِ الحَظيرةِ؛ يُقالُ: احتَظَر على نَعَمِه وحَظَرَ: إذا جَمَع الشَّجَرَ ووَضَع بَعضَه فَوقَ بَعضٍ؛ لِيَمنَعَ بَرْدَ الرِّيحِ عن النَّعَمِ، وأصلُ (حظر): يدُلُّ على المَنعِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ ثَمُودَ مِن نبيِّهم صالحٍ عليه السَّلامُ: كذَّبت ثَمُودُ -قَومُ صالحٍ- بنُذُرِ اللهِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه! فقالوا: أبَشَرًا مِثلَنا واحِدًا نتَّبِعُه؟ إنَّا إنِ اتَّبَعْناه لَفي ذَهابٍ عن الحقِّ والصَّوابِ، وفي شَقاءٍ وعَذابٍ. أأُنزِلَ الوَحيُ عليه مِن بَيْنِنا؟! كيف يكونُ ذلك؟ بل هو كذَّابٌ مُتجَبِّرٌ مُتكَبِّرٌ مُعجَبٌ بنَفْسِه. فقال اللهُ تعالى ردًّا عليهم، ومهدِّدًا لهم: سيَعلَمونَ قَريبًا: مَنِ الكَذَّابُ المُتجَبِّرُ المُتكَبِّرُ؟!

ثُمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما اختَبَر به قومَ صالحٍ، وما أمَر به نبيَّه صالحًا عليه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا مُرسِلو النَّاقةِ؛ اختِبارًا لِثَمودَ، فترَقَّبْهم -يا صالِحُ- وانظُرْ ماذا يَصنَعون، واصبِرْ عليهم صَبرًا بالِغًا، وأخبِرْهم أنَّ ماءَ القَريةِ مَقسومٌ بَيْنَهم وبيْنَ النَّاقةِ؛ فلَها يَومٌ تَشرَبُ فيه مِن ذلك الماءِ، ولهم يومٌ يَشرَبونَ فيه مِنه، كُلُّ شِربٍ مَحضورٌ مَشهودٌ؛ فإذا كان يومُ النَّاقةِ حَضَرت نصيبَها مِن الماءِ، وإذا كان يومُ ثَمودَ حَضَروا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٠، ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

نصيبَهم مِن الماءِ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما كان مِن ثمودَ واتِّفاقِهم على قتلِ النَّاقةِ: فنادى كُفَّارُ ثَمودَ صاحِبَهم وأشقاهم، فنَحَرَ النَّاقةَ، فكيف كان عذابي لِثَمودَ؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن نَهَج نَهْجَهم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: إنَّا أرسَلْنا على ثمودَ صيَحةً واحِدةً عَظيمةً، فأهلَكَتْهم! فصاروا كحُطامِ النَّباتِ المتفَتِّتِ الَّذي يجمعُه مَن يَصنعُ الحظيرةَ.

ثمَّ يختِمُ الله سبحانَه هذه القصَّةَ بما ختَم به القصَّتينِ السَّابقتَينِ، فيقولُ: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ عادٍ؛ ذَكَر تعالى قِصَّةَ ثَمودَ؛ لأنَّها تلي قِصَّةَ عادٍ في الفَظاعةِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣)﴾.

أي: كذَّبت قَبيلةُ ثَمودَ -قَومِ صالحٍ- بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن النُّذرِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٥، ١٩٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ هم قومُ صالحٍ، كَذَّبوا الرُّسُلَ ونَبيَّهم، أو كذَّبوا بالآياتِ الَّتي هي النُّذُرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥١).

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ ﴾.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾.

أي: فقال كُفَّارُ ثَمُودَ: هو آدَميٌّ مِثلُنا، ورَجُلٌ واحِدٌ فحَسْبُ، فكيف نتَّبِعُه[1]؟

﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾.

أي: إنَّا إنِ اتَّبَعْناه لَفي ذَهابٍ عن الحقِّ والصَّوابِ، وفي شَقاءٍ وعَذابٍ[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

قال ابنُ عاشور: (وَصْفُ «بَشَرًا» بـ ﴿وَٰحِدٗا﴾: إمَّا بمعنى أنَّه مُنفَرِدٌ في دَعوتِه، لا أتْباعَ له ولا نُصَراءَ، وإمَّا بمعنى أنَّه مِن جملةِ آحادِ النَّاسِ، أي: ليس مِن أفضَلِنا، وإمَّا بمعنى أنَّه مُنفَرِدٌ في ادِّعاءِ الرِّسالةِ، لا سلَفَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ٢٧٩).

قيل: السُّعُرُ: بمعنى: العَناءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والسَّمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٧٩).

وقيل: السُّعُرُ هنا: الجُنونُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧).

قال ابن عطيَّة: (﴿وَسُعُرٍ﴾ معناه: في احتِراقِ أنفُسٍ واستِعارِها حَنَقًا وهَمًّا باتِّباعِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٧).

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾.

أي: وقالوا: أأُنزِلَ الوَحيُ على هذا الرَّجُلِ فاختُصَّ بالنُّبُوَّةِ مِن بَيْنِنا؟! كيف يكونُ ذلك؟ وأيُّ مَزيَّةٍ له علينا حتَّى يَستَحِقَّ ذلك[1]؟!

﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾.

أي: وقالوا: لَمْ يختَصَّ اللهُ صالِحًا بالوَحيِ والنُّبُوَّةِ، وإنَّما هو امرُؤٌ كَذَّابٌ، كَثيرُ المَرَحِ والتَّجبُّرِ والتَّكبُّرِ، فهو مُعجَبٌ بنَفْسِه، مُدَّعٍ ما ليس له[2]!

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: سيَعلَمونَ قَريبًا حينَ يأتيهم العَذابُ: مَنِ الكَذَّابُ، الكَثيرُ المَرَحِ والتَّجَبُّرِ والتكَبُّرِ: أصالِحٌ أم قَومُه[3]؟!

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾.

أي: إنَّا باعِثُو النَّاقةِ؛ اختِبارًا وامتِحانًا لِثَمودَ؛ فإمَّا أن يُؤمِنوا باللهِ ويتَّبِعوا نَبيَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).
قال القرطبي: (﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ أي: سيَرَونَ العَذابَ يومَ القيامةِ، أو في حالِ نُزولِ العَذابِ بهم في الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٩).

صالِحًا، أو يُكَذِّبوه ويَكفُروا باللهِ تعالى[(١)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾.

أي: فتَرقَّبْ -يا صالِحُ- وانظُرْ ما يَحصُلُ لهم مِنَ الفِتنةِ عندَ ظُهورِ النَّاقةِ، وما هم صانِعوه فيها، واصبِرْ عليهم صَبرًا قَويًّا بالِغًا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٩).

قال السعدي: (أرسَل اللهُ النَّاقةَ الَّتي هي مِن أكبَرِ النِّعَمِ عليهم، آيةً مِن آياتِ الله، ونعمةً يَحتلِبون مِن ضَرْعِها ما يكفيهم أجمَعينَ، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختِبارًا منه لهم وامتِحانًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

وقال الشنقيطي: (﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: ابتِلاءً واختِبارًا، وهو مفعولٌ مِن أجْلِه؛ لأنَّهم اقترَحوا على صالحٍ إخراجَ ناقةٍ مِن صخرةٍ، وأنَّها إن خرجتْ لهم منها آمَنوا به واتَّبَعوه، فأخرَج اللهُ النَّاقةَ مِن تلك الصَّخرةِ مُعجِزةً لصالحٍ، وفِتْنةً لهم، أي: ابتِلاءً واختِبارًا؛ وذلك أنَّ تلك النَّاقةَ مُعجِزةٌ عايَنوها، وأنَّ اللهَ حذَّرهم على لسانِ نبيِّه صالحٍ مِن أن يَمَسُّوها بسوءٍ، وأنَّهم إن تعرَّضوا لها بأذًى أخَذَهم اللهُ بعذابِه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

قال ابن عاشور: (الارتقابُ: الانتظارُ... والمعنى: فارتقِبْ ما يحصُلُ لهم مِن الفتنةِ عندَ ظهورِ النَّاقةِ. والاصطبارُ: الصَّبرُ القويُّ... أي: اصبِرْ صبرًا لا يَعتريه مللٌ ولا ضجَرٌ، أي: اصبِرْ على =

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨)﴾.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ﴾.

أي: وأخبِرْهم أنَّ ماءَ القَريةِ مَقسومٌ بَيْنَهم وبيْنَ النَّاقةِ؛ فلَها يَومٌ تَشرَبُ فيه مِن ذلك الماءِ، ولهم يومٌ يَشرَبونَ فيه منه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾.

أي: إذا كان يومُ النَّاقةِ حَضَرت نصيبَها مِن الماءِ، وإذا كان يومُ ثَمودَ حَضَروا نصيبَهم مِن الماءِ[2].

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩)﴾.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾.

= تكذيبِهم، ولا تيأسْ مِن النَّصرِ عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٠).

قال ابنُ عاشور: (هذا مِن جملةِ ما أُمِرَ رَسولُهم بأنْ يُنَبِّئَهم به، أي: لا يَحضُرِ القَومُ في يَومِ شِرْبِ النَّاقةِ، وهي بإلهامِ اللهِ لا تَحضُرُ في أيَّامِ شِرْبِ القَومِ، والشِّرْبُ -بكَسرِ الشِّينِ-: نَوبةُ الاستِقاءِ مِن الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

وقيل: المعنى: أنَّ ثمودَ يَحضُرونَ في يَومِهم إذا غابت النَّاقةُ فيَشرَبونَ مِن الماءِ، ويَحضُرونَ في يومِ النَّاقةِ فيَشرَبونَ مِن لَبَنِها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وممَّن قال به مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣).

أي: فنادى كُفَّارُ ثَمودَ صاحِبَهم وأشقاهم لِعَقرِ النَّاقةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾.

أي: فباشَرَ قَتْلَها بنَفْسِه[(٢)].

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠﴾.

أي: فكيف كان عَذابي لِثَمودَ على كُفرِهم؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ للكُفَّارِ مِن غَيرِهم؛ لِيَحذَروا أن يَحُلَّ بهم العَذابُ[(٣)]؟

ثُمَّ بَيَّن اللهُ تعالى ما أجْمَله مِن العذابِ، فقال[(٤)]:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا على ثمودَ صيحةً واحِدةً عَظيمةً، فأهلَكَتْهم[(٥)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قال ابنُ كثير: (قال المفسِّرون: هو عاقِرُ النَّاقةِ، واسمُه قُدارُ بنُ سالفٍ، وكان أشقى قَومِه!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

قال ابنُ عاشور: (العَقرُ: أصلُه: ضَربُ البَعيرِ بالسَّيفِ على عراقيبِه؛ لِيَسقُطَ إلى الأرضِ جاثيًا، فيتَمكَّنَ النَّاحِرُ مِن نَحْرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩، ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - =

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾.

أي: فصاروا كحُطامِ النَّباتِ وما تكَسَّرَ مِنَ الشَّجَرِ اليابِسِ الَّذي يجمعُه مَن يصنعُ الحظيرةَ(١).

= الحديد)) (ص: ٢٨٣).

وقد ذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ: إلى أنَّ الصَّيحةَ كانت صادِرةً مِن جِبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٢).

وقال الواحدي: (يعني: الصَّاعِقةَ الَّتي أخذَتْهم، وهي مذكورةٌ في مواضِعَ مِن التَّنزيلِ. وقال عَطاءٌ: يُريدُ صَيحةَ جِبريلَ). ((البسيط)) (٢١/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢، ٢٠٣).

قال القاسمي: (﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي: كالشَّجرِ اليابسِ المُتكسِّرِ، الَّذي يتَّخِذُه مَن يَعملُ الحَظيرةَ للغنَمِ ونحوِها. أو كالحشيشِ اليابسِ الَّذي يَجمَعُه صاحبُ الحظيرةِ لماشيتِه في الشِّتاءِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٩٣).

والمُحتَظِرُ: قيل: هو صاحِبُ الحَظيرةِ، فكأنَّه يعني: صاحِبَ الغَنَمِ الَّذي يجمَعُ الحَشيشَ في الحظيرةِ لغَنَمِه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيبةَ، والألوسيُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٩).

وقيل: المُحتظِرُ: الَّذي يَعمَلُ الحَظيرةَ، وهي حائطٌ مِن الأغصانِ أو القَصَبِ ونحوِ ذلك، وما يُحتظَرُ به يَيبَسُ بطُولِ الزَّمانِ، وتطَؤه البهائمُ فيَتحطَّمُ ويَتهشَّمُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والزَّمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٨)، =

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٣٢﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[1].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ[2]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى قد يُظْهِرُ للإنسانِ مِن الآياتِ ما يُؤْمِنُ على مِثْلِه البشَرُ، حتَّى إذا استكبَرَ كان استِكبارُه عن عِلْمٍ، فكان عِقابُه أشدَّ وأوجَعَ؛ ولهذا جَعَلَ اللهُ النَّاقةَ فِتنةً؛ لأنَّها أظهرَتِ الحقَّ لهم، ولكِنْ لم يَقبَلوه، وانتبِهْ لهذا الاستِدراجِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، إذا يَسَّرَ اللهُ

= ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٥).

قال السَّمينُ الحَلَبي: (أي: لَمَّا هَلَكوا صاروا مِثلَ حُطامِ النَّباتِ الَّذي يتَّخذُه الرَّاعي حَظيرةً، في كَونِه هشيمًا مُتكَسِّرًا، ولله دَرُّ القُرآنِ! ما أبلَغَ تَشبيهاته!). ((عمدة الحفاظ)) (٤/ ٢٥٢).

وقال ابنُ عطية: (قرأ جمهورُ النَّاسِ: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بكَسرِ الظَّاءِ، ومعناه: الَّذي يَصنَعُ حَظيرةً؛ مِن الرِّعاءِ ونَحوِهم، قاله أبو إسحاقَ السَّبيعيُّ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وهي مأخوذةٌ مِن الحَظْرِ، وهو المنعُ، والعرَبُ وأهلُ البوادي يَصنَعونَها للمَواشي وللسُّكنى أيضًا مِنَ الأغصانِ والشَّجَرِ المُورِقِ والقَصَبِ ونَحوِه، وهذا كُلُّه هَشيمٌ يَتفَتَّتُ إمَّا في أوَّلِ الصَّنعةِ، وإمَّا عندَ بِلَى الحَظيرةِ وتَساقُطِ أجزائِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

لك أسبابَ المعصيةِ فلا تَفعَلْ؛ فإنَّ اللهَ رُبَّما يُيَسِّرُ أسبابَ المعصيةِ للإنسانِ؛ فِتنةً له[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ لم يَقُلْ: «فارتَقِبِ العذابَ»؛ إشارةً إلى حُسنِ الأدَبِ، والاجتِنابِ عن طَلَبِ الشَّرِّ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ قَولِه تعالى هنا: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾، وفي قِصَّةِ عادٍ قال: ﴿كَذَّبَتۡ﴾ [القمر: ١٨] ولم يقُلْ: «بالنُّذُرِ»، وفي قِصَّةِ نوحٍ قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [القمر: ٩]!

الجوابُ: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ أنَّ عادتَهم ومَذهَبَهم إنكارُ الرُّسُلِ وتَكذيبُهم؛ فكَذَّبوا نُوحًا بِناءً على مذهبِهم، وإنَّما صَرَّح هاهنا؛ لأنَّ كلَّ قَومٍ يأتُونَ بعدَ قَومٍ، وأتاهما رَسولانِ، فالمكَذِّبُ المتأخِّرُ يُكَذِّبُ المُرسَلينَ جَميعًا حَقيقةً، والأوَّلونَ يُكَذِّبونَ رَسولًا واحِدًا حَقيقةً، ويَلزَمُهم تكذيبُ مَن بَعْدَه بِناءً على ذلك؛ لأنَّهم لَمَّا كَذَّبوا مَن تقَدَّمَ في قَولِه: «اللهُ تعالى واحِدٌ، والحَشرُ كائِنٌ» ومَن أُرسِلَ بعْدَه كذلك في قَولِه ومَذْهَبِه- لَزِمَ منه أن يكَذِّبوه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أنَّ المُشابَهةَ في البَشَريَّةِ لا تَستَلزِمُ عدَمَ التَّفاوُتِ في فَضلِ اللهِ تعالى! كما قال جَلَّ وعلا: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، وهذه الأقيِسةُ فاسدةٌ[٤]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٤٢).

٣- في قَولِه تعالى؛ إنكارًا على ثَمودَ: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ حُجَّةٌ واضِحةٌ في قَبولِ خبرِ الواحدِ العَدْلِ، ورَدٌّ على مَن يَرُدُّه؛ لأنَّ ثمودَ مع بشَريَّةِ صالحٍ أنكَروا وَحْدَتَه، فكذَّبوه لذلك[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أنَّ هذا الكَلامَ مِن ضَلالِهم وشَقائِهم؛ فإنَّهم أَنِفُوا أن يتَّبِعوا رَسولًا مِنَ البَشَرِ، ولم يأنَفوا أن يكونوا عابِدينَ للشَّجَرِ والحَجَرِ والصُّوَرِ[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أنَّ مِن مَدارِكِ عُقولِ الجَهَلةِ قِياسَ الأُمورِ بمقاييسِ قُصورِ أفهامِهم، ويَحسَبونَ أنَّ أسبابَ الأَثَرةِ في العاداتِ هي أسبابُها في الحقائِقِ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ مع قَولِه عن مُشرِكي قُرَيشٍ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فيه أنَّ قُلوبَ الكُفَّارِ مُتشابِهةٌ، فكانت أعمالُهم مُتشابِهةً، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٤] [الذاريات: ٥٣]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ دَلالةٌ على جوازِ «المُهايَأةِ»[٥]

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

(٥) المُهايَأةُ: هي أنْ يَتَواضَعوا على أمرٍ فيَتَراضَوْا به، وحقيقَتُه أنَّ كلًّا منهم يرضَى بحالةٍ واحدةٍ ويختارُها. أو هي مُقاسَمةُ المنافِعِ، وهي أنْ يَتراضى الشَّريكانِ أنْ يَنتَفِعَ هذا بهذا النِّصفِ المُفْرَزِ، وذاك بذاك النِّصفِ، أو هذا بكلِّه في كذا مِن الزَّمانِ، وذاك بكُلِّه في كذا مِن الزَّمانِ بقَدرِ مُدَّةٍ =

على الماءِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الماءَ مَقسومٌ بيْنَ النَّاسِ، ليس لأحدٍ أنْ يَنفرِدَ به، ويَمنعَ غيرَه، فما كان مِن السَّماءِ والأنهارِ والعُيونِ فالقِسمةُ واقعةٌ عليه بالسَّوِيَّةِ، وما كان يَجري بالنَّفَقةِ والكُلْفةِ فهو لِمَن أجراه وأَنفقَ عليه؛ يَمنَعُه ممَّن أحَبَّ إلَّا الشَّفةَ[٢]، فلا يجوزُ مَنعُه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، إلَّا أنْ يُحرَزَ منه شَيءٌ في بيتٍ أو رَكْوةٍ أو آنيةٍ، أو ما أشْبَهَ ذلك[٣].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ عاقرَ النَّاقةِ واحدٌ، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على كَونِه غيرَ واحدٍ، كقولِه: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]؟

والجوابُ مِن وجهَين:

الأوَّلُ: أنَّهم تَمالَؤوا كلُّهم على عَقْرِها، فانْبَعَث أشْقاهم لمُباشَرةِ الفِعلِ؛ فأُسنِدَ العقْرُ إليهم؛ لأنَّه برِضاهم ومُمالأتِهم. فثَمودُ اتَّفَقوا كلُّهم على عقْرِ الناقةِ، فنادَوا واحدًا منهم ليُنفِّذَ ما اتَّفَقوا عليه؛ أصالةً عن نفْسِه، ونِيابةً عن غيرِه. ومَعلومٌ أنَّ المُتمالئِينَ على العقْرِ كُلهم عاقِرون، وصحَّت نِسبةُ العقْرِ إلى المُنفِّذِ المباشِرِ للعقرِ، وصحَّت نِسبتُه أيضًا إلى الجميعِ؛ لأنَّهم مُتمالِئون، كما دلَّ عليه تَرتيبُ

= الأوَّل. يُنظر: ((طلبة الطلبة)) للنسفي (ص: ١٢٧)، ((المغرب في ترتيب المعرب)) للمُطَرِّزي (ص: ٥٠٩).

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٩٥)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٢).

(٢) الشَّفَةُ واحدةُ الشِّفاهِ، أصلُها شَفَهَةٌ، أُسقِطَت الهاءُ تَخفيفًا، والمرادُ الشُّرْبُ بالشِّفاهِ، وأهلُ الشَّفَةِ هم الَّذين لهم حَقُّ الشُّرْبِ بشِفاهِهم، وسَقْيُ دَوابِّهم والاستِقاءُ بالأواني، دونَ سقيِ الأراضي. يُنظر: ((طلبة الطلبة)) للنسفي (ص: ١٥٦)، ((العناية شرح الهداية)) للبابرتي (١٠/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٨).

تَعاطي العقْرِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ على نِدائِهم صاحبَهم؛ ليَنوبَ عنهم في مُباشَرةِ العقْرِ في قولِه تَعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾، أي: نادَوه ليَعقِرَها.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه مِن إسنادِ الفعلِ إلى المجموعِ مُرادًا به بَعضُه[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ مُناسَبةٌ في أخذِ ثَمودَ بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ؛ لأنَّهم نَادَوا صاحِبَهم ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾، فلمَّا كان نِداؤُهم صاحِبَهم سَببًا في عَقرِ النَّاقةِ، كان هَلاكُهم بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ[2]!

١١- عبَّر اللهُ عزَّ وجلَّ عن الهلاكِ الَّذي أهلَك به ثمودَ بعِباراتٍ مُختلِفةٍ؛ فذكره في مَواضِعَ مِن كتابِه باسمِ الصَّيحةِ، ومِن ذلك قولُه هنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

وعبَّر عنه بالصَّاعِقةِ في مَواضِعَ مِن كتابِه، منها قولُه تعالى في سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

وعبَّر عنه بالرَّجْفةِ في سورةِ (الأعرافِ)، في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وعبَّر عنه بالتَّدميرِ في سورةِ (النَّملِ)، في قولِه تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

وعبَّر عنه بالطَّاغيةِ في (الحاقَّة)، في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٩).

وعبَّر عنه بالدَّمْدَمةِ في (الشَّمس)، في قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

وعبَّر عنه بالعذابِ في سورةِ (الشُّعَراء)، في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨].

ومعنى هذه العِباراتِ كلِّها راجعٌ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ اللهَ أرسَل عليهم صَيحةً أهلكَتْهم، والصَّيحةُ: الصَّوتُ المُزعِجُ المُهلِكُ. والصَّاعِقةُ تُطلَقُ أيضًا على الصَّوتِ المُزعِجِ المُهلِكِ، وعلى النَّارِ المُحرِقةِ، وعليهما معًا، ولِشِدَّةِ عظمِ الصَّيحةِ وهَوْلِها مِن فَوقِهم رجفَتْ بهم الأرضُ مِن تحتِهم، أي: تحرَّكَتْ حرَكةً قويَّةً، فاجتمَع فيها أنَّها صَيحةٌ وصاعِقةٌ ورَجْفةٌ، وكَوْنُ ذلك تدميرًا واضحٌ. والمرادُ بالصَّيحةِ: الطَّاغيةُ الَّتي أهلَكهم الله بها، وقيل لها طاغيةٌ؛ لأنَّها واقِعةٌ مُجاوِزةٌ للحدِّ في القوَّةِ وشدَّةِ الإهلاكِ.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤] فإنَّه لا يُخالِفُ ما ذكَرْنا؛ لأنَّ معنَى الآيةِ أنَّه أطبَق عليهم العذابَ، وألْبَسَهم إيَّاه بسببِ ذَنْبِهم.

وأمَّا إطلاقُ العذابِ عليه في سورةِ (الشُّعَراءِ) فواضِحٌ؛ فاتَّضَح رُجوعُ معنَى الآياتِ المذكورةِ إلى شَيءٍ واحدٍ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾

- مَوقِعُ هذه الجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ كمَوقعِ جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١-٢٣).

[القمر: ٩]؛ فكان مُقْتَضى الظَّاهِرِ أنْ تُعطَفَ عليها، وإنَّما فُصِلَت عنها؛ لِيكونَ في الكلامِ تَكريرُ التَّوبيخِ والتَّهديدِ والنَّعْيِ عليهم عقِبَ قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، ومَقامُ التَّوبيخِ والنَّعْيِ يَقْتضي التَّكريرَ[1].

- وإسنادُ حُكْمِ التَّكذيبِ إلى ثَمودَ -وهو اسمُ القَبيلةِ- مُعتبَرٌ فيه الغالبُ الكثيرُ؛ فإنَّ صالحًا قد آمَنَ به نفَرٌ قليلٌ، كما حَكاهُ اللهُ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[2] [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

- وفُرِّعَ على جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ قولُه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ إلى قولِه: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم كذَّبوا إنذاراتِ رَسولِهم -أي: جَحَدوها- ثمَّ كذَّبوا رَسولَهم[3].

- وقولُهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ...﴾ إلى آخِرِه، هذا القولُ يَقتضي كَوْنَه جَوابًا عن دَعوةٍ وإنذارٍ، وإنَّما فُصِّلَ تَكذيبُ ثَمودَ وأُجمِلَ تَكذيبُ عادٍ؛ لقَصْدِ بَيانِ المُشابَهةِ بيْن تكذيبِ ثَمودَ وتَكذيبِ قُريشٍ؛ إذ تَشابَهَت أقوالُهم[4].

- وهذا قَولٌ قالوه لرَسولِهم لَمَّا أنْذَرَهم بالنُّذُرِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَذَّبَتْ﴾ يُؤْذِنُ بمُخبِرٍ؛ إذ التَّكذيبُ يَقْتضي وُجودَ مُخبِرٍ، وهو كلامٌ شافَهوا به صالحًا عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّلامُ، وهو الَّذي عَنَوه بقَولِهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ إلخ، وعَدَلوا عن الخِطابِ إلى الغَيبةِ[١].

- قولُه: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾، الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ؛ أنْكَروا أنْ يُرسِلَ اللهُ إلى النَّاسِ بشَرًا مِثلَهم في الجِنسيَّةِ، وطَلَبوا أنْ يكونَ مِن جِنسٍ أعْلى مِن جِنسِ البشَرِ، وهم الملائكةُ[٢].

- وانتَصَب ﴿أَبَشَرًا﴾ على المَفعوليَّةِ لـ ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ على طَريقةِ الاشتِغالِ[٣]، وقُدِّمَ لاتِّصالِه بهَمزةِ الاستفهامِ؛ لأنَّ حقَّها التَّصديرُ، واتَّصَلت به دونَ أنْ تَدخُلَ على (نتَّبِع)؛ لأنَّ مَحلَّ الاستفهامِ الإنكاريِّ هو كَونُ البشَرِ مَتْبوعًا، لا اتِّباعُهم له، وهذا مِن دَقائقِ مَواقعِ أدواتِ الاستفهامِ[٤].

- قوله: ﴿وَٰحِدًا﴾ صِفةٌ أُخرى لـ (بَشَرًا)، وتأْخيرُه عن الصِّفةِ المُؤوَّلةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كلًّا مِن الجِنسيَّةِ والوَحدةِ ممَّا يَمنَعُ الاتِّباعَ، ولو قُدِّمَ عليها لَفاتتْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

(٣) الاشتِغالُ: هو أن يتقَدَّمَ اسمٌ واحِدٌ، ويتأخَّرَ عنه عامِلٌ مُشتَغِلٌ عن العَمَلِ في ذلك الاسمِ بالعَمَلِ في ضَميرِه مُباشَرةً، أو في سَبَبِه -أي: كلِّ شَيءٍ له صِلةٌ وعَلاقةٌ به؛ مِن قَرابةٍ، أو صداقةٍ، أو عَمَلٍ-، بحيثُ لو فُرِّغ مِن ذلك المعمولِ وسُلِّطَ على الاسمِ المتقَدِّمِ، لعَمِلَ فيه النَّصبُ لَفظًا أو محَلًّا. وأركانُ الاشتِغالِ ثلاثةٌ؛ هي:

أ- مَشغولٌ عنه: وهو الاسمُ المتقَدِّمُ.

ب- مشغولٌ: وهو الفِعلُ المتأخِّرُ.

ج- ومَشغولٌ به: وهو الضَّميرُ الَّذي تعدَّى إليه الفِعلُ بنَفْسِه أو بالوَساطةِ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

هذه النُّكتةُ[١].

- جُملةُ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ تَعليلٌ لإنكارِ أنْ يتَّبِعوا بشَرًا منهم، تَقديرُه: أَنتَّبِعُك وأنت بشَرٌ واحدٌ منَّا[٢]؟!

- و(في) للظَّرفيَّةِ، جَعَلوا تَلبُّسَهم بالضَّلالِ والجُنونِ كتَلبُّسِ المَظروفِ بالظَّرْفِ[٣].

- وجُملةُ ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ تَعليلٌ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: كيف يُلْقَى عليه الذِّكرُ دُونَنا؟! يُريدون أنَّ فيهم مَن هو أحقُّ منه بأنْ يُوحَى إليه[٤].

- وقولُه: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ إضرابٌ عمَّا أنْكَروه بقَولِهم: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، أي: لم يَنزِلِ الذِّكرُ عليه مِن بيْنِنا، بلْ هو كذَّابٌ فيما ادَّعاهُ، بَطِرٌ مُتكبِّرٌ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: قُلْنا لنَذيرِهم... الَّذي دلَّ عليه قولُه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]؛ فإنَّ النُّذرَ تَقْتضي نَذيرًا بها، وهو المُناسِبُ لقولِه بعْدَه: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]، وذلك مَبْنيٌّ على أنَّ قولَه آنِفًا: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٢٤] كَلامٌ أجابوا به نِذارةَ صالحٍ إيَّاهم المُقدَّرةَ مِن قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]، وبذلك انتظَمَ الكلامُ أتمَّ انتِظامٍ[٦]؛ فقولُه:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا ... ﴾ حِكايةٌ لِما قالَهُ تعالَى لصالحٍ عليهِ السَّلامُ؛ وعْدًا له، ووَعيدًا لقَومِه، والسِّينُ لتَقريبِ مَضمونِ الجُملةِ وتأْكيدِه[١].

- قولُه: ﴿ سَيَعۡلَمُونَ ﴾ قُرِئَ بياءِ الغَيبةِ، وهو مِن إعلامِ اللهِ تعالى لصالحٍ عليه السَّلامُ. وعلى قِراءةِ ﴿ سَتَعْلَمُونَ ﴾ -بتاءِ الخِطابِ[٢]- فهي تَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا حِكايةَ كَلامٍ مِن اللهِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، على تَقديرِ: قُلْنا له: قُلْ لهم؛ ففيه حذْفُ قَولٍ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ خِطابًا مِن اللهِ لهم، بتَقديرِ: قُلْنا لهم: ستَعْلَمون. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ خِطابًا للمُشرِكين على جعْلِ الجُملةِ مُعترِضةً[٣].

- وفي قولِه: ﴿ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإبهامِ؛ ليَكونَ الوَعيدُ أحفَلَ بالانتقامِ والتَّهديدِ، وأشدَّ أثَرًا في النُّفوسِ، وأَورَدَه مَورِدَ الإبهامِ وإنْ كانوا همُ المَعْنِيِّينَ؛ لأنَّه أراد وقْتَ الموتِ، ولم يُرِدْ غدًا بعَينِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾ هذه الجُملةُ بيانٌ لجُملةِ ﴿ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾ [القمر: ٢٦]، باعتِبارِ ما تَضمَّنَته الجُملةُ المُبيَّنةُ مِن الوَعيدِ، وتَقريبِ زَمانِه، وأنَّ فيه تَصديقَ الرَّسولِ الَّذي كذَّبوه[٥].

- وضَميرُ ﴿ لَّهُمۡ ﴾ جارٍ على مُقتضَى الظَّاهرِ على قِراءةِ ﴿ سَيَعۡلَمُونَ ﴾ بياءِ الغائبةِ. وعلى قِراءةِ ﴿ سَتَعْلَمُونَ ﴾ -بتاءِ الخِطابِ- فضَميرُ ﴿ لَّهُمۡ ﴾ الْتِفاتٌ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١).

(٢) وهي قراءةُ ابنِ عامرٍ، وحمزةَ، وقرأ الباقون ﴿ سَيَعۡلَمُونَ ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإرسالُ النَّاقةِ إشارةٌ إلى قِصَّةِ مُعجزةِ صالحٍ أنَّه أخرَجَ لهم ناقةً مِن صَخْرةٍ -على قولٍ-، وكانتْ تلك المُعجزةُ مُقدِّمةَ الأسبابِ الَّتي عُجِّلَ لهم العذابُ مِن أجْلِها؛ فذِكْرُ هذه القِصَّةِ في جُملةِ البَيانِ تَوطئةٌ وتَمْهيدٌ[١].

- واسمُ الفاعلِ مِن قولِه: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ مُستعمَلٌ في الاستِقبالِ، بقَرينةِ قولِه: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾، فعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (سنُرسِلُ) إلى صِيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لتَقريبِ زمَنِ الاستِقبالِ مِن زمَنِ الحالِ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ الارتقابُ: الانتِظارُ، ارتقَبَ مِثلُ: رقَبَ، وهو أبلَغُ دَلالةً مِن رقَبَ؛ لزيادةِ المَبْنى فيه[٣].

- وعُدِّيَ الارتقابُ إلى ضَميرِهم على تَقديرِ مُضافٍ يَقْتضيهِ الكلامُ؛ لأنَّه لا يَرتقِبُ ذَواتِهم، وإنَّما يَرتقِبُ أحوالًا تَحصُلُ لهم، وهذه طَريقةُ إسنادِ أو تعليقِ المُشتقَّاتِ الَّتي مَعانيها لا تُسنَدُ إلى الذَّواتِ، فتَكونُ على تَقديرِ مُضافٍ اختصارًا في الكلامِ؛ اعتمادًا على ظُهورِ المعْنى[٤].

- والاصطبارُ: الصَّبرُ القويُّ، وهو أقْوى دَلالةً مِن الصَّبرِ[٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ (اصْطَبِرْ)؛ ليَعُمَّ كلَّ حالٍ تَستدعي الضَّجَرَ، والتَّقديرُ: واصطَبِرْ على أذاهُم، وعلى ما تَجِدُه في نفْسِك مِن انتظارِ النَّصرِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾، باعتبارِ أنَّ الوعْدَ بخلْقِ آيةِ النَّاقةِ يَقْتضي كَلامًا مَحذوفًا، تَقديرُه: فأرسَلْنا لهم النَّاقةَ، وقُلْنا: نَبِّئْهم أنَّ الماءَ قِسمةٌ بيْنَهم، على طَريقةِ العَطْفِ والحذْفِ في قولِه: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، وإنْ كان حرْفُ العطْفِ مُختلِفًا، ومِثلُ هذا الحذْفِ كَثيرٌ في إيجازِ القرآنِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ للعهْدِ، أي: ماءَ القريةِ الَّذي يَسْتقُون منه؛ فإنَّ لكلِّ مَحلَّةٍ يَنزِلُها قومٌ ماءً لسُقْياهُم[٢].

- وأُخبِرَ عن الماءِ بأنَّه قِسمةٌ بيْنَ النَّاسِ وبيْنَ النَّاقةِ، والمُرادُ مَقسومٌ؛ فهو مِن الإخبارِ بالمَصدرِ للتَّأكيدِ والمُبالَغةِ[٣].

- وضَميرُ (بَيْنَهُمْ) عائدٌ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ بعْدَ ذِكرِ الماءِ؛ إذ مِن المُتعارَفِ أنَّ الماءَ يَسْتقي منه أهلُ القريةِ لأنفُسِهم وماشِيَتِهم، ولَمَّا ذُكِرَت النَّاقةُ عُلِمَ أنَّها لا تَسْتغني عن الشُّربِ؛ فغُلِّب ضَميرُ العُقلاءِ على ضَميرِ النَّاقةِ الواحدةِ[٤].

- والمُحتضَرَ: اسمُ مَفعولٍ مِن الحُضورِ، وهو ضِدُّ الغَيبةِ، والمعْنى: مُحتضَرٌ عندَه، فحُذِفَ المُتعلَّقُ؛ لظُهورِه[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾

- عُبِّرَ عن قاتِلِ النَّاقةِ بـ﴿صَاحِبَهُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم راضُون بفِعلِه؛ إذ هم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

مُصاحِبون له ومُمالِئون[١].

- ونِداؤهم إيَّاهُ نِداءُ الإغراءِ بالنَّاقةِ، وإنَّما نادَوه لأنَّه مُشتهِرٌ بالإقدامِ، وقِلَّةِ المُبالاةِ؛ لعِزَّتِه[٢].

- و﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ مُطاوِعُ عاطاهُ، وهو مُشتَقٌّ مِن: عَطا يَعْطو، إذا تناوَلَ. وصِيغةُ (تَفاعل) تَقْتضي تَعدُّدَ الفاعلِ، شُبِّهَ تَخوُّفُ القَومِ مِن قتْلِها لِما أنذَرَهم به رسولُهم مِن الوعيدِ، وتَردُّدُهم في الإقدامِ على قتْلِها بالمُعاطاةِ؛ فكلُّ واحدٍ حِينَ يُحجِمُ عن مباشَرةِ ذلك، ويُشيرُ بغَيرِه، كأنَّه يُعْطي ما بيَدِه إلى يَدِ غيرِه حتَّى أخَذَه أشقَى القَومِ فعقَرَها[٣].

- وعُطِفَ ﴿فَعَقَرَ﴾ بالفاءِ؛ للدَّلالةِ على سُرعةِ إتيانِه ما دَعَوه مِن أجْلِه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تَفريعٌ على القصَّةِ، فليس هو تَكريرًا، ولكنَّه خاصٌّ بهذه القصَّةِ[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بَيانٌ للإجمالِ الَّذي في قولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٠]، وهو في صُورةِ جَوابٍ للاستِفهامِ الصُّوريِّ، وكِلْتا الجُملتَينِ يُفيدُ تَعريضًا بتَهديدِ المُشرِكين بعَذابٍ على تَكذيبِهم[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤، ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧، ٢٠٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٢، ٢٠٢).

- والصَّيحةُ: الصَّاعقةُ، وهي المُعبَّرُ عنها بالطَّاغيةِ في سُورةِ (الحاقَّةِ)، وفي سُورةِ (الأعرافِ) بالرَّجْفةِ، وهي صاعقةٌ عظيمةٌ خارِقةٌ للعادةِ أهلَكَتْهم؛ ولذلك وُصِفَت بـ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها خارقةٌ للعادةِ؛ إذ أتَتْ على قَبيلةٍ كاملةٍ[١].

- والهشيمُ: ما يَبِسَ وجَفَّ مِن الكلأِ ومِن الشَّجَرِ، وهو مُشتقٌّ مِن الهشْمِ، وهو الكسْرُ؛ لأنَّ اليابسَ مِن ذلك يَصيرُ سَريعَ الانكسارِ، والمرادُ هنا شَيءٌ خاصٌّ منه، وهو ما جَفَّ مِن أغصانِ العِضاهِ والشَّوكِ وعَظيمِ الكلأِ، كانوا يتَّخِذون منه حَظائرَ لحِفظِ أغنامِهم مِن الرِّيحِ والعاديةِ[٢]؛ ولذلك أُضِيفَ الهَشيمُ إلى المُحتظِرِ -وهو بكسْرِ الظَّاءِ المُعجَمةِ- الَّذي يَعمَلُ الحظيرةَ ويَبْنِيها؛ وذلك بأنَّه يَجمَعُ الهشيمَ ويُلْقِيه على الأرضِ؛ ليَرصُفَه بعْدَ ذلك سِياجًا لحَظيرتِه، فالمُشبَّهُ به هو الهشيمُ المَجموعُ في الأرضِ قبْلَ أنْ يُسيَّجَ؛ ولذلك قال: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾، ولم يَقُلْ: كهَشيمِ الحظيرةِ؛ لأنَّ المَقصودَ بالتَّشبيهِ حالتُه قبْلَ أنْ يُرصَفَ ويُصفَّفَ، وقبْلَ أنْ تُتَّخَذَ منه الحَظيرةُ[٣].

- وتَعديةُ إرسالِ الصَّيحةِ إلى ضَميرِهم بِناءً على الغالِبِ[٤].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تَكريرٌ ثانٍ بعْدَ نَظيرَيهِ السَّالفَينِ في قصَّةِ قَومِ نُوحٍ وقصَّةِ عادٍ؛ تَذْييلًا لهذه القصَّةِ كما ذُيِّلَت بنَظيرَيه القِصَّتانِ السَّالِفتانِ، اقْتضى التَّكريرَ مَقامُ الامتِنانِ والحثِّ على التَّدبُّرِ بالقرآنِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

(٢) العاديَةُ: مِن عَدَا يَعْدو على الشَّيءِ، إذا اختلَسه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢، ٢٠٣).

لأنَّ التَّدبُّرَ فيه يأْتي بتَجنُّبِ الضَّلالِ، ويُرشِدُ إلى مَسالِكِ الاهتداءِ، فهذا أهمُّ مِن تَكريرِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ فلذلك أُوثِرَ[1].

- وفائدةُ تَكريرِ قولِه: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ حتَّى يُجدِّدَ المُستمِعون عندَ استماعِ كلِّ نَبأٍ مِن أنباءِ الأوَّلينَ ادِّكارًا واتِّعاظًا، وأنْ يَستأنِفوا تَنبُّهًا واستيقاظًا إذا سَمِعوا الحثَّ على ذلك والبَعثَ عليه، وأنْ يَقرَعَ لهم العَصا مرَّاتٍ، ويُقعقِعَ لهم الشَّنَّ [أي: القِربة الخَلَق] تاراتٍ؛ لئلَّا يَغلِبَهم السَّهوُ، ولا تَستوليَ عليهم الغَفْلةُ، وهكذا حُكْمُ التَّكريرِ؛ كقولِه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عندَ كلِّ نِعمةٍ عدَّها في سُورةِ (الرَّحمنِ)، وقولِه: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عندَ كلِّ آيةٍ أورَدَها في سُورةِ (المرسَلاتِ)، وكذلك تَكريرُ الأنباءِ والقصصِ في أنفُسِها؛ لتَكونَ تلك العِبَرُ حاضِرةً للقلوبِ، مُصوَّرةً للأذهانِ، مَذكورةً غيرَ مَنْسيةٍ في كلِّ أوانٍ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٩).

الآيات (٣٣-٤٠)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً
مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ
عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨)
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَاصِبًا﴾: أي: حِجارةً، أو: ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّمْيِ[١].

﴿بِسَحَرٍ﴾: السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيلِ، وأصلُه: يدُلُّ على وَقتٍ مِن الأوقاتِ[٢].

﴿بَطْشَتَنَا﴾: أي: عُقوبتَنا، وأخْذَنا إيَّاهم بالعَذابِ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخْذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ[٣].

﴿فَتَمَارَوْا﴾: أي: شَكُّوا وكَذَّبوا، والمِرْيَةُ: التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

﴿رَاوَدُوهُ﴾: أي: أرادوا منه تَمكينَهم مِن ضُيوفِه، والمُراوَدةُ: مُفاعَلةٌ مِن راد يَرودُ: إذا جاء وذَهبَ، وأصلُ (رود): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ[1].

﴿فَطَمَسْنَا﴾: أي: مَحَوْنا وأَعمَيْنا، والطَّمسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسْحِه[2].

﴿صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾: أي: جاءَهم وقْتَ الصُّبحِ، يُقالُ: صَبَحْتُ فُلانًا وصَبَّحْتُه: إذا أتَيْتَه صَباحًا، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ قَومِ لوطٍ مِن نبيِّهم لوطٍ عليه السَّلامُ: كذَّبتْ قَومُ لُوطٍ بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن نُذُرٍ تُنذِرُهم عَذابَه، إنَّا أرسَلْنا على قَومِ لُوطٍ حِجارةً مِنَ السَّماءِ لإهلاكِهم إلَّا آلَ لُوطٍ الَّذين آمَنوا به واتَّبَعوه على دينِه؛ فإنَّا نَجَّيْناهم مِنَ العَذابِ وقْتَ السَّحَرِ في آخِرِ اللَّيلِ؛ إنعامًا مِنَّا عليهم، وكما أنجَيْنا لُوطًا وآلَه مِنَ العَذابِ نُنْجِي أيضًا كُلَّ مَن شَكَرَنا على نِعَمِنا.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي أدَّت إلى إهلاكِ قَومِ لوطٍ: ولقد خوَّف لُوطٌ قَومَه وحَذَّرهم مِن أخْذَتِنا الشَّديدةِ لهم، فشَكُّوا في إنذارِه لهم وكذَّبوا، ولقد راوَدوه عن ضُيوفِه؛ أنْ يمكِّنَهم مِن فِعلِ الفاحِشةِ بهم، فطَمَسْنا أعيُنَهم، فلمْ يُبصِروا! فذُوقوا -يا قَومَ لُوطٍ- عَذابي وعاقِبةَ إنذاري.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٣٣).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: ولقد صبَّحَهم أوَّلَ النَّهارِ عَذابٌ ثابِتٌ مُستَمِرٌّ. فذُوقوا -يا قومَ لُوطٍ- عَذابي وعاقِبةَ إنذاري.

ويختِمُ سبحانَه قِصَّتَهم بما ختَم به القصصَ السَّابقةَ، فيقولُ: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت قِصَّةُ لُوطٍ -عليه السَّلامُ- مع قَومِه أعظَمَ ما كان بعدَ ثَمودَ مِمَّا تَعرِفُه العَرَبُ بالأخبارِ، ورُؤيةِ الآثارِ، ومعَ ما في قِصَّتِهم مِن تَصويرِ السَّاعةِ مِن تبديلِ الأرضِ غيرَ الأرضِ- استأنَفَ قولَه[1]:

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾.

أي: كذَّبتْ قومُ لُوطٍ بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن النُّذرِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه[2].

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٤).

قوله: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ جمعَ نذيرٍ، أي: كَذَّبَتْ بالرُّسلِ المُرسَلينَ إليهم، وقال: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ معَ أنَّ لُوطًا كان واحدًا؛ لأنَّ مَن كذَّب واحِدًا مِن الرُّسُلِ، فكأنَّه كذَّب جميعَ الرُّسلِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا بمعنَى الإنذارِ، أي: كَذَّبَتْ بالإنذارِ الَّذي أُنْذِروا به. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥١).

فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا على قَومِ لُوطٍ حِجارةً أُمطِرَتْ عليهم؛ لإهلاكِهم(١).

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾.

أي: إلَّا لوطًا ومَن تبِعه على دينِه وآمَن به؛ فإنَّا نَجَّيْناهم مِنَ العَذابِ وَقتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٤).

قيل: الحاصِبُ: هو الحِجارةُ. ومِمَّن قال بهذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: هو الرِّيحُ الَّتي تَرمي بالحَصباءِ، وهي الحَصى. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ صِغارُ الحَصى: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦).

وقيل: الحاصِبُ: السَّحابُ الرَّامي بالبَرَدِ وغَيرِه. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٩).

قال الشنقيطي في سورةِ الإسراءِ بعدَ أن ذكر أنَّ الحاصِبَ قد قيل: إنَّها السَّحابةُ أو الرِّيحُ، قال: (وكِلا القَولَينِ صحيحٌ؛ لأنَّ كلَّ ريحٍ شديدةٍ تَرمي بالحَصْباءِ تُسمَّى حاصِبًا وحَصِبَةً، وكلَّ سَحابةٍ تَرمي بالبَرَدِ تُسمَّى حاصِبًا أيضًا). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٣).

وقيل غيرُ ذلك في معنى الحصباءِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤١٧).

السَّحَرِ في آخِرِ اللَّيلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

أي: إنعامًا مِنَّا عليهم، وكَرامةً لهم مِن عِندِنا[(٢)]!

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

أي: كما أنجَيْنا لُوطًا وآلَه مِنَ العَذابِ؛ بسَبَبِ طاعتِهم للهِ تعالى - نُنْجِي أيضًا كُلَّ مَن شَكَرَنا على ما أنعَمْنا عليه مِنَ النِّعَمِ، فآمَنَ باللهِ وأطاعَه[(٣)].

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ولقد خوَّف لُوطٌ قومَه، وحَذَّرهم مِن أخْذَتِنا الشَّديدةِ قبْلَ حُصولِها، فشَكُّوا في إنذاراتِه، وكذَّبوا بها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣-١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).
﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أي: لُوطًا ومَن تَبِعه، وقيل: لم يَتْبَعْه إلَّا ابنتاه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).
قال ابنُ عثيمين: (أي: أنعَمْنا على آلِ لوطٍ نِعمةً مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ من وَجهَينِ: الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ أنجاهم. والوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ أهلَكَ عَدُوَّهم؛ لأنَّ إهلاكَ العَدُوِّ من نِعمةِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن =

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾.

أي: ولقد طَلَب قَومُ لُوطٍ منه تمكينَهم مِن فِعلِ الفاحِشةِ بضُيوفِه، وألَحُّوا في طَلَبِهم مِرارًا[١]، فطَمَسْنا أعيُنَهم، فصارت كسائِرِ الوَجهِ بلا شَقٍّ، فلم يُبصِروا[٢]! كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ

= كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥، ٢٨٦).

(١) قال ابن كثير: (﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ ﴾ وذلك لَيلةَ ورَدَ عليه الملائِكةُ: جِبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ في صورةِ شَبابٍ مُرْدٍ حِسانٍ؛ محنةً مِنَ اللهِ بهم، فأضافهم لوطٌ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٦).

وممَّن قال بأنَّ معنى طَمْسِ الأعيُنِ هنا: هو تصييرُها كسائِرِ الوَجهِ، فلا يكونُ لها شَقٌّ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والشوكاني، ونسَبَه البَغَويُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩، ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦).

وقال القرطبي: (﴿ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾ يُروى أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ ضَرَبَهم بجَناحِه، فعَمُوا. وقيل: صارت أعينُهم كسائِرِ الوَجهِ لا يُرى لها شَقٌّ، كما تَطمِسُ الرِّيحُ الأعلامَ بما تَسفي عليها مِنَ التُّراب.

وقيل: لا، بل أعماهم اللهُ مع صِحَّةِ أبصارِهم، فلم يَرَوهم. قال الضَّحَّاكُ: طَمَس اللهُ على أبصارِهم، فلم يرَوُا الرُّسُلَ، فقالوا: لقد رأيْناهم حينَ دَخَلوا البَيتَ فأين ذَهَبوا؟! فرجَعوا ولم يَرَوهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

وقال ابن عثيمين: (أمَّا كيف طَمَس أعيُنَهم: هل جِبريلُ عليه السَّلامُ ضَرَبَهم بجَناحِه، أو غيرُ ذلك؟ اللهُ أعلَمُ، إنَّما علينا أن نؤمِنَ بأنَّ اللهَ تعالى طَمَس أعيُنَهم، حتَّى أصبَحوا لا يُبصِرونَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٦).

يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ * قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٧٨ - ٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ * قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧١].

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

أي: فذُوقوا -يا مَعشَرَ قَومِ لُوطٍ- عَذابي الَّذي حلَّ بكم، وعاقِبةَ إنذاراتي الَّتي أُنذِرْتُم بها[١]!

﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨﴾.

أي: ولقد صبَّحَ قَومَ لوطٍ أوَّلَ النَّهارِ عَذابٌ ثابِتٌ لا يَنقَطِعُ عنهم[٢].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٢)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).
قال أبو حيَّان: (﴿عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾: أي: لم يَكشِفْه عنهم كاشِفٌ، بل اتَّصل بمَوتِهم، ثمَّ بما بعدَ ذلك مِن عذابِ القَبرِ، ثمَّ عذابِ جَهنَّمَ!). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦).
وقال ابنُ عاشور: (المُستقِرُّ: الثَّابتُ الدَّائمُ الَّذي يجري على قُوَّةٍ واحِدةٍ لا يُقلِعُ، حتَّى استأصَلَهم. والعذابُ: هو الخَسفُ ومَطَرُ الحِجارةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤].

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩﴾.

أي: فذُوقوا -يا مَعشَرَ قَومِ لُوطٍ- عَذابي الَّذي حَلَّ بكم، وعاقِبةَ إنذاراتي الَّتي أُنذِرْتُم بها[١].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٤٠﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[٢].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ الكريمِ[٣]؟

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَسَّرَ القرآنَ للذِّكْرِ؛ لِحِفْظِه، ولِفَهْمِ مَعناه، وهذا الخبرُ يُرادُ به الحَثُّ على حِفْظِ القُرآنِ، وعلى تَدبُّرِ معناه؛ لأنه مُيَسَّرٌ سَهْلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ أَخَذَ منه أهلُ العِلمِ أنَّ اللُّوطيَّ يُقتَلُ بكُلِّ حالٍ -الفاعِلَ والمفعولَ به-، وهذا هو القولُ الرَّاجِحُ: أنَّ اللِّواطَ يجِبُ فيه القَتلُ على كُلِّ حالٍ، وليس كالزِّنا[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ أنَّ لفْظَ «آلِ فلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكتابِ والسُّنَّةِ دَخَلَ فيه فُلانٌ[2].

٣- ذِكْرُ ﴿بِسَحَرٖ﴾ -أي: في وقْتِ السَّحَرِ-؛ للإشارةِ إلى إنجائِهم قُبَيلَ حُلولِ العَذابِ بقَومِهم؛ لقولِه بعْدَه: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾[3] [القمر: ٣٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ أنَّ إهلاكَ العَدُوِّ هو مِن نِعمةِ اللهِ تعالى[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ أنَّه كما جازَيْنا لُوطًا وأهْلَه بالإنجاءِ فكذلك نَجزي مَن شَكَر -أي: آمَنَ باللهِ وأطاعه-. قال المفَسِّرونَ: هو وعْدٌ لأمَّة محمَّدٍ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنَّه يَصونُهم عن الهلاكِ العامِّ[5].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ قومَ لوطٍ عَمُوا قبْلَ أنْ يُخسَفَ بهم، ويُمطَرَ عليهم؛ ففيه بيانٌ واضِحٌ -لِمَن تَدَبَّرَه- أنَّ النَّظَرَ إلى المُرْدِ للشَّهوةِ مَعصِيةٌ؛ لأنَّ الملائِكةَ كانوا جاؤوا لوطًا في صُورةِ المُرْدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧١).

مِنَ البَشَرِ، فلمَّا رَمَقُوهم بعَينِ الشَّهوةِ عُوقِبوا بالعَمَى[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ سؤالٌ: أنَّ النُّذُرَ كيف تُذاقُ؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ ثَمَرتُه وفائدتُه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أنَّ لَفْظَ «الذَّوقِ» يُستعمَلُ في كلِّ ما يُحَسُّ به ويَجِدُ أَلَمَه أو لَذَّتَه، ولا يَختَصُّ لفظُ «الذَّوقِ» بما يكونُ بالفَمِ[٣]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ قيل: عُرِّفَ قومُ لُوطٍ بالإضافةِ إليه؛ إذ لم يكُنْ لتلك الأُمَّةِ اسمٌ يُعرَفون به عندَ العرَبِ[٤].

- ولم يُحْكَ هنا ما تَلقَّى به قومُ لُوطٍ دَعوةَ لُوطٍ، كما حُكِيَ في القصصِ الثَّلاثِ قبْلَ هذه، وقد حُكِيَ ذلك في سُورةِ (الأعرافِ)، وفي سُورةِ (هُودٍ)، وفي سُورةِ (الحِجْرِ)؛ لأنَّ سُورةَ (القمَرِ) بُنِيَت على تَهديدِ المُشرِكين عن إعراضِهم عن الاتِّعاظِ بآياتِ اللهِ الَّتي شاهَدوها، وآثارِ آياته على الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي عَلِموا أخبارَها، وشَهِدوا آثارَها؛ فلم يكُنْ ثَمَّةَ مُقْتَضٍ لتَفصيلِ أقوالِ تلك الأُمَمِ إلَّا ما كان منها مُشابِهًا لأقوالِ المُشرِكين في تَفصيلِه، ولم تكُنْ أقوالُ قَومِ لوطٍ بتلك المَثابةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ فيها على حِكايةِ ما هو مُشترِكٌ بيْنَهم وبيْنَ المُشرِكين، وهو تَكذيبُ رسولِهم، وإعراضُهم عن نُذُرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عن قَومِ لوطٍ بأنَّهم كذَّبوا بالنُّذرِ، وكذلك جُملةُ ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾[1].

- والاستِثناءُ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ آلَ لُوطٍ مِن جُملةِ قَومِه، وآلُ لوطٍ: قَرابتُه، وهم بَناتُه، ولُوطٌ داخِلٌ بدَلالةِ الفَحْوى[2].

- وقد ذُكِرَ في آياتٍ أُخرى أنَّ زَوجةَ لوطٍ لم يُنَجِّها اللهُ، ولم يُذكَرْ ذلك هنا؛ اكتِفاءً بمَواقِعِ ذِكرِه، وتَنبيهًا على أنَّ مَن لا يُؤمِنُ بالرَّسولِ لا يُعَدُّ مِن آلِه، كما قال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾[3] [هود: ٤٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾

- جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ مُعترِضةٌ، وهي استِئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، باعتِبارِ ما معها مِن الحالِ، أي: إنعامًا مِن أجْلِ أنَّه شكَرَ؛ ففيه إيماءٌ بأنَّ إهلاكَ غيرِهم لأنَّهم كَفَروا، وهذا تَعريضٌ بإنذارِ المُشرِكين، وبِشارةٌ للمؤمنينَ[4].

- وفي قولِه: ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ تَنويهٌ بشَأْنِ هذه النِّعمةِ؛ لأنَّ ظرْفَ (عِند) يدُلُّ على الادِّخارِ والاستِئثارِ، فذلِكَ أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: نِعمةً مِنَّا، أو: أنعَمْنا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والمرادُ بالفَحْوى هنا: إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَوْلَى. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[١]؛ فقد ذكَرَ الإنعامَ أوَّلًا -لأنَّه السَّبَبُ الحَقيقيُّ- دليلًا على حَذْفِه ثانيًا، والشُّكرَ ثانيًا -لأنَّه السَّبَبُ الظَّاهِرُ- دليلًا على حَذْفِه أوَّلًا[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤]. وتأْكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قدْ) يُقصَدُ منه تأْكيدُ الغرَضِ الَّذي سِيقَت القصَّةُ مِن أجْلِه، وهو مَوعظةُ قُرَيشٍ الَّذين أنذَرَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَمارَوا بالنُّذرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ لَطيفةٌ ومُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالَى هاهنا: ﴿بَطْشَتَنَا﴾، ولم يقُلْ: (بطْشَنا)، وقال في سُورةِ (البُروجِ): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ وذلك لأنَّ قولَه تَعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ بَيانٌ لجِنسِ بطْشِه، فإذا كان جِنسُه شَديدًا؛ فكيف الكُبْرَى منه؟! وأمَّا لُوطٌ عليه السَّلامُ فذَكَرَ لهم البَطْشةَ الكُبرَى؛ لئلَّا يكونَ مُقصِّرًا في التَّبليغِ[٤].

- والتَّماري: تَفاعُلٌ مِن المِراءِ، وهو الشَّكُّ، وصِيغةُ المُفاعَلةِ للمُبالَغةِ[٥].

- وضُمِّن ﴿فَتَمَارَوْا﴾ معنى: كذَّبوا؛ فعُدِّيَ بالباءِ[٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إجمالٌ

---

(١) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِمَا ذُكِرَ في غيرِ هذه السُّورةِ في قِصَّةِ قَومِ لوطٍ؛ أنَّه نزَلَ به ضَيفٌ، فرامَ قومُه الفاحشةَ بهم، وعجَزَ لُوطٌ عن دفْعِ قَومِه؛ إذ اقتَحَموا بيتَه، وأنَّ اللهَ أعْمى أعيُنَهم -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، فلمْ يَرَوا كيف يَدخُلون[١].

- وأُسنِدَت المُراوَدةُ إلى ضَميرِ قَومِ لُوطٍ وإنْ كان المُراوِدونَ نفَرًا منهم؛ لأنَّ ما راوَدوا عليه هو مُرادُ جَميعِ القومِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن تَعيينِ مَن يَفعَلُه[٢].

- ويَتعلَّقُ قولُه: ﴿عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ بفِعلِ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: عن تَمكينِهم مِن ضُيوفِهِ[٣]. وقيل: ضُمِّنَ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ معْنى دفَعُوه وصَرَفوه؛ فعُدِّيَ بحرْفِ (عَن)[٤].

- قولُه: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: قُلْنا للنَّفَرِ الَّذين طمَسْنا أعيُنَهم: فذُوقوا عَذابي[٥].

- وعطْفُ النُّذرِ على العَذابِ باعتِبارِ أنَّ العذابَ تَصديقٌ للنُّذرِ، أي: ذُوقوا مِصْداقَ نُذُري[٦].

- وتَعديةُ فِعلِ ﴿فَذُوقُواْ﴾ إلى نُذُري بتَقديرِ مُضافٍ، أي: وآثارَ نُذُري[٧].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ مِن قولِه: ﴿وَنُذُرِ﴾؛ تَخفيفًا[٨].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي تَكرارِ قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أنَّ سَبَبَ العذابِ التَّكذيبُ بالإنذارِ لأيِّ رَسولٍ كان، وكان استِئنافُ كُلِّ قِصَّةٍ مُنبِّهًا على أنَّها أهلٌ على حِدَتِها لأنْ يُتَّعَظَ بها[(١)]!

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾

- ذِكْرُ ﴿بُكْرَةً﴾؛ للدَّلالةِ على تَعجيلِ العذابِ لهم[(٢)].

- وفي وصْفِ العَذابِ بالاستِقرارِ إيماءٌ إلى أنَّ ما قبْلَه مِن عَذابِ الطَّمْسِ يَنتهي إليه[(٣)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تَفريعُ قَولٍ مَحذوفٍ خُوطِبوا به، مُرادٍ به التَّوبيخُ[(٤)].

- والخِطابُ لجَميعِ الَّذين أصابَهم العذابُ المُستقِرُّ، وبذلك لم تكُنْ هذه الجُملةُ تَكريرًا[(٥)].

- والعذابُ الَّذي نزَلَ بهم مِن طمْسِ الأعيُنِ غيرُ العذابِ الَّذي أُهْلِكوا به؛ فلذلك حَسُنَ التَّكريرُ[(٦)].

- وفائدةُ الإعلامِ بما قِيل لهم مِن قولِه: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في الموضِعَينِ: أنْ يَتجدَّدَ عندَ استِماعِ كلِّ نبأٍ مِن ذلك ادِّكارٌ لهم، واتِّعاظٌ، وإيقاظٌ؛ استيفاءً

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

لحقِّ التَّذكيرِ القُرآنيِّ[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ تكريرٌ ثالثٌ؛ تَنويهًا بشأْنِ القرآنِ؛ للخُصوصيَّةِ الَّتي تقدَّمت في المواضعِ الَّتي كُرِّرَ فيها نَظيرُه وما يُقارِبُه، وخاصَّةً في نَظيرِه المُوالي هو له. ولم يُذكَرْ هنا ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾؛ اكتِفاءً بحِكايةِ التَّنكيلِ لقَومِ لُوطٍ في التَّعريضِ بتَهديدِ المُشرِكين[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤١-٤٦)

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلزُّبُرِ﴾: أي: الكُتُبِ، جَمْعُ زَبورٍ، وأصلُ (زبر) هنا: يدُلُّ على قِراءةٍ وكتابةٍ[(١)].

﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾: أي: يَنهَزِمونَ فيُوَلُّونكم أدبارَهم، يُقالُ: ولَّاه دُبُرَه: إذا انهزَم. والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ. والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ[(٢)].

﴿أَدْهَىٰ﴾: أي: أشدُّ وأفظَعُ، وهو «أفعَلُ»، مِنَ الدَّاهيةِ: وهي الرَّزِيَّةُ العُظمى تَنزِلُ بالمرءِ، وأصلُ (دهي): يدُلُّ على الإصابةِ بما يَسوءُ[(٣)].

﴿وَأَمَرُّ﴾: أي: أشَدُّ مَرارةً؛ مِن قَولِهم: مَرَّ الشَّيءُ وأمَرَّ: إذا اشتَدَّت مَرارتُه، وأصلُ (مرر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ الحلاوةِ والطِّيبِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٣٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما حلَّ بفِرعونَ وقَومِه: ولقد جاء أتْباعَ فِرعَونَ وقَومَه النُّذُرُ الَّتي تُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالى، كذَّبوا بجَميعِ آياتِ اللهِ تعالى، فأخَذَهم اللهُ تعالى أخْذَ شديدٍ قَويٍّ بالِغِ القُدرةِ سُبحانَه!

ثمَّ يُخاطِبُ اللهُ تعالى المشركينَ محذِّرًا مِن سوءِ العاقبةِ، وداعيًا إلى التَّفكُّرِ والاعتِبارِ، فيقولُ: أكُفَّارُكم -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- خَيرٌ مِن أولئك الَّذين أهلَكْتُهم لكُفرِهم وتَكذيبِهم، أمْ لكم بَراءةٌ مَكتوبةٌ في الكُتُبِ الإلهيَّةِ السَّابِقةِ، مِن عاقبةِ كُفرِكم وتكذيبِكم، وعَذابِ رَبِّكم؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى موبِّخًا للمشركينَ على أحدِ أقوالِهم الباطِلةِ: أمْ يَقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: نحنُ جماعةٌ كثيرةٌ مُنتَصِرونَ!

سيُهزَم جَمعُ كُفَّارِ قُرَيشٍ، ويَفِرُّونَ عن المُسلمينَ مُدبِرينَ!

بل السَّاعةُ مَوعِدُ عَذابِهم الأصليِّ، وما يَحيقُ بهم في الدُّنيا فمِن طَلائِعِه، والسَّاعةُ أشدُّ فَظاعةً وأكثَرُ ألَمًا ومَرارةً مِمَّا يُصيبُهم مِن عَذابِ الدُّنيا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الآخِرُ يَنبغي له أنْ يَحذَرَ ما وَقَع للأوَّلِ، وكان قَومُ فِرعَونَ قد جاؤوا بعدَ قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّهم لم يُنذَروا؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ العادةَ جَرَت أنَّ مَن كَذَّب الرُّسُلَ هَلَك: أنكَرَ أن يَحصُلَ مِمَّن تَبِعَ ذلك تكذيبٌ، فقال

مُقسِمًا[١]:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ولقد جاء فِرعَونَ وآلَه النُّذُرُ الَّتي تُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالى[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قيل: المرادُ بـ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: أتْباعُه وقَومُه: وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٠).

وقال ابنُ عطية: (ويحتَمِلُ أن يُريدَ بـ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: قرابتَه على عُرفِ الآلِ، وخَصَّصَهم بالذِّكرِ؛ لأنَّهم عُمدةُ القَومِ وكُبراؤُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٠).

وقيل: المرادُ بـ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: القِبطُ: وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥).

قال ابن عاشور: (﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: فِرعونَ وآلَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

وقال ابن تيميَّة: (فِرعون: داخلٌ في آلِ فِرعونَ المكذِّبينَ المأْخوذينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٢٨١).

وقال أيضًا: (الآلُ يُضافُ إلى مُعَظَّمٍ مِن شأنِه أنْ يَؤولَ غَيْرَه، أو يَسوسَه فيَكونَ مآلُه إليه، فآلُ الشَّخصِ هم مَن يَؤولُه، ويَؤولُ إليه، ويَرجِعُ إليه، ونفْسُه هي أوَّلُ وأَولَى مَن يَسُوسُه، ويَؤولُ إليه؛ فلهذا كان لفظُ «آل فُلانٍ» مُتناوِلًا له، ولا يُقالُ هو مُختَصٌّ به، بل يَتَناوَلُه ويَتناوَلُ مَنْ يَؤولُه). ((الفتاوى الكبرى)) (٢/ ١٩٦) بتصرف. ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٧٢، ٣٧٥)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

قال الواحدي: (وفي ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ المرادَ به موسى وهارونُ. وهذا قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُقاتِلٍ، والمفَسِّرينَ، وهو على تسميةِ الاثنَين باسمِ الجماعةِ؛ لأنَّه جَمعُ نَذيرٍ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ به الآياتُ الَّتي أنذَرَهم بها موسى، وكُلُّ آيةٍ منها نذيرٌ.

والآخِرُ: أنَّ المرادَ به الإنذارُ.

ويدُلُّ على القَولِ الثَّاني قَولُه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾، يعني: الآياتِ التِّسعَ، في قَولِ المفسِّرينَ). =

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾.

أي: كذَّبَ فِرعَونُ وآلُه بجَميعِ آياتِ اللهِ تعالى، الدَّالَّةِ على الحَقِّ[1].

= ((البسيط)) (٢١/ ١١٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩).

قيل: المرادُ بالآياتِ هنا: الآياتُ التِّسْعُ؛ وهي: اليَدُ، والعَصا، والطَّمسُ، والسِّنونَ، والطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥).

وقيل: هي: العَصا، واليدُ، والطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، والجَدْبُ، ونَقصُ الثَّمَراتِ. وهو كالقولِ السَّابقِ لكنْ مع إبدالِ نقصِ الثَّمراتِ بالطَّمسِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ أبي زَمَنين، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٤٣) و(٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١) و(٥/ ١٥٤). ويُنظر أيضًا: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤).

وممَّن قال: إنَّها الآياتُ التِّسعُ دونَ تفصيلِها: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحديُّ -ونسَبَه إلى قولِ المفسِّرينَ-، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢١).

وعزاه الرَّازيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٩).

وقيل: المرادُ: كلُّ ما جاءهم به موسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٠٣).

وقيل: المرادُ: جَميعُ آياتِ مُوسى، وجميعُ آياتِ الأنبياءِ قَبْلَه، والآياتُ الدَّالَّةُ على وُجودِ الرَّبِّ وقُدرتِه ومَشيئتِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٨).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

أي: فأخَذْناهم أخْذَ مَنْ هو شديدٌ قويٌّ؛ فلا يُغلَبُ، بالِغُ القُدرةِ؛ فلا يَعجِزُ عمَّا يُريدُ[1]!

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾.

أي: أكُفَّارُكم -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- خَيرٌ مِن أولئك الَّذين أهلَكْتُهم لكُفرِهم وتَكذيبِهم، مِثلُ: قَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وآلِ فِرعَونَ؟ كلَّا! ليسوا خَيرًا منهم؛ فلْتَحذَروا مِن عِقابِ اللهِ إنْ أصرَرْتُم على كُفرِكم وتَكذيبِكم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

قال ابنُ عاشور: (هذا الأخْذُ: هو إغراقُ فِرعَونَ ورِجالِ دَولتِه وجُندِه الَّذين خَرَجوا لنُصرتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩).

وقال البِقاعي: (﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: لا يَعجَلُ بالأخْذِ؛ لأنَّه لا يَخافُ الفَوتَ، ولا يَخشى مُعَقِّبًا لحُكمِه، بالِغُ القُدرةِ إلى حَدٍّ لا يُدرِكُ الوَصفُ كُنْهَه؛ لأنَّ صِيغةَ الافتِعالِ مَبناها على المعاجَلةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾.

أي: أم لكم -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- بَراءةٌ مَكتوبةٌ في صَحائِفِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ السَّابِقةِ؛ فأنتم بَريئُونَ مِن عاقبةِ كُفرِكم وتكذيبِكم، وآمِنونَ مِن عذابِ رَبِّكم[(١)]؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَلَغوا إلى هذا الحَدِّ مِنَ التَّمادي في الكُفرِ مع المواعِظِ البالِغةِ والاستِعطافِ المَكينِ، استحَقُّوا أعظَمَ الغَضَبِ؛ فأعرَضَ عنهم الخِطابُ؛ إيذانًا بذلك، وإهانةً لهم واحتِقارًا، وإقبالًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَسليةً، فقال عاطِفًا على ما تَقديرُه: أيَدَّعُونَ -جَهلًا ومُكابَرةً- شيئًا مِن هذَينِ الأمرَينِ[(٢)]؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤)﴾.

أي: أم يَقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: نحنُ جماعةٌ كثيرةٌ مُنتَصِرونَ، فسنَغلِبُ مُحمَّدًا ومَن معه[(٣)]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٠).

﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: سيُهزَمُ جَمعُ كُفَّارِ قُرَيشٍ، ويتفرَّقونَ، ويَفِرُّونَ عن المُسلِمينَ مُدبِرينَ[1]!

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۞ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو في قُبَّةٍ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أَنشُدُك[2] عَهْدَك ووَعْدَك، اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لم تُعبَدْ بعدَ اليَومِ! فأخَذ أبو بكرٍ بيَدِه، فقال: حَسْبُك يا رَسولَ اللهِ؛ فقد ألحَحْتَ على رَبِّك -وهو في الدِّرْعِ-، فخَرَج وهو يقولُ: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦]))[3].

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَقَع هذا في الدُّنيا -وكان في يومِ بَدْرٍ-، وكان ذلك مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ، وكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك هو النِّهايةُ- كان كأنَّه قيل: ليس ذلك الموعِدَ الأعظَمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ظَهَر تَصديقُ ذلك يومَ بَدرٍ وغَيرَه، وبعدَ ذلك بسِنينَ كَثيرةٍ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٠٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥، ١٤٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٢) أَنشُدُك: أي: أطلُبُك وأسألُك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٨١).

(٣) رواه البخاري (٢٩١٥).

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ﴾[1].

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ، فهم حَتمًا سيُبعَثونَ بعدَ مَوتِهم، ويُجازَونَ بعُقوبةٍ تامَّةٍ على كُفرِهم؛ فالسَّاعةُ مَوعِدُ عَذابِهم الأصليِّ، وما يَحيقُ بهم في الدُّنيا فمِن طَلائِعِه[2].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لقد أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمكَّةَ، وإنِّي لَجاريةٌ ألعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾)[3].

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

أي: والسَّاعةُ أشدُّ فَظاعةً وفتْكًا، وأكثَرُ ألَمًا ومَرارةً مِنَ القَتلِ أو غَيرِه مِمَّا يُصيبُهم مِن عَذابِ الدُّنيا[4]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ بَدَلَ «قومَ فِرعَونَ»؟

الجَوابُ: أنَّ «القَومَ» أعَمُّ مِن «الآلِ»؛ فالقَومُ: كُلُّ مَن يقومُ الرَّئيسُ بأمْرِهم، أو يقومونَ هم بأمْرِه، وقومُ فِرعَونَ كانوا تحتَ قَهرِه بحيث لا يُخالِفونَه في قليلٍ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤).

(٣) رواه البخاري (٤٨٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٠).

ولا كثيرٍ؛ فأُرسِلَ إليه الرَّسولُ وَحْدَه، غيرَ أنَّه كان عندَه جماعةٌ مِنَ المقرَّبينَ، مِثلُ: قارونَ، مُقَدَّمٌ عندَه لمالِه العظيمِ، وهامانَ لدَهائِه؛ فاعتبَرَهم اللهُ تعالى في الإرسالِ؛ حيث قال في مواضِعَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الزخرف: ٤٦]، وقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ [غافر: ٢٤]، وقال في (العنكبوتِ): ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ [العنكبوت: ٣٩]؛ لأنَّهم إن آمَنوا آمَنَ الكُلُّ، بخِلافِ الأقوامِ الَّذين كانوا قَبْلَهم وبَعْدَهم؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، وقال: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[1] [غافر: ٤٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ أنَّه قال هنا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ﴾، ولم يَقُلْ في غيرِهم: «جاء»؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ موسى عليه السَّلامُ ما جاءهم كما جاء المُرسَلونَ أقوامَهم، بل جاءهم حقيقةً؛ حيث كان غائبًا عن القَومِ فقَدِمَ عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2] [الحجر: ٦١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ أنَّه قد خُتِمَت القِصَصُ بمِثلِ ما افتُتِحَت به مِن عَذابِ المُفسِدينَ بالإغراقِ؛ لِيُطابِقَ الخَتمُ البَدْءَ، وكانت نجاةُ المُصلِحينَ مِن الأوَّلينَ بالسَّفينةِ، وكانت نجاةُ المُصلِحينَ مِنَ الآخِرينَ بأرضِ البَحرِ، كانت هي سفينتَهم؛ لِيَكونَ الخَتمُ أعظَمَ مِنَ البَدْءِ، كما هو شأنُ أهلِ الاقتِدارِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٩).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ إنَّما ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أَخَذَهم ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لأنَّ فِرعونَ كان مُتكبِّرًا، وكان يقولُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]! وكان يَسخَرُ مِن موسى ومَن أرسَلَه؛ فناسَبَ أنْ يَذكُرَ اللهُ تعالى أَخْذَه أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ بيانُ أنَّ أولئك إذا كانوا كُفَّارًا وقد عذَّبْناهم، فالكُفَّارُ الَّذين كذَّبوا مُحمَّدًا ليسوا خيرًا مِن أولئك، بل هم مِثْلُهم، استحَقُّوا مِن العُقوبةِ ما استحقَّه أولئك، ولو كانوا خَيرًا منهم لم يَستَحِقُّوا ذلك؛ فعُلِمَ أنَّه سُبحانَه يُسوِّي بيْنَ المتماثِلَين، ويُفَضِّلُ صاحبَ الخَيرِ، فلا يُسوِّي بيْنَه وبيْنَ مَن هو دونَه[٢]. وفيه التَّنبيهُ على أنَّ الميزانَ العقليَّ حقٌّ -كما ذَكَرَ اللهُ في كتابِه-، وليس هو مُختَصًّا بمنطقِ اليُونانِ، بل هي الأقيسةُ الصَّحيحةُ المتضمِّنةُ للتَّسويةِ بيْنَ المتماثِلَين، والفَرقِ بيْنَ المختلِفَين، سواءٌ صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ[٣]، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ[٤]، وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٨).

(٣) قياس الشُّمولِ: هو انتِقالُ الذِّهنِ مِن المُعَيَّنِ إلى المعنى العامِّ المُشترَكِ الكُلِّيِّ المُتناوِلِ له ولغَيرِه، والحُكمُ عليه بما يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، بأن ينتقلَ مِن ذلك الكُلِّيِّ اللَّازِمِ إلى الملزومِ الأوَّلِ وهو المُعَيَّنُ، فهو انتِقالٌ مِن خاصٍّ إلى عامٍّ، ثمَّ انتِقالٌ مِن ذلك العامِّ إلى الخاصِّ؛ مِن جُزئيٍّ إلى كُلِّيٍّ، ثمَّ مِن ذلك الكُلِّيِّ إلى الجُزئيِّ الأوَّلِ، فيُحكَمُ عليه بذلك الكُلِّيِّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّةَ (٩/ ١١٩).

(٤) قياس التَّمثيلِ: هو حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما مثل: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وهو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

والميزانُ هو القَدْرُ المُشترَكُ، وهو الجامِعُ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ بِشارةٌ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك، وهو يَعلَمُ أنَّ اللهَ مُنجِزٌ وَعْدَه، ولا يَزيدُ ذلك الكافِرينَ إلَّا غُرورًا، فلا يُعيرُوه جانِبَ اهتمامِهم، وأخْذَ العُدَّةِ لِمُقاوَمتِه، كما قال تعالى في نحوِ ذلك: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[٢] [الأنفال: ٤٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في اختِصاصِ السَّاعةِ بمَوعِدِهم، مع أنَّها مَوعِدُ كُلِّ أحَدٍ؟

الجوابُ: المَوعِدُ: الزَّمانُ الَّذي فيه الوَعدُ والوَعيدُ، والمؤمِنُ مَوعودٌ بالخَيرِ، ومأمورٌ بالصَّبرِ، فلا يقولُ هو: متى يكونُ؟ بل يُفَوِّضُ الأمرَ إلى اللهِ تعالى، وأمَّا الكافِرُ فغَيرُ مُصَدِّقٍ، فيقولُ: متى يكونُ العَذابُ؟ فيُقالُ له: اصبِرْ؛ فإنَّه آتٍ يومَ القيامةِ؛ ولهذا كانوا يقولونَ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]، وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾[٣] [الحج: ٤٧].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ لَمَّا كانتْ دَعوةُ مُوسَى عليه السَّلامُ غيرَ مُوجَّهةٍ إلى أُمَّةِ القِبطِ، وغيرَ مُرادٍ منها التَّشريعُ لهم، ولكنَّها مُوجَّهةٌ إلى فِرعونَ وأهْلِ دَولتِه الَّذين بأيْديهم تَسييرُ أُمورِ المَمْلكةِ الفِرْعَونيَّةِ؛ لِيَسمَحوا بإطلاقِ بني إسرائيلَ مِن الاستِعبادِ، ويُمكِّنوهم مِن الخُروجِ مع مُوسَى -خُصَّ بالنُّذرِ هنا آلُ فِرعونَ، أي: فِرْعونُ وآلُه؛ لأنَّه يَصدُرُ عن رأْيِهم، ألَا تَرى أنَّ فِرعونَ لم يَستأثِرْ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٢).

بردِّ دَعوةِ مُوسى، بلْ قال لِمَن حولَه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]، وقال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]؟ ولذلك لم يكُنْ أُسلوبُ الإخبارِ عن فِرعونَ ومَن معه مُماثِلًا لأُسلوبِ الإخبارِ عن قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوطٍ؛ إذ صُدِّرَ الإخبارُ عن أولئك بجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ﴾ [القمر: ٩، ١٨، ٢٣، ٣٣]، وخُولِفَ في الإخبارِ عن فِرعونَ، فصُدِّرَ بجُملةِ ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾، وإنْ كان مآلُ هذه الأخبارِ الخمْسةِ مُتماثِلًا[١].

- وأيضًا الاكتفاءُ بذِكرِ آلِ فِرعونَ؛ للعِلمِ بأنَّ نفْسَه أَوْلى بذلكَ[٢].

- وصُدِّرتْ قِصَّتُهم بالتَّوكيدِ القَسَمي؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بشأْنِها لِغايةِ عِظَمِ ما فيها مِن الآياتِ وكَثرتِها، وهَولِ ما لاقَوه مِنَ العَذابِ، وقوَّةِ إيجابِها للاتِّعاظِ[٣].

- والنُّذُرُ: جمْعُ نَذيرٍ، اسمُ مَصْدرٍ بمعْنى الإنذارِ -على قولٍ-. ووجْهُ جمْعِه أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ كرَّرَ إنذارَهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ مَجيءِ النُّذرِ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا فعَلوا حِينَئذٍ؟ فقيلَ: كذَّبُوا بجَميعِ آياتِنا[٥].

- أو جُملةُ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٦] مِن جُملةِ ﴿جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).
(٦) البَدَلُ: هو التَّابعُ المقصودُ بحُكمٍ بلا واسِطةٍ، وهو أقسامٌ: بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ بأنِ اتَّحَدَا معنًى، نحو: =

لأنَّ مَجيءَ النُّذرِ إليهم مُلابِسٌ للآياتِ، وظُهورَ الآياتِ مُقارِنٌ لتَكذيبِهم بها، فمَجيءُ النُّذرِ مُشتمِلٌ على التَّكذيبِ؛ لأنَّه مُقارِنٌ مُقارِنَه(١).

- وإسنادُ التَّكذيبِ إليهم بناءً على ظاهِرِ حالِهم، وإلَّا فقدْ آمَنَ منهم رجُلٌ واحدٌ كما في سُورةِ (غافرٍ)، وأيضًا آسِيةُ امرأةُ فِرعونَ(٢).

- وتأْكيدُ (آيَاتِنَا) بـ﴿كُلِّهَا﴾ إشارةٌ إلى كثْرةِ الآياتِ، وأنَّهم لم يُؤمِنوا بشَيءٍ منها، وتَكذيبُهم بآيةِ انفِلاقِ البحْرِ تَكذيبٌ فِعْليٌّ؛ لأنَّ مُوسى لم يَتحَدَّهم بتلك الآيةِ، وقومُ فِرعونَ لَمَّا رَأَوا تلك الآيةَ عدُّوها سِحرًا، وتَوهَّموا البحرَ أرْضًا؛ فلم يَهتَدُوا بتلك الآيةِ(٣).

- وانتصَبَ ﴿أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ مُبيِّنًا لنَوعِ الأخْذِ بأفظَعِ ما هو مَعروفٌ للمُخاطَبينَ مِن أخْذِ المُلوكِ والجَبابرةِ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ كالنَّتيجةِ لحاصِلِ القصصِ عن الأُمَمِ الَّتي كذَّبَتِ الرُّسلَ مِن قومِ نُوحٍ فمَن ذُكِرَ بعْدَهم؛ ولذلك فُصِلتْ ولمْ تُعطَفْ، وقد غُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن كَونِه مُوجَّهًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَوجيهِه للمُشرِكين؛ ليُنتقَلَ عن التَّعريضِ إلى التَّصريحِ؛ اعتِناءً

= ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. وبدَلُ بعضٍ إن دلَّ على بعضِ ما دلَّ عليه الأوَّلُ، نحو: مرَرْتُ بقَومِك ناسٍ منهم. وبدَلُ اشتِمالٍ إن دلَّ على معنًى في الأوَّلِ أو استَلْزَمَه فيه، كعَجِبتُ مِن زَيدٍ عِلمِه أو قراءتِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((همع الهوامع)) للسيوطي (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بمَقامِ الإنذارِ والإبلاغِ[(١)].

- والاستِفهامُ يَجوزُ أنْ يكونَ على حَقيقتِه، ويكونَ مِن المُحسِّنِ البَديعيِّ المُسمَّى (سَوْقَ المَعلومِ مَساقَ غَيرِه)، أو (تَجاهُلَ العارِفِ)[(٢)]، وهو هنا للتَّوبيخِ، والتَّوبيخُ عن تَخطِئتِهم في عدَمِ العَذابِ الَّذي حَلَّ بأمثالِهم حتَّى كأنَّهم يَحسَبون كُفَّارَهم خيرًا مِن الكُفَّارِ الماضينَ المُتحدَّثِ عن قَصَصِهم، أي: ليس لهم خاصيَّةٌ تَربَأُ بهم عن أنْ يَلحَقَهم ما لَحِقَ الكُفَّارَ الماضينَ، فما الَّذي طمْأَنَكم مِن أنْ يُصِيبَكم مِثلُ ما أصابَهم[(٣)]؟!

- وضَميرُ (كُفَّارُكُمْ) لأهلِ مكَّةَ، وهم أنفُسُهم الكُفَّارُ؛ فإضافةُ لَفظِ (كُفَّار) إلى ضَميرِهم إضافةٌ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ المُضافَ صِنفٌ مِن جِنسِ مَن أُضِيفَ هو إليه، فهو على تَقديرِ (مِن) البَيانيَّةِ، والمعْنى: الكُفَّارُ منكم خيرٌ مِن الكُفَّارِ السَّالِفينَ، أي: أأنتُم الكُفَّارُ خيرٌ مِن أولئك الكُفَّارِ[(٤)]؟!

- وقولُه: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ إضرابٌ وانتِقالٌ إلى تنكيتٍ آخَرَ، فكأنَّه قيل: بل أَلِكُفَّارِكم براءةٌ وأمْنٌ مِن تَبِعاتِ ما يَعمَلونَ مِن الكُفرِ والمعاصي، وغَوائِلِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩).

(٢) تَجاهُل العارِفِ: له عِدَّةُ تعريفاتٍ، وتَرجِعُ كلُّها إلى: سَوْقِ المعلوم مَساقَ غيرِه لنُكتةٍ؛ فمِن تعريفاتِه: أنَّه سؤالُ المتكلِّمِ عمَّا يَعلمُه حقيقةً تجاهُلًا؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ. ومنها: أنَّه إخراجُ ما يَعرِفُ صِحَّتَه مخرَجَ ما يَشُكُّ فيه؛ ليَزيدَ بذلك تأكيدًا. وقيل: هو إخراجُ الكلامِ مخرجَ الشَّكِّ في اللَّفظِ دون الحقيقةِ؛ لضربٍ مِن المُسامَحةِ وحَسْمِ العِنادِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٠).

في الكُتُبِ السَّماويَّةِ؛ فلذلك يُصِرُّونَ على ما هم عليه ولا يخافونَ[(١)]؟!

- وقدْ أفادَ هذا الكلامُ تَرديدَ النَّجاةِ مِن العَذابِ بيْنَ الأمْرينِ: إمَّا الاتِّصافُ بالخَيرِ الإلهيِّ المُشارِ إليه بقولِه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وإمَّا المُسامَحةُ والعفْوُ عمَّا يَقترِفُه المَرْءُ مِن السَّيِّئاتِ، والمعْنى انتفاءُ كِلا الأمْرَينِ عن المُخاطَبينَ؛ فلا مأْمَنَ لهم مِن حُلولِ العَذابِ بهم كما حلَّ بأمثالِهم. والآيةُ تُؤْذِنُ بارتقابِ عَذابٍ يَنالُ المُشرِكين في الدُّنيا دونَ العَذابِ الأكبرِ، وذلك عَذابُ الجُوعِ الَّذي في قولِه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وعَذابُ السَّيفِ يومَ بدْرٍ الَّذي في قولِه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[(٢)] [الدخان: ١٦]. على قولٍ فيهما.

- وفي الآيةِ احتباكٌ[(٣)]؛ فقد أثبَتَ الخَيريَّةَ أوَّلًا؛ دليلًا على حَذفِها ثانيًا، والبراءةَ ثانيًا؛ دليلًا على حَذْفِها أوَّلًا[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾

- (أَمْ) مُنقطِعةٌ لإضرابٍ انتِقاليٍّ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ في تَوبيخِهم والإنكارِ عليهم أنْ يَقولوا ذلك، فإنْ كانوا قد صرَّحوا بذلك فظاهرٌ، وإنْ كانوا لم يُصرِّحوا به فهو إنباءٌ بأنَّهم سيَقولونَه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١١).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١١).

- وغُيِّرَ أُسلوبُ الكَلامِ مِن الخِطابِ المُوجَّهِ إلى المشركينَ بقولِه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ﴾ إلخ [القمر: ٤٣]، إلى أُسلوبِ الغَيبةِ الْتفاتًا ورُجوعًا إلى الأُسلوبِ الجاري مِن أوَّلِ السُّورةِ في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ [القمر: ٢]، بعْدَ أنْ قُضِيَ حقُّ الإنذارِ بتَوجيهِ الخِطابِ إلى المشركين في قولِه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾[1] [القمر: ٤٣].

- والكلامُ بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالنِّذارةِ للمُشرِكين، مَبْنيٌّ على أنَّهم تُحدِّثُهم نُفوسُهم بذلك، وأنَّهم لا يَحسَبونَ حالَهم وحالَ الأُمَمِ الَّتي سِيقَت إليهم قصَصُها مُتساويةً، أي: نحن مُنتصِرونَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه ليس رسولَ الله، فلا يُؤيِّدُه اللهُ، والمعْنى: بلْ أيَدَّعونَ أنَّهم يُغالِبونَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابَه، وأنَّهم غالِبُوهم؛ لأنَّهم جَميعٌ لا يُغلَبونَ؟! وتَغييرُ أُسلوبِ الكَلامِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ مُشعِرٌ بأنَّ هذا هو ظَنُّهم واغترارُهم[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ جَوابٌ عن قولِهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، وردٌّ وإبطالٌ لقولِهم؛ فلذلك لم تُعطَفِ الجُملةُ على الَّتي قبْلَها[3].

- والسِّينُ في ﴿سَيُهْزَمُ﴾ لتَقريبِ المُستقبَلِ، وللتَّأكيدِ، أي: يُهزَمُ جمْعُهم ألْبتَّةَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿ سَيُهْزَمُ ﴾ للمَجهولِ؛ لظُهورِ أنَّ الهازِمَ المُسلِمونَ[١].

- قولُه: ﴿وَيُوَلُّونَ ﴾، أي: يَجعَلونَ غيرَهم يَلِي، فهو يَتعدَّى بالتَّضعيفِ إلى مَفعولَينِ، وقد حُذِفَ مَفعولُه الأوَّلُ هنا للاستِغناءِ عنه؛ إذ الغَرَضُ الإخبارُ عنهم بأنَّهم إذا جاء الوغَى[٢] يَفِرُّون ويُوَلُّونكم الأدبارَ[٣].

- وأُفرِدَ ﴿ٱلدُّبُرَ ﴾ والمُرادُ الجمْعُ؛ لأنَّه جِنسٌ يَصدُقُ بالمُتعدِّدِ، أي: يُولِّي كلُّ أحدٍ منهم دُبُرَه؛ وذلك لرِعايةِ الفاصلةِ، ومُزاوَجةِ القرائنِ، على أنَّ انهزامَ الجمْعِ انهزامةٌ واحدةٌ، ولذلك الجيشِ جِهةُ تَولٍّ واحِدةٌ[٤].

- وأيضًا فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث أُفرِدَ ﴿ٱلدُّبُرَ ﴾ هنا وجُمِعَ في غيرِه؛ لأنَّ الجمْعَ هو الأصلُ؛ لأنَّ الضَّميرَ يَنوبُ مَنابَ تَكرارِ العاطفِ؛ فكأنَّه قِيل: تولَّى هذا وهذا، وأُفرِدَ لمُناسَبةِ المقاطعِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ جَميعَهم يَكونون في الانهزامِ كشخصٍ واحدٍ، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥] فجمْعٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ برَأْسِه مَنهيٌّ عن توليةِ دُبرِه، ثمَّ جمَع الفعلَ بقولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ﴾ ولا يتمُّ إلَّا بقولِه: ﴿ٱلْأَدْبَارَ ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾ [الأحزاب: ١٥]، أي: كلُّ واحدٍ قال: أنا أَثْبُتُ ولا أُوَلِّي دُبُري[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٢) الوَغَى: الجَلبةُ والأصواتُ، وتُطلَقُ على الحربِ نفْسِها، وقيل للحربِ: وَغًى؛ لِما فيها من الصَّوتِ والجَلَبةِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٨/ ١٨٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾

- (بَل) للإضرابِ الانتِقاليِّ، وهو انتقالٌ مِن الوَعيدِ بعَذابِ الدُّنيا كما حلَّ بالأُمَمِ قبْلَهم إلى الوعيدِ بعَذابِ الآخرةِ، وعَذابُ الآخرةِ أعظَمُ؛ فلذلك قال: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾[1] [فصلت: ١٦].

- والمَوعِدُ: وقْتُ الوَعْدِ، وهو هنا وعْدُ سُوءٍ، أي: وَعيدٌ، وهذا إجمالٌ بالوَعيدِ، ثمَّ عُطِفَ عليه ما يُفصِّلُه، وهو: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، ووجْهُ العَطْفِ أنَّه أُرِيدَ جَعْلُه خبرًا مُستقِلًّا[2].

- وأُعِيدَ اسمُ السَّاعةِ دونَ أنْ يُؤتَى بضَميرِها؛ لقصْدِ التَّهويلِ، ولتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها؛ فتَسيرَ مَسيرَ المَثَلِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤).

الآيات (٤٧-٥٥)

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ
﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ
مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَسَّ﴾: أي: إصابةَ وألَمَ، وأصلُ (مسس): يدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[(١)].

﴿سَقَرَ﴾: أي: جَهنَّمَ، وهي عَلَمٌ مُشتَقٌّ مِنَ السَّقْرِ: وهو التِهابُ النَّارِ، وأصلُ (سقر): يدُلُّ على إحراقٍ[(٢)].

﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: بقَضاءٍ مَعلومٍ سابِقٍ في الأزَلِ، وبتَقديرٍ وحِكمةٍ، أو: بمِقدارٍ قدَّرْناه وقضَيْناه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[(٣)].

﴿كَلَمْحٍ﴾: أي: كخَطْفةٍ، واللَّمحُ: النَّظرُ بسُرعةٍ، وأصلُ ذلك مِن لَمَحْتُ البَرقَ، أي: أبصرتُ لَمعانَه، وهو أسرَعُ الأشياءِ زَوالًا[(٤)].

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾: أي: أشباهَكم ونُظراءَكم في الكُفرِ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٠).

(شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ[(١)].

﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾: أي: مَكتوبٌ مَسطورٌ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على الاصطفافِ[(٢)].

﴿وَنَهَرٖ﴾: أي: أنهارٍ، وحَّدَ وأراد الجَمْعَ، والنَّهْرُ: مَجرى الماءِ؛ وسُمِّيَ نهْرًا لأنَّه يَنهَرُ الأرضَ، أي: يَشُقُّها، وأصلُه يدُلُّ على تفتُّحِ شَيءٍ أو فَتْحِه[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾

قَولُه تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾: ﴿كُلَّ﴾: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ[(٤)]؛ مَفعولٌ به لِفِعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه «خلَقْنا» يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، والفِعلُ المقدَّرُ مع مَفعولِه في محلِّ رَفعٍ خَبَرُ «إنَّ»، أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَدَرٍ. ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ جُملةٌ تَفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. ﴿بِقَدَرٖ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ حالٌ، أي: مُقَدَّرًا مُحكَمًا، أو مُلتَبِسًا بقَدَرٍ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥).

قال الكفوي: (كلُّ اسْمٍ على «فَعْلٍ» عَينُه حَرفُ حَلقٍ: يَجوزُ تَسكينُ عَينِه وفَتحُه؛ كشَهْرٍ، ونَهْرٍ، وشَعْرٍ، ونَحْرٍ، إلَّا «نَحْو»؛ فإنَّه لا يجوزُ فتْحُ عَينِه). ((الكليات)) (ص: ٩٩٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٠٢)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٠٢)، ((إعراب القرآن)) للباقولي (٣/ ٩٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا ما سينزِلُ بالمشركينَ مِن عذابٍ يومَ القيامةِ، ومفصِّلًا في ذلك: إنَّ المُشرِكينَ في ضَلالٍ وفي عَناءٍ وشَقاءٍ وعَذابٍ يومَ يُسحَبونَ في النَّارِ على وُجوهِهم، ويُقالُ لهم: ذُوقوا ألَمَ النَّارِ وعَذابَها.

ثمَّ يبيِّنُ تعالى مَظاهِرَ كمالِ قدرتِه وحِكمتِه، فيقولُ: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَضاءٍ سابِقٍ مُحكَمٍ، وما أمْرُنا إذا أرَدْنا شَيئًا إلَّا كَلِمةٌ واحِدةٌ -كُنْ- فيُوجَدُ ما أرَدْناه كلَمْحِ البَصَرِ!

ثمَّ يبيِّنُ تعالى ما يدُلُّ على نفاذِ هذه القدرةِ وسرعتِها، فيقولُ: ولقد أهلَكْنا أشباهَكم وأمثالَكم في الكُفرِ -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي كفَرَت باللهِ، وكَذَّبت رُسُلَها، فهل مِن مُتذَكِّرٍ مُعتَبِرٍ بإهلاكِ اللهِ للكُفَّارِ السَّابِقينَ؛ فيَحذَرَ أن يحُلَّ به ما حَلَّ بهم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ أعمالَ الإنسانِ مسجلةٌ عليه، فيقولُ: وكُلُّ شَيءٍ فَعَلوه موجودٌ في صحائفِ أعمالِهم الَّتي تُحصِيها الملائِكةُ عليهم، وكُلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مِنَ الأشياءِ مَكتوبٌ مَسطورٌ.

ثمَّ يختِمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ ببِشارةٍ عظيمةٍ للمتَّقينَ، فيقولُ: إنَّ المتَّقينَ في جَنَّاتٍ وأنهارٍ؛ في مَجلِسِ حَقٍّ ثابتٍ، كامِلٍ في نَعيمِه، عِندَ مَلِكٍ عَظيمٍ بالِغِ القُدرةِ سُبحانَه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧﴾.

أي: إنَّ المُشرِكينَ في ضَلالٍ، وفي عَناءٍ وشَقاءٍ وعَذابٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٤٧/١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال ابن عطيَّة: (وأكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ المجرمِينَ هنا يُرادُ بهم الكفَّارُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١).

قيل: المرادُ: أنَّ المُشركِينَ في ضَلالٍ عن الهدى في الدُّنيا، وفي عذابِ السَّعيرِ والاحتِراقِ بالنَّارِ في الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السمرقنديُّ، وابنُ عطية، والبيضاوي، وابن جُزَي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

ممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ بالسُّعُرِ: النَّارُ الَّتي تُسعَرُ عليهم: الضَّحَّاكُ، والحُسينُ بنُ الفضلِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٧).

وذكر الرَّازيُّ احتِمالَ الجَمعِ بيْنَ الأمْرَينِ في الدُّنيا، أي: هم في الدُّنيا في ضلالٍ وجنونٍ، لا يعقلونَ ولا يَهْتَدونَ، وعلى هذا فقولُه: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بَيانُ حالِهم في تلك الصُّورةِ، قال: (وهو أقرَبُ).

وذكر أيضًا احتمالَ الجمعِ في الآخرةِ، أي: هم في ضلالِ الآخرةِ وسُعُرٍ أيضًا؛ أمَّا السُّعُرُ فكَونُهم فيها ظاهِرٌ، وأمَّا الضَّلالُ فلا يَجِدونَ إلى مَقصدِهم أو إلى ما يصلُحُ مقصدًا وهم مُتحَيِّرونَ سَبيلًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٥).

وقال ابن كثير: (يخبِرُنا تعالى عن المجرمينَ أنَّهم في ضَلالٍ عن الحقِّ، وسُعُرٍ ممَّا هم فيه من الشُّكوكِ والاضْطِرابِ في الآراءِ، وهذا يَشملُ كلَّ مَنِ اتَّصَفَ بذلك مِن كافرٍ ومُبتَدِعٍ مِن سائرِ الفِرَقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ: في شَقاءٍ وعَناءٍ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٤).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ بالسُّعُرِ العَناءُ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابن جرير: (﴿وَسُعُرٍ﴾ يقولُ: في احْتِراقٍ مِن شِدَّةِ العَناءِ والنَّصَبِ في الباطِلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (الضَّلالُ يُطلَقُ على ضِدِّ الهُدى، ويُطلَقُ على الخُسرانِ، وأكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ به هنا المعنى الثَّاني؛ فعن ابنِ عبَّاسٍ: المرادُ: الخُسرانُ في الآخرةِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ =

﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨ ﴾.

﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ﴾.

أي: يومَ يُجَرُّ أولئك المُجرِمونَ في النَّارِ على وُجوهِهم الَّتي هي أشرَفُ أعضائِهم الظَّاهِرةِ، فيُهانونَ بذلك ويُخْزَونَ(١)!

﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾.

أي: يُقالُ لهم: ذُوقوا ألَمَ النَّارِ وعَذابَها(٢).

قال تعالى: ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ * عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ

= أنَّ ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾ ظَرفٌ للكَونِ في ضَلالٍ وسُعُرٍ، على نحوِ قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات: ٦ - ٨]، وقَولِه: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾[القصص: ٤٢]، فلا يُناسِبُ أن يكونَ الضَّلالُ ضِدَّ الهُدى. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ ﴾ ظَرفًا للكَونِ الَّذي في خَبَرِ إنَّ، أي: كائنونَ في ضَلالٍ وسُعُرٍ يومَ يُسحَبونَ في النَّارِ، فالمعنى: أنَّهم في ضَلالٍ وسُعُرٍ يومَ القيامةِ). (٢٧/ ٢١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتَمِلُ أنَّ قَولَه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي: في ضَلالٍ عن الطَّريقِ الَّذي يَهتَدونَ به إلى الجنَّةِ؛ لأنَّهم ضَلُّوا في الدُّنيا، فضَلُّوا في الآخِرةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال الشوكاني: (الظَّرفُ [يومَ] مُنْتَصِبٌ بما قبلَه، أي: كائنونَ ﴿فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ * يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ ﴾، أو بقولٍ مُقَدَّرٍ بعدَه، أي: ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ ﴾ يُقالُ لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال ابنُ جرير: (وأمَّا سَقَرُ فإنَّها اسمُ بابٍ مِن أبوابِ جَهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال القرطبي: (﴿سَقَرَ﴾ اسمٌ مِن أسماءِ جهنَّمَ لا يَنصَرِفُ... وقال عَطاءٌ: ﴿سَقَرَ﴾ الطَّبَقُ السَّادِسُ مِن جَهنَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٧).

عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣٠].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء مُشرِكو قُرَيشٍ يُخاصِمونَ رَسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في القَدَرِ، فنَزَلَت: ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾))[1].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَضاءٍ سابِقٍ مَضبوطٍ مُحكَمٍ[2].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦-٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٢).

قال ابن جُزَي: (بقضاءٍ معلومٍ سابقٍ في الأزَلِ، ويحتملُ أن يكونَ معنَى ﴿بِقَدَرٖ﴾: بمِقْدارٍ في هيئتِه وصِفَتِه وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٦).

وقال السعدي: (بقضاءٍ سبَقَ به عِلمُه، وجرى به قلَمُه، بوقتِها ومِقْدارِها، وجميعِ ما اشتملَتْ عليه مِن الأوصافِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقال ابن جرير: (بمِقْدارٍ قدَّرْناه وقضَيْناه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠).

وقال الألوسي: (﴿بِقَدَرٖ﴾ أي: مُقَدَّرًا مَكتوبًا في اللَّوحِ قبْلَ وُقوعِه؛ فالقَدَرُ بالمعنى المشهورِ الَّذي يُقابِلُ القَضاءَ، وحَمْلُ الآيةِ على ذلك هو المأثورُ عن كثيرٍ مِن السَّلَفِ... وجُوِّزَ كَونُ المعنى: إنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْناه مُقَدَّرًا مُحكَمًا مُستوفًى، فيه مُقتَضى الحِكمةِ الَّتي يدورُ عليها أمرُ التَّكوينِ؛ فالآيةُ مِن بابِ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كَتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، وعَرشُه على الماءِ))[(١)].

وعن طاوسٍ، قال: أدرَكْتُ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولونَ: كُلُّ شَيءٍ بقَدَرٍ، قال: وسَمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ يَقولُ: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ شَيءٍ بقَدَرٍ، حتَّى العَجْزُ والكَيْسُ[(٢)]))[(٣)].

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ كُلَّ شَيءٍ بفِعْلِه؛ بَيَّن يُسْرَ ذلك وسُهولتَه عليه، فقال[(٤)]:

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾.

أي: وما أمْرُنا إذا أرَدْنا شَيئًا إلَّا أن نَقولَ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيُوجَدُ ما أرَدْناه كسُرعةِ اللَّمْحِ بالبَصَرِ بلا تأخيرٍ[(٥)]!

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) الكَيْسُ: ضِدُّ العَجْزِ، وهو النَّشاطُ والحِذقُ بالأمورِ، ومعناه: أنَّ العاجزَ قد قُدِّر عَجْزُه، والكَيِّسَ قد قُدِّر كَيْسُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٢٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٤).

قال ابن كثير: (هو إخبارٌ عن نُفوذِ مَشيئتِه في خَلْقِه، كما أخبَرَ بنُفوذِ قَدَرِه فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٥، ٤٨٦).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بتَمامِ قُدرتِه، وكان إهلاكُ مَن ذُكِرَ مِن الكُفَّارِ، وإنجاءُ مَن ذُكِرَ مِن الأبرارِ في هذه السُّورةِ نَحوًا مِمَّا ذُكِرَ مِن أَمرِ السَّاعةِ في السُّهولةِ والسُّرعةِ- دَلَّ على ذلك بإنجاءِ أوليائِه، وإهلاكِ أعدائِه؛ فذَكَّرَ بهم جُملةً، وبما كان مِن أحوالِهم[1].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا أشباهَكم وأمثالَكم في الكُفرِ -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي كفَرَت باللهِ، وكَذَّبت رُسُلَها[2].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ يَعلَمُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الأوَّلينَ والآخِرينَ واحِدةٌ، ويتَّعِظُ ويَعتَبِرُ بإهلاكِ اللهِ للكُفَّارِ السَّابِقينَ، فيَحذَرَ أن يكونَ مِثْلَهم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: فكما أهلَكْنا أشياعَكم نُهلِكُكم، وكذلك كان؛ فإنَّ المُشرِكينَ لَمَّا حَلُّوا ببَدرٍ وهم أوفَرُ عَدَدًا وعُدَدًا، كانوا واثِقينَ بأنَّهم مُنقِذونَ عِيرَهم، وهازِمونَ المُسلِمينَ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّت الدَّلالةُ على إحاطةِ القُدرةِ بما شُوهِدَ مِن الأفعالِ الهائِلةِ الَّتي لا تَسَعُها قُدرةُ غَيرِه سُبحانَه، وكانوا يَظُنُّونَ أنَّ أحوالَه غَيرُ مَضبوطةٍ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ ضَبطُها، ولا يَسَعُها عِلمُ عالمٍ، ولا سيَّما إذا ادَّعى أنَّه واحِدٌ؛ شَرَع في إتمام الإخبارِ بعَظَمةِ القدرةِ، بالإخبارِ بأنَّ أفعالَهم كُلَّها مكتوبةٌ، فَضلًا عن كَونِها محفوظةً؛ فقال[1]:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾

أي: وكُلُّ شَيءٍ فَعَلوه موجودٌ في الصَّحائِفِ والدَّواوينِ الَّتي تُحصِي الحَفَظةُ مِنَ الملائكةِ أعمالَهم فيها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: فعَلَتْه الأُمَمُ السَّابقةُ، أو الأُمَمُ اللَّاحِقةُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥).

وممَّن قال بأنَّ الزُّبُرَ هنا: صحائِفُ الأعمالِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن كثير، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الزُّبُرُ: اللَّوحُ المحفوظُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: في الكُتُبِ، وكِتابةُ الأعمالِ كِتابةٌ سابِقةٌ، وكِتابةٌ =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَصَّهم عَمَّ بقَولِه -واعِظًا ومُخَوِّفًا ومُحَذِّرًا- بأنَّ كُلَّ شَيءٍ مَحفوظٌ فمَكتوبٌ فمَعروضٌ على الإنسانِ يومَ الجَمعِ(١):

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: وكُلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مِنَ الأشياءِ مَكتوبٌ مَسطورٌ(٢).

= لاحِقةٌ، والكِتابةُ السَّابِقةُ معناها أنَّ اللهَ سَبحانَه وتعالى كَتَب في اللَّوحِ المحفوظِ كُلَّ شَيءٍ... أمَّا الكِتابةُ اللَّاحِقةُ فهي أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى إذا عَمِلَ الإنسانُ عَمَلًا كَتَبَه؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١١]. ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥، ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٧).

قيل: مَسطورٌ في اللَّوحِ المحفوظِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمرقنديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والنيسابوري، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٧).

قال السعدي: (﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: كلُّ ما فعلوه مِن خَيرٍ وشرٍّ مكتوبٌ عليهم في الكُتبِ القَدَريَّة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مُسطَّرٌ مكتوبٌ، وهذا حقيقةُ القَضاءِ والقدَرِ، وأنَّ جميعَ الأشياءِ كلِّها، قد عَلِمَها اللهُ تعالى، وسَطرها عندَه في اللَّوحِ المحفوظِ، فما شاء اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أوامِره، واجتِنابِ نَواهيه- في جَنَّاتٍ وأنهارٍ جاريةٍ فيها(١).

﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ٥٥﴾.

﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾.

= كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ، فما أصاب الإنسانَ لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، وما أخطأه لم يكُنْ لِيُصيبَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقيل: مُسَطَّرٌ في صحائِفِهم. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦).

قال الزَّجَّاج: (المعنى: كلُّ صغيرٍ مِن الذُّنوبِ وكبيرٍ مُستطَرٌ مَكتوبٌ على فاعِليه قبْلَ أن يَفعلوه، ومكتوبٌ لهم وعليهم إذا فعَلوه؛ لِيُجازَوْا على أفعالِهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ في نعيمِ جَنَّاتٍ ونَهَرٍ؛ فإنَّ للجَنَّاتِ والأنهارِ لذَّاتٍ مُتعارَفةً مِنَ اللَّهوِ والأُنسِ والمحادَثةِ، واجتِناءِ الفواكِهِ، ورؤيةِ جَرَيانِ الجَداولِ، وخَريرِ الماءِ، وأصواتِ الطُّيورِ، وألوانِ السَّوابحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

أي: في مَجلِسِ حَقٍّ، ثابتٍ لا يَزولُ، كامِلٍ في نَعيمِه، لا باطِلَ فيه ولا لَغْوَ ولا آثامَ[(١)].

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

أي: عِندَ مَلِكٍ عَظيمٍ تامِّ المُلْكِ، بالِغِ القُدرةِ على كلِّ شَيءٍ، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى[(٢)]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ للهِ تعالى، وأنَّ أفعالَه مخلوقةٌ للهِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ قد قُدِّرَ وانتهى، وإذا كان كذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩-٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

وقيل: مَقعَدُ الصِّدقِ: هو الجنَّةُ. وممَّن قال بهذا القَولِ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والقرطبي، وابن القيم، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٦).

قال الثعلبي: (﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مجلِسِ حقٍّ، لا لَغْوَ فيه ولا مأثَمَ، وهو الجنَّةُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٤).

وقال السمرقندي: (﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يعني: في أرضٍ كريمةٍ. ويُقالُ: في مجلِسٍ حسَنٍ، وهي أرضُ الجنَّةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧).

وذكَر ابنُ القيِّم أنَّ وصفَ المقعدِ وغيره بالصِّدقِ (مستلزمٌ ثبوتَه واستقرارَه -وأنَّه حقٌّ-، ودوامَه ونفعَه، وكمالَ عائدتِه؛ فإنَّه متَّصِلٌ بالحقِّ سبحانَه، كائنٌ به وله، فهو صِدقٌ غيرُ كذبٍ، وحقٌّ غيرُ باطلٍ، ودائمٌ غيرُ زائلٍ، ونافعٌ غيرُ ضارٍّ، وما للباطلِ ومتعلقاتِه إليه سبيلٌ ولا مدخلٌ). ((مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)) (٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٧).

فلْيَلْجأِ الإنسانُ إذا أصابتْه ضَرَّاءُ إلى اللهِ الخالقِ، وإذا أراد السَّرَّاءَ أيضًا يلتجِئُ إلى اللهِ الخالقِ، لا يَفْخَرَنَّ ويُعْجَبَنَّ بنَفْسِه إذا حَصَلَ له مطلوبٌ، ولا ييأسَنَّ إذا أصابَه المكروبُ؛ فالأمرُ بيدِ اللهِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أنَّه يَجبُ الحذَرُ من المخالفةِ؛ فإيَّاك أنْ تُخالِفَ بقَولِك، أو فِعْلِك، أو تَرْكِك؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ مَكتوبٌ(٢)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أنَّ الضَّلالَ والشَّقاءَ مُتلازِمانِ، لا يَنفكُّ أحدُهما عن الآخَرِ(٣).

٢- قَول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ نصٌّ في أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى خالقُ كُلِّ شيءٍ، ومُقَدِّرُه(٤).

فالآية حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ؛ لأنَّ أفعالَنا شَيءٌ، فتكونُ داخِلةً في كُلِّ شَيءٍ، فتكونُ مَخلوقةً للهِ تعالى(٥).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يُنكِرونَ أنَّ اللهَ تعالى يشاءُ أفعالَ العِبادِ، ويقولونَ: إنَّ الإنسانَ خالِقُ عَمَلِه، مُريدٌ له، مُستَقِلٌّ به، وأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا إرادةَ له به(٦)؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٣).

يعني: من الأشياءِ المخلوقةِ -صَغيرِها وكَبيرِها- ﴿خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: قَضاءٍ وحُكمٍ وقياسٍ مَضبوطٍ، وقِسمةٍ مَحدودةٍ، وقوَّةٍ بالِغةٍ، وتدبيرٍ مُحكَمٍ، في وَقتٍ مَعلومٍ، ومكانٍ مَحدودٍ، مكتوبٌ ذلك في اللَّوحِ قبلَ وُقوعِه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ * وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ أنَّ خَلْقَ اللهِ تعالى الأشياءَ مُصاحِبٌ لقوانينَ جاريةٍ على الحِكمةِ، وهذا المعنى قد تكَرَّرَ في القُرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ومِمَّا يَشملُه عُمومُ كُلِّ شَيءٍ خَلقُ جهنَّمَ للعَذابِ، وفيه إحاطةُ عِلمِ اللهِ تعالى بكُلِّ مَوجودٍ، وإيجادُ الموجوداتِ بحِكمةٍ، وصُدورُها عن إرادةٍ وقُدرةٍ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ أنَّ كلَّ شيءٍ وَقَعَ في السَّمَواتِ والأرضِ فإنَّه مُطابِقٌ لعِلْمِه السَّابقِ، ولِمَا كَتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى إذا أمَرَ بشَيءٍ كَونًا فإنَّه لا يُعيدُ الأمرَ مرَّةً ثانيةً، بل يكونُ الشَّيءُ بأوَّلِ أمرٍ، والَّذي يُعيدُ الأمرَ والكَلامَ هو العاجِزُ، وأمَّا القادِرُ فلا يُعيدُه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ دَلالةٌ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ أمْرَه التَّكوينيَّ كَلِمةٌ واحِدةٌ، وقد يُورَدُ على المَرءِ سؤالٌ: لماذا خَلَقَ اللهُ تعالى السَّمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨]؟ وهل هذا يُنافي قَولَه:

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩١).

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾؟ ولماذا يَخلُقُ الجنينَ في بطْنِ أمِّه لمدَّةِ تِسعةِ أشهُرٍ، وما أشْبَهَ ذلك؟

الجوابُ: أنَّ أفعالَه سُبحانَه مَقرونةٌ بحِكمةٍ، وأنَّه سُبحانَه وتعالى جَعَل الأسبابَ مَربوطةً بمُسبَّباتِها؛ فلا بُدَّ مِن أنْ يكونَ هناك سَبَبٌ، ويَنتُجَ عنه مُسبَّبٌ، ولا بُدَّ مَن أنْ يكونَ هذا السَّببُ مُطابِقًا مُوافِقًا؛ حتَّى يَتِمَّ الخَلقُ على كَمالِه، فهذا الخَلقُ يحتاجُ إلى مُقدِّماتٍ وأسبابٍ يَحصُلُ بها كَمالُ الخَلقِ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى قادِرٌ على أن يَخلُقَ الجَنينَ في بَطنِ أُمِّه بدونِ أنْ يَتناوَلَها الرَّجُلُ -كما حَصَلَ في عيسى عليه السَّلامُ- ومع هذا فإنَّ اللهَ تعالى قد جعَلَ لهذا أسبابًا: اتِّصالُ ماءِ الرَّجُلِ بالمرأةِ، ثمَّ بعدَ ذلك الجنَينُ يَتطوَّرُ شيئًا فشيئًا حتَّى يَصِلَ إلى الغايةِ، ثمَّ إذا كان قابلًا لأنْ يَخرُجَ إلى الدُّنيا خرَجَ، ثمَّ مع ذلك يَنمو شيئًا فشيئًا، لا يأتيه العَقلُ كامِلًا دَفعةً واحِدةً، ولا يأتيه النُّمُوُّ دَفعةً واحِدةً، ولكِنَّه على وَفْقِ الحِكمةِ، كما قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ [الزمر: ٦]؛ فكُلُّ خَلقٍ منها يَحصُلُ بكَلِمةٍ واحِدةٍ كلَمحِ البَصَرِ، على أنَّ بَعضَ المخلوقاتِ تتولَّدُ منه أشياءُ وآثارٌ، فيُعتبَرُ تَكوينُه عندَ إيجادِ أوَّلِه[1]. ومِن جِهةٍ ثانيةٍ: أنَّه سُبحانَه أراد أن يُعَلِّمَ خَلْقَه التَّمهُّلَ في الأُمورِ، والتَّدرُّجَ فيها[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ تعميمٌ للحُكمِ، أي: ليست الكِتابةُ مُقتَصِرةً على ما فَعَلوه، بل ما فعَلَه غَيرُهم أيضًا مَسطورٌ؛ فلا يَخرُجُ عن الكُتُبِ صَغيرةٌ ولا كبيرةٌ[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ أنَّ الذُّنوبَ في نفْسِها تنقَسِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٠).

إلى كبائرَ وصغائرَ(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ سؤالٌ: أنَّه ذَكَر هنا نَهرًا واحِدًا، وفي مَواضِعَ أُخَرَ ذَكَرَ أنهارًا.

الجوابُ: أنَّ الإفرادَ باعتِبارِ الجِنسِ؛ فلا يُنافي التَّعَدُّدَ، فالمرادُ جِنسُ الأنهارِ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ لم يقُلْ: «في مَجلِسِ صِدقٍ»؛ لأنَّ القُعودَ جُلوسٌ فيه مُكثٌ، ومنه: «قواعِدُ البَيتِ»، ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٦٠]، ولا يُقالُ: «جوالِسُ»، فأشار إلى دَوامِه وثَباتِه، ولأنَّ حُروفَ «ق ع د» كيف دارت تدُلُّ على ذلك، والاستِعمالُ في القُعودِ يدُلُّ على ذلك، ومنه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، وقَولُه: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إشارةً إلى الثَّباتِ، وكذا قَولُه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، فذَكَر المَقعَدَ؛ لِدَوامِه أو لطُولِه، وقال في المجلِسِ: ﴿تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] إشارةً إلى الحَرَكةِ، وقال: ﴿ٱنشُزُوا۟﴾ [المجادلة: ١١] إشارةً إلى تَركِ الجُلوسِ، أي: هو مَجلِسٌ؛ فلا يَجِبُ مُلازَمتُه، بخِلافِ المَقعَدِ(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ إشارةٌ إلى مُخالَفةِ مَعنى القُربِ منه مِن معنى القُربِ مِن الملوكِ؛ فإنَّ الملوكَ يُقَرِّبونَ مَن يكونُ مِمَّن يُحِبُّونَه، ومِمَّن يَرهَبونَه؛ مخافةَ أن يَعصَوا عليه، ويَنحازُوا إلى عَدُوِّه فيَغلِبوه، واللهُ تعالى قال:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَنَهَرٍ﴾: -بفتحتَين- لغةٌ في نَهْرٍ -بفَتحٍ فسُكونٍ-، والمرادُ به: اسمُ الجِنسِ الصَّادِقُ بالمتعَدِّدِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الكهف: ٣١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٨٨).

﴿مُّقۡتَدِرِۭ﴾ لا يُقَرِّبُ أحَدًا إلَّا بفَضلِه(١)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ * يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ بَيانٌ لقولِه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]. واقترانُ الكلامِ بحرْفِ (إنَّ) لفائدتَينِ؛ إحداهُما: الاهتِمامُ بصَريحِه الإخباريِّ. وثانيهما: تأْكيدُ ما تَضمَّنَه مِن التَّعريضِ بالمُشرِكين؛ لأنَّ الكلامَ وإنْ كان مُوجَّهًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو لا يَشُكُّ في ذلك، فإنَّ المُشرِكين يَبلُغُهم ويَشيعُ بيْنَهم وهم لا يُؤمِنون بعَذابِ الآخرةِ، فكانوا جَديرين بتأْكيدِ الخبَرِ في جانبِ التَّعريضِ؛ فتَكونُ (إنَّ) مُستعمَلةً في غرَضَيها مِن التَّوكيدِ والاهتمامِ(٢).

- والتَّعبيرُ بالمُجرمينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإلْصاقِ وصْفِ الإجرامِ بهم(٣).

- و(سُعُر) جمْع سَعيرٍ، وهو النَّارُ، وجُمِعَ السَّعيرُ؛ لأنَّه قَويٌّ شَديدٌ(٤)، وذلك على قول في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ السَّحْبُ: الجَرُّ، وهو في النَّارِ أشدُّ مِن مُلازَمةِ المكانِ؛ لأنَّه به يَتجدَّدُ مُماسَّةُ نارٍ أُخرى؛ فهو أشدُّ تَعذيبًا. وجُعِلَ السَّحبُ على الوُجوهِ؛ إهانةً لهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ[١].

- وصِيغةُ الأمرِ ﴿ذُوقُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإهانةِ والمُجازاةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ استِئنافٌ وقَعَ تذْييلًا لِما قبْلَه مِن الوعيدِ والإنذارِ والاعتبارِ بما حلَّ بالمُكذِّبين، وهو أيضًا تَوطئةٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، والمعْنى: إنَّا خلَقْنا وفعَلْنا كلَّ ما ذُكِرَ مِن الأفعالِ، وأسبابِها، وآلاتِها، وسلَّطْناه على مُستحقِّيه؛ لأنَّا خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بقدَرٍ، أي: فإذا علِمْتُم هذا فانتَبِهوا إلى أنَّ ما أنتم عليه مِن التَّكذيبِ والإصرارِ مُماثِلٌ لِما كانت عليه الأُمَمُ السَّالفةُ[٣].

- ولَمَّا تَضمَّنتِ الآياتُ السَّابقةُ معْنى ادِّعاءِ المُشرِكين القُدرةَ والقُوى لأنفُسِهم، والوعيدَ بالإهلاكِ عاجِلًا وآجِلًا، والوعْدَ للمؤمنينَ بالانتصارِ منهم؛ جِيءَ بقولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ تَوكيدًا للوعْدِ والوعيدِ؛ يعْني: أنَّ هذا الوعدَ حقٌّ، وصِدقُ الموعدِ والموعودِ مُثبَتٌ في اللَّوحِ، مُقدَّرٌ عندَ اللهِ، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وذلك على اللهِ يَسيرٌ[٤].

- واقتِرانُ الكَلامِ بحرْفِ (إنَّ) للتَّوكيدِ والاهتمامِ[٥].

- وقد أشار إلى أنَّ الجزاءَ مِن مُقتضَى الحِكمةِ قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٣، ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥، ٢١٦).

ﭽ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﭼ [الحجر: ٨٥، ٨٦]، وقولُه: ﭽ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﭼ [الدخان: ٣٨- ٤٠]، فترى هذه الآياتِ وأشباهَها تُعقِّبُ ذِكرَ كَونِ الخلْقِ كلِّه لحِكمةٍ بذِكرِ السَّاعةِ ويوم الجزاءِ. فهذا وَجْهُ تَعقيبِ آياتِ الإنذارِ والعِقابِ المذكورةِ في هذه السُّورةِ بالتَّذييلِ بقولِه: ﭽ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﭼ بعْدَ قولِه: ﭽ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ﭼ [القمر: ٤٣]، وسيَقولُ: ﭽ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﭼ[1] [القمر: ٥١].

- والباءُ في ﭽ بِقَدَرٍ ﭼ للمُلابَسةِ، والمَجرورُ ظرْفٌ مُستقِرٌّ[2]؛ فهو في حُكْمِ المَفعولِ الثَّاني لفِعلِ ﭽ خَلَقْنَاهُ ﭼ؛ لأنَّه مَقصودٌ بذاتِه؛ إذ ليس المَقصودُ الإعلامَ بأنَّ كلَّ شَيءٍ مَخلوقٌ للهِ؛ فإنَّ ذلك لا يَحتاجُ إلى الإعلامِ به بلْهَ تأكيدَه، بلِ المَقصودُ إظهارُ معْنى العِلمِ والحِكمةِ في الجَزاءِ[3].

- وقدِ انتصَبَ ﭽ كُلَّ شَيْءٍ ﭼ على المَفعوليَّةِ لـ ﭽ خَلَقْنَاهُ ﭼ على طَريقةِ الاشتِغالِ[4]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧).

(٢) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ من عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٠٠).

وتَقديمُه على ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾؛ ليَتأكَّدَ مَدلولُه بذِكرِ اسمِه الظَّاهِرِ ابتداءً، وذِكرِ ضَميرِه ثانيًا، وذلك هو الَّذي يَقْتضي العُدولَ إلى الاشتِغالِ في فَصيحِ الكلامِ العرَبيِّ، فيَحصُلَ تَوكيدٌ للمَفعولِ بعْدَ أنْ حصَلَ تَحقيقُ نِسبةِ الفِعلِ إلى فاعِلِه بحرْفِ (إنَّ) المُفيدِ لتَوكيدِ الخبَرِ، وليَتَّصِلَ قولُه: ﴿بِقَدَرٍ﴾ بالعامِلِ فيه، وهو ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾؛ لئلَّا يَلتبسَ بالنَّعتِ لـ﴿شَيْءٍ﴾، لو قِيل: إنَّا خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بقدَرٍ، فيُظَنُّ أنَّ المُرادَ: إنَّا خلَقْنا كلَّ شيءٍ مُقدَّرٍ، فيَبْقى السَّامعُ مُنتظِرًا لخبَرِ (إنَّ)[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]؛ فهو داخلٌ في التَّذييلِ، أي: خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بعِلمٍ، فالمَقصودُ منه وما يَصلُحُ له مَعلومٌ لنا، فإذا جاء وقْتُه الَّذي أعدَدْناه حصَلَ دَفْعةً واحدةً، لا يَسبِقُه اختبارٌ ولا نظَرٌ ولا بَداءٌ[2]. والغرَضُ مِن هذا تَحذيرُهم مِن أنْ يَأخُذَهم العَذابُ بَغتةً في الدُّنيا عندَ وُجودِ مِيقاتِه، وسبْقِ إيجادِ أسبابِه ومُقوِّماتِه الَّتي لا يَتفطَّنون لوُجودِها، وفي الآخرةِ بحُلولِ الموتِ، ثم بقِيامِ الساعةِ[3].

- وعطْفُ هذا عَقِبَ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، مُشعِرٌ بتَرتُّبِ مَضمونِه على مَضمونِ المَعطوفِ عليه في التَّنبيهِ والاستدلالِ، حسَبَ ما هو جارٍ في كَلامِ البُلغاءِ مِن مُراعاةِ تَرتُّبِ مَعاني الكلامِ بَعضِها على بعْضٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٩).

(٢) يُقالُ: بدا له في هذا الأمرِ بَداءٌ، أي: نشأ له فيه رأيٌ. والبَداءُ له مَعانٍ: البَداءُ في العِلمِ، وهو أن يَظهَرَ له خِلافُ ما عَلِم. والبَداءُ في الإرادةِ، وهو أن يَظهَرَ له صوابٌ على خِلافِ ما أراد وحكَمَ. والبَداءُ في الأمرِ: وهو أن يأمُرَ بشَيءٍ، ثمَّ يأمُرَ بشَيءٍ آخَرَ بَعْدَه بخِلافِ ذلك. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٢٧٨)، ((الفصل)) لابن حزم (١/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٠).

- صِفةُ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ وصْفٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ هو خبَرٌ عن ﴿أَمْرُنَآ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا كَلمةٌ واحدةٌ، وهي كَلمةُ (كُنْ)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] [يس: ٨٢].

- وصحَّ الإخبارُ عن (أمْر) -وهو مُذكَّرٌ- بـ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ -وهو مُؤنَّثٌ- باعتبارِ أنَّ ماصَدَقَ[2] (الأمْر) هنا هو أمْرُ التَّسخيرِ، وهو الكلِمةُ، أي: كَلمةُ (كُنْ)[3].

- وقولُه: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ﴿أَمْرُنَآ﴾ باعتِبارِ الإخبارِ عنه بأنَّه كَلمةٌ واحدةٌ، أي: حُصولُ مُرادِنا بأمْرِنا كلَمْحٍ بالبصَرِ، وهو تَشبيهٌ في سُرعةِ الحُصولِ، أي: ما أمْرُنا إلَّا كلمةٌ واحدةٌ سَريعةُ التَّأثيرِ في المُتعلِّقةِ هي به كسُرعةِ لَمْحِ البصَرِ، وهذا التَّشبيهُ في تَقريبِ الزَّمانِ أبلَغُ ما جاء في الكَلامِ العرَبيِّ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]؛ فزِيدَ هنالك: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ لأنَّ المَقامَ للتَّحذيرِ مِن مُفاجَأةِ النَّاسِ بها قبْلَ أنْ يَستعِدُّوا لها؛ فهو حَقيقٌ بالمُبالَغةِ في التَّقريبِ، بخِلافِ ما في هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مثلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

الآيةِ؛ فإنَّه لتَمثيلِ أمْرِ اللهِ، وذلك يَكفي فيه مُجرَّدُ التَّنبيهِ؛ إذ لا يَتردَّدُ السَّامعُ في التَّصديقِ به[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الْتُفِتَ مِن طَريقِ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومَرجِعُ الخِطابِ هم المُشرِكون؛ لظُهورِ أنَّهم المَقصودُ بالتَّهديدِ، وهو تَصريحٌ بما تَضمَّنَه قولُه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]؛ فهو بمَنزِلةِ النَّتيجةِ لقولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ إلى ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[٢] [القمر: ٤٩، ٥٠].

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ بالإهلاكِ، وبأنَّه يُفاجِئُهم قياسًا على إهلاكِ الأُمَمِ السَّابقةِ، وهذا المَقصَدُ هو الَّذي مِن أجْلِه أُكِّدَ الخبَرُ بلامِ القسَمِ وحرْفِ (قدْ)، أمَّا إهلاكُ مَن قبْلَهم فهو مَعلومٌ لا يَحتاجُ إلى تأْكيدٍ. ويجوزُ جعْلُ مَناطِ التَّأكيدِ إثباتَ أنَّ إهلاكَهم كان مِن أجْلِ شِركِهم وتَكذيبِهم الرُّسلَ. وتَفريعُ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قَرينةٌ على إرادةِ المَعنيَينِ؛ فإنَّ قومَ نوحٍ بقُوا أزمانًا، فما أقْلَعوا عن إشراكِهم حتَّى أخَذَهم الطُّوفانُ بَغتةً، وكذلك عادٌ وثَمودُ كانوا غيرَ مُصدِّقينَ بحُلولِ العَذابِ بهم، فلمَّا حلَّ بهم العذابُ حلَّ بهم بَغتةً، وقومُ فِرعون خرَجوا مُقتفينَ مُوسى وبني إسرائيلَ، واثِقينَ بأنَّهم مُدرِكوهم، واقترَبوا منهم، وظَنُّوا أنَّهم تَمكَّنوا منهم، فما راعَهُم إلَّا أنْ أنْجى اللهُ بني إسرائيلَ، وانطبَقَ البحرُ على الآخَرينَ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ المَرفوعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في قولِه: ﴿فَعَلُوهُ﴾ عائدًا إلى ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ [القمر: ٥١]، والمعْنى: أهلَكْناهم بعَذابِ الدُّنيا وهيَّأْنا لهم عَذابَ الآخِرةِ، فكُتِبَ في صَحائفِ الأعمالِ كلُّ ما فَعَلوه مِن الكُفْرِ وفُروعِه؛ فالكتابةُ في الزُّبُرِ -مع ثُبوتِها حقيقةً- وقَعَت هنا كِنايةً عن لازِمِها، وهو المُحاسَبةُ به فيما بعْدُ، وعن لازِمِ لازِمِها، وهو العِقابُ بعْدَ المُحاسَبةِ[١].

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالمُخاطَبين بأنَّهم إذا تَعرَّضوا لِما يُوقِعُ عليهم الهلاكَ في الدُّنيا، فليس ذلك قُصارى عَذابِهم؛ فإنَّ بعْدَه حِسابًا عليه في الآخرةِ يُعذَّبون به[٢].

- و﴿الزُّبُرِ﴾ جمْعُ زَبورٍ، وهو الكِتابُ، مُشتَقٌّ مِن الزَّبْرِ، وهو الكِتابةُ، وجُمِعَت الزُّبُرُ؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ كِتابَ أعمالِه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ كالتَّذييلِ لقولِه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]؛ فـ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أعمُّ مِن ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾، والمعْنى: وكلُّ شَيءٍ حَقيرٍ أو عظيمٍ مَكتوبٌ مَسطورٌ، أي: في عِلمِ اللهِ تعالى، أي: كلُّ ذلك يَعلَمُه اللهُ ويُحاسِبُ عليه، وذلك كِنايةٌ عن الجَزاءِ عليه؛ فكانَ ذلك جامِعًا للتَّبشيرِ والإنذارِ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ كلَّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مُستطَرٌ على إرادةِ أنَّه مَعلومٌ ومُجازًى عليه، وقد عُلِمَ جَزاءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٤).

المُجرِمين مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]؛ كانت نفْسُ السَّامعِ بحيث تَتشوَّفُ إلى مُقابِلِ ذلك مِن جَزاءِ المُتَّقينَ، وجرْيًا على عادةِ القُرآنِ مِن تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ والعكْسِ(١).

- وافتِتاحُ هذا الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتمام به(٢).

- و(فِي) للظَّرفيةِ الَّتي هي بمعْنى التَّلبُّسِ القَويِّ كتَلبُّسِ المَظروفِ بالظَّرفِ، والمُرادُ في نَعيمِ جنَّاتٍ ونهَرٍ، وبهذا الاعتِبارِ عُطِفَ (نَهَرٍ) على ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ إذ ليس المُرادُ الإخبارَ بأنَّهم ساكِنون جنَّاتٍ؛ فإنَّ ذلك يُغْني عنه قولُه بعْدُ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، ولا أنَّهم مُنغمِسون في أنهارٍ؛ إذ لم يكُنْ ذلك ممَّا يَقصِده السَّامِعون(٣).

- قولُه: ﴿وَنَهَرٍ﴾، أي: أنهارٍ كذلكَ، والإفرادُ للاكتِفاءِ باسمِ الجنسِ مُراعاةً للفواصِلِ(٤). والتَّنكيرُ فيه للتَّعظيمِ(٥).

- وجُمِعَت الجنَّاتُ هنا إشارةً إلى سَعتِها وتَنوُّعِها، وأُفرِدَ النَّهَرُ قيل: لأنَّ المعْنى: «في خِلالِه»، فاستُغْنِيَ عن جَمْعِه، وجُمِعَ في قولِه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] وغيرِه؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّه ليس في الجنَّةِ إلَّا نهرٌ(٦).

٨- قولُه تعالَى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ إضافةُ ﴿مَقْعَدِ﴾ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٨٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿صِدۡقٍ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه؛ للمُبالَغةِ في تَمكُّنِ الصِّفةِ منه، والمعْنى: هم في مَقعدٍ يَشتمِلُ على كلِّ ما يَحمَدُه القاعدُ فيه[١].

- و﴿مَلِيكٖ﴾: فعيلٌ بمعْنى المالِكِ مُبالَغةً، وهو أبلَغُ مِن (مَلِكٍ)[٢].

- و﴿مُّقۡتَدِرِۭ﴾ أبلَغُ مِن قادرٍ[٣].

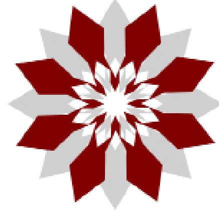
- وتَنكيرُ ﴿مَلِيكٖ﴾ و﴿مُّقۡتَدِرِۭ﴾؛ للتَّعظيمِ[٤].

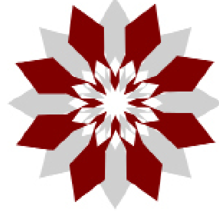


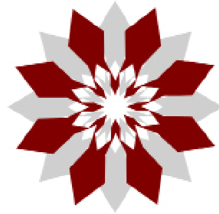
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).
ذكَرَ اللهُ تعالى في كتابِه خمسةَ أشياءَ مُضافةً إلى الصِّدقِ؛ وهي: مَقعَدُ الصِّدقِ -كما هنا-، ولِسانُ الصِدْقِ كما في سورةِ (مريم) [الآية: ٥٠]، و(الشعراء) [الآية: ٨٤]، وقدَمُ الصِّدقِ، كما في سورة (يونسَ) [الآية: ٢]، ومُدخَلُ الصِّدقِ، ومُخرَجُ الصِّدقِ، كما في سورةِ (الإسراءِ) [الآية: ٨٠]، وحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ -وهو ما كان به وله، مِن الأقوالِ والأعمالِ-، وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)





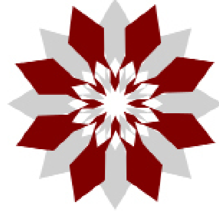


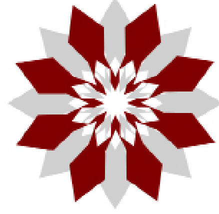
تَفْسِيرُ

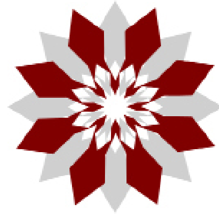
سُورَةِ الرَّحْمنِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)







سورةُ الرَّحْمنِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الرَّحمنِ)[١]؛ فعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أقرَأني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ الرَّحمنِ))[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الرَّحمنِ مَكِّيَّةٌ[٣]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

التَّذكيرُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى، وبيانُ جانِبٍ مِن نِعَمِه على خَلْقِه في الدُّنيا والآخِرةِ، والإنكارُ على مَن أخَلَّ بمُوجَبِ شُكْرِها[٥].

---

(١) وَجْهُ تَسميةِ هذه السُّورةِ بسُورةِ الرَّحمنِ أنَّها ابتُدِئَت باسمِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه ابنُ حِبَّانَ (٧٤٧) مُطوَّلًا.

صحَّحه ابنُ حِبَّان، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧٤٧).

(٣) قال ابنُ عاشور: (وهي [أي: سُورةُ الرَّحمنِ] مَكِّيَّةٌ في قَولِ جُمهورِ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٨).

وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحِدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ فمَدَنيَّةٌ. وقيل: بَعضُها مَكِّيٌّ وبَعضُها مَدَنيٌّ. وقيل: السُّورةُ مَدَنيَّةٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥ / ١٧٠).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على أنَّها مَكِّيَّةٌ: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٢٦). =

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- البَدءُ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى، والمِنَّةِ على الخَلْقِ بتَعليمِ القُرآنِ.

٢- بيانُ جانِبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ونِعَمِه على خَلْقِه.

٣- التَّذكيرُ بفَناءِ كُلِّ مَن على ظَهرِ الأرضِ، وأنَّ الباقيَ هو وَجهُ اللهِ تعالى وَحْدَه.

٤- تحَدِّي الجِنِّ والإنسِ أن يَنفُذُوا مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ.

٥- بيانُ أهوالِ القيامةِ، وسُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المؤمِنينَ؛ ووَصفُ ما أعَدَّه اللهُ لهم مِنَ النَّعيمِ.

٦- خُتِمَت السُّورةُ بتَعظيمِ اللهِ والثَّناءِ عليه.



= قال الرَّسْعَني: (جميعُ ما يأتيك في هذه السُّورةِ فهو: إمَّا تحديثٌ بنعمةٍ، أو تحذيرٌ مِن نِقمةٍ، أو إعلامٌ بقُدرةٍ باهرةٍ، أو عَظَمةٍ ظاهِرةٍ، وجميعُ ذلك نِعَمٌ؛ فإنَّ شَخصًا لو جاءك مُنقِذًا لك مِن هَلَكةٍ كنتَ غافِلًا عنها لَرأيْتَها له نِعمةً جَسيمةً، ومِنَّةً عَظيمةً). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٨).

الآيات (١-٩)

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿الْبَيَانَ﴾: أي: النُّطقَ والتَّمييزَ، والفَهمَ والإبانةَ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على الانكِشافِ والظُّهورِ[1].

﴿بِحُسْبَانٍ﴾: أي: بحِسابٍ، ومَنازِلَ لا تَعْدوها الشَّمسُ ولا القمرُ، ولا يَحيدان عنها، وأصلُ (حسب): يدُلُّ على عَدَدٍ[2].

﴿وَالنَّجْمُ﴾: يُطلَقُ النَّجمُ على النبَّتِ على الأرضِ ليس له ساقٌ، وسُمِّيَ نَجمًا لأنَّه نَجَمَ، أي: ظَهَر وطَلَع. ويُطلَقُ على الكَوكَبِ، وهو اسمُ الجِنسِ مِن نُجومِ السَّماءِ. وأصلُ (نجم): يدُلُّ على طُلوعٍ وظُهورٍ[3].

﴿تَطْغَوْا﴾: أي: تُجاوِزوا العَدْلَ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٢٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((البسيط)) =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾

قَولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾: مَنصوبةٌ على الاشتِغالِ[(١)] بفِعلٍ مُضمَرٍ على شَريطةِ التَّفسيرِ، أي: ورفَعَ السَّماءَ.

وقَولُه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾: في «أنْ» هذه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها النَّاصبةُ وقَبْلَها لامُ عِلَّةٍ مُقَدَّرةٌ، و«لا» بعْدَها نافيةٌ، و﴿تَطۡغَوۡاْ﴾ مَنصوبٌ بـ «أنْ»، والجارُّ والمجرورُ «لِئَلَّا تَطْغَوا» مُتعَلِّقٌ بقَولِه: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾، والتَّقديرُ: ووَضَعَ الميزانَ؛ لئَلَّا تَطْغَوا. والثَّاني: أنْ تكونَ المُفسِّرةَ؛ لأنَّ وَضْعَ الميزانِ يَستَدعي الأمرَ بالعَدْلِ، وفي الأمرِ بالعَدلِ مَعنى القَولِ دُونَ حُروفِه، وعلى هذا تكونُ «لا» ناهيةً، والفِعلُ مجزومٌ بها[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

بدأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ باسمِه «الرَّحمن» الدَّالِّ على سَعةِ رحمتِه، وعمومِ إحسانِه، وجزيلِ بِرِّه، وواسعِ فضلِه، ثمَّ ذكَر ما يدُلُّ على رحمتِه وأثَرِها الَّذي أوصَله إلى عبادِه مِن النِّعمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فذكَر أنَّه تعالى علَّم عِبادَه القُرآنَ، ويَسَّرَه لهم، وأنَّه تعالى خَلَق آدَمَ وذُرِّيَّتَه، وأنَّه تعالى علَّم الإنسانَ النُّطقَ

= للواحدي (٢١/ ١٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٠).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٦)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٥٤-١٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٧/ ٨٩).

والإبانةَ عَمَّا في نَفْسِه.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ بحِسابٍ دَقيقٍ مُتقَنٍ، وأنَّ جَميعَ النُّجومِ والأشجارِ تَسجُدُ للرَّحمنِ، وأنَّه تعالى رَفَع السَّماءَ فَوقَ الأرضِ، ووَضَع العَدْلَ بيْنَ خَلْقِه؛ لِئَلَّا يَتجاوَزوا الحَدَّ فيَجوروا، ثمَّ يأمُرُ تعالى عِبادَه بأن يُقيموا وَزْنَ الأشياءِ بالعَدلِ التَّامِّ، وألَّا يَنقُصوا الوَزنَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾.

أي: اللهُ: الواسِعُ الرَّحمةِ، المُنعِمُ على عبادِه بالنِّعَمِ الكَثيرةِ في دِينِهم ودُنياهم وأُخراهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانَه حاكيًا دُعاءَ مَلائِكتِه: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).
قال ابنُ عاشور: (﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هذه آيةٌ واحِدةٌ عندَ جمهورِ العادِّينَ، ووقَعَ في المصاحِفِ الَّتي بروايةِ حَفصٍ عن عاصِمٍ علامةُ آيةٍ عَقِبَ كَلِمةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ إذ عَدَّها قُرَّاءُ الكوفةِ آيةً؛ فلذلك عَدَّ أهلُ الكوفةِ آيَ هذه السُّورةِ ثمانيًا وسَبعينَ، فإذا جُعِلَ اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ آيةً تعَيَّنَ أن يكونَ اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: إمَّا خبَرًا لمُبتدَأٍ محذوفٍ تقديرُه: هو الرَّحمنُ، أو مبتدأً خَبَرُه محذوفٌ يُقَدَّرُ بما يُناسِبُ المقامَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣).
وهذا الاختِلافُ في عدِّ الآياتِ لا تأثيرَ له في النَّصِّ القُرآنيِّ زيادةً أو نقصًا، بل النَّصُّ القُرآنيُّ كما أنزله الله لم يَتغيَّرْ منه شَيءٌ.

مِئةَ رَحمةٍ، أنزَلَ منها رَحمةً واحِدةً بيْنَ الجِنِّ والإنسِ والبهائِمِ والهَوامِّ، فبها يَتعاطَفونَ، وبها يَتراحَمونَ، وبها تَعطِفُ الوَحشُ على وَلَدِها، وأخَّرَ اللهُ تِسعًا وتِسعينَ رَحمةً، يَرحَمُ بها عِبادَه يومَ القيامةِ))(١).

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

أي: علَّم الرَّحمنُ -سُبحانَه- عِبادَه ألفاظَ القُرآنِ ومَعانيَه، ويَسَّرَها لهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وعن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

قال ابن عثيمين: (﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: علَّمه مَن شاءَ مِن عبادِه، فعلَّمه جِبريلَ عليه السَّلامُ أوَّلًا، ثمَّ نزَل به جبريلُ على قلبِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثانيًا، ثمَّ بلَّغه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم ثالثًا إلى جميعِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

وقال ابن الجوزي: (في قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قولان؛ أحدُهما: علَّمه محمَّدًا، وعلَّمه محمدٌ أمَّتَه، قاله ابنُ السَّائبِ. والثاني: يسَّر القرآنَ، قاله الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٥).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: علَّم نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم القرآنَ، فتلقَّتْه أمَّتُه عنه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٨٨). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٧).

((خَيْرُكم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَه))[١].

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت كَونُه الرَّحمنَ، وأشار إلى ما هو شِفاءٌ ورَحمةٌ -وهو القُرآنُ-؛ ذكَرَ نِعَمَه، وبدأ بخَلْقِ الإنسانِ؛ فإنَّه نِعمةٌ تَتِمُّ جميعُ النِّعَمِ به، ولولا وُجودُه لَما انتَفَع بشَيءٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تَعليمَ القُرآنِ ولم يَذكُرِ المُعَلِّمَ؛ ذكَرَه بَعْدُ لِيُعلَمَ أنَّه المقصودُ بالتَّعليمِ[٣].

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ ﴾.

أي: خَلَقَ الرَّحمنُ آدَمَ وذُرِّيَّتَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [النحل: ٤].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَر تعالى الوَصفَ الَّذي يتميَّزُ به الإنسانُ مِن المَنطِقِ المُفصِحِ عن الضَّميرِ، والَّذي به يُمكِنُ قَبولُ التَّعليمِ، وهو البَيانُ[١].

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤﴾.

أي: علَّم الرَّحمنُ الإنسانَ النُّطقَ والفَهمَ، والإبانةَ عَمَّا في نَفْسِه بالكَلامِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٢، ١٥٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (والبيانُ: الإعرابُ عمَّا في الضَّميرِ مِن المقاصِدِ والأغراضِ، وهو النُّطْقُ، وبه تَمَيُّزُ الإنسانِ عن بَقِيَّةِ أنواعِ الحيوانِ، فهو مِن أعظَمِ النِّعَمِ. وأمَّا البيانُ بغيرِ النُّطقِ مِن إشارةٍ وإيماءٍ ولمحِ النَّظَرِ فهو أيضًا مِن مُمَيِّزاتِ الإنسانِ، وإنْ كان دونَ بيانِ النُّطقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).

وقال السعدي: (﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: التَّبيينَ عمَّا في ضميرِه، وهذا شاملٌ للتَّعليمِ النُّطقيِّ والتَّعليمِ الخطِّيِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱلْبَيَانَ﴾ أي: ما يُبِينُ به عمَّا في قَلبِه، وأيضًا ما يَستَبينُ به عندَ المُخاطَبةِ؛ فهنا بيانانِ: البَيانُ الأوَّلُ مِن المتكلِّمِ، والبَيانُ الثَّاني مِن المخاطَبِ؛ فالبَيانُ مِن المتكلِّمِ يعني التَّعبيرَ عمَّا في قَلبِه، ويكونُ باللِّسانِ نُطقًا، ويكونُ بالبَنانِ كتابةً...، وأيضًا ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ كيف يَستبينُ الشَّيءَ، وذلك بالنِّسبةِ للمُخاطَبِ، يَعلَمُ ويَعرِفُ ما يقولُ صاحِبُه، ولو شاء اللهُ تعالى لأسمعَ المخاطَبَ الصَّوتَ دون أنْ يَفهَمَ المعنى). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما أنعَمَ به على الإنسانِ مِن تَعليمِه البَيانَ؛ ذكَرَ ما امتَنَّ به مِن وُجودِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وما فيهما مِنَ المنافِعِ العَظيمةِ للإنسانِ؛ إذ هما يَجريانِ على حِسابٍ مَعلومٍ وتَقديرٍ سَوِيٍّ في بُروجِهما ومَنازِلِهما(١).

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: الشَّمسُ والقَمَرُ يَجريانِ بِحسابٍ دَقيقٍ مُتقَنٍ لا يَختَلِفُ ولا يَضطَرِبُ، ولا يُجاوِزانِ مَنازِلَهما، ولا يتأخَّرانِ في جَرَيانِهما، فيَحسِبُ النَّاسُ بهما السِّنينَ والشُّهورَ والأيَّامَ والأوقاتَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢، ٣٠٣).

أي: وجَميعُ النُّجومِ والأشجارِ تَسجُدُ للرَّحمنِ(١).

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

قال ابن جرير: (اخْتَلَف أهلُ التَّأويلِ في معنَى النَّجْمِ في هذا الموضعِ، معَ إجماعِهم على أنَّ الشَّجَرَ ما قامَ على ساقٍ؛ فقال بعضُهم: عُنِيَ بالنَّجمِ في هذا الموضعِ مِن النَّباتِ: ما نَجَم مِن الأرضِ، ممَّا يَنْبَسِطُ عليها، ولم يَكُنْ على ساقٍ، مِثلَ البَقْلِ ونحوِه... وقال آخَرونَ: عُنِيَ بالنَّجمِ في هذا الموضعِ: نَجْمُ السَّماءِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٣، ١٧٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (قال أهلُ اللُّغةِ وأكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ: النَّجمُ: كُلُّ ما نَبَت على وَجهِ الأرضِ مِمَّا ليس له ساقٌ، والشَّجَرُ: كُلُّ ما له ساقٌ، ومعنى سُجودِهما: دَورانُ الظِّلِّ معهما، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ ﴾ [النحل: ٤٨]. وقد قيلَ: إنَّ النَّجمَ أيضًا يرادُ به النُّجومُ. وهذا جائزٌ أن يكونَ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد أعلَمَنا أنَّ النَّجَمَ يَسجُدُ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ [الحج: ١٨]. ويجوزُ أن يكونَ النَّجمُ هاهنا يعني به: ما نَبَت على وَجهِ الأرضِ، وما طَلَع مِن نُجومِ السَّماءِ؛ يُقالُ لكُلِّ ما طَلَع: قد نَجَم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّجمِ: النَّجمُ الَّذي في السَّماءِ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩).

قال ابنُ عثيمين: («النَّجْمُ» اسمُ جِنسٍ، والمرادُ به النُّجومُ... النُّجومُ العُلْيا الَّتي نشاهِدُها في السَّماءِ تَسجُدُ لله عَزَّ وجَلَّ سجودًا حقيقيًّا، لكِنَّنا لا نعلَمُ كيفيَّتَه؛ لأنَّ هذا مِنَ الأمورِ الَّتي لا تُدرِكُها العُقولُ، والشَّجَرُ يَسجُدُ لله عزَّ وجَلَّ سُجودًا حقيقيًّا، لكِنْ لا ندري كيف ذلك، واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

وقد ذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، وأبو حيَّان، والشوكاني: إلى أنَّ المرادَ بالنَّجمِ: نَباتُ الأرضِ الَّذي ليس له ساقٌ. =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧﴾.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾.

أي: ورَفَع الرَّحمنُ السَّماءَ فَوقَ الأرضِ[1].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

فيها مُقابَلةٌ عَظيمةٌ بيْنَ رَفعِ السَّماءِ -الَّذي هو حَقٌّ وعَدلٌ وقُدرةٌ- والميزانِ الَّذي

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ من السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ للنَّجْم: البِقاعي، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

قال البِقاعي: (﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي: حِسًّا بعدَ أن كانت مُلتَصِقةً بالأرضِ، ففَتَقَها منها، وأعلاها عنها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٤٧).

وَضَعه في الأرضِ؛ لِتَقوموا بالعَدلِ والإنصافِ، وبهذا العَدلِ قامت السَّمَواتُ والأرضُ[(١)].

﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

أي: ووَضَع الرَّحمنُ العَدْلَ بيْنَ خَلْقِه في الأرضِ، والآلةَ الَّتي يُعرَفُ بها العَدلُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾.

أي: لِئَلَّا تَتجاوزوا الحَدَّ فتَجوروا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣، ٣٠٤).

قال ابنُ القيِّم: (الميزانُ يُرادُ به العَدلُ والآلةُ الَّتي يُعرَفُ بها العَدلُ وما يُضادُّه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وقال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: هو العدلُ. وقال بعضُهم: ما يوزَنُ به ويُعرَفُ العدلُ. وهما مُتلازِمانِ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٣٨٤).

وقال السعدي: (ووضَعَ اللهُ الميزانَ، أي: العَدلَ بيْنَ العِبادِ في الأقوالِ والأفعالِ، وليس المرادُ به الميزانَ المعروفَ وَحْدَه، بل... يَدخُلُ فيه الميزانُ المعروفُ، والمكيالُ الَّذي تُكالُ به الأشياءُ والمقاديرُ، والمِساحاتُ الَّتي تُضبَطُ بها المجهولاتُ، والحقائِقُ الَّتي يُفصَلُ بها بيْنَ المخلوقاتِ، ويُقامُ بها العَدلُ بيْنَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن =

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ٩ ﴾.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

أي: وأقيموا وَزْنَ الأشياءِ بالعَدلِ التَّامِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

= عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال القرطبي: (الطُّغْيانُ: مُجاوَزةُ الحَدِّ. فمَن قال: الميزانُ: العَدلُ، قال: طُغيانُه: الجَورُ. ومَن قال: إنَّه الميزانُ الَّذي يُوزَنُ به، قال: طُغيانُه: البَخسُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥).

وقال ابنُ عاشور: (ولَفظُ الميزانِ يَسمَحُ بإرادةِ المَعنَيينِ، على طريقةِ استِعمالِ المُشتَرَكِ في معنَيَيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ التَّعليلُ، أي: وَضَع الميزانَ لِئَلَّا تَطْغَوا: البغويُّ، وابن عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ «أنْ» مَصدريَّةً بتَقديرِ لامِ الجَرِّ محذوفةً قَبلَها. والتَّقديرُ: لئَلَّا تَطغَوا في الميزانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

وقيل: «أنْ» مُفَسِّرةٌ، و«لا» ناهيةٌ، والمعنى: النَّهيُ عن الطُّغيانِ. وممَّن جوَّز ذلك: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

وقال البِقاعي: (﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ ﴾ أي: لا تَتجاوَزوا الحدودَ ﴿ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴾ أي: الأشياءِ الموزونةِ مِن الموزوناتِ المعروفةِ، والعِلمِ والعملِ المقدَّرِ أحدُهما بالآخَرِ، وفي مساواةِ الظَّاهِرِ والباطنِ والقولِ والفعلِ، فالميزانُ الثَّاني عامٌّ لميزانِ المعلوماتِ، وميزانِ المحسوساتِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

أي: ولا تَنقُصوا الوَزنَ، بل أعطُوا الحُقوقَ كامِلةً وافِيةً(١).

كما قال شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ وُجوبُ العَدلِ في الوَزنِ، وتحريمُ البَخْسِ فيه(٢).

٢- عَن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ قال: (اعْدِلْ يا ابنَ آدَمَ كما تُحِبُّ أن يُعدَلَ عليك، وأَوْفِ كما تُحِبُّ أن يُوفَى لك؛ فإنَّ العَدلَ يُصلِحُ النَّاسَ)(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

قال ابن عاشور: (إنْ حُمِلَ ﴿ٱلۡمِيزَانِ﴾ فيه على معنى العَدلِ كان المعنى: النَّهيَ عن التَّهاوُنِ بالعَدلِ؛ لغَفلةٍ أو تسامُحٍ بعدَ أنْ نهى عن الطُّغيانِ فيه، ... وإنْ حُمِلَ فيه على آلةِ الوَزنِ كان المعنى: النَّهيَ عن غَبْنِ النَّاسِ في الوَزنِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ١٧٨)، وابن المنذر كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٢).

٣- لَمَّا كانت السَّماءُ مع عُلُوِّها الدَّالِّ على عِزَّةِ مُوجِدِها ومُدَبِّرِها دالَّةً على عَدْلِه باعتِدالِ جميعِ أحوالِها مِنَ الحَرِّ والبَردِ، والمطَرِ والثَّلجِ، والنَّدى والطَّلِّ وغَيرِ ذلك؛ في أنَّ كُلَّ فَصلٍ منها معادِلٌ لضِدِّه، وأنَّها لا يُنزِلُها سُبحانَه إلَّا بقَدَرٍ مَعلومٍ، وإلَّا لفَسَدت الأرضُ كُلُّها- دَلَّنا على أنَّه شَرَعَ لنا مِثلَ ذلك العَدلِ؛ لِتَقومَ أحوالُنا، وتَصلُحَ أقوالُنا وأفعالُنا بما قامت به السَّمَواتُ والأرضُ- فقال: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: العَدْلَ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ابتدأَ سُبحانَه هذه السُّورة بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ عُنوانًا على أنَّ ما بَعْدَه كلَّه مِن رَحمةِ اللهِ تعالى[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ خَصَّ سُبحانَه مِن أسمائِه الحُسنى هذا الاسمَ؛ إشعارًا برَحمتِه بالكِتابِ، وعَظيمِ إحسانِه به[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ردٌّ على الكُفَّارِ في قَولِهم: «إنَّه تعَلَّمَ هذا القُرآنَ مِن بَشَرٍ»؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تعالى، لا كَلامُ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٤)].

٤- قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فدلَّ تعليمُه القرآنَ على أنَّه يقدِرُ أنْ يعلِّمَ ما أراد مَن أراد، وكما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[(٥)] [البقرة: ٣١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَبدأُ بالشَّرائعِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤١).

قبْلَ ذِكْرِ الخَلْقِ وما يَتعَلَّقُ به؛ لأنَّ المخلوقاتِ إنَّما سُخِّرَتْ للقيام بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١) [الذاريات: ٥٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ دلَّتْ هذه الكَلِماتُ على إعطائِه سُبحانَه مراتِبَ الوُجودِ بأَسْرِها؛ فقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ إخبارٌ عن الإيجادِ الخارجيِّ العَينيِّ، وخَصَّ الإنسانَ بالخَلْقِ؛ لأنَّه مَوضِعُ العِبْرةِ، والآيةُ فيه عَظيمةٌ، وقولُه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إخبارٌ عن إعطاءِ الوُجودِ العِلميِّ الذِّهنيِّ، فإنَّما تَعَلَّمَ الإنسانُ القُرآنَ بتَعليمِه، كما أنَّه إنَّما صار إنسانًا بخَلْقِه، فهو الَّذي خَلَقَه وعَلَّمَه، ثمَّ قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ والبَيانُ يَتناوَلُ مراتبَ ثلاثةً كلٌّ منها يُسمَّى بيانًا؛ أحدُها: البيانُ الذِّهنيُّ الَّذي يُميِّزُ فيه بيْنَ المعلوماتِ. الثَّاني: البيانُ اللَّفظيُّ الَّذي يُعبِّرُ به عن تلك المعلوماتِ، ويُترجِمُ عنها فيه لغَيرِه. الثَّالثُ: البيانُ الرَّسميُّ الخَطِّيُّ الَّذي يَرسُمُ به تلك الألفاظَ؛ فيَتبيَّنُ النَّاظرُ معانيَها كما يَتبيَّنُ للسَّامعِ معاني الألفاظِ. فهذا بَيانٌ للعَينِ، وذاك بَيانٌ للسَّمعِ، والأوَّلُ بيانٌ للقَلبِ، وكثيرًا ما يَجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هذه الثَّلاثةِ، كقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ويَذُمُّ مَن عَدِمَ الانتِفاعَ بها في اكتِسابِ الهُدى والعِلمِ النَّافعِ، كقَولِه: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقَولِه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾(٢) [البقرة: ٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٧٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ بَدَأَ اللهُ تعالى بتعليمِ القُرآنِ قَبْلَ خَلْقِ الإنسانِ؛ إشارةً إلى أنَّ نِعمةَ اللهِ علينا بتعليمِ القرآنِ أشدُّ وأبلغُ مِن نعمتِه بخَلْقِ الإنسانِ، وإلَّا فمِنَ المعلومِ أنَّ خَلْقَ الإنسانِ سابِقٌ على تعليمِ القُرآنِ، لكنْ لَمَّا كان تَعليمُ القرآنِ أعظَمَ مِنَّةٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ على العَبدِ، قَدَّمَه على خَلْقِه[١]؛ لأنَّ أصلَ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ وأجَلَّها هو إنعامُه بالقُرآنِ وتَنزيلُه وتعليمُه؛ فإنَّه أساسُ الدِّينِ، ومَنشأُ الشَّرعِ، وأعظَمُ الوَحيِ، وأعزُّ الكُتُبِ؛ إذ هو بإعجازِه واشتِمالِه على خُلاصتِها مُصَدِّقٌ لِنَفْسِه ومِصْداقٌ لها[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تعالى، وكَلامُ اللهِ صفةٌ مِن صفاتِ ذاتِه، وليس شيءٌ مِن صفاتِ ذاتِه مَخلوقًا ولا مُحدَثًا ولا حادِثًا، فخَصَّ سُبحانَه القُرآنَ بالتَّعليمِ؛ لأنَّه كَلامُه وصِفتُه، وخَصَّ الإنسانَ بالتَّخليقِ؛ لأنَّه خَلْقُه ومَصنوعُه، ولولا ذلك لَقال: «خَلَقَ القُرآنَ والإنسانَ»[٣]، واللهُ تعالى ذَكَر القُرآنَ في كِتابِه في أربعةٍ وخمسينَ مَوضِعًا، ما فيها مَوضِعٌ صَرَّح فيه بلَفظِ الخَلْقِ، ولا أشار إليه، وذكَرَ الإنسانَ على الثُّلُثِ مِن ذلك؛ في ثمانيةَ عَشَرَ مَوضِعًا، كُلُّها نَصَّت على خَلْقِه، وقد اقتَرَن ذِكرُهما في هذه السُّورةِ على هذا النَّحوِ[٤].

٩- تأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ كيفَ جَعَل الخَلْقَ والتَّعليمَ ناشِئًا عن صِفةِ الرَّحمةِ، مُتعَلِّقًا باسمِ الرَّحمنِ، وجَعَل معانيَ السُّورةِ مُرتَبِطةً بهذا الاسمِ، وختَمَها بقَولِه: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣).

﴿رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]؛ فالاسمُ الَّذي تبارَكَ هو الاسمُ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ؛ إذ مجيءُ البَرَكةِ كُلِّها منه، وبه وُضِعَت البَرَكةُ في كُلِّ مُبارَكٍ، فكُلُّ ما ذُكِرَ عليه بُورِكَ فيه، وكُلُّ ما خَلِيَ منه نُزِعَت منه البَرَكةُ؛ فإنْ كان مُذَكًّى وخَلِيَ منه اسمُه، كان مَيتةً، وإن كان طعامًا، شارَكَ صاحِبَه فيه الشَّيطانُ، وإن كان مَدخَلًا، دَخَل معه فيه، وإن كان حَدَثًا، لم يُرفَعْ عندَ كثيرٍ مِن العُلَماءِ، وإن كان صَلاةً، لم تَصِحَّ عندَ كَثيرٍ منهم[1]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ مُناسَبةٌ بيْنَ القُرآنِ والميزانِ؛ فإنَّ القُرآنَ فيه مِنَ العِلمِ ما لا يُوجَدُ في غَيرِه مِنَ الكُتُبِ، والميزانَ فيه مِنَ العَدلِ ما لا يُوجَدُ في غَيرِه مِنَ الآلاتِ[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لم يَذكُرْ سُبحانَه خَلْقَ غيرِ الإنسانِ؛ لأنَّ أشرَفَ المخلوقاتِ جِنسًا هم البَشَرُ، مِن حيثُ الجِنسُ لا مِن حيثُ الأفرادُ؛ لأنَّ بَعضَ البَشَرِ أخَسُّ مِن الأنعامِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، لكِنَّ البَشَرَ مِن حيثُ الجِنسُ هم أفضلُ أجناسِ المَخلوقاتِ[3].

١٢- استدَلَّ بَعضُهم بقَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ على أنَّ الألفاظَ تَوقيفيَّةٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٩٥).

قال الطُّوفي: (هذه المسألةُ مِن مسائلِ اللُّغاتِ مِن أصولِ الفقهِ، وقد اختُلِف فيها؛ فقيل: اللُّغاتُ توقيفٌ، وقيل: اصْطِلاحٌ، وقيل: القَدْرُ المعرِّفُ للتَّخاطُبِ توقيفٌ، والباقي اصطلاحٌ، وقيل غيرُ ذلك، وهذه المسألةُ مِن رياضاتِ الفنِّ، لا مِن ضَرورِيَّاتِه). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث =

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أنَّ عدمَ البيانِ صِفةُ نَقصٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى مَيَّزَ الإنسانَ بالنُّطقِ والبَيانِ، الَّذي فَضَّلَه به على سائرِ الحَيوانِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نِعمةَ البَيانِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ على الإنسانِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ تَنويهٌ بالعُلومِ الزَّائدةِ في بيانِ الإنسانِ، وهي خصائِصُ اللُّغةِ وآدابُها[٣].

١٦- قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ بعدَ ذِكرِ القُرآنِ، وكان هو كافيًا لا يُحتاجُ معه إلى دليلٍ آخَرَ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بَعضَ النَّاسِ إنْ لم تكُنْ له النَّفْسُ الزَّكيَّةُ الَّتي يُغنيها اللهُ بالدَّلائِلِ الَّتي في القُرآنِ، فله في الآفاقِ آياتٌ: منها الشَّمسُ والقَمَرُ[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ سؤالٌ: ما معنى الجَمعِ بيْنَ آلةِ الوَزنِ والسَّماءِ؟ وأين الميزانُ مِنَ السَّماءِ؟! وإنَّما يُوصَلُ الشَّيءُ بجِنسِه وشِبْهِه!

الجوابُ: أنَّ الجَمعَ لم يكُنْ مِن قِبَلِ النَّظَرِ في شَخصِ الميزانِ وصِغَرِه، ولو نُظِرَ إلى مَبلغِ الحاجةِ إليه لَاستُعظِمَ مِن أمرِه ما استُصغِرَ، معَ ما في النُّفوسِ

= الأصولية)) (ص: ٤٩). ويُنظر: ((روضة الناظر وجنة المناظر)) لابن قدامة (١/ ٤٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٩٠) و(١٢/ ٤٤٦)، ((المزهر في علوم اللغة وأنواعها)) للسيوطي (١/ ١٢)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

مِن الظُّلمِ ما يُبعِدُ عن العَدلِ في التَّعامُلِ لولا الميزانُ؛ ألَا ترَى إلى قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]؛ إذ كان الكِتابُ يتضَمَّنُ حِفظَ العَدلِ، والميزانُ يُظهِرُ العَدْلَ؛ فقرَن آلةَ العَمَلِ إلى آلةِ العِلمِ، ومَن اعتبَرَ حالَ الميزانِ بحَجْمِه دونَ مَنافِعِه كان كمَن اعتبَرَ القَلَمَ بشَخصِه إذ رآه قِطعةَ قَصَبٍ! وقد عَظَّمَه اللهُ في قَولِه: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: ١]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾(١) [العلق: ٤].

١٨- قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي: أنزَلَ اللهُ الميزانَ؛ لئلَّا تَتجاوَزوا الحَدَّ في الميزانِ؛ فإنَّ الأمرَ لو كان يَرجِعُ إلى عُقولِكم وآرائِكم لحَصَل مِنَ الخَلَلِ ما اللهُ به عليمٌ، ولفَسَدت السَّمواتُ والأرضُ(٢).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ إشارةٌ إلى العَدلِ، وفيه لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى بدأ أوَّلًا بالعِلمِ، ثمَّ ذَكَر ما فيه أشرَفُ أنواعِ العُلومِ، وهو القُرآنُ، ثمَّ ذَكَر العَدلَ، وذَكَر أخَصَّ الأُمورِ له، وهو الميزانُ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ لِيَعمَلَ النَّاسُ بالكِتابِ، ويَفعَلوا بالميزانِ ما يأمُرُهم به الكِتابُ(٣).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ سُؤالٌ عن الميزانِ: أنَّه ما الَّذي فيه مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ الَّتي بسَبَبِها يُعَدُّ في الآلاءِ؟

الجَوابُ: النُّفوسُ تأبى الغَبْنَ، ولا يَرضى أحدٌ بأن يَغلِبَه الآخَرُ -ولو في الشَّيءِ اليَسيرِ-، ويَرى أنَّ ذلك استِهانةٌ به؛ فلا يَترُكُه لخَصمِه لغَلَبةٍ، فلا أحَدَ

---

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٢).

يَذهَبُ إلى أنَّ خَصْمَه يَغلِبُه، فلولا التَّبيينُ ثمَّ التَّساوي لأوقَعَ الشَّيطانُ بيْنَ النَّاسِ البَغضاءَ -كما وَقَع عندَ الجَهلِ، وزَوالِ العَقلِ، والسُّكْرِ-، فكما أنَّ العَقلَ والعِلمَ صارا سَبَبًا لبَقاءِ عِمارةِ العالَمِ؛ فكذلك العَدلُ في الحِكمةِ سَبَبٌ، وأخَصُّ الأسبابِ الميزانُ؛ فهو نِعمةٌ كامِلةٌ، ولا يُنظَرُ إلى عدَمِ ظُهورِ نِعمَتِه لكَثرتِه، وسُهولةِ الوُصولِ إليه،كالهَواءِ والماءِ اللَّذَينِ لا يتبَيَّنُ فَضلُهما إلَّا عندَ فَقدِهما[1]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إمَّا خبَرٌ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: هو الرَّحمنُ، أو مُبتدأٌ خبَرُه مَحذوفٌ، يُقدَّرُ بما يُناسِبُ المَقامَ. ويجوزُ أنْ يكونَ واقعًا مَوقعَ الكلماتِ الَّتي يُرادُ لفظُها؛ للتَّنبيهِ على غلَطِ المُشرِكين؛ إذ أنْكَروا هذا الاسمَ؛ قال تعالَى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فيَكونَ مَوقعُه شَبيهًا بمَوقعِ الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي يُتهجَّى بها في أوائلِ بعضِ السُّوَرِ -على أظهَرِ الوجوهِ في تأْويلِها-، وهو التَّعريضُ بالمُخاطَبينَ بأنَّهم أخْطؤوا في إنكارِهم الحقائقَ[2].

- ومِن بَديعِ أُسلوبِ السُّورة افتتاحُها الباهرُ باسمِه الرَّحمنِ، وهي السُّورة الوَحيدةُ المُفتتَحةُ باسمٍ مِن أسماءِ اللهِ لم يَتقدَّمْه غيرُه. وكان في افتِتاحِ السُّورة باسمِ الرَّحمنِ تَشويقُ جَميعِ السَّامِعينَ إلى الخبَرِ الَّذي يُخبَرُ به عنه؛ إذ كان المُشرِكون لا يألَفون هذا الاسمَ؛ قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فهُمْ إذا سَمِعوا هذه الفاتحةَ تَرقَّبوا ما سيَرِدُ مِن الخبَرِ عنه، والمؤمنونَ إذا طرَقَ أسماعَهم هذا الاسمُ، استَشْرَفوا لِما سيَرِدُ مِن الخبرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٠).

المناسِبِ لوصْفِه هذا ممَّا هم مُتشوِّقون إليه مِن آثارِ رَحمتِه[(١)].

- وأُوثِرَ استِحضارُ الجَلالةِ باسْمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دونَ غيرِه مِن الأسماءِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يَأبَونَ ذِكرَه، فجُمِعَ في هذه الجُملةِ بيْنَ رَدَّينِ عليهم، معَ ما للجُملةِ الاسميَّةِ مِن الدَّلالةِ على ثَباتِ الخبَرِ. ولأنَّ مُعظَمَ هذه السُّورةِ تَعدادٌ للنِّعمِ والآلاءِ؛ فافتِتاحُها باسمِ الرَّحمنِ بَراعةُ استِهلالٍ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ جِيءَ بالمُسنَدِ ﴿عَلَّمَ﴾ فِعلًا مُؤخَّرًا عن المُسنَدِ إليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: هو علَّمَ القرآنَ، لا بشَرٌ علَّمَه[(٣)].

- وحُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لفِعلِ ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لظُهورِه لدَلالةِ المعْنى عليه، فقيل: التَّقديرُ: علَّمَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّهم ادَّعَوا أنَّه مُعلَّمٌ، وإنَّما أنْكَروا أنْ يكونَ مُعلِّمُه القرآنَ هو اللهَ تعالى، وهذا تَبكيتٌ أوَّلُ. وقيل: علَّمَ جِبريلَ، أو الإنسانَ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أُسنِدَ تَعليمُ القرآنِ إلى اسمِ الرَّحمنِ؛ للإيذانِ بأنَّه مِن آثارِ الرَّحمةِ الواسعةِ وأحْكامِها، وقد اقتُصِرَ على ذِكرِه؛ تَنبيهًا على أصالتِه، وجَلالةِ قَدْرِه[(٥)].

- وقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ خبَرٌ ثانٍ، والمُرادُ بالإنسانِ جِنسُ الإنسانِ، وهذا تَمهيدٌ للخبَرِ الآتي، وهو ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]، وهذه قَضيَّةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦).

لا يُنازِعون فيها، ولكنَّهم لَمَّا أعْرَضوا عن مُوجَبِها -وهو إفرادُ اللهِ تعالى بالعِبادةِ-، سِيقَ لهم الخبَرُ بها على أُسلوبِ التَّعديدِ بدونِ عطْفٍ، كالَّذي يَعُدُّ للمُخاطَبِ مَواقعَ أخطائِه وغَفلتِه، وهذا تَبكيتٌ ثانٍ؛ ففي خلْقِ الإنسانِ دَلالتانِ؛ أُولاهما: الدَّلالةُ على تفرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ. وثانيتُهما: الدَّلالةُ على نِعمةِ اللهِ على الإنسانِ، والخلْقُ نِعمةٌ عَظيمةٌ؛ لأنَّ فيها تَشريفًا للمخلوقِ بإخراجِه مِن غَياهِبِ العدَمِ إلى مَبْرَزِ الوجودِ في الأعيانِ(١).

- وقُدِّمَ خَلْقُ الإنسانِ على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِمُناسَبةِ إردافِه بتَعليمِ القُرآنِ(٢).

- وأيضًا في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ جِيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا بعْدَ المُسنَدِ إليه ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، وهو يُفيدُ تَقوِّي الحُكمِ، أو للتَّخصيصِ؛ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ؛ لأنَّهم عَبَدوا غيرَه(٣).

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (العلَقِ): ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثمَّ قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤]، فقدَّمَ الخلْقَ على التَّعليمِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه في تلك السُّورةِ لم يُصرِّحْ بتَعليمِ القُرآنِ؛ فهو كالتَّعليمِ الَّذي ذَكَرَه في هذه السُّورة بقولِه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾(٤).

وقيل: لأنَّ سورةَ (العَلَقِ) أوَّلُ ما نزَل مِن القرآنِ، ولم يكُنِ القرآنُ معهودًا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ولا لغيرِه، وسورةُ (الرحمنِ): نزَلت بعدَ معرفةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤)() يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٨).

القرآنِ، وشهرتِه عندَهم، فكان الابتداءُ بما يعرِفُه مِن تقديمِ الخلقِ في سورةِ (العلقِ) أنسبُ مِن القرآنِ الذي لم يعهَدْه، وكان الابتداءُ بتعليمِ القرآنِ الذي نعرِفُه، والمنَّةُ به في سورةِ (الرحمنِ) أنسبُ لسياقِ ما ورَدت به السُّورةُ مِن عظيمِ المنَّةِ على العبادِ(١).

- وقولُه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ خبرٌ ثالثٌ تضمَّنَ الاعتِبارَ بنعمةِ الإبانةِ عن المُرادِ، والامتنانَ بها بعْدَ الامتنانِ بنعمةِ الإيجادِ، أي: علَّم جِنسَ الإنسانِ أنْ يُبينَ عمَّا في نفْسِه ليُفيدَ غيرَه ويَستفيدَ هو(٢).

- وكذلك قولُه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ فيه مَجيءُ المُسنَدِ فِعلًا بعدَ المُسنَدِ إليه؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ تَبْكيتٌ؛ ووجْهُه أنَّهم لم يَشكُروه على نِعمةِ البيانِ؛ إذ صَرَفوا جُزءًا كبيرًا مِن بَيانِهم فيما يُلْهيهم عن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وفيما يُنازِعون به مَن يَدْعوهم إلى الهُدى(٤).

- وفي قولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ عدَّدَ اللهُ عزَّ وعَلا آلاءَه، فأرادَ أنْ يُقدِّمَ أوَّلَ شَيءٍ ما هو أسبَقُ قِدَمًا مِن ضُروبِ آلائِه، وأصنافِ نَعمائِه، وهي نِعمةُ الدِّينِ، فقدَّمَ مِن نِعمةِ الدِّينِ ما هو في أعْلى مَراتبِها، وأقْصى مَراقِيها؛ وهو إنعامُه بالقرآنِ وتَنزيلِه وتَعليمِه؛ لأنَّه أعظَمُ وَحيِ اللهِ رُتبةً، وأعلاه مَنزلةً، وأحسَنُه في أبوابِ الدِّينِ أثرًا، وهو سَنامُ

(١) يُنظر: ((كشف المعانى فى المتشابه من المثانى)) لابن جماعة (ص: ٣٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٣، ٢٣٤).

الكتُبِ السَّماويَّةِ، ومِصداقُها والعِيارُ[١] عليها. وأخَّر ذِكرَ خلْقِ الإنسانِ عن ذِكرِه، ثمَّ أتْبَعَه إيَّاه؛ لِيُعْلِمَ أنَّه إنَّما خلَقَه للدِّينِ، وليُحيطَ عِلمًا بوَحْيِه وكُتبِه وما خُلِقَ الإنسانُ مِن أجْلِه، وكأنَّ الغرَضَ في إنشائِه كان مُقدَّمًا عليه، وسابقًا له، ثمَّ ذكَرَ ما تَميَّزَ به عن سائرِ الحيوانِ مِن البَيانِ، وهو المنطِقُ الفَصيحُ المُعرِبُ عمَّا في الضَّميرِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ * وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ خبَرٌ رابعٌ عن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ورابطُ الجُملةِ بالمُبتدأِ تَقديرُه: بحُسبانِه، أي: حُسبانِ الرَّحمنِ وضبْطِه، وهذا استِدلالٌ على التَّفرُّدِ بخلْقِ كوكبِ الشمسِ وكُرةِ القمَرِ، وامتِنانٌ بما أُودِعَ فيهما مِن مَنافعَ للنَّاسِ، ونِظامِ سَيرِهما الَّذي به تَدقيقُ نِظامِ مُعاملاتِ النَّاسِ واستِعْدادِهم لِما يَحتاجون إليه عندَ تَغيُّراتِ أجْوائِهم وأرزاقِهم، ويَتضمَّنُ الامتِنانَ بما في ذلك مِن مَنافعِهم[٣].

- وفيه تَبكيتٌ، ووجْهُه: أنَّهم غَفَلوا عمَّا في نِظامِ الشَّمسِ والقَمرِ مِن الحِكمةِ، وما يدُلُّ عليه ذلك النِّظامُ مِن تفرُّدِ اللهِ بتَقديرِه، فاشتغَلَ بعضُهم بعِبادةِ الشَّمسِ، وبعضُهم بعِبادةِ القمرِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن

(١) العِيَارُ: مصدرُ عايَرَ المَكاييلَ؛ إذا عدَّلها، والمُعَدِّلُ يكون حفيظًا على المُعدَّلِ ومُهَيْمِنًا عليه، أي: القرآنُ عِيارٌ على سائرِ الكتبِ كلِّها، ومُصَدِّقُها، ومُهَيْمِنٌ عليها. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٩، ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[١] [فصلت: ٣٧].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ جِيءَ بهذه الجُملةِ اسميَّةً؛ للتَّهويلِ بالابتداءِ باسمِ الشَّمسِ والقمرِ، وللدَّلالةِ على أنَّ حُسبانَهما ثابتٌ لا يَتغيَّرُ منذُ بَدْءِ الخلْقِ، مُؤْذِنٌ بحِكمةِ الخالقِ[٢].

- واستُغْنِيَ بجَعْلِ اسمِ الشَّمسِ والقمَرِ مُسنَدًا إليهما عن تَفكيكِ المُسنَدِ إلى مُسندَينِ: أحدُهما يدُلُّ على الاستِدلالِ، والآخَرُ يدُلُّ على الامتِنانِ، كما وقَعَ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٣] [الرحمن: ٣، ٤].

- قولُه: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ الباءُ للمُلابَسةِ، وهي ظرْفٌ مُستقَرٌّ[٤] هو خبَرٌ عن الشَّمسِ والقمَرِ، والتَّقديرُ: كائنانِ بحُسبانٍ، أي: بمُلابَسةِ حُسبانٍ، أي: لحِسابِ النَّاسِ مَواقِعَ سَيرِهما[٥].

- والحُسبانُ كِنايةٌ عن انتظامِ سَيرِ الشَّمسِ والقمَرِ انتظامًا مُطَّرِدًا، لا يَختلُّ حِسابُ النَّاسِ له، والتَّوقيتُ به[٦].

- واقتُصِرَ على ذِكرِ الشَّمسِ والقمرِ دونَ بَقيَّةِ الكواكبِ، وإنْ كان فيها حُسبانُ الأنواءِ، والحَرِّ والبرْدِ -مِثل الجَوزاءِ، والشِّعْرى، ومَنزلةِ الأسَدِ، والثُّرَيَّا-؛ لأنَّ هذَينِ الكوكبَينِ هما البادِيانِ لجميعِ النَّاسِ، لا يَحتاجُ تَعقُّلُ أحوالِهما إلى تَعليمِ تَوقيتٍ مِثلَ الكواكبِ الأُخرى، ولأنَّ السُّورةَ هذه بُنِيَت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٥).

على ذِكرِ الأُمورِ المُزدوَجةِ، والشَّمسُ والقمرُ مُزدوجانِ في مَعارفِ عُمومِ النَّاسِ، فذِكْرُ الشَّمسِ والقمرِ كذِكرِ السَّماءِ والأرضِ، والمَشرِقِ والمَغربِ، والبحرَينِ[1].

أو: خَصَّهما بالذِّكْرِ؛ لأنَّ حَرَكتَهما بحُسبانٍ تدُلُّ على فاعلٍ مُختارٍ سَخَّرَهما على وَجهٍ مَخصوصٍ[2].

- قولُه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ * وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ اتَّصَلت هاتانِ الجُملتانِ بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، واستُغْنِيَ فيهما عن الوصْلِ اللَّفظيِّ بالوصْلِ المَعنويِّ، وكان حقُّ النَّظمِ في الجُملتينِ أنْ يُقالَ: وأجْرى الشَّمسَ والقمَرَ، وأسجَدَ النَّجمَ والشَّجرَ، أو الشَّمسُ والقَمَرُ بحُسبانِه، والنَّجمُ والشَّجرُ يَسجُدانِ له؛ إشعارًا بأنَّ وُضوحَه يُغْنيهِ عن البيانِ، ولِما عُلِمَ أنَّ الحُسبانَ حُسبانُه، والسُّجودَ له لا لغيرِه. وللتَّناسُبِ بيْن هاتَينِ الجُملتَينِ وُسِّط بيْنَهما العاطفُ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ سَماويَّانِ، والنَّجمَ والشَّجرَ أرضيَّانِ، -على قولٍ في النَّجمِ- فبيْنَ القَبيلَينِ تَناسُبٌ مِن حيث التَّقابُلُ، ولأنَّ السَّماءَ والأرضَ لا تَزالانِ تُذْكَرانِ قَرينتَينِ، ولأنَّ جَرْيَ الشَّمسِ والقمرِ بحُسبانٍ مِن جِنسِ الانقيادِ لأمْرِ اللهِ، فهو مُناسِبٌ لسُجودِ النَّجمِ والشَّجرِ[3].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]، عطْفَ الخبَرِ على الخبرِ؛ لأنَّ سُجودَ الشَّمسِ والقمرِ للهِ تعالى، وهو انتقالٌ مِن الامتنانِ بما في السَّماءِ مِن المنافعِ إلى الامتنانِ بما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٧).

في الأرضِ، وجُعِلَ لَفظُ (النَّجم) واسِطةَ الانتِقالِ لصَلاحيَّتِه لأنْ يُرادَ منه نُجومُ السَّماءِ، وما يُسمَّى نَجْمًا مِن نباتِ الأرضِ[(١)].

- وعُطِفت جُملةُ ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ ولم تُفصَلْ، فخرَجَت مِن أُسلوبِ تَعدادِ الأخبارِ إلى أُسلوبِ عطْفِ بَعضِ الأخبارِ على بعْضٍ؛ لأنَّ الأخبارَ الواردةَ بعْدَ حُروفِ العطفِ لم يُقصَدْ بها التَّعدادُ؛ إذ ليس فيها تَعريضٌ بتَوبيخِ المُشرِكين، فالإخبارُ بسُجودِ النَّجمِ والشَّجرِ أُرِيدَ به الإيقاظُ إلى ما في هذا مِن الدَّلالةِ على عَظيمِ القدرةِ دَلالةً رمْزيَّةً، ولأنَّه لَمَّا اقْتَضى المَقامُ جمْعَ النَّظائرِ مِن المُزاوَجاتِ بعْدَ ذِكرِ الشَّمسِ والقمرِ، كان ذلك مُقتضيًا سُلوكَ طَريقةِ الوصْلِ بالعطْفِ بجامِعِ التَّضادِّ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]؛ ليُؤْذِنَ بأنَّ الأصلَ: أجْرى الشَّمسَ والقمَرَ، وأسجَدَ النَّجمَ والشجَرَ، فعُدِلَ إلى معْنى دَوامِ التَّسخيرِ والانقِيادِ في الجُملتينِ الأُولَيَين، ومعْنى التَّوكيدِ في الأخيرةِ؛ فدَلَّ الاختلافُ في الأخبارِ المُتواليةِ لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على مَعانٍ تَبْهَرُ ذا اللُّبِّ[(٣)]!

- ولَمَّا ذكَرَ ما به حياةُ الأرواحِ مِن تَعليمِ القُرآنِ، ذكَرَ ما به حَياةُ الأشباحِ مِن النَّباتِ الَّذي له ساقٌ، وكان تَقديمُ النَّجمِ -وهو ما لا ساقَ له- وذلك على قولٍ؛ لأنَّه أصلُ القُوتِ، والَّذي له ساقٌ ثَمرُه يُتفكَّهُ به غالبًا[(٤)].

- ويُطلَقُ النَّجْمُ على النَّباتِ والحَشيشِ الَّذي لا سُوقَ له، فهو مُتَّصِلٌ بالتُّرابِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦).

فحصَلَ مِن قولِه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ قَرينتانِ مُتوازِيتانِ في الحرَكةِ والسُّكونِ، وهذا مِن المحسِّناتِ البَديعيَّةِ الكامِلةِ[1]. وذلك على قولٍ.

- وجُعِلَتِ الجُملةُ ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ مُفتتَحةً بالمُسنَدِ إليه ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ﴾؛ لتكونَ على صُورةِ فاتحةِ الجُملةِ الَّتي عُطِفَتْ هي عليها[2].

- وأُتِيَ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا ﴿يَسۡجُدَانِ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ هذا السُّجودِ وتَكرُّرِه[3].

- قولُه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ * وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بالنَّجمِ هنا: النَّباتُ الَّذي لا ساقَ له؛ ففيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بإيهامِ التَّناسُبِ، وهو أن يُجمَعَ بيْنَ معنيَينِ غيرِ مُتناسِبَينِ بلَفظَينِ يكونُ لهما مَعنَيانِ مُتناسِبانِ وإن لم يَكونا مَقصودَينِ هاهنا، كقولِه تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ * وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر لفظَ الشَّمسِ والقمرِ، وذكَر النَّجمَ بعدَهما في قولِه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ * وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ فإنَّه أوْهَمَ أنَّ المرادَ بالنَّجمِ نَجمُ السَّماءِ؛ لِمُناسَبةِ الشَّمسِ والقمرِ، ولأنَّه أكثَرُ ما يُطلَقُ النَّجمُ على نَجمِ السَّماءِ، فتُوهِمَ أنَّ المُناسَبةَ هنا هي مِن بابِ مُراعاةِ النَّظيرِ أو الائتِلافِ، بَيْدَ أنَّ المرادَ بالنَّجمِ هنا هو النَّباتُ الَّذي لا ساقَ له، وعلى ذلك ففي النَّصِ إيهامٌ للتَّناسُبِ بيْنَ النَّجمِ والشَّمسِ والقمرِ، وتَناسُبٌ واضحٌ بيْنَ النَّجمِ بمعناه الَّذي ذكَرْناه وبيْنَ الشَّجرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويمكنُ أن يكونَ بيْنَ النَّجمِ بالمعنى المذكورِ وبيْنَ الشَّمسِ والقمرِ تَناسُبٌ لكنْ بطريقِ التَّقابُلِ أو المُضادَّةِ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ سَماويَّانِ، والنَّجمَ والشَّجرَ أرْضيَّانِ(١).

- وأخبَرَ عن اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بأربعةِ أخبارٍ مُتتاليةٍ غيرِ مُتعاطِفةٍ، رابعُها هو جُملةُ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]؛ لأنَّها جيءَ بها على نمَطِ التَّعديدِ في مَقامِ الامتِنانِ، وللتَّوقيفِ على الحَقائقِ، والتَّبكيتِ للخَصمِ في إنكارِهم صَريحَ بعْضِها، وإعراضِهم عن لَوازمِ بَعضِها، كما تقولُ: زَيدٌ أغناكَ بعْدَ فقْرٍ، أعَزَّك بعْدَ ذُلٍّ، كثَّرَك بعْدَ قِلَّةٍ، فعَلَ بك ما لم يَفعَلْ أحدٌ بأحدٍ، فما تُنكِرُ مِن إحسانِه؟! ففَصْلُ جُملتَيْ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] عن جُملةِ ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ خِلافُ مُقْتضى الظَّاهِرِ لنُكتةِ التَّعديدِ؛ للتَّبكيتِ. وعطَفَ عليها أربعةً أُخَرَ بحرْفِ العطفِ مِن قولِه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ٦- ١٠]، وكلُّها دالَّةٌ على تَصرُّفاتِ اللهِ؛ ليُعلِمَهم أنَّ الاسمَ الَّذي استَنْكَروه هو اسمُ اللهِ، وأنَّ المُسمَّى واحدٌ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾

- في قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ اطَّرَدَ أُسلوبُ المقابَلةِ بيْن ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٧).

يُشبِهُ الضِّدَّينِ بعْدَ مُقابَلةِ ذِكرِ الشَّمسِ والقَمرِ بذِكرِ النَّجْمِ والشَّجرِ؛ فجِيءَ بذِكرِ خلْقِ السَّماءِ وخلْقِ الأرضِ، وعاد الكلامُ إلى طَريقةِ الإخبارِ عن المسنَدِ إليه بالمسنَدِ الفِعليِّ؛ كما في قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ❁ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، وهذا مَعطوفٌ على الخبرِ؛ فهو في معْناه[(١)].

- ورفْعُ السَّماءِ يَقْتضي خَلْقَها، وذُكِرَ رفْعُها؛ لأنَّه مَحلُّ العِبرةِ بالخلْقِ العجيبِ، ومعْنى رَفْعِها: خلْقُها مَرفوعةً؛ إذ كانت مَرفوعةً بغيرِ أعمدةٍ، كما يُقال للخيَّاطِ: وسِّعْ جَيبَ القميصِ، أي: خِطْهُ واسعًا، على أنَّ في مُجرَّدِ الرَّفعِ إيذانًا بسُموِّ المنزلةِ وشرَفِها[(٢)].

- وتَقديمُ (السَّمَاءَ) على الفِعلِ النَّاصبِ له ﴿رَفَعَهَا﴾ زِيادةٌ في الاهتِمامِ بالاعتبارِ بخلْقِها[(٣)].

- والمِيزانُ هنا مُرادٌ به العدْلُ -على قولٍ-، مِثلَ الَّذي في قولِه تعالَى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ لأنَّه الَّذي وضَعه اللهُ، أي: عيَّنَه لإقامةِ نِظامِ الخلْقِ؛ فالوضْعُ هنا مُعبَّرٌ به عن الجَعْلِ، فهو كالإنزالِ في قولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ قرَنَ وَضْعَ الميزانِ مع رفْعِ السَّماءِ؛ تَنويهًا بشأْنِ العدلِ؛ بأنْ نُسِبَ إلى العالَمِ العُلويِّ، وهو عالَمُ الحقِّ والفضائلِ، وأنَّه نزَلَ إلى الأرضِ مِن السَّماءِ، أي: هو ممَّا أمَرَ اللهُ به؛ ولذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٨).

تَكرَّرَ ذلك العدلُ مع ذِكرِ خلْقِ السَّماءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [يُونس: ٥]، وقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحِجر: ٨٥]، وقولِه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الدُّخَان: ٣٨، ٣٩]، وإذ قد كان الأمرُ بإقامةِ العدْلِ مِن أهمِّ ما أَوصى اللهُ به إلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قُرِنَ ذِكرُ جَعْلِه بذِكرِ خلْقِ السَّماءِ، فكأنَّه قِيل: ووضَعَ فيها الميزانَ[١]. وأيضًا قُرِنَ برفعِ السَّماءِ؛ لأنَّه تعالى عدَّدَ نِعَمَه على عِبادِه، ومِن أجَلِّ هذه النِّعَمِ الميزانُ، الَّذي هو العدلُ، الَّذي به نِظامُ العالَمِ وقِوامُه[٢].

- و(أنْ) في قولِه: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ تَفسيريَّةً؛ لأنَّ فِعلَ (وَضَعَ الْمِيزَانَ) فيه معْنى أمْرِ النَّاسِ بالعَدلِ، وفي الأمرِ معْنى القولِ دونَ حُروفِه؛ فهو حَقيقٌ بأنْ يأتِيَ تَفسيرُه بحرْفِ (أنْ) التَّفسيريَّةِ، فكان النَّهيُ عن إضاعةِ العدلِ في أكثرِ المُعامَلاتِ تَفسيرًا لذلك؛ فتَكونَ (لا) ناهيةً. ويَجوزُ أنْ تكونَ (أنْ) مَصدريَّةً، بتَقديرِ لامِ الجرِّ مَحذوفةً قبْلَها، والتَّقديرُ: لئلَّا تَطْغَوا في الميزانِ، وتكونَ (لا) نافيةً، وفِعلُ ﴿تَطْغَوْا۟﴾ مَنصوبًا بـ(أنْ) المصدريَّةِ[٣].

- والمُرادُ بالميزانِ ما يَشملُ العدلَ، ويَشملُ ما به تَقديرُ الأشياءِ الموزونةِ ونحْوِها في البيعِ والشِّراءِ، أي: مِن فوائدِ تَنزيلِ الأمرِ بالعدْلِ أنْ تَجتَنِبوا الطُّغيانَ في إقامةِ الوزنِ في المعامَلةِ، ولفظُ الميزانِ يَسمَحُ بإرادةِ المعْنَيَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

على طَريقةِ استِعمالِ المُشتركِ في مَعنيَيْه. وفي لَفظِ الميزانِ وما قارَنَه مِن فِعلِ (وَضَعَ) وفِعلَيْ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ ﴿وَأَقِيمُوا﴾، وحرْفِ الباءِ في قولِه: ﴿بِالْقِسْطِ﴾، وحرْفِ (في) مِن قولِه: ﴿فِي الْمِيزَانِ﴾، ولفظِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ كلُّ هذه تَظاهَرَت على إفادةِ هذه المعاني، وهذا مِن إعجازِ القرآنِ[١].

- وحرْفُ (في) للظَّرفيَّةِ الَّتي تُفيدُ النَّهيَ عن أقلِّ طُغيانٍ على الميزانِ، أي: ليس النَّهيُ عن إضاعةِ الميزانِ كلِّه، بلِ النَّهيُ عن كلِّ طُغيانٍ يَتعلَّقُ به[٢].

- قولُه: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ على احتِمالِ كَونِ المعطوفِ عليها تَفسيريَّةً، وعلى جُملةِ ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ على احتِمالِ كَونِ المعطوفِ عليها تَعليلًا[٣].

- والباءُ في ﴿بِالْقِسْطِ﴾ للمُصاحَبةِ، والمعْنى: اجْعَلوا العدْلَ مُلازِمًا لِما تُقوِّمونه مِن أُمورِكم. أو الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: راعُوا في إقامةِ التَّمحيصِ ما يَقْتضيه العدْلُ. وقد كان المُشرِكون يَعهَدون إلى التَّطفيفِ في الوزْنِ، كما جاء في قولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣]، فلمَّا كان التَّطفيفُ سُنَّةً من سُنَنِ المشركين، تَصدَّتِ الآيةُ للتَّنبيهِ عليه، ويَجيءُ على الاعتِبارَينِ تَفسيرُ قولِه: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾؛ فإنْ حُمِلَ الميزانُ فيه على معْنى العدْلِ، كان المعْنى النَّهْيَ عن التَّهاوُنِ بالعدْلِ لغَفلةٍ أو تَسامحٍ بعْدَ أنْ نَهى عن الطُّغيانِ فيه، ويَكونُ إظهارُ لفظِ (الميزان) في مَقامِ ضَميرِه تَنبيهًا على شِدَّةِ عِنايةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨، ٢٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالعدلِ، وإنْ حُمِلَ فيه على آلةِ الوزْنِ، كان المعْنى النَّهيَ عن غَبْنِ الناسِ في الوزْنِ لهم، كما قال تعالى في سُورةِ (المطفِّفين): ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1] [المطففين: ٣].

- وفائدةُ تَكرارِ لَفظِ الميزانِ ثَلاثَ مرَّاتٍ: التَّشديدُ؛ للتَّوصيةِ به، ولتَقويةِ الأمْرِ باستِعمالِه والحثِّ عليه، ولتوكيدِ إيفاءِ الحقوقِ وعدَمِ التَّطفيفِ لِفَرطِ الحاجةِ إليه في المعاملاتِ الجاريةِ بيْنَ الناس، وبيانِ أنَّ كلًّا مِن الآياتِ مُستقِلَّةٌ بنفْسِها، أو أنَّ كلًّا مِن الألفاظِ الثَّلاثةِ مُغايرٌ لكلٍّ مِن الآخَرَين؛ فالأوَّلُ: هو الآلةُ ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، والثَّاني: بمعْنى المصدَرِ ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ﴾، أي: الوزْنِ، والثَّالثُ: للمفعولِ ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾، أي: الموزونَ، وذَكَرَ الكلَّ بلَفظِ «الميزانِ»؛ لأنَّ الميزانَ أشمَلُ للفائدةِ. وقيل: الأوَّلُ: مِيزانُ الدُّنيا، والثَّاني: مِيزانُ الآخرةِ، والثَّالثُ: مِيزانُ العقْلِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٣)، ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جَماعة (ص: ٣٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٣).

الآيات (١٠-١٣)

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾: أي: الأوعيةِ الَّتي يكونُ فيها الثَّمَرُ، واحِدُها «كِمٌّ»: وهو وعاءُ الطَّلعِ قبْلَ أن يَنشَقَّ، وأصلُ (كمم): يدُلُّ على غِطاءٍ[1].

﴿ٱلْعَصْفِ﴾: أي: تِبنِ الزَّرعِ ووَرَقِه الَّذي تَعصِفُه الرِّياحُ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[2].

﴿ءَالَآءِ﴾: الآلاءُ: النِّعَمُ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّه خفَضَ الأرضَ ومَهَّدَها لِخَلْقِه، وجَعَل فيها أنواعَ الفواكِهِ، والنَّخلَ ذا الأوعيةِ الَّتي يكونُ فيها الثَّمَرُ، والحُبوبَ المأكولةَ ذواتِ الوَرَقِ اليابسِ والتِّبنِ، والرَّيحانَ ذا الرَّائحةِ الجَميلةِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ -يا مَعشَرَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

الإنسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر إنعامَه الدَّالَّ على اقتِدارِه، برَفعِ السَّماءِ؛ ذَكَر على ذلك الوَجهِ مُقابِلَها، بعدَ أنْ وَسَّط بيْنَهما ما قامتا به مِنَ العَدلِ؛ تنبيهًا على شِدَّةِ العنايةِ والاهتِمامِ، فقال[1]:

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠﴾.

أي: والأرضَ خفَضَها الرَّحمنُ، ووطَّأها لِخَلْقِه[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٢).

قال الماوَرْدي: (في الأنامِ ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّهم النَّاسُ... الثَّاني: أنَّ الأنامَ الإنسُ والجِنُّ... الثَّالِثُ: أنَّ الأنامَ جميعُ الخَلقِ مِن كُلِّ ذي رُوحٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

وممَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والشربيني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّالثِ، وهو أنَّ المرادَ الخلْقُ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، والثعلبي، والبغوي، والزمخشري، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير =

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾.

أي: في الأرضِ أنواعُ الفواكِهِ المُختَلِفةِ الألوانِ والطُّعومِ والرَّوائِحِ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩].

﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾.

أي: وفي الأرضِ شَجَرُ النَّخلِ المُغَطَّى ثَمَرُه بالأوعيةِ التي تَنْشَقُّ، فتَخرُجُ

= السمرقندي)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، والشَّعبيُّ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَضَعَهَا﴾: خَفَضَها لهم، أي: جعَلَها تحتَ أقدامِهم وجُنوبِهم؛ لِتَمكينِهم مِنَ الانتِفاعِ بها بجَميعِ ما لهم فيها مِن منافِعَ ومُعالجاتٍ، واللَّامُ في ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ للأَجلِ. والأنامُ: اختَلَفَت أقوالُ أهلِ اللُّغةِ والتَّفسيرِ فيه... وفَسَّره الزَّمخشري بقَولِه: الخَلقُ، وهو كُلُّ ما ظَهَر على وَجهِ الأرضِ مِن دابَّةٍ فيها رُوحٌ، وهذا مَرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ وجَمعٍ مِن التَّابِعينَ. وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا: أنَّه الإنسانُ فقط. وهو اسمُ جَمعٍ لا واحِدَ له مِن لَفظِه، وسياقُ الآيةِ يُرَجِّحُ أنَّ المرادَ به الإنسانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفاكِهةُ: اسمٌ لِما يُؤكَلُ تفكُّهًا لا قُوتًا، مُشتقَّةٌ مِن فَكِهَ كفَرِحَ: إذا طابت نَفْسُه بالحديثِ والضَّحِكِ؛ قال تعالى: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]؛ لأنَّ أكْلَ ما يَلَذُّ للآكِلِ وليس بضَروريٍّ له: إنَّما يكونُ في حالِ الانبِساطِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

منها عُذوقُ التَّمْرِ[(١)].

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما يُقتاتُ مِنَ الفَواكِهِ -وهو في غايةِ الطُّولِ-؛ أتْبَعَه الأصلَ في الاقتياتِ للنَّاسِ والبَهائِمِ -وهو بمكانٍ مِنَ القِصَرِ-، فقال ذاكِرًا ثَمرتَه؛ لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ[(٢)]:

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾.

أي: وفي الأرضِ الحُبوبُ المأكولةُ -كالبُرِّ والشَّعيرِ ونحوِهما- ذواتُ الورقِ اليابسِ، والتِّبنِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ قال أكثرُ العلماءِ: العصفُ وَرَقُ الزَّرْعِ، ومنه قولُه تعالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]. وقيلَ: العصفُ التِّبْنُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٣).

وقال الواحدي: (العصف ورَقُ الزَّرعِ، ثمَّ إذا يَبِسَ ودِيسَ صار تبنًا. وعلى هذا يَدورُ كلامُ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ١٤٣).

وقال العُلَيمي: (﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ التِّبنُ وورَقُ النَّباتِ اليابسِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٩).

وقال ابنُ عاشور: (هذا وَصفٌ لحَبِّ الشَّعيرِ والحِنطةِ، وبهما قِوامُ حياةِ مُعظَمِ النَّاسِ، وكذلك ما أشبَهَهما مِن نَحوِ السُّلْتِ [ضربٌ مِن الشَّعيرِ] والأَرُزِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿وَالرَّيْحَانَ﴾ بفَتحِ النُّونِ، وكذلك بفَتحِ ما قَبْلَها ﴿وَالْحَبَّ ذَا الْعَصْفِ﴾، أي: وخَلَقَ الحَبَّ ذا العَصْفِ، والرَّيحانَ الَّذي يُشَمُّ. وقيل: الرَّيحانُ: الرِّزقُ[(١)].

٢- قِراءةُ: ﴿وَالرَّيْحَانِ﴾ بكَسرِ النُّونِ عَطفًا على العَصْفِ، أي: وفيها الحَبُّ ذو العَصْفِ وذو الرَّيحانِ. فقيل: المرادُ هنا أنَّ العَصْفَ: ما تأكُلُه الأنعامُ، والرَّيحانُ: ما يأكُلُه النَّاسُ مِن نَفسِ الحَبِّ[(٢)].

٣- قِراءةُ: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ بضَمِّ النُّونِ عَطفًا على الحَبِّ، أي: وفيها الحَبُّ ذو العَصفِ، وفيها الرَّيحانُ الَّذي يُشَمُّ. وقيل: الرَّيحانُ: الرِّزقُ[(٣)].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١١٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٠، ٦٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾.

أي: وفي الأرضِ الرَّيحانُ، وهو النَّبتُ ذو الرَّائِحةِ الجَميلةِ، الَّذي يُشَمُّ لِطِيبِ رائِحتِه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال السعدي: (﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ يحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك جميعُ الأرزاقِ الَّتي يأكُلُها الآدميُّونَ، فيَكونُ هذا مِن بابِ عَطفِ العامِّ على الخاصِّ، ويكونُ اللهُ قد امتَنَّ على عبادِه بالقُوتِ والرِّزقِ عُمومًا وخُصوصًا.

ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرَّيحانُ المعروفُ، وأنَّ اللهَ امتَنَّ على عبادِه بما يَسَّرَه في الأرضِ مِن أنواعِ الرَّوائِحِ الطَّيِّبةِ، والمشامِّ الفاخِرةِ الَّتي تَسُرُّ الأرواحَ، وتَنشَرِحُ لها النُّفوسُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

وقال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾: اختَلَفَ العُلَماءُ في معناه؛ فقال بَعضُ أهلِ العِلمِ: هو كُلُّ ما طاب رِيحُه مِن النَّبتِ، وصار يُشَمُّ للتَّمَتُّعِ بريحِه. وقال بعضُ العُلَماءِ: الرَّيحانُ: الرِّزقُ... ويتعَيَّنُ كَونُ الرَّيحانِ بمعنى الرِّزقِ على قراءةِ حَمزةَ والكِسائيِّ [أي: بكسرِ النونِ]؛ وأمَّا على قراءةِ غَيرِهما فهو مُحتَمِلٌ للأمْرَينِ المذكورَينِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٣، ٤٩٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ به النَّبتُ الطَّيِّبُ الرَّائِحةِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، والواحدي، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ والبغويُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٢).

وممَّن قال مِن السَّلفِ إنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٩). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن عُرِضَ عليه رَيحانٌ فلا يَرُدُّه[1]؛ فإنَّه خَفيفُ المَحْمِلِ[2]، طَيِّبُ الرِّيحِ))[3].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَدَّد تعالى نِعَمَه، وكان الجِنُّ والإنسُ مِمَّن دَخَلوا في قَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾؛ خاطبَهما بقَولِه[4]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[5]؟!

= قال مقاتلٌ: (يعني الرِّزقَ -بلِسانِ حِمْيَرَ- الَّذي يخرجُ مِن الحبِّ مِن دَقيقٍ أو سَويقٍ أو غيرِه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ، وخَصَّه بالحَبِّ المأكولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨).

وقال الزمخشري: (والرَّيحانُ: الرِّزقُ، وهو اللُّبُّ، أراد: فيها ما يُتلذَّذُ به مِن الفَواكِهِ، والجامعُ بيْنَ التَّلذُّذِ والتَّغذِّي وهو ثمرُ النَّخلِ، وما يُتغذَّى به وهو الحَبُّ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٤).

(١) قال النووي: (فلا يردُّه برفعِ الدَّالِ على الفصيحِ المشهورِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٩).

(٢) أي: خفيفُ الحَملِ، ليس بثقيلٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٩).

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٩، ١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠١-٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال القرطبي: (الآلاءُ: النِّعَمُ، وهو قولُ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٩).

وقال أيضًا: (قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خِطابٌ للإنسِ والجنِّ؛ لأنَّ الأنامَ واقعٌ عليهما. وهذا قولُ الجمهورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

رُوِيَ عن الرَّبيعِ بنِ زيادٍ الحارثيِّ: (أنَّه قال لعلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه: اعْدِني[1] على أخي عاصمٍ، قال: فما بالُه؟ قال: لَبِسَ العَباءةَ يُريدُ النُّسُكَ، فقال عليٌّ رضِيَ اللهُ عنه: علَيَّ به. فأُتِيَ به مُؤتزِرًا بعَباءةٍ مُرتديًا لأُخرى، شَعْثَ الرَّأسِ واللِّحيةِ، فعبَسَ في وجْهِه، وقال: ويْحَك! أمَا استحْيَيْتَ مِن أهلِك؟ أمَا رحِمْتَ ولَدَك؟ أترى اللهَ أباح لك الطَّيِّباتِ وهو يَكرَهُ أنْ تَنالَ منها شيئًا؟! بل أنتَ أهونُ على اللهِ مِن ذلك، أمَا سمِعْتَ اللهَ يقولُ في كتابِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ إلى قولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٠ - ٢٢]؟ أفترَى اللهَ أباح هذه لعبادِه إلَّا ليَبتَذِلُوه[2] ويَحمَدوا اللهَ عليه فيُثيبَهم عليه، وإنَّ ابتِذالَك نِعَمَ اللهِ بالفِعلِ خَيرٌ منه بالقولِ؟ قال عاصمٌ: فما بالُكَ في خُشونةِ مَأكَلِك وخُشونةِ مَلبَسِك؟ قال: ويْحك! إنَّ اللهَ فرَضَ على أئمَّةِ الحقِّ أنْ يَقدُروا أنفُسَهم بضَعَفةِ النَّاسِ).

إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُطالِبِ العبادَ بتركِ الملذوذاتِ! وإنَّما طالبَهم بالشُّكرِ عليها إذا تَناوَلوها، فالاقتِصارُ على البَشِعِ في المأكولِ مِن غيرِ عُذْرٍ، وكذلك الاقتصارُ على الخشِنِ في الملبسِ مِن غيرِ ضرورةٍ: هو مِن قَبيلِ التَّشديدِ والتَّنَطُّعِ

= واختار ابن عاشور أنَّه خِطابٌ للمؤمنينَ والكافرين الذين يَنقسِمُ إليهما جنسُ الإنسانِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٣).

(١) أي: أَعِنِّي وانصُرْني عليه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ١٠).

(٢) أي: إلَّا لِيَستَعمِلوه، فالابتِذالُ: ضِدُّ الصِّيانةِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٦٥).

المذمومِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ أخَذَ بَعضُ عُلَماءِ الأُصولِ من هذه الآيةِ الكَريمةِ وأمثالِها مِنَ الآياتِ، كقَولِه تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا**﴾ [البقرة: ٢٩]: «أنَّ الأصلَ فيما على الأرضِ الإباحةُ حتَّى يَرِدَ دَليلٌ خاصٌّ بالمنعِ»؛ لأنَّ اللهَ تعالى امتَنَّ على الأنامِ بأنَّه وَضَع لهم الأرضَ، وجَعَل لهم فيها أرزاقَهم، وامتَنَّ عليهم بأنَّه خَلَق لهم ما في الأرضِ جَميعًا في قَولِه: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا**﴾ [البقرة: ٢٩]، ومَعلومٌ أنَّه جَلَّ وعلا لا يمتَنُّ بحَرامٍ؛ إذْ لا مِنَّةَ في شَيءٍ مُحَرَّمٍ.

وفي هذه المسألةِ قَولانِ آخَرانِ:

أحدُهما: أنَّ الأصلَ فيما على الأرضِ التَّحريمُ حتَّى يدُلَّ دَليلٌ على الإباحةِ.

القَولُ الثَّاني: هو الوَقفُ وعَدَمُ الحُكمِ فيها بمَنعٍ ولا إباحةٍ حتَّى يقومَ الدَّليلُ.

فتَحَصَّل أنَّ في المسألةِ ثَلاثةَ مَذاهِبَ: المَنعُ، والإباحةُ، والوَقفُ.

والصَّوابُ هو التَّفصيلُ؛ لأنَّ الأعيانَ الَّتي خلَقَها اللهُ في الأرضِ للنَّاسِ فيها ثلاثُ حالاتٍ: **الأُولى:** أن يكونَ فيها نَفعٌ لا يَشوبُه ضَرَرٌ، كأنواعِ الفواكِهِ، وغَيرِها.

الثَّانيةُ: أن يكونَ فيها ضَرَرٌ لا يَشوبُه نَفعٌ،كأكلِ الأعشابِ السَّامَّةِ القاتِلةِ.

الثَّالثةُ: أن يكونَ فيها نَفعٌ مِن جِهةٍ، وضَرَرٌ من جِهةٍ أُخرى.

فإنْ كان فيها نَفعٌ لا يَشوبُه ضَرَرٌ، فالتَّحقيقُ حَملُها على الإباحةِ حتَّى يقومَ

(١) يُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ١٨٠)، ((الاعتصام)) للشاطبي (١/ ٤٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٠).

دَليلٌ على خِلافِ ذلك؛ لِعُموم قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

وإنْ كان فيها ضَرَرٌ لا يَشوبُه نَفعٌ، فهي على التَّحريمِ.

وإن كان فيها نَفعٌ مِن جِهةٍ وضَرَرٌ مِن جِهةٍ أُخرى، فلها ثلاثُ حالاتٍ؛ الأُولى: أن يكونَ النَّفعُ أرجَحَ مِنَ الضَّرَرِ. والثَّانيةُ: عَكسُ هذا. والثَّالثةُ: أن يَتساوى الأمْرانِ؛ فإن كان الضَّرَرُ أرجَحَ مِن النَّفعِ أو مُساويًا له فالمَنعُ؛ لأنَّ «دَرْءَ المفاسِدِ مُقَدَّمٌ على جَلبِ المصالِحِ»، وإن كان النَّفعُ أرجحَ فالأظهَرُ الجوازُ؛ لأنَّ المقَرَّرَ في الأُصولِ «أنَّ المَصلَحةَ الرَّاجِحةَ تُقَدَّمُ على المَفسَدةِ المَرجوحةِ»[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ﴾ ما الحِكمةُ في ذِكرِ الفاكِهةِ باسمِها لا باسمِ أشجارِها، وذِكرِ النَّخلِ باسمِها لا باسْمِ ثَمَرِها؟

الجَوابُ: أنَّ شَجَرةَ العِنَبِ -وهي الكَرْمُ- بالنِّسبةِ إلى ثَمَرتِها -وهي العِنبُ- حقيرةٌ، وشَجَرةَ النَّخلِ بالنِّسبةِ إلى ثَمَرتِها عَظيمةٌ، وفيها مِن الفوائِدِ الكثيرةِ على ما عُرِفَ مِن اتِّخاذِ الظُّروفِ مِنها، والانتِفاعِ بجُمَّارِها[(٢)]، وبالطَّلعِ والبُسرِ والرُّطَبِ، وغَيرِ ذلك؛ فثَمَرتُها في أوقاتٍ مُختَلِفةٍ كأنَّها ثَمَراتٌ مُختَلِفةٌ، فهي أتمُّ نِعمةً بالنِّسبةِ إلى الغَيرِ مِنَ الأشجارِ؛ فذَكَر النَّخلَ باسمِه، وذَكَر الفاكِهةَ دونَ أشجارِها؛ فإنَّ فوائِدَ أشجارِها في عَينِ ثِمارِها[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذِكرُ لَفظِ «الرَّبِّ»؛ إشعارًا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٥).
(٢) جُمَّارُ النَّخلة: قَلْبُها، ومنه يَخرُجُ الثَّمَرُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٥).

بالرَّحمةِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أنَّ مُخاطَبتَه سُبحانَه بهذا للثَّقَلَينِ دَليلٌ على أنَّ هذه الأشياءَ تَعُمُّ على الجِنِّ كما أنَّها تَعُمُّ على الإنسِ، وأنَّ لهم مِن ذلك ما لهم[٢].

٥- في ذِكرِه تعالى لهذه الآيةِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعدَ ذِكرِ هذا العَدَدِ مِن الآياتِ إشارةٌ إلى أنَّ زيادةَ النِّعَمِ: إلى حَدٍّ لا يُحصَى، بحيثُ إنَّ استيفاءَ عَدَدِها لا تُحيطُ به عُقولُ المكَلَّفينَ؛ لئلَّا يَظُنُّوا أنَّه لا نِعمةَ غيرُ ما ذُكِرَ في هذه السُّورةِ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذُكِرَتْ هذه الآيةُ إحدى وثلاثينَ مرَّةً؛ ثمانيةٌ منها ذُكِرَتْ عَقِبَ آياتٍ فيها تَعدادُ عَجائبِ خَلْقِ اللهِ، وبدائعِ صُنْعِه، ومَبْدَأِ الخَلْقِ ومَعادِهم، ثمَّ سَبعةٌ منها عَقِبَ آياتٍ فيها ذِكْرُ النَّارِ وشَدائدِها بعَدَدِ أبوابِ جهنَّمَ، وحَسُنَ ذِكْرُ الآلاءِ عَقِبَها؛ لأنَّ مِن جملةِ الآلاءِ رَفْعَ البلاءِ، وتأخيرَ العِقابِ، وبَعْدَ هذه السَّبعةِ ثمانيةٌ في وَصْفِ الجنَّتَينِ وأهلِهما بعَدَدِ أبوابِ الجَنَّة، وثمانيةٌ أُخرى بَعْدَها في الجنَّتَينِ اللَّتَينِ هما دونَ الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ؛ أَخْذًا مِن قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]؛ فمَنِ اعتقدَ الثَّمانيةَ الأُولى وعَمِلَ بموجَبِها استحقَّ هاتينِ الثَّمانِيَتَينِ مِن اللهِ، ووقاه السَّبعةَ السَّابِقةَ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أنَّ كُلَّ ما يَفعَلُه سُبحانَه هو إحسانٌ للعِبادِ ونِعمةٌ عليهم؛ ولهذا يَقولُ عَقِيبَ ما يُعَدِّدُه مِن النِّعَمِ على العِبادِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وآلاؤه هي نِعَمُه، وهي مُتضَمِّنةٌ لقُدرتِه ومَشيئتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٧).

كما هي مُستَلزِمةٌ لِرَحمتِه وحِكمتِه[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ * وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾ عطفٌ على ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ [الرحمن: ٧]، وهو مُقابِلُه في المُزاوجةِ، والوضْعُ يُقابِلُ الرَّفعَ؛ فحصَلَ مُحسِّنُ الطِّباقِ[(٢)] مرَّتَين[(٣)].

- وجُملةُ ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتقريرِ ما أفادَتْه الجُملةُ السَّابقةُ ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾؛ مِن كَونِ الأرضِ مَوضوعةً لمَنافعِ الأنامِ، وتَفصيلِ المنافعِ العائدةِ إلى البشرِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦١).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَقَ بيْن الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابَقةُ خفيَّةً لِتعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقولِه تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا ﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإن إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا من أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٨).

- وجُملةُ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ إلى آخِرِها، مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾، ولَمَّا كان قولُه: ﴿وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ يَتضمَّنُ وضْعًا وعِلَّةً لذلك الوضْعِ، كانت الجُملةُ المُبيِّنةُ له مُشتمِلةً على ما فيه العِبرةُ والامتنانُ[١].

- وتَقديمُ ﴿فِيهَا﴾ على المُبتدأِ ﴿فَٰكِهَةٞ﴾؛ للاهتِمامِ بما تَحتوي عليه الأرضُ[٢].

- ووصْفُ النَّخلِ بأنَّه ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ وصْفٌ للتَّحسينِ؛ فليست الأكمامُ ممَّا يُنتفَعُ به، فتَعيَّنَ أنَّ ذِكرَها مع النَّخلِ للتَّحسينِ، فهو اعتبارٌ بأطوارِ ثَمرِ النَّخلِ، وامتنانٌ بجَمالِه وحُسْنِه[٣].

- ووَصْفُ الحَبِّ بأنَّه ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾؛ للتَّحسينِ، وللتَّذكيرِ بمِنَّةِ جَمالِ الزَّرعِ حِينَ ظُهورِه في سُنبلِه في حُقولِه، ولأنَّ في الموصوفِ ووَصْفِه أقواتَ البشَرِ وحَيوانِهم[٤].

- والرَّيحانُ: ما له رائحةٌ ذَكيَّةٌ مِن الأزهارِ والحشائشِ، وهذا اعتبارٌ وامتنانٌ بالنَّباتِ المُودَعةِ فيه الأطيابُ؛ مِثلَ الوردِ والياسَمينِ، وما يُسمَّى بالرَّيحانِ الأخضرِ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ * وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾، بدَأَ بقولِه: ﴿فَٰكِهَةٞ﴾؛ إذ هو مِن بابِ الابتداءِ بالأدْنى والتَّرقِّي إلى الأعْلى، ونكَّرَ لَفْظَها؛ لأنَّ الانتِفاعَ بها دونَ الانتفاعِ بما يُذكَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعْدَها، ولِيَدُلَّ على كثرتِها، وقد صرَّح بالكثرةِ في مواضِعَ أُخَرَ. ثمَّ ثَنَّى بالنَّخلِ، فذكَرَ الأصلَ، ولم يَذكُرْ ثَمرَتَها -وهو الثَّمرُ-؛ لكَثرةِ الانتفاعِ بها مِن لِيفٍ وسَعفٍ، وجَريدٍ وجُذوعٍ، وجُمَّارٍ وثمَرٍ. ثمَّ أتى ثالثًا بالحَبِّ الَّذي هو قِوامُ عَيشِ الإنسانِ في أكثَرِ الأقاليمِ، وهو البُرُّ والشَّعيرُ وكلُّ ما له سُنبلٌ وأوراقٌ مُتشعِّبةٌ على ساقِه، ووصَفَه بأنَّه ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾؛ تَنبيهًا على إنعامِه عليهم بما يَقُوتُهم مِن الحَبِّ، ويَقوتُ بَهائمَهم مِن ورَقِه الَّذي هو التِّبْنُ. وذكَرَ النَّخلَ باسْمِها، والفاكهةَ دونَ شَجَرِها؛ لعِظَمِ المَنفعةِ بالنَّخلِ مِن جِهاتٍ مُتعدِّدةٍ، وشَجرةُ الفاكهةِ بالنِّسبةِ إلى ثَمرتِها حَقيرةٌ، فنَصَّ على ما يَعظُمُ به الانتفاعُ مِن شَجرةِ النَّخلِ ومِن الفاكهةِ دونَ شَجَرتِها(١).

- وبَدَأ بالفاكِهةِ، وخَتَم بالمشمومِ، وبَيْنَهما النَّخلُ والحَبُّ؛ لِيَحصُلَ ما به يُتفَكَّهُ، وما به يُتَقَوَّتُ، وما به تَقَعُ اللَّذاذةُ مِنَ الرَّائِحةِ الطَّيِّبةِ(٢).

- ولَمَّا عدَّدَ تعالَى نِعَمَه، خاطَبَ الثَّقلَينِ -الإنسَ والجنَّ- بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أي: إنَّ نِعَمَه كَثيرةٌ لا تُحصى، فبأيِّها تُكذِّبانِ؟ أي: مَن هذه نِعَمُه لا يُمكِنُ أنْ يُكذَّبَ بها(٣). وقيل: هو خِطابٌ للمؤمنينَ والكافرينَ الَّذين يَنقسِمُ إليهما جِنسُ الإنسانِ المذكورِ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: ٣]، وهم المُخاطَبونَ بقولِه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] الآيةَ، والمُنقسِمُ إليهما الأنامُ المُتقدِّمُ ذِكرُه، أي: إنَّ نِعَمَ اللهِ على النَّاسِ لا يَجحَدُها كافرٌ، بلْهَ المؤمنَ، وكلُّ فَريقٍ يَتوجَّهُ إليه الاستِفهامُ بالمعْنى الَّذي يُناسِبُ حالَه. والمَقصودُ الأصليُّ: التَّعريضُ بالمُشرِكين وتَوبيخُهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٥٨).

على أنْ أشْرَكوا في العِبادةِ مع المُنعِمِ غيرَ المُنعِمِ، والشَّهادةُ عليهم بتَوحيدِ المؤمنينَ. وقيل: التَّثنيةُ قائمةٌ مَقامَ تَكريرِ اللَّفظِ لتَأكيدِ المعْنى؛ مِثل: لبَّيكَ وسَعْدَيك، ومعْنى هذا أنَّ الخطابَ لواحدٍ، وهو الإنسانُ[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّفريعِ على ما تقدَّمَ مِن المِنَنِ المُدمَجةِ مع دَلائلِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَقِّيَّةِ وَحْيِ القرآنِ، ودَلائلِ عَظَمةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه؛ باستفهامٍ عن تَعيينِ نِعمةٍ مِن نِعَمِ اللهِ يَتأتَّى لهم إنكارُها، وهو تَذييلٌ لِما قبْلَه. وحرْفُ (أيّ) استِفهامٌ عن تَعيينِ واحدٍ مِن الجِنسِ الَّذي تُضافُ إليه، وهي هنا مُستعمَلةٌ في التَّقريرِ بذِكرِ ضِدِّ ما يُقرِّبُه[٢].

- والفاءُ كذلِك لتَرتيبِ الإنكارِ والتَّوبيخِ على ما فُصِّلَ مِن فُنونِ النَّعماءِ وصُنوفِ الآلاءِ المُوجِبةِ للإيمانِ والشُّكرِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّة المُنْبئةِ عن المالكيَّةِ الكُلِّيَّةِ والتَّربيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم؛ لتأْكيدِ النَّكيرِ، وتَشديدِ التَّوبيخِ[٣].

- ومعْنى تَكذيبِهم بآلائِه تعالى كفْرُهم بها، والتَّعبيرُ عن كُفرِهم المَذكورِ بالتَّكذيبِ؛ لِما أنَّ دَلالةَ الآلاءِ المَذكورةِ على وُجوبِ الإيمانِ والشُّكرِ شَهادةٌ منها بذلك، فكُفْرُهم بها تَكذيبٌ بها لا مَحالةَ، أي: فإذا كان الأمْرُ كما فُصِّلَ، فبأيِّ فرْدٍ مِن أفرادِ آلاءِ مالِكِكُما ومُربِّيكُما بتلك الآلاءِ تُكذِّبانِ، مع أنَّ كلًّا منها ناطقٌ بالحقِّ، شاهدٌ بالصِّدقِ[٤]؟! وقيل: تَكذيبُ الآلاءِ هو كِنايةٌ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإشراكِ باللهِ في الإلهيَّةِ، والمعْنى: فبأيِّ نِعمةٍ مِن نِعَم اللهِ عليكم تُنكِرون أنَّها نِعمةٌ عليكم، فأشْرَكْتُم فيها غيرَه، بلْهَ إنكارَ جَميعِ نِعَمِه؛ إذ تَعبُدون غيرَه دَوامًا(١)؟!

- والتَّكريرُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تَكريرٌ عذْبٌ، وفيه أوجُهٌ:

الأولُ: السِّرُّ في تَكريرِ الآيةِ عقِبَ آياتٍ فيها تَعدادُ عَجائبِ خلْقِ اللهِ وبَدائعِ صُنْعِه، وبعْدَ آياتٍ فيها ذِكرُ النَّارِ وشَدائدِها؛ لأنَّ مِن جُملةِ الآلاءِ رفْعَ البلاءِ، وتأْخيرَ العقابِ، والتَّقريرَ بالنِّعَمِ المَعدودةِ، والتَّأكيدَ في التَّذكيرِ بها كلِّها، ولأنَّ مِن عَلاماتِ العاطفةِ المُحتدِمةِ هذا التَّكريرَ(٢).

الثَّاني: أنَّ اللهَ تَعالى عدَّدَ في هذه السُّورة نَعماءَه، وذكَّرَ خلْقَه آلاءَه، ثمَّ أتْبَعَ كلَّ خَلَّةٍ وصَفَها بهذه الآيةِ، وجعَلَها فاصِلةً بيْن كلِّ نِعمتَينِ؛ ليُنبِّهَهم على النِّعَمِ ويُقرِّرَهم بها، كما تقولُ -لِمَن تَتابَعَ فيه إحسانُك وهو يَكفُرُه ويُنكِرُه-: ألَمْ تكُنْ فقيرًا فأغنَيْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! ألَمْ تكُنْ خامِلًا فعزَّزْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! ألم تكُنْ راجِلًا فحمَلْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! والتَّكريرُ حَسَنٌ في مِثلِ هذا(٣).

الثَّالثُ: أنَّ المُنكِرَ إذا تَكرَّرَ إنكارُه جِدًّا بحيث أحرَقَ الأكبادَ في المُجاهَرةِ بالعِنادِ؛ حَسُنَ سَرْدُ ما أنكَرَه عليه، وكلَّما ذُكِّرَ بفرْدٍ منه قِيل له: لِمَ تُنكِرُه؟ سواءٌ أقرَّ به حالَ التَّقريرِ، أو استمرَّ على العِنادِ؛ فالتَّكرارُ حينَئذٍ يُفيدُ التَّعريفَ بأنَّ إنكارَه تَجاوَزَ الحدَّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٢).

الرَّابعُ: أنَّه لتَغايُرِ النِّعَمِ وتَعدُّدِها واختِلافِها حَسُنَ تَكريرُ التَّوقيفِ عليها واحدةً واحدةً؛ تَنبيهًا على جَلالتِها؛ فإنْ كانت نِعمةً فالأمرُ فيها واضحٌ، وإنْ كانت نِقمةً فالنِّعمةُ دَفْعُها، أو تأخيرُ الإيقاعِ بها[1].



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٣).

الآيات (١٤-١٨)

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَلۡصَٰلٖ﴾: أي: طينٍ يابسٍ له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ، وأصلُ الصَّلصالِ: تردُّدُ الصَّوتِ مِن الشَّيءِ اليابسِ(١).

﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾: أي: الطِّينِ المَطبوخِ بالنَّارِ، إذا مَسَّه الماءُ فَخَر، أي: رَبَا وعَظُمَ، وهو الخَزَفُ. وأصلُ (فخر): يدُلُّ على عِظَمٍ(٢).

﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾: أي: الصَّافي مِن لَهَبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ فيه. وقيل: هو ما اختَلَط بعضُه ببَعضٍ مِنَ اللَّهَبِ الأحمَرِ والأصفَرِ والأخضَرِ الَّذي يعلو النَّارَ إذا أُوقِدَت؛ مِن قَولِهم: مَرَجَ أمرُ القَومِ: إذا اختَلَط، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذهابٍ واضطِرابٍ(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّه خَلَق آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طِينٍ يابسٍ في غايةِ الصَّلابةِ، له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ إذا نُقِرَ، كالخَزَفِ، وهو الطِّينُ المطبوخُ بالنَّارِ، وأنَّه تعالى خَلَق الجانَّ مِن لَهبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ له؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يذكرُ سبحانَه مَظهرًا آخَرَ مِن مظاهرِ قدرتِه، وهو أنَّه خالِقُ ومالِكُ مَشرِقِ الشَّمسِ ومَغرِبِها في الشِّتاءِ والصَّيفِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى خَلْقَ العالَمِ الكبيرِ مِن السَّماءِ والأرضِ وما أوجَدَ فيهما مِن النِّعَمِ، وما فيهما مِنَ الدَّلالاتِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه؛ ذكَرَ خَلْقَ العالَمِ الصَّغيرِ، وهو مبدأُ مَن خُلِقَت له هذه النِّعَمُ[1].

وأيضًا لَمَّا كان قد تقدَّمَ في إشارةِ الخِطابِ الامتِنانُ بخَلقِ الإنسانِ، ثمَّ ذَكَر أصولَ النِّعَمِ عليه على وَجهٍ بديعِ الشَّأنِ إلى أنْ ذَكَر غِذاءَ رُوحِه «الرَّيحانَ»؛ أتْبَعَ ذلك تفصيلًا لِما أُجمِلَ، فقال[2]:

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّـارٍ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٥).

أي: خلَق اللهُ آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طِينٍ يابسٍ في غايةِ الصَّلابةِ، له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ إذا نُقِرَ، كالخَزَفِ، وهو الطِّينُ المطبوخُ بالنَّارِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: وخَلَق اللهُ الجانَّ مِن لَهبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال القرطبي: (﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ باتِّفاقٍ مِن أهلِ التَّأويلِ يعني آدَمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: الجانُّ: إبليسُ، وهو أبو الجِنِّ. وقيل: الجانُّ واحِدُ الجِنِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١).

وممَّن قال بقول الحَسَنِ: السمرقنديُّ، وابن جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ به: إبليسُ دونَ وَصفِه بأبي الجِنِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥).

وذهب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ الجانَّ هو أبو الجِنِّ، دونَ تَقييدِه بإبليسَ. ومنهم: الواحديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، =

قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَت الملائِكةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِق آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))(١).

= ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (الجانُّ اسمُ جِنسٍ، كالجِنَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

ممَّن اختار أنَّ المارِجَ هو الصَّافي مِن لهبِ النَّارِ ليس له دُخَانٌ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والنسفي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

ونسَبَه الواحديُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((البسيط)) (٢١/ ١٥٢).

وقال ابن جرير: (﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ ﴾ وهو ما اختلَط بعضُه ببعضٍ، مِن بيْنِ أحمَرَ وأصفَرَ وأخضَرَ... وذلك هو لَهبُ النَّارِ ولسانُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٤).

وقال الزَّجَّاج: (المارِجُ: اللَّهَبُ المُختَلِطُ بسَوادِ النَّارِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٩).

وقال ابن جُزَي: (المارِجُ: اللَّهيبُ المُضطرِبُ مِن النَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨).

وقال القرطبي: (والمارِجُ: اللَّهَبُ. عن ابنِ عبَّاسٍ، وقال: خَلَق اللهُ الجانَّ مِن خالِصِ النَّارِ. وعنه أيضًا: مِن لسانِها الَّذي يكونُ في طَرَفِها إذا التهَبَت. وقال اللَّيثُ: المارِجُ: الشُّعلةُ السَّاطِعةُ ذاتُ اللَّهَبِ الشَّديدِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه اللَّهَبُ الَّذي يعلو النَّارَ، فيَختَلِطُ بَعضُه ببَعضٍ أحمَرَ وأصفَرَ وأخضَرَ، ونحوُه عن مجاهِدٍ، وكلُّه متقارِبُ المعنى. وقيل: المارِجُ: كُلُّ أمرٍ مُرسَلٍ غَيرِ مَمنوعٍ... وقال أبو عُبيدَةَ والحَسَنُ: المارِجُ: خلطُ النَّارِ، وأصلُه مِن مَرَجَ: إذا اضطرَب واختَلَط). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٣).

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن خَلْقَ الثَّقَلينِ ومادَّةَ ذلك، وكان ذلك مِنَّةً منه تعالى على عِبادِه؛ قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا كان خَلْقُ هذين القَبيلَينِ على هذينِ الوَجهَينِ اللَّذَين هما في غايةِ التَّنافي: مَستورًا أحدُهما عن الآخَرِ، مع مَنعِ كُلٍّ مِن التَّسَلُّطِ على الآخَرِ إلَّا نادِرًا؛ إظهارًا لعظيمِ قُدرتِه وباهِرِ حِكمتِه- مِن أعظَمِ النِّعَمِ؛ قال مُسَبِّبًا عنه[2]:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[3]؟!

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه هذَينِ الجِنسَينِ -اللَّذينِ أحدُهما ظاهِرٌ والآخَرُ مُستَتِرٌ- إرشادًا إلى التَّأمُّلِ فيما فيهما مِن الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِه؛ فكانا محتاجَينِ إلى ما هما فيه مِنَ المحَلِّ، وكان صلاحُه مِمَّا دَبَّر سُبحانَه فيه مِن منازلِ الشُّروقِ الَّذي هو سَبَبُ الأنوارِ والظُّهورِ، والغُروبِ الَّذي هو مَنشَأُ الظُّلمةِ والخَفاءِ؛ أتْبَعَه قَولَه مُنَبِّهًا على النَّظَرِ في بديعِ صُنعِه الدَّالِّ على توحيدِه[4]:

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٧).

أي: اللهُ خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ مَشرِقِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ، ومَغرِبِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان في هذا مِنَ النِّعَمِ ما لا يُحصى؛ قال مُسَبِّبًا[2]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٥).

قال ابنُ عاشور: (المَشرِقُ: جِهةُ شُروقِ الشَّمسِ، والمَغرِبُ: جِهةُ غُروبِها، وتثنيةُ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ باعتِبارِ أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ في فَصلَيِ الشِّتاءِ والرَّبيعِ مِن سَمْتٍ، وفي فَصلَيِ الصَّيفِ والخَريفِ مِن سَمْتٍ آخَرَ، وبمُراعاةِ وَقْتِ الطُّولِ ووَقتِ القِصَرِ، وكذلك غُروبُها، وهي فيما بيْنَ هذَينِ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ يَنتَقِلُ طُلوعُها وغُروبُها في دَرَجاتٍ مُتقارِبةٍ، فقد يُعتبَرُ ذلك فيُقالُ: المشارِقُ والمغارِبُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، ومَن زَعَم أنَّ تثنيةَ المَشرِقَينِ لِمُراعاةِ مَشرِقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وكذلك تثنيةُ المَغرِبَينِ- لم يَغُصْ على مَعنًى كبيرٍ! وعلى ما فَسَّر به الجُمهورُ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ بمَشرِقَيِ الشَّمسِ ومَغرِبَيها فالمرادُ بـ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾: النِّصفُ الشَّرقيُّ مِنَ الأرضِ، وبـ﴿ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾: النِّصفُ الغَربيُّ منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ثَنَّى المَشرِقَ هنا باعتِبارِ مَشرِقِ الشِّتاءِ ومَشرِقِ الصَّيفِ، فالشَّمسُ في الشِّتاءِ تَشرُقُ مِن أقصى الجَنوبِ، وفي الصَّيفِ بالعَكسِ، والقَمَرُ في الشَّهرِ الواحِدِ يَشرُقُ مِن أقصى الجَنوبُ، ومِن أقصى الشَّمالِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٩).

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في كُلِّ ما خَلَقه اللهُ إحسانٌ إلى عِبادِه يُحمَدُ عليه حَمْدَ شُكرٍ، وله فيه حِكمةٌ تَعودُ إليه يَستَحِقُّ مِن أجْلِها أن يُحمَدَ عليه حَمدًا يَستَحِقُّه لِذاتِه؛ فجَميعُ المخلوقاتِ فيها إنعامٌ على العِبادِ، كالثَّقَلينِ المخاطَبينَ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِن جِهةِ أنَّها آياتٌ للرَّبِّ تعالى، يَحصُلُ بها هدايتُهم وإيمانُهم الَّذي يَسعَدونَ به في الدُّنيا والآخِرةِ، فيَدُلُّهم عليه وعلى وَحدانيَّتِه وقُدرتِه، وعِلْمِه وحِكْمتِه ورَحمتِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ تذكيرٌ ومَوعِظةٌ بمَظهَرٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه في خَلْقِ نَوعِ الإنسانِ وجِنسِ الجانِّ، وفيه إيماءٌ إلى ما سَبَق في القُرآنِ النَّازِلِ قبْلَ هذه السُّورة مِن تَفضيلِ الإنسانِ على الجانِّ؛ إذْ أمَرَ اللهُ إبليسَ -وهو مِن الجانِّ- بالسُّجودِ للإنسانِ، وما يَنطوي في ذلك مِن وَفرةِ مَصالحِ الإنسانِ على مَصالحِ الجانِّ، ومِن تأهُّلِه لعُمرانِ العالَمِ؛ لكَونِه مَخلوقًا مِن طِينتِه؛ إذِ الفَضيلةُ تَحصُلُ مِن مَجموعِ أوصافٍ، لا مِن خُصوصيَّاتٍ مُفرَدةٍ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥).

مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ دَلالةٌ على شَرَفِ عُنصُرِ الآدَميِّ المخلوقِ مِنَ الطِّينِ والتُّرابِ -الَّذي هو محَلُّ الرَّزانةِ، والثِّقلِ، والمنافِعِ-، بخِلافِ عُنصُرِ الجانِّ، وهو النَّارُ، الَّتي هي محَلُّ الخِفَّةِ والطَّيشِ، والشَّرِّ والفَسادِ[1].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ إنْ قيلَ: إنَّ المقصودَ هنا تَعديدُ النِّعَمِ على الإنسانِ، فما وَجهُ بَيانِ خَلْقِ الجانِّ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ قَولَه: ﴿رَبِّكُمَا﴾ خِطابٌ مع الإنسِ والجِنِّ، يُعَدِّدُ عليهما النِّعَمَ، ليس على الإنسانِ وَحْدَه!

ثانيها: أنَّه بَيانُ فَضلِ اللهِ تعالى على الإنسانِ؛ حيثُ بَيَّن أنَّه خُلِقَ مِن أصلٍ كَثيفٍ كَدِرٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن أصلٍ لَطيفٍ، وجُعِلَ الإنسانُ أفضَلَ مِنَ الجانِّ؛ فإنَّه إذا نَظَرَ إلى أصلِه عَلِمَ أنَّه ما نال الشَّرَفَ إلَّا بفَضلِ اللهِ تعالى، فكيف يُكَذِّبُ بآلاءِ اللهِ؟!

ثالِثُها: أنَّ الآيةَ مَذكورةٌ لبَيانِ القُدرةِ، لا لبَيانِ النِّعْمةِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ سؤالٌ: وهو إذا كان الجِنُّ مِن نارٍ، فكيف تُحرِقُه النَّارُ؟

الجوابُ: أنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أَقوى مِن بَعضٍ؛ فالأقوى يُؤَثِّرُ على الأضعَفِ، ومِمَّا يَشهَدُ له قَولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، والسَّعيرُ: أشَدُّ النَّارِ، ومَعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٩).

فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حَديدٍ أيضًا أَقوى منها فتَكسِرُها، كما قيل: «لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحَديدُ»، فلا يَمنَعُ كَونُ أصلِه مِن نارٍ ألَّا يتعَذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَأٍ مَسنونٍ، ومِنْ صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يحتَمِلُ التَّعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفَخَّارِ؛ فقد يُقضى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ(١).

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أضاف الشَّياطينَ والجانَّ إلى النَّارِ حسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حقِّ الإنسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدميُّ طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، وكذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- إذا أُريدَ بالإنسانِ آدَمُ عليه السَّلامُ، فقد جاءتْ غاياتٌ له مُختلِفةٌ، وذلك بتَنقُّلِ أصْلِه؛ فكان أوَّلًا تُرابًا، ثمَّ طِينًا، ثمَّ حمَأً مَسنونًا، ثمَّ صَلْصالًا؛ فناسَبَ أنْ يُنسَبَ خلْقُه لكلِّ واحدٍ منها. وعلى القَولِ بأنَّ المرادَ بالإنسانِ الجِنْسُ كلُّه، فيَسوغُ ذلك؛ لأنَّ أباهم مَخلوقٌ مِن الصَّلصالِ(٣).

- وقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ تَمهيدٌ للتَّوبيخِ على إخلالِهم بمَواجِبِ شُكرِ النِّعمةِ المُتعلِّقةِ بذاتَيْ كلِّ واحدٍ مِن الثَّقلَينِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١، ٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

- وجاءَ هنا أنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِن صَلْصالٍ، وورَدَ في القرآنِ أنَّه خُلِقَ مِن التُّرابِ، وورَدَ أنَّه خُلِقَ مِن الطِّينِ، ومِن حمَأٍ، ومِن ماءٍ مَهينٍ، إلى غيرِ ذلك، كما في قولِه: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] تارةً، و﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] أُخرى، وإنَّما ذلِك باعتِبارِ شَخصينِ: آدَمَ خُلِقَ مِن الصَّلصالِ ومِن حَمَأٍ، وأولادِه خُلِقوا مِن ماءٍ مَهينٍ، ولولا خلْقُ آدَمَ لَما خُلِقَ أولادُه. ويجوزُ أنْ يُقالَ: «زيدٌ خُلِقَ مِن حمَأٍ»، بمعْنى أنَّ أصْلَه -الَّذي هو جدُّه- خُلِقَ منه[(١)].

وأمَّا قولُه: ﴿مِن صَلْصَٰلٖ كَٱلْفَخَّارِ﴾، وقال تَعالى في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال تَعالى في (الصَّافاتِ): ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبٖ﴾ [الصافات: ١١]، وقال تَعالى في (آلِ عِمرانَ): ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فكلُّه مُتَّفِقُ المعْنى؛ وذلك أنَّه أخَذَه مِن تُرابِ الأرضِ، فعَجَنَه بالماءِ، فصار طِينًا، ثمَّ تُرِكَ حتَّى صار حمَأً مَسنونًا ثمَّ مُنتِنًا، ثمَّ صوَّرَه -كما يُصوَّرُ الإبريقُ وغيرُه مِن الأواني-، ثمَّ أيْبَسَه حتَّى صار في غايةِ الصَّلابةِ، فصار كالخزَفِ -الَّذي إذا نُقِرَ صوَّتَ صَوتًا يُعلَمُ منه هل فيه عَيبٌ أو لا-؛ فالمذكورُ هنا آخِرُ تَخليقِه -وهو أنسَبُ بالرَّحمانيَّةِ-، وفي غيرِها تارةً مَبدؤه، وتارةً أثناؤه[(٢)].

- وقولُه: ﴿مِّن نَّارٖ﴾ بَيانٌ لـ﴿مَّارِجٖ﴾، كأنَّه قِيل: مِن صافٍ مِن نارٍ، أو مُختلِطٍ مِن نارٍ، أو أراد مِن نارٍ مَخصوصةٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ فيه بَيانٌ لجُملةِ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. وعُطِفَ ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾؛ مِن أجْلِ مُراعاةِ المُزاوَجةِ[1].

- وفي قولِه تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] أفرَدَ سُبحانه المشرِقَ والمغربَ، وهنا ثَنَّاهما في سُورةِ (الرَّحمن)، وجمَعَهما في سُورةِ (سأَلَ سائلٌ) في قولِه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وأفرد المشارقَ بالذِّكرِ في سُورةِ (الصَّافَّات) في قولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥]؛ فما وَجْهُ ذلك؟

الجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] وقولَه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] المرادُ به جِنسُ المشرقِ والمغربِ، فهو صادقٌ بكلِّ مَشرقٍ مِن مَشارقِ الشَّمسِ -الَّتي هي ثلاثُمئةٍ وسِتُّون-، وكلِّ مَغربٍ مِن مَغاربِها الَّتي هي كذلك. وقيل: قولُه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] باعتبارِ النَّاحيةِ؛ لأنَّ النَّواحيَ أربعٌ: مَشرِقٌ، ومَغرِبٌ، وشَمالٌ، وجَنوبٌ. وقولُه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، يعْني مَشرقَ الشِّتاءِ ومَشرقَ الصَّيفِ ومَغربَهما -كما عليه الجُمهورُ-، وقيل: مَشرقُ الشَّمسِ والقمرِ ومَغربُهما. وقولُه: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، أي: مَشارقِ الشَّمسِ ومَغاربِها، فجَمعُ المغاربِ والمشارقِ باعتبارِ مَشْرِقِ كُلِّ يومٍ ومَغْرِبِه؛ لأنَّ الشَّمسَ كلَّ يومٍ تَشْرُقُ مِن غيرِ المكانِ الَّذي شَرَقَتْ منه بالأَمسِ؛ فالشَّمسُ يَتغَيَّرُ شُروقُها وغُروبُها كُلَّ يومٍ، ولا سيَّما عندَ تَساوي اللَّيلِ والنَّهارِ، فتَجِدُ الفَرقَ دقيقةً أو دقيقةً ونِصفًا بيْنَ غُروبِها بالأمسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٧).

واليَوم، وكذلك الغُروبُ. وقيل: مَشارقِ الشَّمسِ والقمَرِ والكواكبِ ومَغاربِها، فجمع باعتبارِ الشَّارقاتِ والغاربات، وهذه لا يُحصيها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ(١).

وأمَّا كَونُه اكْتَفى بذِكرِ المشارقِ في قولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥] فلِوَجهَين؛ الأوَّلُ: أنَّه اكْتَفى بذِكرِ المشارقِ كقولِه: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، يعني: وتَقِيكم البرْدَ أيضًا. والثَّاني: أنَّ الشَّرقَ أقوى حالًا مِن الغروبِ، وأكثَرُ نفْعًا مِن الغروبِ؛ فذُكِرَ الشَّرقُ تَنبيهًا على كثرةِ إحسانِ اللهِ تَعالى على عِبادِه، ولهذه الدَّقيقةِ استدَلَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ بالمشرقِ فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾(٢) [البقرة: ٢٥٨].

وأمَّا ورُودُه مُثَنًّى في سورةِ (الرَّحمنِ)؛ فلأنَّه لَمَّا كان مَساقُ السُّورةِ مَساقَ المَثاني المُزدوجاتِ؛ فذَكَر أوَّلًا نوعَي الإيجادِ -وهما الخَلقُ والتَّعليمُ-، ثمَّ ذكَر سِراجَي العالَمِ ومَظهَرَيْ نُورِه -وهما الشَّمسُ والقَمَرُ-، ثمَّ ذكَرَ نوعَي النَّباتِ؛ ما قام منه على ساقٍ، وما انبسَطَ منه على وَجهِ الأرضِ، -وهما النَّجمُ (على قولٍ) والشَّجرُ-، ثمَّ ذكَر نَوعَي السَّماءِ المرفوعةِ والأرضِ الموضوعةِ، وأخبَرَ أنَّه رَفَع هذه، ووَضَع هذه، ووَسَّط بيْنَهما ذِكرَ الميزانِ، ثمَّ ذكَرَ العَدْلَ والظُّلمَ في الميزانِ، فأمَرَ بالعَدلِ ونَهى عن الظُّلم، وذكَرَ نَوعَي الخارجِ مِن الأرضِ -وهما الحبوبُ والثِّمارُ-، ثمَّ ذكَرَ خَلْقَ نَوعَي المكَلَّفِينَ -وهما نوعُ الإنسانِ ونوعُ الجانِّ-، ثمَّ ذكَرَ نَوعَي المشرِقَينِ ونَوعَي المغرِبَينِ، ثمَّ ذكَرَ بعد ذلك البَحرينِ المِلْحَ والعَذْبَ؛ فتأمَّلْ حُسنَ تَثنيةِ المشرِقِ والمغرِبِ في هذه السُّورةِ، وجلالةَ وُرودِهما لذلك، وقَدِّرْ مَوضِعَهما اللَّفظَ مُفردًا ومجموعًا، تجدِ السَّمعَ يَنْبو عنه،

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦).

ويَشهَدِ العَقلُ بمُنافَرتِه للنَّظمِ(١)!

- وكرَّرَ هنا في قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ ذِكرَ الرَّبِّ، بخِلافِ سُورتَي (المعارِجِ) و(المزمِّلِ)، حيثُ قالَ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]؛ تأكيدًا، وخَصَّ ما هنا بالتأْكيدِ؛ لأنَّه مَوضعُ الامتِنانِ، وتَعديدِ النِّعَمِ، ولأنَّ الخِطابَ فيه مِن جِنسينِ؛ هما: الإنسُ، والجنُّ، بخلافِ ذَينك(٢).

- وقولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيه تَوبيخٌ على عدَمِ الاعترافِ بنِعَمِ اللهِ تعالى، جِيءَ فيه بمِثلِ ما جِيءَ به في نَظيرِه الَّذي سبَقَه؛ ليكونَ التَّوبيخُ بكَلامٍ مِثلِ سابقِه، وذلك تَكريرٌ مِن أُسلوبِ التَّوبيخِ ونحوِه أنْ يكونَ بمِثلِ الكلامِ السَّابقِ، فحَقُّ هذا أنْ يُسمَّى بالتَّعدادِ لا بالتَّكرارِ؛ لأنَّه ليس تَكريرًا لمُجرَّدِ التَّأكيدِ، فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هنا تَفريعٌ على قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]؛ لأنَّ رُبوبيَّتَه تَقْتضي الاعترافَ له بنِعمةِ الإيجادِ والإمدادِ، وتَحصُلُ مِن تَماثُلِ الجُمَلِ المُكرَّرةِ فائدةُ التَّأكيدِ والتَّقريرِ أيضًا؛ فيَكونُ للتَّكريرِ غَرضانِ. وفائدةُ التَّكريرِ تَوكيدُ التَّقريرِ بما للهِ تعالى مِن نِعَمٍ على المُخاطَبينَ، وتَعريضٌ بتَوبيخِهم على إشراكِهم باللهِ أصنامًا لا نِعمةَ لها على أحدٍ، وكلُّها دَلائلُ على تَفرُّدِ الإلهيَّةِ، فالتَّكريرُ طَرْدٌ للغَفْلةِ، وتأكيدٌ للحُجَّةِ، وهكذا القولُ في نَظائرِ قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ المذكورِ هنا، إلى ما في آخرِ السُّورةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١، ١٢٢). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٦، ٢٤٧).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَجَ﴾: أي: خلَطَ أو خلَّى بَيْنَهما وأرسَلَهما، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ واضطرابٍ(١).

﴿بَرْزَخٌ﴾: أي: حاجِزٌ وحَدٌّ، وأصلُ (برزخ): يدُلُّ على الحدِّ بيْنَ الشَّيئينِ(٢).

﴿يَبْغِيَانِ﴾: أي: يَختَلِطانِ ويَلتَقيانِ، وأصلُ (بغي) هنا: جنسٌ مِن الفَسادِ(٣).

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: أي: السُّفُنُ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسِياحِ شَيءٍ(٤).

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: أي: المخلوقاتُ المُسخَّراتُ، أو المرفوعاتُ القِلاعِ، أو اللَّواتي أُنْشِئْنَ، أي: ابتُدِئَ بهنَّ في البحرِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣).

﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾: أي: كالجِبالِ، واحِدُها عَلَمٌ: وهو الجَبَلُ الطَّويلُ، شَبَّهَ السُّفُنَ في البَحرِ بالجِبالِ في البَرِّ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أَثَرٍ مُمَيِّزٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسَل البَحرَ المِلْحَ والبَحرَ العَذْبَ يتَّصِلانِ مِن غَيرِ أن يختَلِطا، وجَعَل بَيْنَهما حاجِزًا يَمنَعُ اختِلاطَ أحَدِهما بالآخَرِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه يَخرُجُ مِنَ البَحرينِ -المِلْحِ والعَذْبِ- اللُّؤْلُؤُ والمَرْجانُ اللَّذانِ يتَّخِذُهما النَّاسُ حِلْيَةً وزِينةً؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ولله سُبحانَه السُّفُنُ الجارياتُ المُنشَآتُ في البِحارِ، فتَبدو كالجِبالِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى المَشرِقَ والمَغرِبَ -وهما حركتانِ في الفَلَكِ-؛ ناسَبَ ذلك ذِكرُ البَحرينِ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجرِيانِ في الفَلَكِ كما يجري الإنسانُ في البَحرِ؛ قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]؛ فذَكَر البَحرينِ عَقيبَ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٠).

وأيضًا فإنَّ المَشرِقَين والمَغرِبَين فيهما إشارةٌ إلى البَحرِ؛ لانحِصارِ البَرِّ والبَحرِ بيْنَ المشرِقِ والمَغرِبِ، لكِنَّ البَرَّ كان مذكورًا بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠]؛ فذكَرَ هاهنا ما لم يكُنْ مَذكورًا[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّه سُبحانَه ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، وكانتِ الأبحُرُ والأنهارُ في جِهاتِ الأرضِ؛ ناسَبَ الانتِقالُ إلى الاعتِبارِ بخلْقِهما، والامتِنانِ بما أودَعَهما مِن مَنافعِ النَّاسِ[2].

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩﴾.

أي: أرسَل اللهُ البَحرَ المِلْحَ والبَحرَ العَذْبَ وتَرَكَهما يتَّصِلانِ مِن غَيرِ أن يختَلِطا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٨).

قال الشنقيطي: (لفظة: مرَج، تُطلَقُ في اللُّغةِ إطلاقَين:

الأوَّلُ: مرَج بمعنى: أرسَل وخلَّى... وعلى هذا فالمعنى: أرسَل البحَرينِ وخلَّاهما لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ.

والإطلاقُ الثَّاني: مرَج بمعنى: خلَط...

فعلى القولِ الأوَّلِ: فالمرادُ بالبحرَينِ: الماءُ العَذبُ في جميعِ الدُّنيا، والماءُ المِلْحُ في جميعِها...

وأمَّا على القولِ الثَّاني بأنَّ مرَج بمعنى خلَط، فالمعنى: أنَّه يوجَدُ في بعضِ المواضعِ اختِلاطُ الماءِ المِلْحِ والماءِ العَذبِ في مجرًى واحدٍ، ولا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ، بل يكونُ بيْنَهما حاجزٌ من قدرةِ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٥).

وفي البَحرَينِ أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٠).

قال الشوكاني: (﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يَتجاوَرانِ لا فصْلَ بيْنَهما في مَرْأى العَينِ، ومعَ ذلك فلم يَخْتَلِطا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: بيْنَ البَحرِ المِلْحِ والبَحرِ العَذْبِ حاجِزٌ يَمنَعُ اختِلاطَ أحَدِهما بالآخَرِ، وتَغييرَ طَعْمِه وصِفاتِه(١).

= وقال ابن عاشور: (﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: يتَّصِلانِ بحيثُ يصُبُّ أحدُهما في الآخَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

وقال الرازي: (﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسَل بعضَهما في بعضٍ، وهُما عندَ الإرسالِ بحيثُ يَلتَقيانِ أو مِن شأنِهما الاختِلاطُ والالتِقاءُ، ولكنَّ اللهَ تعالى منَعَهما عمَّا في طبعِهما، وعلى هذا ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حالٌ مِن البحرَينِ، ويحتملُ أن يُقالَ: مِن مَحذوفٍ تقديرُه: ترَكَهما فهُما يَلتَقيانِ إلى الآنَ ولا يَمتَزِجانِ. وعلى الأوَّلِ فالفائدةُ إظهارُ القُدرةِ في النَّفعِ؛ فإنَّه إذا أرسَل الماءَينِ بعضَهما على بعضٍ وفي طبعِهما بخَلقِ الله وعادَتِه السَّيلانُ والالتِقاءُ ويَمنَعُهما البَرزخُ الَّذي هو قدرةُ الله أو بقُدرةِ الله، يكونُ أدَلَّ على القُدرةِ ممَّا إذا لم يَكونا على حال يَلتَقيانِ.... وعلى الوجهِ الثَّاني: الفائدةُ في بيانِ القُدرةِ أيضًا على المنعِ مِن الاختِلاطِ؛ فإنَّ الماءَينِ إذا تَلاقَيا لا يَمتزِجانِ...). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ ونسَبَه إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ، والسَّمعانيُّ، والزمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الواحدي: (﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: حاجِزٌ مِن قُدرةِ اللهِ تعالى، فلا يَبْغي المِلْحُ على العَذْبِ؛ فيُفسِدَه، ولا يَبغي على المِلحِ؛ فيَختَلِطَ به. والمعنى: لا يَطلُبانِ أن يَخرُجا ممَّا حُدَّ لهما. هذا قَولُ مقاتلٍ وأكثَرِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ١٥٤).

وممَّن فسَّر الحاجِزَ بالأرضِ اليابِسةِ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[1]؟!

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المِنَّةَ بالبَحرِ؛ ذَكَر النِّعمةَ بما يَنبُتُ فيه، كما فَعَل بالبَرِّ[2].

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)﴾.

= قال الشنقيطي: (هذا الحاجزُ هو اليَبْسُ مِن الأرضِ الفاصلُ بيْنَ الماءِ العَذبِ والماءِ المِلْحِ على التَّفسيرِ الأوَّلِ [أي أنَّ مرَج بمعنى أرسَل].

وأمَّا على التَّفسيرِ الثَّاني [أي أنَّ مرَج بمعنى خلَط]: فهو حاجزٌ مِن قدرةِ الله، غيرُ مَرئيٍّ للبشَرِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٦).

قال ابن عثيمين: (﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو اليابسُ مِن الأرضِ ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يَبغي أحدُهما على الآخَرِ، ولو شاء اللهُ تعالى لَسَلَّط البحارَ ولَفاضتْ على الأرضِ وأغرَقَت الأرضَ، لأنَّ البحرَ عندَما تقفُ على السَّاحلِ لا تجدُ جِدارًا يمنعُ انسيابَه إلى اليابسِ، معَ أنَّ الأرضَ كرويَّةٌ، ومع ذلك لا يَسيحُ البحرُ؛ لا هاهنا ولا هاهنا، بقدرةِ الله عزَّ وجلَّ... إذَنِ البَرزخُ الَّذي بيْنَهما هو اليابسُ مِن الأرضِ...، وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: بل البرزخُ أمرٌ معنويٌّ يَحولُ بيْن المالحِ والعَذبِ أن يَختلِطَ بعضُهما ببعضٍ، وقالوا: إنَّه يوجَدُ الآنَ في عمقِ البحارِ عيونٌ عَذْبةٌ تَنبَعُ مِن الأرضِ... ومعَ ذلك لا تُفسِدُها مياهُ البحارِ، فإذا ثبت ذلك فلا مانعَ مِن أن نقولَ بقولِ علماءِ الجغرافيا وقولِ علماءِ التَّفسيرِ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٠٨).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكون المرادُ بالبَحرين: بحرَينِ مِلْحَينِ مُعيَّنَين، واستظهَرَ أنَّهما البَحرُ الأحمَرُ وبَحرُ العَرَبِ، والحاجِزُ بيْنَهما مَضيقُ بابِ المَندَبِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

ويُنظَرَ ما تقَدَّمَ في تفسيرِ سورة الفرقانِ الآية (٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦١).

أي: يَخرُجُ مِنَ البَحرينِ -المِلحِ والعَذْبِ- اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ اللَّذانِ يتَّخِذُهما النَّاسُ حِلْيةً وزِينةً(١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).
وممَّن قال: إنَّهما يَخرُجانِ مِن الماءِ المِلحِ، ويَخرُجانِ أيضًا مِن الماءِ العَذْبِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).
وقد أثبت العِلمُ والواقعُ أنَّ اللَّآلئَ تُستخرَجُ مِن المياهِ العَذبةِ، كما تُستخرَجُ مِن البحارِ المِلْحةِ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٧٠٥).
وقيل: المرادُ: أنَّهما يَخرُجانِ مِن الماءِ المِلْحِ فقط. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٣).
قال الواحدي: (وقَولُه: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإنَّما يخرُجُ مِن أحَدِ البَحرَينِ، وهو المِلحُ دونَ العَذبِ، قال أبو عُبَيدةَ: العرَبُ تَجمَعُ الجنسَينِ ثمَّ تُخبِرُ عن أحَدِهما، كقَولِه تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرُّسُلُ مِن الإنسِ، وتقول: أكلتُ خُبزًا ولَبَنًا، وإنَّما يقَعُ الأكلُ على الخُبزِ. وقال أبو إسحاقَ [الزَّجَّاجُ]: إنَّ اللهَ تعالى قد ذكَرَهما وجمَعَهما، فإذا أُخرِجَ مِن أحَدِهما فقد خَرَج منهما، ومِثلُ ذلك قَولُه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] والقَمَرُ في السَّماءِ الدُّنيا، إلَّا أنَّه لَمَّا أجمَلَ ذِكرَ السَّبْعِ كأنَّ ما في إحداهنَّ فيهِنَّ). ((البسيط)) (٢١/ ١٥٥). ويُنظر ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠).
وقال الشنقيطي: (جماعةٌ من أهلِ العِلمِ قالوا: إنَّ المرادَ بقَولِه في هذه الآيةِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: مِن مَجموعِهما الصَّادِقِ بالبَحرِ المِلْحِ، وإنَّ الآيةَ مِن إطلاقِ المَجموعِ وإرادةِ بَعْضِه، وإنَّ اللُّؤلُؤَ والمَرْجانَ يَخرُجانِ مِنَ البَحرِ المِلْحِ وَحْدَه دونَ العَذْبِ. وهذا القَولُ الَّذي قالوه في هذه الآيةِ -مع كَثرتِهم وجلالتِهم- لا شَكَّ في بُطلانِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ بنَقيضِه في سورةِ «فاطرٍ»، ولا شَكَّ أنَّ كُلَّ ما ناقَضَ القُرآنَ فهو باطِلٌ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا =

= عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا ﴾ [فاطر: ١٢]؛ فالتَّنوينُ في قَولِه: «مِنْ كُلٍّ» تنوينُ عِوَضٍ، أي: مِن كُلِّ واحِدٍ مِنَ العَذبِ والمِلْحِ تأكُلونَ لَحمًا طَرِيًّا، وتَستَخرِجونَ حِليةً تَلبَسونَها، وهي اللُّؤلؤُ والمَرْجانُ، وهذا مِمَّا لا نِزاعَ فيه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩، ٣١٠).

وقال السمعاني: (ذَكَر القَفَّالُ الشَّاشي في تفسيرِه: أنَّ اللُّؤلؤَ والمَرْجانَ لا يكونُ إلَّا في مُلتقى البَحرينِ في أوَّلِ ما يُخلَقُ، ثمَّ حينَئذٍ مَوضِعُ الأصدافِ هو البَحرُ المِلْحُ دونَ العَذْبِ؛ فصَحَّ قولُه: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ﴾؛ لأنَّهما في ابتداءٍ عندَ مُلتقى البَحرينِ، وهذا قَولٌ حَسَنٌ إن كان كذلك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦١، ١٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (أي: يَخرُجُ اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ بسَبَبِهما، أي: بسَبَبِ مَجموعِهما؛... قال الرُّمَّاني: لَمَّا كان الماءُ العَذبُ كاللِّقاحِ للماءِ المِلْحِ في إخراجِ اللُّؤلؤِ، قيل: يَخرجُ منهما، كما يُقالُ: يتخَلَّقُ الوَلَدُ مِنَ الذَّكَرِ والأُنثى... والمَرْجانُ: لا يَخرُجُ مِن مُلتقى البَحرينِ المِلْحِ والعَذْبِ، بل مِنَ البَحرِ المِلْحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠).

واللُّؤلُؤُ هو الدُّرُّ الكِبارُ، والمَرْجانُ هو ما صَغُرَ منها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جريرٍ، ونَسَبه الواحديُّ إلى جَميعِ أهلِ اللُّغةِ، ونَقَله ابنُ الجوزيِّ عن أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٢٥٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَف: عليٌّ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣).

وذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ إلى عَكسِ ذلك. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومُرَّةُ الهَمْدانيُّ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٧).

ممَّن اختار أنَّ اللُّؤلُؤَ هو الدُّرُّ، وأنَّ المَرجانَ هو الخرزُ الأحمرُ: ابنُ عطيَّةَ، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٢، ٤٨٣)، =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[(١)]؟!

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿الْمُنْشِآتُ﴾ بكَسرِ الشِّينِ. قيل بمعنى: الرَّافِعاتِ الشُّرُعِ. وقيل: المعنى: المُنشِئاتُ السَّيرَ، فنَسَبَ الفِعلَ إليها على الاتِّساعِ، كما يُقالُ: مات زَيدٌ، ومَرِضَ عَمرٌو، وغَيرُ ذلك ممَّا يُضافُ الفِعلُ إليه إذا وُجِدَ فيه، وهو في الحقيقةِ لِغَيرِه. وقيل: يجوزُ أن يكونَ المُنشِئاتُ مُشتَقًّا مِن أنشَأَ السَّيرَ: إذا أسرَعَ، أي:

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠).

وممَّن قال من السَّلفِ: إنَّ المَرجانَ هو الخرزُ الأحمرُ: ابنُ مسعود، وأبو مالك. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٧).

وقال ابن عاشور: (اللُّؤلُؤ: الدُّرُّ. ويُقالُ له: الجُمَانُ والجَوهَرُ، وهو حُبوبٌ بَيضاءُ وصَفراءُ ذاتُ بَريقٍ رَقراقٍ، تُستخرَجُ مِن أجوافِ حَيوانٍ مائيٍّ حَلَزونيٍّ مُستَقِرٍّ في غِلافٍ ذي دَفَّتَينِ مُغلَقَتينِ عليه، يَفتَحُهما بحَرَكةٍ حَيويَّةٍ منه؛ لامتِصاصِ الماءِ الَّذي يَسبَحُ فيه، ويُسَمَّى غِلافُه صَدَفًا، فتُوجَدُ في جَوفِ الحيوانِ حَبَّةٌ ذاتُ بَريقٍ، وهي تتفاوَتُ بالكِبَرِ والصِّغَرِ، وبصَفاءِ اللَّونِ وبَياضِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٢).

وقال ابنُ عاشور أيضًا: (والمَرْجانُ: حَيوانٌ بَحريٌّ ذو أصابعَ دَقيقةٍ، يَنشَأُ لَيِّنًا ثمَّ يتحَجَّرُ ويتلَوَّنُ بلَونِ الحُمرةِ، ويتصَلَّبُ كلَّما طال مُكثُه في البَحرِ، فيُستخرَجُ منه كالعُروقِ تُتَّخَذُ منه حِلْيةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٠).

الَّتي يَسيرُ بها النَّاسُ سَيرًا سَريعًا(١).

٢- قِراءةُ: ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ بفَتحِ الشِّينِ. قيل: المعنى: المَرفوعاتُ الشُّرُعِ. وقيل: المعنى: أنَّها أُجرِيَت وفُعِل بها الإنشاءُ، ولم تَفعَلْ ذلك بنَفْسِها(٢).

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤)﴾.

أي: ولله -ملْكًا وتَدبيرًا وتَسخيرًا- السُّفُنُ الجارياتُ، المنشآتُ، فتَبدو في البِحارِ كالجِبالِ(٣).

---

(١) قرأ بها حمزةُ، وشُعبةُ عن عاصمٍ في أحدِ الوجهينِ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩١، ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٠).
قال البغوي: (﴿الْمُنْشَآتُ﴾... أي: المرفوعاتُ، وهي الَّتي رُفِعَ خَشَبُها بَعضُها على بعضٍ. وقيل: هي ما رُفِعَ قِلْعُه [أي: شِراعُه] مِنَ السُّفُنِ، وأمَّا ما لم يُرفَعْ قِلْعُه فليس مِن المُنشَآتِ. وقيل: المخلوقاتُ المسَخَّراتُ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤).
ممَّن اختار أنَّ المعنى: المرفوعاتُ الشُّرُعِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والرَّسْعَني، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٥).
قال ابن جرير: (﴿الْمُنْشَآتُ﴾ بفتح الشِّينِ، بمعنَى: المرفوعاتِ القِلاعِ، اللَّاتي تُقْبِلُ بهنَّ وتُدْبِرُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما في الجواري مِن المنافِعِ هو بالتَّكَسُّبِ مِن البَحرِ بالصَّيدِ وغَيرِه، والتَّوصُّلِ إلى البِلادِ الشَّاسِعةِ للفوائِدِ الهائِلةِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه تعالى[1]:

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ سمَّى اللهُ تعالى الأنهارَ والبِحارَ

= وممَّن اختار أنَّ المعنى: المرفوعاتُ، وهي الَّتي رُفِعَ خَشَبُها بعضُها على بعضٍ: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: أنشاها النَّاسُ: ابنُ جُزَي، والسعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٠).

قال ابن عاشور: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ بفتحِ الشِّينِ، هو اسمُ مفعولٍ، إذا أُوجِدَ وصُنع، أي: الَّتي أنشأها النَّاسُ بإلهامٍ مِن الله). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

وقال ابن عطيَّة: (أي: أنشأها اللهُ تعالى، أو النَّاسُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٨).

وقال جلال الدين المحلي: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: المُحْدَثاتُ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٠).

وقال الثعلبي: (أي: المخلوقاتُ المرفوعاتُ المسخَّراتُ في البَحرِ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١).

المِلْحةَ بِحارًا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ على قولِ مَن قال: إنَّ اللُّؤلؤَ لا يَخرُجُ إلَّا مِنَ البحرِ المِلْحِ، فكيفَ يُوجَّهُ قولُه تعالى: ﴿مِنۡهُمَا﴾؟

الجوابُ إنْ صَحَّ قَولُهم في اللُّؤلُؤِ: إنَّه لا يَخرُجُ إلَّا مِنَ البَحرِ المِلْحِ، فنَقولُ: فيه وُجوهٌ:

أحَدُها: أنَّ الصَّدَفَ لا يتوَلَّدُ فيه اللُّؤلُؤُ إلَّا مِنَ المطَرِ، وهو بَحرُ السَّماءِ.

ثانيها: أنَّه يتولَّدُ في مُلتقاهما ثمَّ يَدخُلُ الصَّدَفُ في الماءِ المِلْحِ عندَ انعِقادِ الدُّرِّ فيه؛ طالِبًا للمُلوحةِ، فيَثْقُلُ هناك فلا يُمكِنُه الدُّخولُ في العَذبِ.

ثالِثُها: أنَّ ما ذكَرتُم إنَّما كان يَرِدُ أنْ لو قال: «يَخرُجُ مِن كُلِّ واحِدٍ مِنهما»، فأمَّا على قَولِه: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا﴾ فلا يَرِدُ؛ إذِ الخارِجُ مِن أحَدِهما -مع أنَّ أحَدَهما مُبهَمٌ- خارِجٌ مِنهما، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ [نوح: ١٦].

رابِعُها: أنَّ «مِنْ» ليست لابتداءِ شَيءٍ، كما يُقالُ: «خرَجْتُ مِنَ الكُوفةِ»، بل لابتِداءٍ عَقليٍّ، كما يُقالُ: «خُلِقَ آدَمُ مِن تراب، ووُجِدَت الرُّوحُ مِن أمرِ اللهِ»؛ فكذلك اللُّؤلُؤُ يَخرُجُ مِن الماءِ، أي: منه يتوَلَّدُ[٢].

خامسُها: أنَّ هذا مِن بابِ التَّغليبِ، والتَّغليبُ أنْ يُغَلَّبَ أحدُ الجانبَينِ على الآخَرِ، مِثلَما يُقالُ: العُمَرانِ: لأبي بكرٍ وعُمرَ، ويُقالُ: القَمَرانِ: للشَّمسِ والقَمَرِ، فهذا مِن بابِ التَّغليبِ، فـ﴿مِنۡهُمَا﴾ المرادُ: واحِدٌ منهما.

سادسُها: أنَّ هذا على حَذفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: يَخرُجُ مِن أحَدِهما[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي: منهما جميعًا يَخرُجُ اللُّؤلؤُ والمَرجانُ، وإنِ امتاز المِلْحُ بأنَّه أكثَرُ وأطيَبُ، وهذا الَّذي يُوافِقُ ظاهِرَ القرآنِ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وهو خالِقُهما، وهو يَعلَمُ ماذا يَخرُجُ منهما، فإذا كانتِ الآيةُ ظاهِرُها أنَّ اللُّؤلؤَ يَخرُجُ مِنهما جميعًا وَجَبَ الأخذُ بظاهِرِها، لكنْ لا شكَّ أنَّ اللُّؤلؤَ مِن الماءِ المِلْحِ أكثَرُ وأطيَبُ، لكِنْ لا يَمنَعُ أنْ نَقولَ بظاهِرِ الآيةِ، بل يَتعيَّنُ أنْ نَقولَ بظاهِرِ الآيةِ، وهذه قاعِدةٌ في القُرآنِ والسُّنَّةِ: أنَّنا نَحْمِلُ الشَّيءَ على ظاهِرِه ولا نُؤَوِّلُ، اللَّهمَّ إلَّا لضَرورةٍ، فإذا كان هناك ضرورةٌ فلا بُدَّ أنْ نَتَمَشَّى على ما تَقتَضيه الضَّرورةُ، أمَّا بغيرِ ضَرورةٍ فيَجِبُ أنْ نَحمِلَ القُرآنَ والسُّنَّةَ على ظاهِرِهما[1]. فظاهِرُ كَلامِ اللهِ تعالى أَولى بالاعتِبارِ مِن كَلامِ بَعضِ النَّاسِ، الَّذي لا يُوثَقُ بقَولِه! ومَن عَلِمَ أنَّ اللُّؤلُؤَ لا يَخرُجُ مِنَ الماءِ العَذْبِ؟! وهَبْ أنَّ الغوَّاصِينَ ما أخرَجوه إلَّا مِنَ المِلْحِ وما وَجَدوه إلَّا فيه، لكِنْ لا يَلزَمُ مِن هذا ألَّا يُوجَدَ في الغَيرِ، وكيف يُمكِنُ الجَزمُ والأمورُ الأرضيَّةُ الظَّاهِرةُ خَفِيَت عن التُّجَّارِ الَّذين قَطَعوا المفاوِزَ، وداروا البِلادَ، فكيف لا يَخفى أمرُ ما في قَعرِ البَحرِ عليهم[2]؟!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ فائدةٌ عَظيمةٌ في جمعِ الجَواري وتوحيدِ البَحرِ وجَمعِ الأعلامِ، وهي أنَّ ذلك إشارةٌ إلى عَظَمةِ البَحرِ، ولو قال: «في البِحارِ» لَكانت كلُّ جاريةٍ في بَحرٍ، فيَكونُ البَحرُ دونَ بَحرٍ يكونُ فيه الجَواري الَّتي هي كالجِبالِ، وأمَّا إذا كان البَحرُ واحِدًا، وفيه الجواري الَّتي هي كالجِبالِ، يكونُ ذلك بحرًا عَظيمًا، وساحِلُه بَعيدًا؛ فيَكونُ الإنجاءُ بقُدرةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢).

كامِلةٍ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أنَّه لَمَّا كانت الأركانُ أربعةً: التُّرابُ، والماءُ، والهواءُ، والنَّارُ؛ فاللهُ تعالى بَيَّن بقَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ [الرحمن: ١٤] أنَّ التُّرابَ أصلٌ لمخلوقٍ عَجيبٍ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] أنَّ النَّارَ أيضًا أصلٌ لمخلوقٍ عَجيبٍ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أنَّ الماءَ أصلٌ لمخلوقٍ آخَرَ كالحَيوانِ عَجيبٍ، بَقِيَ الهواءُ لكِنَّه غيرُ مَحسوسٍ؛ فلم يَذكُرْ أنَّه أصلُ مَخلوقٍ، لكِنْ ذكَر أنَّ الهواءَ له تأثيرٌ عظيمٌ في جَرْيِ السَّفينةِ كالأعلامِ[٢]، وذلك على قولٍ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ خبرٌ آخَرُ عن لَفظِ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، قُصِدَ منه العِبرةُ بخلْقِ البحارِ والأنهارِ، وذلك خلْقٌ عَجيبٌ دالٌّ على عَظَمةِ قُدرةِ اللهِ وعِلمِه وحِكمتِه[٣].

- قولُه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسَلَ البَحرينِ لا يَحبِسُ ماءَهُما عن الجرْيِ حاجزٌ، وهذا تَهيئةٌ لقولِه بعْدُ: ﴿يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، والمرادُ: أنَّه خلَقَهما ومرَجَهُما؛ لأنَّه ما مرَجَهُما إلَّا عقِبَ أنْ خلَقَهُما[٤].

- وذِكرُ البَرْزخِ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: بيْنَهما مِثلُ البَرْزخِ، وهو معْنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((روح البيان)) للخلوتي (٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: لا يَبْغي أحدُهما على الآخَرِ، أي: لا يَغلِبُ عليه فيُفسِدَ طَعْمَه؛ فعُبِّرَ عن هذِه الغَلبةِ بلفْظِ (البغي)[١].

- وجُملةُ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَخْرُجُ﴾ قُرِئ ﴿يُخْرَجُ﴾ على البناءِ للمجهولِ[٣]، وعلى قراءةِ: ﴿يَخْرُجُ﴾ ففيه ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالاتِّساعِ[٤]؛ فقد أُسنِدَ الخُروجُ إلى اللُّؤلؤِ والمَرجانِ؛ لأنَّه إذا أُخرِجَ ذلك فقدْ خرَجَ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ لأنَّ هذا مِن أحوالِ البَحرينِ، وقد أغْنَتْ إعادةُ لفظِ (البحر) عن ذِكرِ ضَميرِ البحرَينِ الرَّابطِ لجُملةِ الحالِ بصاحبِها[٦].

- واللَّامُ في (لَهُ) للمِلكِ، وهو مِلْكُ تَسخيرِ السَّيرِ فيها؛ قال تعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأ بها (أي: بضَمِّ الياءِ وفتحِ الرَّاءِ) نافعٌ وأبو عَمرٍو وأبو جعفرٍ ويعقوبُ، وقرأ الباقون ﴿يَخْرُجُ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّ الرَّاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

(٤) الاتِّساع: هو أن يأتيَ المتكلِّمُ بكلامٍ يتَّسِعُ فيه التَّأويلُ بحسَبِ ما تحتمِلُه ألفاظُه، فيتَّسِعُ التَّأويلُ فيه على قدرِ عقولِ النَّاسِ، وتفاوُتِ أفهامِهم. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٥٤)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ * أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٤]؛ فالمعْنى: أنَّ الجواريَ في البَحرِ في تَصرُّفِه تعالَى؛ قال تعالَى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]. والإخبارُ عن الجَواري بأنَّها له؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إنشاءَ البشرِ للسُّفنِ لا يُخرِجُها عن مِلكِ اللهِ سُبحانَه[1]، فَتخصيصُ الجَواري بأنَّها له -وهو تعالى له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما فِيهِنَّ-؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا هم مُنشِئِيها، أسنَدَها تعالى إليه؛ إذ كان تمامُ مَنفَعتِها إنَّما هو منه تعالى، فهو في الحقيقةِ مالِكُها[2].

- و﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه مُتعلِّقُه، وهو قولُه: ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، والتَّقديرُ: السُّفنُ الجَواري؛ إذ لا يَجري في البحرِ غيرُ السُّفنِ[3].

- وتقديمُ الجارِّ «له» فيه إشارةٌ إلى أنَّ السَّائرَ في الفُلْكِ لا تصريفَ له، وإنْ ظَهَر له تصريفٌ؛ فهو -لضَعفِه- كَلَا تصريفٍ[4].

- قولُه: ﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾ قُرِئَ بفتْحِ الشِّينِ؛ فهو اسمُ مَفعولٍ، إذا أُوجِدَ وصُنِعَ، أي: الَّتي أنشَأَها النَّاسُ بإلهامٍ مِن اللهِ تعالى؛ فحصَلَ مِن الكلامِ مِنَّتانِ: مِنَّةُ تَسخيرِ السُّفنِ للسَّيرِ في البحرِ، ومِنَّةُ إلهامِ النَّاسِ لإنْشائِها. وقُرِئَ بكسْرِ الشِّينِ (المُنْشِآتُ)[5]؛ فهو اسمُ فاعلٍ، فيَجوزُ أنْ يكونَ المُنشِآتُ مُشتَقًّا مِن: أنشَأَ السَّيرَ؛ إذا أسرَعَ، أي: الَّتي يَسيرُ بها النَّاسُ سَيرًا سريعًا، والآيةُ تَحتمِلُ المعْنيَينِ على القراءتَينِ باستِعمالِ الاشتِقاقِ في معْنَيَيِ المُشتقِّ منه، ويكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٣).

(٥) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٢٤٠).

في ذلك تَذكيرٌ بنِعمةِ إلهامِ النَّاسِ إلى اختِراعِ الشِّراعِ لإسراعِ سَيرِ السُّفنِ[١].

- ووُصِفَتِ الجواري بأنَّها كالأعلامِ -أي: الجِبالِ- وَصْفًا يُفيدُ تَعظيمَ شأْنِها في صُنْعِها المُقتضي بَداعةَ إلْهامِ عُقولِ البشَرِ لصُنعِها، والمُقتضي عِظَمَ المِنَّةِ بها؛ لأنَّ السُّفنَ العظيمةَ أمكَنُ لحمْلِ العددِ الكثيرِ مِن النَّاسِ والمَتاعِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ تَشبيهٌ؛ فقد شَبَّهَ السُّفنَ وهي تَمخَرُ عُبابَ البحرِ رائحةً جائيةً بالجِبالِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٤).

الآيات (٢٦-٣٠)

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَانٍ﴾: أي: هالِكٌ[(١)].

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: أي:المُستحِقُّ لأنْ يُجَلَّ - فهو ذو العَظَمةِ والكِبرياءِ والمجدِ-، ولأنْ يُكرَمَ؛ لاتِّصافِه بما يُوجِبُ ذلك، والإجلالُ يتضمَّنُ التَّعظيمَ، والإكرامُ يتضمَّنُ الحمدَ والمحبةَ، والجَلالةُ: عِظَمُ القَدْرِ، والجَلالُ: التَّناهي في ذلك، وأصلُ (جلل): يدُلُّ على العَظَمةِ، وأصلُ (كرم): يدُلُّ على الشَّرَفِ[(٢)].

﴿شَأْنٍ﴾: الشَّأْنُ: الحالُ والأمرُ، ولا يُقالُ إلَّا فيما يعظُمُ مِن الأحوالِ والأمورِ، فهو الشَّيءُ العظيمُ والحدثُ المهمُّ مِن مخلوقاتٍ وأعمالٍ مِن السَّمَواتِ والأرضِ، وأصل (شأن): يدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطلَبٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن تفرُّدِه بالبقاءِ بعدَ فناءِ جميعِ المخلوقاتِ على ظهرِ الأرضِ، فيقولُ: كلُّ مَنْ على الأرضِ مِن إنسٍ أو جِنٍّ أو غَيرِهما: هالِكٌ لا يَبقى، ولا يَبقى إلَّا وَجْهُ ربِّك -يا محمَّدُ- ذو العَظَمةِ والإكرامِ، المُستحِقُّ للتَّعظيمِ والمحبةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٧) و(٥/ ١٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٦، ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٥).

فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

وأنَّه تعالى يَسألُه مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ لقَضاءِ حاجاتِهم، وأنَّه سُبحانَه كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ؛ يُفَرِّجُ كَربًا، ويَغفِرُ ذنْبًا، ويُجيبُ دُعاءً، ويَشفي مَريضًا، ويُغْني فقيرًا، ويُحيي خَلْقًا ويُميتُ آخَرينَ، ويُعِزُّ قومًا ويُذِلُّ آخَرينَ -سُبحانَه وبِحَمْدِه! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن ذَكَر اللهُ تعالى النِّعَمَ الَّتي أنعَمَ بها على عِبادِه في البَرِّ والبَحرِ، في السَّماءِ والأرضِ؛ رَدِفَ ذلك بيانُ أنَّ هذه النِّعَمَ تَفنى ولا تَبقى(١).

وأيضًا لَمَّا كان قولُه: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤] مُؤْذِنًا بنِعمةِ إيجادِ أسبابِ النَّجاةِ مِن الهَلاكِ، وأسبابِ السَّعيِ لتَحصيلِ ما به إقامةُ العَيشِ؛ إذ يسَّرَ للنَّاسِ السُّفنَ عَونًا لهم على الأسْفارِ، وقَضاءِ الأوطارِ، مع السَّلامةِ مِن طُغيانِ ماءِ البِحارِ، وكان وَصْفُ السُّفنِ بأنَّها كالأعلامِ تَوسعةً في هذه النِّعمةِ؛ أَتْبَعَه بالموعظةِ بأنَّ هذا لا يَحولُ بيْن النَّاسِ وبيْن ما قدَّره اللهُ لهم مِن الفَناءِ، على عادةِ القرآنِ في انتهازِ الفُرَصِ للموعظةِ والتَّذكيرِ(٢).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: كلُّ مَنْ على الأرضِ مِن إنسٍ أو جِنٍّ أو غَيرِهما: هالِكٌ لا يَبقى(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ويَبقَى وَجهُ ربِّك -يا محمَّدُ- الموصوفُ وَجهُه بالعَظَمةِ والإكرامِ، واستِحقاقِ التَّعظيمِ والمحبَّةِ، وإثباتِ صِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ، فالله عزَّ وجلَّ هو الحيُّ الَّذي لا يموتُ أبدًا(١).

= عطية)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١١).

قال السمينُ الحلبي: (غلَّبَ -بقَولِه ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾- مَن يَعقِلُ على غَيرِه، وجَميعُهم مرادٌ. والضَّميرُ في ﴿عَلَيْهَا﴾ للأرضِ. قال بَعضُهم: وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكرٌ... وقد رُدَّ على هذا القائِلِ، وقالوا: بل تقَدَّمَ ذِكرُها في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠]). ((الدر المصون)) (١٠/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٠-٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

قال ابنُ عثيمين: (أي: يبقَى اللهُ عزَّ وجَلَّ ذو الوَجهِ الكَريمِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١١).

وقال ابن تيميَّة: (والإجلالُ مِن جِنسِ التَّعظيمِ، والإكرامُ مِن جِنسِ الحُبِّ والحَمدِ... فله الإجلالُ والمُلْكُ، وله الإكرامُ والحَمدُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٢٠).

وقال أيضًا: (وقولُه: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: قيل: أهلٌ أنْ يُجَلَّ وأنْ يُكرَمَ. كما يُقالُ: إنَّه أَهْلُ التَّقْوى، أي: المستحِقُّ لأنْ يُتَّقَى. وقيل: أهلٌ أنْ يجِلَّ في نفسِه، وأنْ يُكْرِمَ أهلَ ولايتِه وطاعتِه. وقيل: أهلٌ أنْ يجِلَّ في نفسِه، وأهلٌ أنْ يُكرَمَ...

قلت: القولُ الأوَّلُ هو أقربُها إلى المرادِ معَ أنَّ الجلالَ هنا ليسَ مصدرَ جلَّ جلالًا، بل هو اسمٌ =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المَوتُ نفْسُه فيه نِعَمٌ لا تُنكَرُ، وكان مَوتُ ناسٍ نعمةً على ناسٍ -معَ ما ختَم به الآيةَ مِن وصفِه بالإنعامِ-؛ قال[1]:

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفضَى الإخبارُ إلى حاجةِ النَّاسِ إليه تعالى، أتْبَعَ بأنَّ الاحتِياجَ عامٌّ في أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماءِ؛ فالجَميعُ يَسألونَه[3].

= مصدرِ أجلَّ إجلالًا... وإذا كان مستحقًّا للإجلالِ والإكرامِ، لزِم أنْ يكونَ متَّصِفًا في نفسِه بما يُوجِبُ ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣١٧). ويُنظر: ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٩١).

وقال السعدي: (﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظمةِ والكبرياءِ والمجدِ، الذي يعظَّمُ ويبجَّلُ ويجَلُّ لأجلِه، والإكرامُ الذي هو سَعةُ الفضلِ والجودِ، والداعي لأنْ يكرمَ أولياءَه وخواصَّ خلقِه بأنواعِ الإكرامِ، الذي يكرمُه أولياؤه ويُجِلُّونَه، [ويُعظِّمونَه] ويُحبُّونَه، ويُنيبونَ إليه ويَعبدونَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وذكَر ابنُ عاشور أنَّ قولَه: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه تعظيمٌ لقَدرِه، وأنَّه يجوزُ أن يكونَ خِطابًا لغيرِ مُعيَّنٍ؛ ليَعُمَّ كُلَّ مُخاطَبٍ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إلى اللهِ يَفزَعُ جَميعُ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ بسُؤالِ حاجاتِهم؛ فلا يَستَغني الخَلائِقُ عن دُعاءِ رَبِّهم[1].

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

أي: كُلَّ يَومٍ يُحدِثُ اللهُ تعالى شأنًا عَظيمًا؛ كأنْ يُحييَ خَلْقًا ويُميتَ آخَرينَ، أو يُفَرِّجَ كَربًا، أو يَغفِرَ ذَنْبًا، أو يُجيبَ دُعاءً، أو يَشفِيَ مَريضًا، أو يُغنيَ فَقيرًا، أو يُعلِّمَ جاهِلًا، أو يَهدِيَ ضالًّا، أو يُعِزَّ قَومًا، ويُذِلَّ آخَرينَ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٣).

قال ابن كثير: (هذا إخبارٌ عن غِناه عمَّا سِواه، وافتِقارِ الخلائقِ إليه في جميعِ الآناتِ، وأنَّهم يَسألونه بلِسانِ حالِهم وقالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٧)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤-٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٤).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: مِن شأنِه أنَّه يُحيي ويُميتُ، ويَرزُقُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَشفي مريضًا، ويُجيبُ داعيًا، ويُعطي سائِلًا، ويَغفِرُ ذَنْبًا، ويَكشِفُ كَربًا، إلى ما لا يُحصى من أفعالِه، وإحداثِه في خَلْقِه ما يشاءُ!). ((الوسيط)) (٤/ ٢٢١).

وقال السعدي: (وهذه الشؤونُ الَّتي أخبَرَ أنَّه تعالى كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، هي تقاديرُه وتدابيرُه الَّتي قدَّرها في الأزلِ وقضاها، لا يزالُ تعالى يُمضيها ويُنفِذُها في أوقاتِها الَّتي اقتضَتْه حكمتُه، =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الحَثُّ على العِبادةِ، وصَرفِ الزَّمانِ اليَسيرِ إلى الطَّاعةِ[2]، والاستِعدادِ للحياةِ الباقيةِ بفِعلِ الصَّالحاتِ، والتَّفكُّرِ في عظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، والإقبالِ على توحيدِه، وطَلَبِ مرضاتِه[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ المَنعُ مِن الوُثوقِ بما يكونُ للمَرءِ، فلا يقولُ إذا كان في نِعمةٍ: إنَّها لن تَذهَبَ؛ فيَترُكَ الرُّجوعَ إلى اللهِ تعالى مُعتَمِدًا على مالِه ومُلْكِه[4]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الأمرُ بالصَّبرِ إن كان في ضُرٍّ -فلا يَكفُرُ باللهِ- مُعتَمِدًا على أنَّ الأمرَ ذاهِبٌ، والضُّرَّ زائِلٌ[5].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ تَركُ اتِّخاذِ الغَيرِ مَعبودًا، والزَّجرُ عن

= وهي أحكامُه الدِّينيَّةُ الَّتي هي الأمرُ والنَّهيُ، والقَدَريَّةُ الَّتي يُجريها على عبادِه مدَّةَ مقامِهم في هذه الدَّارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وقال سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: (الدَّهرُ كلُّه عندَ الله سبحانه يَومانِ: أحدُهما مدَّةُ أيَّامِ الدُّنيا، والآخَرُ يومُ القيامةِ، والشَّأنُ الَّذي هو فيه اليَومَ الَّذي هو مدَّةُ الدُّنيا: الاختبارُ بالأمرِ والنَّهيِ، والإحياءِ والإماتةِ، والإعطاءِ والمنعِ، وشأنُ يومِ القيامةِ: الجزاءُ والحسابُ، والثَّوابُ والعِقابُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاغتِرارِ بالقُربِ مِنَ المُلوكِ، وتَركِ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ أمْرَهم إلى الزَّوالِ قَريبٌ، فيبقى القَريبُ منهم -عن قَريبٍ- في نَدَمٍ عَظيمٍ؛ لأنَّه إن مات قَبْلَهم يَلقى اللهَ كالعَبدِ الآبِقِ، وإنْ مات المَلِكُ قبْلَه فيَبقى بيْنَ الخَلقِ وكُلُّ أحَدٍ يَنتَقِمُ منه، ويتشَفَّى فيه، ويَستحي مِمَّن كان يتكَبَّرُ عليه، وإن ماتا جميعًا فلِقاءُ اللهِ عليه -بعدَ التَّوَفِّي- في غايةِ الصُّعوبةِ[١]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ حُسنُ التَّوحيدِ، وتَركِ الشِّركِ الظَّاهِرِ والخَفيِّ جميعًا؛ لأنَّ الفانيَ لا يَصلُحُ لِأنْ يُعبَدَ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ لم يَقُلْ: «فيها»؛ لأنَّه عندَ الفَناءِ ليس الحالُ حالَ القَرارِ والتَّمكينِ[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أنَّ الدُّنيا إنَّما خُلِقَتْ للفَناءِ؛ ما خُلِقَ النَّاسُ للبَقاءِ في الدُّنيا[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ قال الشَّعبيُّ: (إذا قرأتَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تَسْكُتْ حتَّى تَقْرَأَ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾). وهذا مِن فِقْهِه في القُرآنِ، وكَمالِ عِلْمِه؛ إذِ المقصودُ: الإخبارُ بفَناءِ مَن عليها مع بَقاءِ وَجْهِه سُبحانَه؛ فإنَّ الآيةَ سِيقَتْ لِتَمْدَحَه بالبَقاءِ وَحْدَه، ومُجَرَّدُ فَناءِ الخَليقةِ ليس فيه مَدْحُه، إنَّما المدحُ في بَقائِه بعدَ فَناءِ خَلْقِه؛ فهي نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٢٧).

﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] [القصص: ٨٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أفرَدَ كلمةَ ﴿فَانٍ﴾؛ لأنَّهم لم يَجتَمِعوا في الفَناءِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ سؤالٌ: أنَّ «مَنْ» للعُقَلاءِ، وكُلُّ ما على وَجهِ الأرضِ مع الأرضِ فانٍ، فما فائِدةُ الاختِصاصِ بالعُقَلاءِ؟

الجوابُ مِن وَجهَين:

الأوَّلُ: أنَّ المُنتَفِعَ بالتَّخويفِ هو العاقِلُ؛ فخَصَّه تعالى بالذِّكْرِ[3].

الثَّاني: أنَّ الآيةَ دلَّتْ بفَناءِ العاقِلِ على فَناءِ غَيرِ العاقِلِ بطَريقِ الأَولى[4].

الثَّالثُ: أنَّه ذكَره بلفظةِ ﴿مَنْ﴾ تغليبًا للعقلاءِ[5].

٦- اللهُ سُبحانَه وتعالى حيٌّ باقٍ يَرِثُ ولا يُورَثُ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ...﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[6] [آل عمران: ١٨٠].

٧- لَمَّا كان الوَجهُ أشرَفَ ما في الوُجودِ، وكان يُعَبَّرُ به عمَّا أُريدَ به صاحِبُ الوَجهِ -مع أنَّه لا يُتصَوَّرُ بَقاءُ الوَجهِ بدُونِ صاحِبِه؛ فكان التَّعبيرُ به عن حقيقةِ ذلك الشَّيءِ أعظَمَ وأدَلَّ على الكَمالِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[7].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٧).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ١٥٢).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٥، ١٦٦).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ بكافِ الخِطابِ: إشارةٌ إلى اللُّطفِ، والإبقاءُ إشارةٌ إلى القَهرِ، والمَوضِعُ مَوضِعُ بَيانِ اللُّطفِ وتَعديدِ النِّعَمِ؛ فلهذا قال بلَفظِ الرَّبِّ وكافِ الخِطابِ، ولم يقُلْ: (ويبقى وجهُ الرَّبِّ)[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ أنَّ «الوَجهَ» صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ العَليِّ، وَصَف بها نَفْسَه؛ فعَلَينا أن نُصَدِّقَ رَبَّنا، ونُؤمِنَ بما وَصَف به نفْسَه، مع التَّنزيهِ التَّامِّ عن مُشابَهةِ صِفاتِ الخَلقِ[٢]، فهو وجهٌ لا يُشْبِهُ أوجُهَ المخلوقينَ؛ لقولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][٣]. وقد أثنى سُبحانَه على هذه الصِّفةِ ثَناءً خاصًّا لم يُثْنِ به على صِفةٍ غَيرِها؛ حيثُ قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وفي قَولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] يَرِدُ إشكالٌ؛ فجاء في الآيةِ الأُولى «ذو»، وفي الآيةِ الثَّانيةِ «ذي»!

الجوابُ: ذلك لأنَّ «ذو» في الآيةِ الأُولى صِفةٌ للوجهِ الَّذي هو فاعِلُ الفعلِ «يَبْقَى»، قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وأمَّا «ذي» في الآيةِ الثَّانيةِ فهي صفةٌ للرَّبِّ تعالى، وليست صفةً للاسمِ؛ لأنَّ الاسمَ لا يُوصَفُ! فهو صفةٌ للذَّاتِ، وليس صفةً للاسمِ، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فقال: ﴿رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ﴾، وهذا يعني أنَّه لا يَصِحُّ أنْ يُوصفَ الاسمُ بأنه ذو جلالٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٢).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٥).

وإكرامٍ! بخلافِ الوجهِ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فائِدةٌ: أنَّه دَخَل في ﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ جميعُ الصِّفاتِ الرَّاجِعةِ إلى التَّنزيهِ عن النَّقصِ، وفي (الْإِكْرَامِ) جميعُ صِفاتِ الكَمالِ الوُجوديَّةِ، وصِفاتِ الجَمالِ كالإحسانِ[(٢)].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فيه أنَّ حَمْلَ «وجْهِ اللهِ» على «ثوابِ اللهِ» باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الوجهَ بالجَلالِ والإكرامِ، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، و«ذو» صِفةُ الوَجهِ، ومَعلومٌ أنَّ الثَّوابَ لا يُوصَفُ بأنَّه ذو الجَلالِ والإكرامِ[(٣)]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: أيُّ نِعمةٍ في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ حتَّى تُعَدَّ مِن نِعَمِ الدُّنيا؟!

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ فيه التَّسويةَ بيْنَ الصَّغيرِ والكبيرِ، والأميرِ والمأمورِ، والمالِكِ والمملوكِ، والظَّالمِ والمظلومِ في الفَناءِ المؤدِّي إلى دارِ البَقاءِ، ومُجازاةِ المحسِنِ والمسيءِ بحَقِّه مِن الجزاءِ؛ فالمظلومُ يأخُذُ حَقَّه، والظَّالمُ يَفزَعُ فيَترُكُ الظُّلمَ له، وسَبَبُ الفَناءِ يَعلَمُه الإنسانُ باضطرارٍ؛ فلا نِعمةَ إذَن أكبَرُ مِن هذه[(٤)].

الثَّاني: أنَّ الموتَ سَبَبُ النَّقلِ إلى دارِ الجَزاءِ والثَّوابِ[(٥)]، فهو نِعمةٌ لأولياءِ

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (ص: ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٢٤).

اللهِ؛ حيثُ أفضَى بهم إلى السَّعادةِ الأبَديَّةِ، والنِّعمةِ العُظمَى[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال: ﴿رَبِّكُمَا﴾ خِطابًا مع الاثنَينِ، وقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ خِطابًا مع الواحِدِ؟!

الجَوابُ: عندَ قَولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وقَعت الإشارةُ إلى فَناءِ كُلِّ أحَدٍ، وبَقاءِ اللهِ تعالى ذي الوجهِ الكريم، فقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: يا أيُّها السَّامِعُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فلا تلتفِتْ إلى أحَدٍ غَيرِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ كُلَّ مَن عَداه فانٍ[٢]. وقيل: قَولُه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ اقتَضَى تعميمَ الخِطابِ لكلِّ مَن يَصلُحُ للخِطابِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لعِظَمِ الأمْرِ وفَخامتِه، ويَندرِجُ فيه الثَّقلانِ أوَّليًّا، ولا كذلك الثَّاني؛ فترَكَه على ظاهِرِه[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ دَلالةٌ على التَّقديرِ اليَوميِّ -كما ذَكَره بعضُ أهلِ العِلمِ-؛ فهو سُبحانَه كلَّ يوم يُغْني فقيرًا، ويُفقِرُ غَنيًّا، ويُوجِدُ مَعدومًا، ويُعْدِمُ موجودًا، ويَبسُطُ الرِّزقَ ويَقْدِرُه، ويُنشِئُ السَّحابَ والمطَرَ، وغيرَ ذلك[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أنَّ العِبادَ كلَّهم مُضطَرُّونَ إلى دُعاءِ الرَّبِّ سُبحانَه، وسُؤالِه وقَصْدِه، والافتِقارِ إليه[٥].

١٧- قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَسألُه أولياؤُه وأعداؤُه، ويُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغَضُ خَلْقِه عَدُوُّه إبليسُ، ومع هذا فقد سأله حاجةً فأعطاه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٠٦).

إيَّاها، ومَتَّعه بها، وليُعلَمَ أنَّ إجابةَ اللهِ لسائِليه ليست لكرامةِ السَّائِلِ عليه، بل يَسألُه عَبدُه الحاجةَ فيَقضِيها له وفيها هَلاكُه وشِقْوتُه، ويكونُ قَضاؤه له مِن هَوانِه عليه، وسُقوطِه مِن عَينِه، ويكونُ مَنْعُه منها لكرامتِه عليه، ومحبَّتِه له، فيَمنَعُه؛ حمايةً وصِيانةً وحِفظًا، لا بُخلًا، وهذا إنَّما يَفعَلُه بعَبدِه الَّذي يُريدُ كرامتَه ومَحبَّتَه، ويُعامِلُه بلُطْفِه، فيَظُنُّ بجَهْلِه أنَّ اللهَ لا يُحِبُّه ولا يُكرِمُه، ويَراه يقضي حوائِجَ غَيرِه، فيُسيءُ ظَنَّه برَبِّه[1]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ثُبوتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للرَّبِّ سُبحانَه، وقيامُها به[2].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ معَ كونِ القَلَمِ جَفَّ بما هو كائِنٌ إلى يومِ القيامةِ!

الجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أنَّها شُؤونٌ يُبدِيها ولا يَبتدِيها[3]، وقال الحسينُ بنُ الفضلِ: (هو سَوْقُ المَقاديرِ إلى المَواقيتِ)[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وُقوعُ هذه الجُملةِ عقِبَ ما عُدِّدَ مِن النِّعَمِ فيه إيماءٌ إلى أنَّ مَصيرَ نِعَمِ الدُّنيا إلى الفناءِ، وهذا

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٥٤).

تَذكيرٌ بالموتِ وما بعْدَه مِن الجزاءِ، والجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[١].

- وتَفريعُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنَّما هو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ مِن أنَّه يَتضمَّنُ مُعامَلةَ خلْقِه مُعاملةَ العظيمِ الَّذي لا تَصدُرُ عنه السَّفاسِفُ، الكريمِ الَّذي لا يَقطَعُ إنعامَه، وذلك مِن الآلاءِ العظيمةِ[٢].

- وفي مَجموعِ قولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ نِعمةٌ عَظيمةٌ؛ فإنَّه تعالَى رتَّبَ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ على تِلك الآيةِ؛ تأنيبًا وتَوبيخًا على كُفرانِهم هذه النِّعمةَ السَّنِيَّةَ؛ فالمرادُ مِن الآيةِ مَلزومُ معْناها؛ لأنَّها كِنايةٌ عن مَجيءِ وقتِ الجَزاءِ، وهو مِن أجَلِّ النِّعَمِ؛ ولذلك خَصَّ الوَصفَينِ بالذِّكرِ -يعني: الجلالَ والإكرامَ-؛ لأنَّهما يدُلَّانِ على الإثابةِ والعِقابِ؛ ففي وصْفِه تعالَى بذلكَ بعْدَ ذِكرِ فَناءِ الخلْقِ وبَقائِه تعالى إيذانٌ يُفيضُ عليهم بعْدَ فَنائِهم أيضًا آثارَ لُطْفِه وكرَمِه حسبَما يُنبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ فإنَّ إحياءَهم بالحَياةِ الأبديَّةِ وإثابتَهم بالنَّعيمِ المُقيمِ أجَلُّ النَّعماءِ، وأعظَمُ الآلاءِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالافتِنانِ[٤]؛ فقدْ جمَعَ سُبحانه بيْنَ التَّعزيةِ والفخْرِ؛ إذ عزَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٠).

(٤) الافتنانُ: هو أنْ يَفْتَنَّ المتكلِّمُ، فيَأتيَ في كَلامِه بفَنَّينِ مِن فُنونِ الكَلامِ وأغراضِه؛ إمَّا مُتضادَّينِ، أو مُختلِفَينِ، أو مُتَّفقَينِ، والافتِنانُ في ضروبِ الفَصاحةِ أعلَى مِن الاسْتِمرارِ على ضَرْبٍ واحدٍ؛ =

جَميعَ المخلوقاتِ، وتمدَّحَ بالانفرادِ بالبَقاءِ بعْدَ فَناءِ الموجوداتِ، معَ وصفِ وجهِه الكريمِ بأنَّه ذو الجلالِ والإكرامِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۞ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ استِئنافٌ، والمعْنى أنَّ النَّاسَ تَنقرِضُ منهم أجيالٌ، وتَبْقى أجيالٌ، وكلُّ باقٍ مُحتاجٌ إلى أسبابِ بَقائِه، وصَلاحِ أحوالِه؛ فهُمْ في حاجةٍ إلى الَّذي لا يَفْنَى وهو غيرُ مُحتاجٍ إليهم، ولَمَّا أفْضى الإخبارُ إلى حاجةِ النَّاسِ إليه تعالى، أُتْبِعَ بأنَّ الاحتياجَ عامٌّ في أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماءِ، فالجميعُ يَسألونَه؛ فسُؤالُ أهلِ السَّمواتِ -وهم الملائكةُ- يُسبِّحون بحمْدِ ربِّهم ويَستغفِرون لِمَن في الأرضِ، ويَسألون رِضا اللهِ تعالى، ومَن في الأرضِ -وهم البشرُ- يَسألونَه نِعَمَ الحياةِ، والنَّجاةَ في الآخِرةِ، ورفْعَ الدَّرَجاتِ في الآخرةِ[2].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ، أي: يَسألونه حَوائجَهم ومَهامَّهم[3].

- قولُه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ حالًا مِن ضَميرِ النَّصبِ في ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾، أو تَذييلًا لجُملةِ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: كلَّ يومٍ

= ولهذا ورَد بعضُ آيِ القُرآنِ مُتماثِلَ المقاطعِ، وبعضُها غيرَ متماثلٍ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٨٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤، ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو في شأْنٍ مِن الشُّؤونِ للسَّائلينَ وغيرِهم؛ فهو تعالى يُبرِمُ شُؤونًا مُختلِفةً مِن أحوالِ الموجوداتِ دَوامًا، ويكونَ ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾ ظَرْفًا مُتعلِّقًا بالاستِقرارِ في قولِه: ﴿هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾، وقُدِّمَ على ما فيه مُتعلَّقُه؛ للاهتِمامِ بإفادةِ تَكرُّرِ ذلك ودَوامِه، والمعْنى: في شأْنٍ مِن شُؤونِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ؛ مِن استجابةِ سُؤْلٍ، ومِن زِيادةٍ، ومِن حِرمانٍ، ومِن تأخيرِ الاستِجابةِ، ومِن تَعويضٍ عن المسؤولِ بثَوابٍ، كما ورَدَ في أحاديثِ الدُّعاءِ[١] أنَّ استجابتَه تكونُ مُختلِفةً. ومعْنى (في) على هذا التَّفسيرِ: تَقويةُ ثُبوتِ الشُّؤونِ للهِ تعالى، وهي شُؤونُ تَصرُّفِه، ومَظاهرُ قُدْرتِه[٢].

---

(١) منها: حديثُ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((ما مِن مُسلمٍ يدْعو بدَعوةٍ ليسَ فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رحِمٍ، إلَّا أعطاهُ الله بها إحْدَى ثَلاثٍ: إمَّا أنْ تُعجَّلَ له دعوتُه، وإمَّا أنْ يَدَّخِرَها له في الآخرةِ، وإمَّا أنْ يَصرِفَ عنه مِن السُّوءِ مِثلَها. قالوا: إذَنْ نُكثِرُ! قال: اللهُ أكثرُ)).

أخرجه أحمد (١١١٣٣) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٦٨)، والحاكمُ (١٨١٦).

ذكر ثبوتَه الشوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٢٧٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ١٢٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (٥٤٧)، وجوَّد إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧/ ٢١٤).

ومنها: حديثُ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما على الأرضِ مُسلِمٌ يدْعو اللهَ بدَعوةٍ إلَّا آتاهُ اللهُ إيَّاها، أو صَرَف عنه مِن السُّوءِ مِثلَها، ما لم يَدْعُ بإثمٍ، أو قَطيعةِ رَحِمٍ. فقال رجُلٌ مِن القَومِ: إذَنْ نُكثِرُ! قال: اللهُ أكثرُ)).

أخرجه الترمذي (٣٥٧٣) واللَّفظُ له، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (٢٢٧٨٥) مختصرًا.

صحَّحه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٩٨)، وابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٠/ ١٣٧)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٧٣): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٧/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).

- والظَّرفيَّةُ المُستعمَلةُ فيها حرْفُ (في) تُفِيدُ شِدَّةَ التَّلبُّسِ والتَّعلُّقِ بتَصرُّفاتِ اللهِ تعالى بمَنزِلةِ إحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ، أو بأسئلةِ المخلوقاتِ الَّذين في السَّماءِ والأرضِ[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٥، ٢٥٦).

الآيات (٣١-٣٦)

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَنَفْرُغُ﴾: أي: سنَقصِدُ لكم بعدَ طُولِ التَّركِ والإمهالِ، والفَراغُ في اللُّغةِ على ضَربَينِ: أحَدُهما: الفَراغُ مِنَ الشُّغلِ، والآخَرُ: القَصدُ للشَّيءِ، تقولُ: سأتفَرَّغُ لفُلانٍ، أي: سأجعَلُ قَصْدي إليه[1].

﴿الثَّقَلَانِ﴾: أي: الإنسُ والجِنُّ؛ سُمِّيا بذلك قيل: لأنَّهما مُثقلانِ بالتَّكليفِ. وقيل: لِعِظَمِ شَأنِهما بالإضافةِ إلى ما في الأرضِ مِن غَيرِهما. وقيل: لأنَّهما مُثقَلانِ بالذُّنوبِ[2].

﴿تَنْفُذُوا﴾: أي: تَجوزوا وتَخرجوا، يُقالُ: نفَذَ الشَّيءُ مِن الشَّيءِ إذا خلَص منه، ونفَذ السَّهمُ في الرَّمِيَّةِ نُفوذًا ونَفاذًا، إذا خرَقَ إلى الجهةِ الأخرى، وأصلُ (نفذ): يدُلُّ على مَضاءٍ في أمرٍ وغيرِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦).

﴿أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي: جَوانِبِها ونَواحيها[١].

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بمُلْكٍ وقُوَّةٍ، والسُّلطانُ: القُوَّةُ الَّتي يُتسَلَّطُ بها على الأمرِ، فالمُلْكُ والقُدرةُ والحُجَّةُ: كُلُّها سُلطانٌ[٢].

﴿شُوَاظٌ﴾: أي: لَهَبٌ بِلَا دُخَانٍ[٣].

﴿وَنُحَاسٌ﴾: أي: دُخَانٌ، أو: دُخَانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطْرٌ مُذابٌ، وقيل: هو الدُّخانُ الذي لا لهبَ فيه[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مهدِّدًا الَّذين يخالِفونَ أمْرَه: سنَقصِدُ لمُحاسَبتِكم يومَ القيامةِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ- ونُجازيكم بحَسَبِ أعمالِكم؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثُمَّ يخبِرُ الله تعالى عن عَجْزِهم وضَعفِهم، وكمالِ سلطانِه، ونفوذِ مشيئتِه وقدرتِه، فيقول: يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُم أن تَخرجُوا هَرَبًا من جَوانِبِ السَّمَواتِ والأرضِ ونواحيها، فافعَلوا، لا تستطيعونَ النُّفوذَ مِن جوانبِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٣).

السَّمَواتِ والأرضِ إلَّا بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ، وأنَّى لكم ذلك؟! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يذكرُ ما أعدَّ لهم، فيقولُ: يُرسَلُ عليكما لَهَبٌ عَظيمٌ مِن نارٍ لا دُخانَ معها، ويُرسَلُ عليكما دُخانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ، فلا تَنتَصِرانِ مِن عَذابِه؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما أنعَمَ به مِن تَعليمِ العِلمِ، وخَلْقِ الإنسانِ والسَّماءِ والأرضِ، وما أودَعَ فيهما، وفَناءَ ما على الأرضِ- ذَكَر ما يَتعَلَّقُ بأحوالِ الآخِرةِ والجَزاءِ، فقال تعالى[1]:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ٣١﴾.

أي: سنَقصِدُ لمُحاسَبتِكم يومَ القيامةِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ- ونُجازيكم ثوابًا أو عِقابًا بحَسَبِ أعمالِكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٥).

قال الواحدي: (المفسِّرونَ على أنَّ هذا تهديدٌ منه لعِبادِه). ((الوسيط)) (٤/ ٢٢٢).

وقال البغوي: (ليسَ المرادُ منه الفراغَ عن شُغْلٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى لا يَشغلُه شأْنٌ عن شأنٍ، ولكِنَّه وَعيدٌ مِن اللهِ تعالَى [للخَلْقِ] بالمحاسَبةِ، كقولِ القائلِ: لَأتفرَّغَنَّ لك، وما به شُغْلٌ، وهذا قولُ ابنُ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ، وإنَّما حَسُنَ هذا الفراغُ لسَبْقِ ذِكْرِ الشَّأْنِ. وقال آخَرونَ: معناه سنَقْصِدُكم بعدَ التَّرْكِ والإمهالِ ونأخُذُ في أمْرِكم، كقولِ القائلِ للَّذي لا شُغْلَ له: قد تفرَّغْتُ لك. وقال =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما تقدَّم مِن أجَلِّ النِّعَمِ الَّتي يَدورُ عليها العِبادُ، ويَصلُحُ بها البِلادُ، وتقومُ بها السَّمَواتُ والأرضُ؛ لأنَّ مُطلَقَ التَّهديدِ يَحصُلُ به انزِجارُ النَّفْسِ عَمَّا لها مِنَ الانتِشارِ فيما يَضُرُّ ولا يَنفَعُ؛ فكيف بالتَّهديدِ بيَومِ الفَصلِ- قال تعالى[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بانَ أنَّ اللهَ تعالى لا يَشغَلُه شَأنٌ عن شأنٍ، كأنَّ قائِلًا قال: فلِمَ أخَّرَ عَذابَهم؟ فأُجيبَ بأنَّ الجَميعَ في قَبضتِه، وأنَّ الَّذي يَستَعجِلُ إنَّما يَخافُ الفَوتَ، والجَميعُ

= بعضُهم: إنَّ اللهَ وَعَد أهلَ التَّقوى وأَوْعدَ أهلَ الفجورِ، ثُمَّ قال: سَنَفرُغُ لكم مِمَّا وعَدْناكم وأخبَرْناكم، فنُحاسِبُكم ونُجازيكم، ونُنجِزُ لكم ما وعَدْناكم، فنُتِمُّ ذلك ونَفرُغُ منه، وإلى هذا ذَهَب الحَسَنُ ومقاتلٌ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩).

وقال الواحدي: (وقولُه: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ يريدُ الجنَّ والإنسَ في قولِ الجميعِ). ((البسيط)) (٢١/ ١٦٦).

وقال ابن كثير: (الثَّقلانِ: الإنسُ والجنُّ، كما جاء في الصَّحيحِ: «يَسمَعُها كلُّ شَيءٍ إلا الثَّقلَينِ» وفي روايةٍ: «إلَّا الجنَّ والإنسَ». وفي حديثِ الصُّورِ: «الثَّقلانِ: الإنسُ والجنُّ»). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧).

في قَبضةِ اللهِ تعالى، فلا يَفوتُونَه(١).

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ ﴾.

أي: يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُم أن تَنفُذوا من جَوانِبِ السَّمواتِ والأرضِ ونواحيها الواسِعةِ، فتَخرُجوا منها فِرارًا مِن رَبِّكم حتَّى لا يَقدِرَ عليكم- فافعَلوا(٢)!

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧، ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦١)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٦).

قال الشنقيطي: (المَعْشَرُ في لغةِ العربِ: الجماعةُ، كُلُّ جماعةٍ تُسَمَّى مَعْشَرًا، ويُجمَعُ على: مَعاشِرَ. كان بعضُهم يقولُ: لأنَّ بعضَهم يُعاشِرُ بعضًا. وقد يُطْلَقُ المَعْشَرُ على الجماعةِ المتَّفِقينَ في نِحْلةٍ أو ناحيةٍ وإن لم يُعاشِرْ بعضُهم بعضًا). ((العذب النمير)) (٢/ ٢٢٩).

وقال السمعاني: (اختلَفوا أنَّ هذا القَولَ متى يكونُ؟ فالأكثَرونَ على أنَّه يومَ القيامةِ يَكونُ، ويُنزِلُ اللهُ تعالى الملائِكةَ حتَّى يَنفُذوا على أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ، فإذا رأى الجِنُّ والإنسُ أهوالَ القيامةِ هَرَبوا، فتَرُدُّهم الملائِكةُ... ويُقالُ: إنَّ المرادَ هو الهَربُ مِنَ الموتِ، يعني: إنِ استَطَعتُم أن تَنفُذوا مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ هَرَبًا مِن الموتِ، فانفُذوا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّه يُقالُ لهم ذلك يَومَ القيامةِ: ابنُ القَيِّم، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الهَربُ مِنَ الموتِ في الدُّنيا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٨).

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾.

أي: ليسَت لكم -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ- استِطاعةٌ على النُّفوذِ مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ إلَّا بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ، وليس لكم ذلك[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ قولَه: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾ أي: بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٩).

واقتصَر ابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ على تفسيرِه بالقوَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٠).

قال ابن عطيَّة: (السُّلطانُ هنا القوَّةُ على غرضِ الإنسانِ، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الأعظَمِ مِن الأمرِ والحُجَجِ أبدًا مِن القويِّ في الأمورِ، ولذلك يُعبِّرُ كثيرٌ مِن المفسِّرينَ عن السُّلطانِ بأنَّه الحُجَّةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٠).

قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: لا تَنفُذونَ إلَّا في سُلطانِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه مالِكُ كُلِّ شَيءٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّاني: لا تَنفُذونَ إلَّا بحُجَّةٍ. قاله مجاهِدٌ.

والثَّالثُ: لا تَنفُذونَ إلَّا بمُلكٍ، وليس لكم مُلكٌ. قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ الحُجَّةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٠).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: إلَّا بمُلْكي، وفي سُلْطاني، أي: حيثُما توجَّهْتُم كنتم في ملْكي وسلْطاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٤).

وقال الرَّسْعَني: (بقُدرةٍ تَتسَلَّطون بها على ما تُريدون، وأنَّى لكم ذلك وأنتم خَلْقي، وتحتَ سُلْطاني، وفي قبضتي؟!). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦١). =

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[1]؟!

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾.

أي: يُرسَلُ عليكما -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ- لَهَبٌ عَظيمٌ مُنتَشِرٌ مِن نارٍ لا دُخانَ معها، ويُرسَلُ عليكما دُخانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ[2].

= وقال ابن عاشور: (السُّلْطانُ: القُدرةُ، أي: لا تَنفُذون مِن هذا المأزِقِ إلَّا بقُدرةٍ عظيمةٍ تَفوقُ قُدرةَ الله الَّذي حشَرَكم لهذا الموقفِ، وأنَّى لكم هاتِه القوَّةُ؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٩).

وقال السعدي: (إلَّا بقوَّةٍ وتسَلُّطٍ منكم، وكمالِ قُدرةٍ، وأنَّى لهم ذلك؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وقال الواحدي: (معنى السُّلْطانِ: القوَّةُ الَّتي يُتسَلَّطُ بها على الأمرِ، ثمَّ الملْكُ والقُدرةُ والحُجَّةُ كلُّها سُلْطانٌ، يدُلُّ على أنَّه واحدٌ). ((البسيط)) (٢١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١، ٢٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٠، ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

قال القرطبي: (أي: لو خرَجْتُم أُرسِلَ عليكم شُواظٌ مِن نارٍ، وأخَذَكم العذابُ المانِعُ مِن النُّفوذِ. وقيل: ليس هذا متعَلِّقًا بالنُّفوذِ، بل أخبَرَ أنَّه يُعاقِبُ العُصاةَ عَذابًا بالنَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور: (الشُّواظُ: اللَّهبُ الَّذي لا يُخالِطُه دُخَانٌ؛ لأنَّه قد كمَلَ اشتعالُه، وذلك أشدُّ إحراقًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠).

قال ابن الجوزي: (في «النُّحَاسِ» قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه دُخانُ النَّارِ... والقَولُ الثَّاني: أنَّه الصُّفْرُ المُذابُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣٣].

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

أي: فلا يُمكِنُكما الانتِصارُ -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ-، فلا تمتَنِعانِ مِن عَذابِه بأنفُسِكم، ولا بناصِرٍ مِن غَيرِكم[١]!

كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تخويفُه سُبحانَه لعِبادِه نِعمةً مِنه عليهم، وسَوطًا يَسوقُهم به إلى أعلى المَطالِبِ، وأشرَفِ المواهِبِ- امتَنَّ عليهم، فقال[٢]:

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[٣]؟!

= وممَّن جمع بين المعنيَين للنُّحاس: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٣).
قال البِقاعي: (أي: دُخانٌ هو في غايةِ الفَظاعة، فيه شَرَرٌ مُتطايرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ هذه الجُملةُ المقصودُ بها الوَعيدُ، كما يقولُ قائلٌ لِمَن يَتوَعَّدُه: سأتفَرَّغُ لك، وأُجازيك، وليس المعنى أنَّ اللهَ تعالى يَشغَلُه شأنٌ عن شأنٍ، ثمَّ يَفْرُغُ مِن هذا ويأتي إلى هذا! هو سُبحانَه يُدَبِّرُ كلَّ شيءٍ في آنٍ واحدٍ في مَشارقِ الأرضِ ومَغارِبِها، وفي السَّمَواتِ وفي كُلِّ مكانٍ، يُدَبِّرُه في آنٍ واحدٍ ولا يُعجِزُه، فلا تتوهمَنَّ أنَّ قولَه: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أنَّه -تعالى- الآنَ مَشغولٌ وسَيَفرُغُ! بل هذه جُملةٌ وعيديَّةٌ تُعَبِّرُ بها العَرَبُ، والقُرآنُ الكريمُ نَزَلَ بلُغةِ العَرَبِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ سؤالٌ عن سَبَبِ التَّثنيةِ بعدَ الجَمعِ.

الجَوابُ: لأنَّهما فَريقانِ، وكُلُّ فَريقٍ جَمعٌ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يقُلْ: «إنِ استَطعْتُما»؛ لأنَّهما فريقانِ في حالِ الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، وقَولِه تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[٢] [الحج: ١٩].

٣- يدُلُّ ما تضَمَّنَتْه سورةُ (الرَّحمن) على أنَّ الجِنَّ مُكَلَّفونَ مُخاطَبونَ، مَأمورونَ مَنهيُّونَ، مُثابونَ مُعاقَبونَ، كالإنسِ سَواءً؛ مُؤمِنُهم كمُؤمِنِهم، وكافِرُهم ككافِرِهم؛ فإنَّه سُبحانَه وتعالى ذَكَرَ خَلْقَ النَّوعَينِ في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[الرحمن: ١٤، ١٥]، ثمَّ خاطَبَ النَّوعَينِ بالخِطابِ المتضمِّنِ لاستِدعاءِ الإيمانِ منهم، وإنكارِ تَكذيبِهم بالآيةِ، وتَرغيبِهم في وَعْدِه، وتخويفِهم مِن وَعيدِه، وتهديدِهم؛ بقَولِه تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٦).

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وتخويفِهم مِن عواقِبِ ذنوبِهم، وأنَّه لِعِلْمِه بها لا يَحتاجُ أنْ يَسألَهم عنها سُؤالَ استِعلامٍ، بل يُعْرَفُ المجرِمونَ منهم بسِيماهم فيُؤخَذُ بنواصيهم والأقدامِ، ثمَّ ذَكَر عِقابَ الصِّنفَينِ وثَوابَهم، وهذا كُلُّه تَصريحٌ في أنَّهم هم المُكَلَّفون، المأمورونَ المنهيُّون، المُثابون المُعاقَبون. ومِن الأدِلَّةِ على ذلك أيضًا قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ * وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٨، ١٩]، وقولُه سبحانَه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى قولِه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا * وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[1] [الجن: ١٤، ١٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: إعلانٌ لهم بأنَّهم في قَبضةِ اللهِ تعالى لا يَجِدونَ مَنجًى منها، وهو تَرويعٌ للضَّالِّينَ والمُضِلِّينَ مِنَ الجِنِّ والإنسِ بما يترَقَّبُهم مِنَ الجَزاءِ السَّيِّئِ؛ لأنَّ مِثلَ هذا لا يُقالُ لجَمعٍ مُختَلِطٍ إلَّا والمقصودُ أهلُ الجِنايةِ مِنهم[2]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ واحِدةٍ منها مُحيطةٌ بالأخرى؛ لأنَّ النُّفوذَ لا يكونُ حَقيقةً إلَّا مع الخَرْقِ[3].

٦- زَعَم بَعضُ مَن لا عِلْمَ عِندَه بكتابِ اللهِ تعالى أنَّ قَولَه جَلَّ وعلا: ﴿لَا

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١).

تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ يُشيرُ إلى الوُصولِ إلى السَّماءِ، بدعوى أنَّ المرادَ بالسُّلطانِ في الآيةِ هو هذا العِلمُ الحادِثُ، الَّذي مِن نتائِجِه الصَّواريخُ والأقمارُ الصِّناعيَّةُ، وإذَنْ فإنَّ الآيةَ قد تكونُ فيها الدَّلالةُ على أنَّهم يَنفُذونَ بذلك العِلمِ مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ! وهذا مردودٌ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ هو إعلامُ اللهِ جَلَّ وعلا خَلْقَه أنَّهم لا مَحيصَ لهم ولا مَفَرَّ عن قَضائِه، ونُفوذِ مَشيئتِه فيهم، وذلك عندَما تحُفُّ بهم صُفوفُ الملائِكةِ يومَ القيامةِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، فكُلَّما فَرُّوا إلى جهةٍ وَجَدوا صُفوفَ الملائكةِ أمامَهم، ويُقالُ لهم في ذلك الوَقتِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ...﴾، والسُّلطانُ قيل: الحُجَّةُ والبَيِّنةُ، وقيل: المُلْكُ والسَّلْطَنةُ، وكُلُّ ذلك مَعدومٌ عندَهم يومَ القيامةِ؛ فلا نُفوذَ لهم.

الثَّاني: أنَّ الجِنَّ أعطاهم اللهُ القُدرةَ على الطَّيرانِ والنُّفوذِ في أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ، وكانوا يَستَرِقونَ السَّمْعَ مِنَ السَّماءِ، وإنَّما مُنِعوا من ذلك حينَ بُعِثَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالجِنُّ كانوا قادِرينَ على بُلوغِ السَّماءِ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى صاروخٍ ولا قَمَرٍ صِناعيٍّ! فلو كان معنى الآيةِ هو ما يَزعُمُه أولئك لم يَقُلْ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَنفُذونَ إلى السَّماءِ قبْلَ حُدوثِ السُّلطانِ المزعومِ!

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ العِلمَ المذكورَ -الَّذي لا يُجاوِزُ صِناعةً يَدويَّةً- أهوَنُ على اللهِ جَلَّ وعلا مِن أن يُطلَقَ عليه اسمَ السُّلطانِ؛ لأنَّه لا يُجاوِزُ أغراضَ هذه الحياةِ الدُّنيا، ولا نَظَر فيه البتَّةَ لِما بعدَ الموتِ، وعِلمُ هؤلاء الكُفَّارِ نفى اللهُ عنه اسمَ العِلمِ الحَقيقيِّ، وأثبَتَ له أنَّه عِلمٌ ظاهِرٌ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧]؛ فحِذْقُ الكُفَّارِ في الصِّناعاتِ اليَدويَّةِ كحِذقِ بَعضِ

الحَيواناتِ في صِناعتِها بإلهامِ اللهِ لها ذلك!

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّا لو سَلَّمْنا تسليمًا جَدَليًّا أنَّ ذلك المعنى المزعومَ كَذِبًا هو معنى الآيةِ، فإنَّ اللهَ تعالى أَتْبَعَ ذلك بقَولِه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ الآيةَ، فهو يدُلُّ -على ذلك التَّقديرِ- على أنَّهم لو أرادوا النُّفوذَ في أقطارِها أحرَقَهم ذلك الشُّواظُ والنُّحاسُ[1]!

الوجهُ الخامسُ: أنَّ الآيةَ في سياقِ التَّحدِّي ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، ولا يمكنُ أنْ يَتَحَدَّى اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا بما يستطيعُ! التَّحدِّي معناه أنَّ المخاطَبَ لا يستطيعُ، وإذا كان أفضلُ رسولٍ في البشرِ وأفضلُ رسولٍ في الملائكةِ لم يَدْخُلا السَّماءَ الدُّنيا إلَّا باستفتاحٍ وإِذْنٍ؛ فكيف بهؤلاء[2]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا يخفى ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ مِن أنَّ إرسالَ شُواظِ النَّارِ والنُّحاسِ، وعَدَمَ الانتِصارِ؛ ليس في شَيءٍ منه إنعامٌ على الثَّقَلينِ، وقولُه لهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يُفهَمُ منه أنَّ إرسالَ الشُّواظِ والنُّحاسِ، وعَدَمَ الانتِصارِ: هو مِن آلاءِ اللهِ -أي: نِعَمِه على الجِنِّ والإنسِ!

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ تكريرَ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّوكيدِ، ولم يُكَرِّرْه مُتواليًا؛ لأنَّ تكريرَه بعدَ كُلِّ آيةٍ أحسَنُ مِن تكريرِه مُتواليًا، وإذا كان للتَّوكيدِ فلا إشكالَ؛ لأنَّ المذكورَ منه بعدَ ما ليس مِن الآلاءِ مُؤَكِّدٌ للمَذكورِ بعدَ ما هو مِنَ الآلاءِ.

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤١).

الثَّاني: أنَّ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذُكِرَتْ بعدَ ذِكرِ الإنذارِ والتَّخويفِ؛ ففيه أيضًا أعظَمُ نِعمةٍ على العَبدِ؛ لأنَّ إنذارَه في دارِ الدُّنيا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ هو مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ عليه؛ ألَا ترى أنَّه لو كان أمامَ إنسانٍ مُسافِرٍ مَهلَكةٌ كُبرى وهو مُشرِفٌ على الوُقوعِ فيها مِن غيرِ أن يَعلَمَ بها، فجاءه إنسانٌ فأخبَرَه بها وحَذَّره مِنَ الوُقوعِ فيها؛ أنَّ هذا يكونُ يدًا له عندَه، وإحسانًا يُجازيه عليه جزاءَ أكبَرِ الإنعامِ؟ وهذا الوَجهُ الأخيرُ هو مُقتضى الأُصولِ؛ لأنَّه قد تقَرَّرَ في عِلمِ الأُصولِ: أنَّ النَّصَّ إذا احتمَل التَّوكيدَ والتَّأسيسَ فالأصلُ حَملُه على التَّأسيسِ لا على التَّوكيدِ؛ لأنَّ في التَّأسيسِ زيادةَ مَعنًى ليست في التَّوكيدِ، وعلى هذا القَولِ فتكريرُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنَّما هو باعتِبارِ أنواعِ النِّعَمِ المذكورِ قَبْلَها؛ مِن إنعامٍ، أو مَوعِظةٍ، أو إنذارٍ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ تَخلُّصٌ مِن الاعتِبارِ بأحوالِ الحَياةِ العاجلةِ إلى التَّذكيرِ بأحوالِ الآخِرةِ والجزاءِ فيها؛ انتُقِلَ إليه بمُناسَبةِ اشتِمالِ ما سبَقَ مِن دَلائلِ سَعةِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، على تَعريضٍ بأنَّ فاعلَ ذلك أهلٌ للتَّوحيدِ بالإلهيَّةِ، ومُستحِقٌّ الإفرادَ بالعِبادةِ، وإذ قد كان المُخاطَبون بذلك مُشرِكين مع اللهِ في العِبادةِ، انتُقِلَ إلى تَهديدِهم بأنَّهم وأولياءَهم مِن الجِنِّ المُسوِّلينَ لهم عِبادةَ الأصنامِ، سيُعرَضون على حُكمِ اللهِ فيهم[2].

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٦).

- وحرْفُ التَّنفيسِ (السِّين) مُستعمَلٌ في مُطلَقِ التَّقريبِ المُكنَّى به عن التَّحقيقِ[١].

- قولُه: ﴿سَنَفۡرُغُ﴾ قُرِئَ بالياءِ المفتوحةِ ﴿سَيَفْرُغُ﴾[٢]، على أنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى اللهِ تعالى على طَريقةِ الالتِفاتِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ هما الثَّقَلانِ، خُوطِبا باسمِ جِنسِهما؛ لزيادةِ التَّقريرِ، ولأنَّ الجِنَّ مَشهورونَ بالقُدرةِ على الأفاعيلِ الشَّاقَّةِ، فخُوطِبوا بما يُنبِئُ عن ذلكَ؛ لبَيانِ أنَّ قُدرتَهُم لا تَفِي بما كُلِّفُوه[٤].

- وقيل: قولُه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه سِياقُ الكلامِ السَّابقِ واللَّاحقِ، وليس خِطابًا للإنسِ والجنِّ في الحياةِ الدُّنيا -على قولٍ-، والتَّقديرُ: فنقولُ لكم: يا مَعشَرَ الجنِّ... فقولُه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ المقصودُ به أهلُ الجِنايةِ منهم؛ فهو عامٌّ مُرادٌ به الخصوصُ، بقَرينةِ قولِه بعْدَه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ﴾ [الرحمن: ٣٥] إلخ[٥]. وذلك على قولٍ.

- فإنْ قِيل: ما الحِكمةُ في تَقديمِ الجِنِّ على الإنسِ هاهنا، وتقديمِ الإنسِ على الجِنِّ في قولِه تَعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٧).

(٢) قرأها بالياءِ حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وقرَأها الباقونَ بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨).

الجوابُ: النُّفوذُ مِن أقطارِ السَّمواتِ والأرضِ بالجنِّ أليَقُ -إنْ أمكَنَ-، والإتيانُ بمِثلِ القُرآنِ بالإنسِ أليَقُ -إنْ أمكَنَ-؛ فقُدِّمَ في كلِّ مَوضعٍ مَن يُظَنُّ به القُدرةُ على ذلك[1].

- قال تعالَى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ولم يقُلْ: (إنِ استطعتُما)؛ لإرادة الجَماعةِ كما في آيةٍ أخرَى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالَى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ [الرحمن: ٣٥]، ولم يقُلْ: (يُرسَل عليكم)؛ لإرادةِ الصِّنفَينِ، أي: لا يختصُّ به صِنفٌ عن صِنفٍ، بلْ يُرسَلُ ذلك على الصِّنفينِ معًا. وهذا وإنْ كان مرادًا بقولِه تعالَى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ فخِطابُ الجَماعةِ في ذلك بلفظ الجمْعِ أحسَنُ، أي: مَنِ استطاعَ منكم. وحسَّنَ الخِطابَ بالتَّثنيةِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡكُمَا﴾ [الرحمن: ٣٥] أمرٌ آخَرُ، وهو موافقةُ رُؤوسِ الآيِ؛ فاتَّصلَتِ التَّثنيةُ بالتَّثنيةِ. وفيه التَّسويةُ بيْن الصِّنفينِ في العذابِ بالتَّنصيصِ عليهما، فلا يَحتمِلُ اللَّفظُ إرادةَ أحدِهما[2]. فقولُه: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ هو لبيانِ عَجزِهم وعَظَمةِ ملْكِ الله تعالى؛ فقال: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ﴾ باجتِماعِكم وقوَّتِكم ﴿فَٱنفُذُواْ﴾، ولا تَستطيعون؛ لِعَجزِكم؛ فقد بان عندَ اجتِماعِكم واعتِضادِكم بعضِكم ببعضٍ؛ فهو عندَ افتِراقِكم أظهَرُ، فهو خِطابٌ عامٌّ مع كلِّ أحدٍ عندَ الانضِمام إلى جميعِ مَن عَداهُ مِن الأعوانِ والإخوانِ. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ فهو لِبَيانِ الإرسالِ على النَّوعَينِ، لا على كلِّ واحدٍ منهما؛ لأنَّ جميعَ الإنسِ والجِنِّ لا يُرسَلُ عليهم العذابُ والنَّارُ، فهو يُرسَلُ على النَّوعَينِ، ويَتخلَّصُ منه بعضٌ منهما -بفضلِ الله-، ولا يَخرُجُ أحدٌ مِن الأقطارِ أصلًا.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

ويُجابُ أيضًا بأنَّ الخِطابَ مع المَعْشَرِ؛ فقولُه: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أيُّها المَعشَرُ، وقولُه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ ليس خِطابًا مع النِّداءِ، بل هو خِطابٌ مع الحاضِرينَ -وهما نَوعانِ-، وليس الكلامُ مذكورًا بحرفِ واوِ العطفِ حتَّى يكونَ النَّوعانِ مُنادَيَينِ في الأوَّلِ! وعندَ عدَمِ التَّصريحِ بالنِّداءِ فالتَّثنيةُ أَوْلى، كقولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، وهذا يتأيَّدُ بقولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وحيثُ صرَّح بالنِّداءِ جمَع الضَّميرَ، وقال بعدَ ذلك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ حيث لم يُصرِّحْ بالنِّداءِ(١).

- والشَّرطُ ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ، وكذلك الأمرُ الَّذي هو جوابُ هذا الشَّرطِ مِن قولِه: ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾، أي: وأنتم لا تَستَطيعون الهُروبَ، والمعْنى: إنْ قدَرْتُم على الانفلاتِ مِن هذا الموقفِ فأفْلِتُوا، وهذا مُؤْذِنٌ بالتَّعريضِ بالتَّخويفِ ممَّا سيَظهَرُ في ذلك الموقفِ مِن العقابِ لأهلِ التَّضليلِ(٢).

- وذِكرُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لتَحقيقِ إحاطةِ الجِهاتِ كلِّها تَحقيقًا للتَّعجيزِ، أي: فهذه السَّمواتُ والأرضُ أمامَكم، فإنِ استَطَعْتُم فاخْرُجوا مِن جهةٍ منها فِرارًا مِن مَوقِفِكم هذا؛ وذلك أنَّ تَعدُّدَ الأمكنةِ يُسهِّلُ الهروبَ مِن إحدى جِهاتِها(٣).

- والأرضُ المذكورةُ هنا إمَّا أنْ تكونَ الأرضَ الَّتي في الدُّنيا، وذلك حينَ البعثِ، وإمَّا أنْ تكونَ أرضَ الحشْرِ، وهي الَّتي سمَّاها القرآنُ ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ في سُورةِ (النازعاتِ) [١٤]، وإمَّا أنْ يكونَ ذلك جاريًا مَجرى المثَلِ المُستعمَلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٢، ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨، ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٩).

للمُبالَغةِ في إحاطةِ الجهاتِ، وهذه المعاني لا تَتنافى، وهي مِن حدِّ إعجازِ القرآنِ[١].

- وجُملةُ ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ بيانٌ للتَّعجيزِ الَّذي في الجُملةِ قبْلَه[٢]!

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا ...﴾ [الرحمن: ٣٣] إلخ؛ لأنَّ ذلك الإشعارَ بالتَّهديدِ يُثيرُ في نُفوسِهم تَساؤلًا عمَّا وراءَه[٣].

- وضَميرُ ﴿عَلَيْكُمَا﴾ راجعٌ إلى الجنِّ والإنسِ؛ فهو عامٌّ مُرادٌ به الخُصوصُ بالقرينةِ، وهي قولُه بعْدَه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] الآياتِ، وهذا تَصريحٌ بأنَّهم مُعاقَبون بعْدَ أنْ عرَّضَ لهم بذلك تَعريضًا بقولِه: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]، والمُضارعُ ﴿يُرْسَلُ﴾ للحالِ، أي: ويُرسَلُ عليكما الآنَ شُواظٌ[٤]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿شُوَاظٌ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُرْسَلُ﴾، أو بمُضمرٍ هو صِفةٌ للشُّواظِ، أي: كائنٌ مِن نارٍ، والتَّنوينُ للتَّفخيمِ[٥].

- وذيل بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾؛ فإنَّ التَّهديدَ لُطْفٌ، والتَّمييزَ بيْنَ المطيعِ والعاصي بالجزاءِ والانتقامِ مِن الكفَّارِ في عِدادِ الآلاءِ؛ إذ به يَنزَجِرُ الشَّخصُ عن المعاصي، فيَفوزُ بالنَّعيمِ المُقيمِ، فبهذا الاعتِبارِ كان مِن الآلاءِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٣٥).

الآيات (٣٧-٤٥)

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾: ﴿وَرۡدَةٗ﴾: أي: حَمراءَ كالوردةِ المعروفةِ، وقيل: المرادُ: كالفَرَسِ الوَرْدِ، يُقالُ له ذلك إذا كان يَتلَوَّنُ بألوانٍ مُختَلِفةٍ، والدِّهانُ: جمعُ دُهْنٍ، قيل: هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ، وذلك أنَّ السَّماءَ يَعترِيها يومَ القيامة ذَوبٌ وتَمَيُّعٌ؛ من شِدَّةِ الهَولِ. وقيل: تحمَرُّ احمرارَ الوَردِ، ثُمَّ تذوبُ ذَوَبانَ الدُّهنِ. وقيل: تَمورُ كالدُّهنِ صافِيَةً. وقيل: الدِّهانُ اسمٌ لِما يُدهَنُ به، وقيل: الدِّهانُ: الأديمُ الأحمرُ، وأصلُ (ورد) هنا: لَوْنٌ من الألوانِ، وأصلُ (دهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[١].

﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾: أي: بعَلاماتِهم وآثارِهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[٢].

﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾: أي: تُضَمُّ ناصيةُ كُلٍّ منهم (أي: مُقَدَّمُ رأسِه) إلى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩، ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨) و(٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٣١). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

قَدَمَيه مِن خَلفٍ أو قُدَّامٍ، ويُلقَى في النَّارِ[١].

﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾: أي: ماءٍ مُغْلًى بَلَغ الغايةَ في شِدَّةِ حَرِّه، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ، وأصلُ (أنى) هنا: يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، والعذابِ الَّذي ينزِلُ بالمجرِمينَ: فإذا انشَقَّت السَّماءُ يومَ القيامةِ، فصارت مِثلَ الوَردةِ حمراءَ، كالدُّهنِ؛ فما أعظَمَ الهَولَ يومَئِذٍ! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟! ففي ذلك اليَومِ لا يُسأَلُ إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ عمَّا اقتَرَف مِن ذنْبٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثُمَّ يُبينُ الله سُبحانَه ما يحلُّ بالمجرِمينَ في هذا اليَومِ مِن عذابٍ، فيقولُ: ويُعرَفُ المُجرِمونَ يومَ القيامةِ بعَلاماتٍ تُمَيِّزُهم عن غَيرِهم، فيُؤخَذُ بمُقَدَّمِ رُؤوسِهم وبأقدامِهم، فيُدْفَعون إلى جَهنَّمَ! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

يُقالُ لهم: هذه جَهنَّمُ الَّتي يُكذِّبُ بها المُجرِمونَ في الدُّنيا، يَطوفونَ بَيْنَها وبيْنَ حَميمٍ قد بَلَغ النِّهايةَ في حَرِّه! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) و(٢/ ٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها إشارةٌ إلى ما هو أعظَمُ مِن إرسالِ الشُّوَاظِ على الإنسِ والجِنِّ، فكأنَّه تعالى ذَكَر أوَّلًا ما يَخافُ منه الإنسانُ، ثمَّ ذَكَر ما يَخافُ منه كُلُّ واحِدٍ مِمَّن له إدراكٌ؛ مِن الجِنِّ والإنسِ والمَلَكِ، حيثُ تخلو أماكِنُ الملائِكةِ بالشَّقِّ، ومَساكِنُ الجِنِّ والإنسِ بالخَرابِ[(١)]!

وأيضًا لَمَّا عَدَّد -عَزَّت قُدرتُه- نَعماءَه على عِبادِه، وما يجِبُ مِن شُكرِهم عليها، ثمَّ أرشَدَهم إلى أنَّ هذه النِّعَمَ لا بقاءَ لها ولا ثباتَ، ثمَّ ذَكَر أنَّ النَّاسَ مُحاسَبونَ على الصَّغيرِ والكَبيرِ مِن أعمالِهم، وسيَلقَونَ الجَزاءَ عليها، ولا مَهرَبَ حينَئذٍ مِنها، ولا نَصيرَ لهم يُنقِذُهم مِمَّا سيَحُلُّ بهم مِنَ العذابِ- ذكَرَ هنا أنَّه إذا جاء ذلك اليَومُ اختَلَّ نِظامُ العالَمِ[(٢)].

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾.

أي: فإذا انشَقَّت السَّماءُ يومَ القيامةِ، فصارت مِثلَ الوَردةِ حَمراءَ، كالدُّهْنِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١، ٥٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ قُتَيْبَةَ: فكانت حَمْراءَ في لَونِ الفَرَسِ الوَرْدِ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والرَّبيعِ، وجمهورِ المفسِّرينَ. وقيل: هي وردةُ النَّباتِ، وقد تختلِفُ ألوانُها، إلَّا أنَّ الأغلَبَ عليها الحُمْرةُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ ونسَبَه للأكثَرِ، والبَغَويُّ، والخازنُ. ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٩). =

= وممَّن اختار القولَ الثَّاني -أي: تكونُ مِثلَ الوردةِ في الحُمرةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشربيني، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (والوَردةُ: واحِدةُ الوَرْدِ، وهو زَهرٌ أحمَرُ من شَجَرةٍ دَقيقةٍ ذاتِ أغصانٍ شائِكةٍ تَظهَرُ في فَصلِ الرَّبيعِ، وهو مَشهورٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

وقال الشنقيطي: (والقولُ بأنَّ الوردةَ تشبيهٌ بالفَرَسِ الكُمَيْتِ وهو الأحمرُ؛ لأنَّ حُمْرَتَه تَتَلَوَّنُ باختلافِ الفصولِ، فتَشْتَدُّ حُمْرَتُها في فَصْلٍ، وتميلُ إلى الصُّفْرةِ في فصلٍ، وإلى الغَبْرةِ في فصلٍ، وأنَّ المرادَ بالتَّشْبيهِ كَونُ السَّماءِ عندَ انْشِقاقِها تَتَلَوَّنُ بألوانٍ مُختلفةٍ: واضِحُ البُعدِ عن ظاهِرِ الآيةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠٢).

وقال الشنقيطي أيضًا: (وقولُه: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ فيه قَولانِ معروفانِ للعلماءِ:

الأوَّلُ منهما: أنَّ الدِّهانَ هو الجلدُ الأحمَرُ، وعليه فالمعنَى أنَّها تَصيرُ وَرْدةً مُتَّصِفَةً بلَونِ الوَرْدِ مُشابِهةً للجِلْدِ الأحمرِ في لونِه.

والثَّاني: أنَّ الدِّهانَ هو ما يُدهنُ به، وعليه، فالدِّهانُ، قيل: هو جمعُ دُهْنٍ، وقيلَ: هو مُفْرَدٌ، لأنَّ العربَ تُسَمِّي ما يُدْهَنُ به دِهانًا، وهو مُفْرَدٌ، ...

وحَقيقةُ الفرْقِ بيْنَ القولينِ أنَّه على القولِ بأنَّ الدِّهانَ هو الجلدُ الأحمَرُ يَكونُ اللهُ وصَفَ السَّماءَ عندَ انْشِقاقِها يومَ القيامةِ بوصْفٍ واحِدٍ، وهو الحُمْرةُ، فشَبَّهَها بحُمْرةِ الورْدِ، وحُمرةِ الأديمِ الأحْمَرِ.

قال بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّها يَصِلُ إليها حرُّ النَّارِ فتَحْمَرُّ مِنْ شِدَّةِ الحرارةِ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: أصلُ السَّماءِ حمراءُ، إلَّا أنَّها لشِدَّةِ بُعْدِها وما دُونَها مِنَ الحَواجِزِ لم تَصِلِ العيونُ إلى إدراكِ لَوْنِها الأحمرِ على حقيقتِه، وأنَّها يومَ القيامةِ تُرَى على حقيقةِ لَوْنِها.

وأمَّا على القولِ بأنَّ الدِّهانَ هو ما يُدهنُ به، فإنَّ اللهَ قد وصَفَ السَّماءَ عندَ انْشِقاقِها بوصفَينِ؛ أحدُهما: حُمْرةُ لَونِها، والثَّاني: أنَّها تَذوبُ وتَصيرُ مائعةً كالدُّهْنِ.

أمَّا على القولِ الأوَّلِ، فلم نَعلَمْ آيةً مِن كتابِ اللهِ تُبَيِّنُ هذه الآيَةَ، بأنَّ السَّماءَ ستَحْمَرُّ يومَ القيامةِ =

= حتَّى تكونَ كلَونِ الجلدِ الأحمرِ.
وأمَّا على القولِ الثَّاني الَّذي هو أنَّها تَذُوبُ وتَصيرُ مائعةً، فقد أوضَحه اللهُ في غيرِ هذا الموضعِ، وذلك في قولِه تعالَى في «المعارجِ»: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٦ – ٨]، والمُهْلُ شَيءٌ ذائِبٌ على كِلا القولَينِ، سواءٌ قُلْنا: إنَّه دُرْدِيُّ الزَّيْتِ وهو عَكَرُه، أو قُلْنا: إنَّه الذَّائِبُ مِن حَديدٍ أو نُحاسٍ أو نحوِهما). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠١).
ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ أنَّها تُذابُ وتكونُ كالزَّيتِ أو المُهلِ والرَّصاصِ المُذابِ ونحوِ ذلك: النسفيُّ، وابنُ جُزَي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ أنَّها تكونُ كالجِلدِ الأحمرِ: أبو حيَّان، وجلالُ الدِّينِ المحليُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ٣١٧).
قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: تَذوبُ كما يَذوبُ الدُّرديُّ والفِضَّةُ في السَّبْكِ، وتتلَوَّنُ كما تتلَوَّنُ الأصباغُ الَّتي يُدَّهَنُ بها؛ فتارةً حمراءُ، وصفراءُ، وزرقاءُ، وخَضراءُ؛ وذلك مِن شِدَّةِ الأمرِ، وهَولِ يومِ القيامةِ العَظيمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٨).
وقيل: إنَّه عُنيَ به الدُّهنُ في إشراقِ لَونِه وصفائِه. وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ جرير، وأبو القاسمِ النَّيسابوريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٩)، ((إيجاز البيان عن معاني القرآن)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٠).
وممَّن قال بنحوِ ذلك مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).
وقال البِقاعي: (﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: ذائبةً صافيةً كالشَّيءِ الَّذي يُدهنُ به، أو كالأديمِ الأحمَرِ، والمكانِ الزَّلِقِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٤).
وقال القرطبي: (وقيل: المعنى أنَّها تمرُّ وتَجيءُ. قال الزَّجَّاجُ: أصلُ الواوِ والرَّاءِ والدَّالِ للمَجيءِ والإتيانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣).
قال الشنقيطي: (وقولُ مَن قال: إنَّها تَذْهَبُ وتَجيءُ – مَعْناه له شاهدٌ في كتابِ اللهِ، وذلك في قولِه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ الآيَةَ [الطور: ٩]، ولكِنَّه لا يَخْلو عِندي مِنْ بُعْدٍ). ((أضواء =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان حِفظُ السَّماءِ عن مِثلِ ذلك -بتأخيرِ إرسالِ هذا وغيرِه مِنَ الأسبابِ- وجَعلُها محَلَّ الرُّوحِ والحياةِ والرِّزقِ- مِن أعظَمِ الفواضِلِ؛ قال مُسَبِّبًا عنه[١]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ العذابَ في الدُّنيا مُؤَخَّرٌ -بقَولِه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [الرحمن: ٣١]- بَيَّن أنَّه في الآخِرةِ لا يُؤخَّرُ بقَدْرِ ما يُسْأَلُ[٣]!

وأيضًا لَمَّا كان يومُ القيامةِ ذا ألوانٍ كثيرةٍ، ومواقِفَ مَهُولةٍ طَويلةٍ شَهيرةٍ، تكونُ في كُلٍّ مِنها شُؤونٌ عَظيمةٌ وأمورٌ كَبيرةٌ؛ ذكَرَ بَعضَ ما سَبَّبَه هذا الوَقتُ مِن التَّعريفِ بالعاصي والطَّائعِ، بآياتٍ جَعَلها اللهُ سَبَبًا في عِلْمِها؛ فقال[٤]:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٩﴾.

= البيان)) (٧/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (جوابُ «إذا» -في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾- محذوفٌ، مقصودٌ به الإبهامُ، كأنَّه يقولُ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فما أعظَمَ الهَولَ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٥).

أي: ففي ذلك اليَومِ لا يُسْألُ إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ عمَّا اقتَرَف مِن ذنْبٍ[١]!

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾.

أي: يُعرَفُ المُجرِمونَ يومَ القيامةِ بعَلاماتٍ تُمَيِّزُهم عن غيرِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٣، ٥٠٤).

قال السعدي: (﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ أي: سُؤالَ استِعلامٍ بما وقع؛ لأنَّه تعالى عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، والماضي والمستقبَلِ، ويُريدُ أن يُجازيَ العِبادَ بما عَلِمَه مِن أحوالِهم، وقد جَعَل لأهلِ الخَيرِ والشَّرِّ يومَ القيامةِ علاماتٍ يُعرَفونَ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ جزي: (والمجرِمونَ هنا الكفَّارُ بدليلِ قولِه: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرحمن: ٤٣]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠).

وقال ابنُ عاشور: (أي: يُستغنَى عن سُؤالِهم بظُهورِ عَلاماتِهم للملائكةِ، ويَعرفونَهم بسِيماهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

وقال البقاعي: (﴿ يُعْرَفُ ﴾ أي: لكلِّ أحدٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٦).

وقال الواحدي: (قال جماعةُ المفَسِّرينَ: يُعرَفُ بسَوادِ الوُجوهِ، وزُرقةِ الأعيُنِ، ودليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقولُه تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢]). ((البسيط)) (٢١/ ١٧٩). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (وهذا كما يُعرَفُ المؤمِنونَ بالغُرَّةِ والتَّحْجيلِ مِن آثارِ الوضوءِ). ((تفسير ابن =

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾.

أي: فيُؤخَذ بمُقَدَّمِ رُؤوسِ المُجرمينَ وبأقدامِهم، ويُلقَوْن في جَهنَّمَ[١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أخْذُهم على هذا الوَجهِ مُؤذِنًا بأنَّه يَصيرُ إلى خِزيٍ عَظيمٍ؛ صَرَّح به، فقال تعالى[٣]:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: يُقالُ لهم: هذه هي جَهنَّمُ الَّتي يُكذِّبُ بوُجودِها المُجرِمونَ في الدُّنيا، هاهي حاضِرةٌ يُشاهِدونَها في الآخِرةِ عِيانًا[٤]!

= كثير)) (٧/ ٤٩٩).

وقيل: سِيماهم ما يَعْلوهم مِن الحزنِ والكآبةِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

قال ابنُ جُزَي: (﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ قيل: معناه: يُؤخَذُ بعضُ الكفَّارِ بناصيتِه، وبعضُهم بقدميه. وقيل: بل يُؤخَذُ كلُّ واحدٍ بناصيتِه وقدميه فيُطوى ويُطرحُ في النَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠). =

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ * ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [يس: ٦٣، ٦٤].

﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ (٤٤)﴾.

أي: يَطوفُ المُجرِمونَ بيْنَ مَوضِعِ جَهنَّم وبيْنَ مَوضِعِ الحَميمِ الَّذي قد بَلَغ ماؤُه الغايةَ في حَرِّه، ويتردَّدونَ بَيْنَهما[1]!

قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مُعاقَبةُ العُصاةِ المُجرِمينَ وتنعيمُ المتَّقينَ: مِن فَضْلِه ورَحمتِه، وعَدْلِه

= قال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكْرُه: يُقالُ لهؤلاءِ المجرِمينَ الَّذينَ أخبَر جلَّ ثناؤُه أنَّهم يُعرَفونَ يومَ القيامةِ بسِيماهم حينَ يُؤخَذُ بالنَّواصي منهم والأقدام: هذه جهنَّمُ الَّتي يُكَذِّبُ بها المجرمونَ، فترَكَ ذِكْرَ «يُقالُ»؛ اكتفاءً بدَلالةِ الكلام عليه منه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢).

وقال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ هو على إضمارِ القولِ، تقديرُه: يُقال لهم إذا سُحبوا إليها تحقيرًا وتعنيفًا وانتقامًا منهم: هذه جهنَّمُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣، ٢٦٤).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: يَمشُونَ بيْنَ مكانِ النَّارِ وبيْنَ الحَميم، فإذا أصابَهم حَرُّ النَّارِ طَلَبوا التَّبَرُّدَ، فَلاحَ لهم الماءُ، فذَهَبوا إليه، فأصابهم حَرُّه، فانصَرَفوا إلى النَّارِ دَوالَيك!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤).

وقال ابن عثيمين: (أمَّا كيفَ يكون ذلك؟ فاللهُ أعلَمُ، لكِنَّنا نُؤمِنُ بأنَّهم يَطوفونَ بيْنَها وبيْنَ الحَميم الحارِّ الشَّديدِ الحَرارةِ. واللهُ أعلَمُ بذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

ولُطفِه بخَلْقِه، وكان إنذارُه لهم عَذابَه وبأسَه مِمَّا يَزجُرُهم عمَّا هم فيه مِنَ الشِّركِ والمعاصي وغيرِ ذلك- قال مُمتَنًّا بذلك على بَرِيَّتِه[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ وكذلك قَولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] سُؤالٌ: كيفَ الجَمعُ بيْنَ هذا وبيْنَ الآياتِ الَّتي تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقَولِه تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٦]؛ مِمَّا يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى يسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ؟

والجوابُ عن ذلك مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ للآخِرةِ مَواطِنَ؛ فلا يُسألُ في مَوطِنٍ، ويُسأَلُ في مَوطِنٍ.

الثَّاني: أنَّه لا يُسألُ سُؤالَ استِعلامٍ واستِرشادٍ، بل يُسأَلُ سُؤالَ تَوبيخٍ وتَبكيتٍ؛ فإنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استِخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستِخبارِ والاستِعلامِ. وَجْهُ دَلالةِ القُرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه توبيخٌ وتقريعٌ؛ كقَولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠).

٢٤، ٢٥]، وقَولِه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، وكقَولِه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ [الملك: ٨]، وقَولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثَّالثُ: أنَّ السُّؤالَ المنفيَّ في قَولِه هنا أخَصُّ مِن السُّؤالِ المثبَتِ في قَولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ لأنَّ هذه فيها تعميمُ السُّؤالِ في كُلِّ عَملٍ، وتلك ليس فيها نَفيُ السُّؤالِ إلَّا عن الذُّنوبِ خاصَّةً.

الرَّابعُ: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ وتَصديقِ الرُّسُلِ، وعَدَمَ السُّؤالِ محمولٌ على ما يَستَلزِمُه الإقرارُ بالنُّبُوَّاتِ مِن شرائعِ الدِّينِ وفُروعِه، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

الخامسُ: أنَّهم يُسأَلونَ قبْلَ الخَتمِ على أفواهِهم، ثمَّ يُختَمُ على أفواهِهم، وتتكَلَّمُ جوارِحُهم شاهِدةً عليهم.

السَّادسُ: أنَّهم لا يُسأَلونَ إذا استقَرُّوا في النَّارِ. وقيل غيرُ ذلك[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ أضاف سُبحانَه الذُّنوبَ إلى الثَّقَلَينِ، وهذا دَليلٌ على أنَّهما مُستَوِيانِ في التَّكليفِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ أنَّ لصاحِبِ كلِّ ذنْبٍ من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠، ٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٣)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

الذُّنوبِ الَّتي يُريد اللهُ إظهارَها علامةً يُعرَفُ بها صاحِبُها(١).

٤- كلُّ ما ذَكَر اللهُ تعالى مِن قَولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ [الرحمن: ٢٦] إلى هاهنا مَواعِظُ ومَزاجِرُ، وتهديدٌ وتخويفٌ، وهي كُلُّها نِعمةٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ لِلانزِجارِ عن المعاصي؛ ولذلك خَتَم كُلَّ آيةٍ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٢).

٥- كُرِّرَت هذه الآيةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عَقِبَ ذِكرِ النَّارِ وأهوالِها سَبْعَ مرَّاتٍ؛ تنبيهًا على استِدفاعِ أبوابِها السَّبعةِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ تَفريعُ إخبارٍ على إخبارٍ؛ فُرِّعَ على بعضِ الخبَرِ المُجمَلِ في قولِه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[الرحمن: ٣١] إلى آخرِه، تَفصيلٌ لذلك الإجمالِ؛ بتَعيينِ وَقتِه، وشَيءٍ مِن أهوالِ ما يَقَعُ فيه للمُجرِمين، وبَشائرِ ما يُعطاهُ المتَّقونَ مِن النَّعيمِ والحُبورِ(٤).

- قولُه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: كانتِ السَّماءُ كوَرْدةٍ (أي: زهرةٍ حمراءَ، وذلك على قولٍ). ووَجْهُ الشَّبهِ قيل: هو شِدَّةُ الحُمرةِ، أي: يَتغيَّرُ لونُ السَّماءِ المعروفُ أنَّه أزرَقُ إلى البياضِ، فيَصيرُ لَونُها أحمَرَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ وَجْهُ الشَّبَهِ كَثرةَ الشُّقوقِ كأوراقِ الوردةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((حاشية =

وقيل: أراد لَونَ الفَرَسِ الوَرْدِ، يكونُ في الرَّبيعِ إلى الصُّفرةِ، وفي الشِّتاءِ إلى الحُمرةِ، وفي اشتِدادِ البَردِ إلى الغُبْرةِ، فشُبِّهَ تلَوُّنُ السَّماءِ بتَلَوُّنِ الوردةِ مِن الخَيلِ[١].

- قولُه: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ جمْعُ دُهنٍ، شبَّه السَّماءَ يومَ القيامةِ به؛ لأنَّها تَذوبُ مِن شِدَّةِ الهَولِ. وقيل: شبَّه لَمَعانَها بلَمَعانِ الدُّهنِ[٢]. وقيل: للدُّهنِ ألوانٌ، شبَّه السَّماءَ بألوانِه[٣]. وقيل: الدِّهانُ: الجِلدُ الأحمرُ، وبه شبَّهها[٤].

- وجَوابُ (إذَا) مَحذوفٌ، أي: يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يُحيطُ به دائرةُ المَقالِ، أي: فما أعظَمَ الهولَ[٥]!

- قولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ الشَّرطِ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ وجُملةِ الجوابِ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾، وهي تَكريرٌ؛ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- التَّنوينُ في ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ للعِوَضِ مِن الجُملةِ المحذوفةِ، والتَّقديرُ: فيومَ إذِ

= الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١، ٢٦٢).

انشقَّتِ السَّماءُ...[(١)].

- ومعْنى قولِه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ نفْيُ السُّؤالِ الَّذي يُريدُ به السَّائلُ مَعرفةَ حُصولِ الأمرِ المُتردِّدِ فيه، وهذا مِثلُ قولِه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[(٢)] [القصص: ٧٨].

- والضَّميرُ في ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾ للإنسِ؛ لتَقدُّمِه رُتْبةً، وإفرادُه لِما أنَّ المُرادَ فرْدٌ مِن الإنسِ، كأنَّه قيلَ: لا يُسأَلُ ذنْبَه إنْسيٌّ ولا جِنيٌّ[(٣)].

- وتَكريرُ جُملةِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، يَجْري مَجْرى التَّعليلِ لعدَمِ السُّؤالِ[(٥)].

- و(أل) في ﴿بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: بنَواصِيهم وأقدامِهم، أو الضَّميرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: بالنَّواصي والأقدامِ منْهم[(٦)].

- وأُسنِدَ الأخذُ إلى النَّواصي دونَ ضَميرِ المُجرِمينَ؛ إشارةً إلى استيلاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

الآخِذينَ على المأخوذينَ، وكَثرتِهم، وكيفيَّةِ الأخذِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ على إرادةِ القَولِ، أي: يُقالُ لهم ذلكَ يومَ القِيامةِ على رُؤوسِ الملأِ بطَريقِ التَّوبيخِ، على أنَّ الجُملةَ إمَّا استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ ناشئٍ مِن حِكايةِ الأخْذِ بالنَّواصِي والأقدامِ، كأنَّه قِيلَ: فماذا يُفعَلُ بهِم عندَ ذلكَ؟ فقيلَ: يُقالُ... إلخ. أو حالٌ مِن أصحابِ النَّواصِي والأقدامِ؛ لأنَّ الألِفَ واللَّامَ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، وما بيْنَهما اعتِراضٌ[٢].

- وخُصَّ هذا الاسمُ ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّها تَلْقاهم بالتَّجَهُّم والعُبوسةِ والكَلاحةِ والفَظاعةِ، كما كانوا يَفعَلونَ مع الصَّالحينَ عندَ الإجرامِ المذكورِ[٣]!

- ووَصْفُ جَهنَّمَ بقولِه: ﴿ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تَسفيهٌ للمجرمينَ، وفضْحٌ لهم[٤].

- وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: «تكذِّبون بها»! إشارةً إلى أنَّهم مُجرِمون، وما أعظَمَ جُرْمَ الكفَّارِ الَّذين كفروا باللهِ ورسولِه، واستهزَؤوا بآياتِ اللهِ، واتَّخَذوها هُزُوًا ولَعِبًا[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

الآيات (٤٦-٦١)

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ
فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى
ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ
قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: أي: أغْصانٍ، واحِدُها فَنَنٌ، وهو الغُصنُ المُستَقيمُ طُولًا. وقيل: الأفنانُ: الألوانُ المُختَلِفةُ[1].

﴿بَطَآئِنُهَا﴾: جمعُ بِطانةٍ، وهي الَّتي تحتَ الظِّهارةِ مِمَّا يلي الأرضَ[2].

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾: أي: ما غَلُظَ مِنَ الحَريرِ، وهو فارسيٌّ مُعَرَّبٌ[3].

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: أي: ثَمَرُهما قَريبٌ يَنالُه القائِمُ والقاعِدُ والنَّائِمُ، والجَنَى: ما يُجتَنَى مِنَ الثِّمارِ، وأصلُ (جني): أخْذُ الثَّمرةِ مِن شجرِها، وأصلُ (دنو):

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

المُقارَبةُ[١].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[٢].

﴿يَطۡمِثۡهُنَّ﴾: أي: يَمْسَسْهنَّ ويَفتَضَّهنَّ ويَدْنُ منهنَّ، والطَّمْثُ: النِّكاحُ بالتَّدميَةِ، وأصلُه مِنَ الطَّمْثِ، وهو الدَّمُ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ أخبَرَ اللهُ تعالى عمَّا أعدَّه للمجرِمينَ مِن عِقابٍ يخبِرُ عمَّا أعدَّه للمُتَّقينَ مِن جزيلِ الثَّوابِ، فيقولُ: ولِمَنْ خاف مَقامَه بيْنَ يَدَيِ اللهِ للحِسابِ يومَ القيامةِ: جَنَّتانِ في الآخِرةِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وهاتانِ الجَنَّتانِ ذَواتا أغصانٍ كَثيرةٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفي هاتَينِ الجنَّتينِ عَينانِ تَجريانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما مِن كُلِّ أنواعِ الفاكِهةِ صِنفانِ مُختَلِفانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٢) و(٢/ ٣٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤).

مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

يَتنَعَّمُ أهلُها مُتَّكِئينَ على فُرُشٍ بطائنُها مِنَ الحَريرِ الغَليظِ اللَّامِعِ، فكيف بظَواهِرِها الَّتي تَلِي بَشَرَتَهم؟!

وثَمَرُ هاتَينِ الجنَّتينِ قَريبٌ مِن أهلِهما، فيَتناوَلونَه بيُسرٍ وسُهولةٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهنَّ نِساءٌ قد قَصَرْنَ نَظَرَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَرغَبْنَ في غَيرِهم، ولم يُجامِعْهنَّ ويَفتَضَّ بَكارتَهنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

أولئك الحُورُ العِينُ كأنَّهنَّ الياقوتُ والمَرْجانُ في الصَّفاءِ واللَّونِ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: هل جَزاءُ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا إلَّا أن يُحسَنَ إليه بالنَّعيمِ في الآخِرةِ؟! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما يُفعَلُ بالمُجرِمينَ؛ ذَكَر جَزاءَ المُتَّقينَ الخائِفينَ[١].

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ولكلِّ مَن خاف -مِنَ الإنسِ والجِنِّ- مَقامَه بيْنَ يَدَيِ اللهِ للحِسابِ يومَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

القيامةِ، فاتَّقاه في الدُّنيا بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهِيه: جَنَّتانِ في الآخِرةِ[1].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وجوَّز الزَّمخشري أنَّ المرادَ: خاف قيامَ اللهِ عليه في الدُّنيا، ومُراقبتَه لأعمالِه، وإحصاءَها عليه، وهو ظاهِرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٦).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف هل الجنَّتانِ لكُلِّ خائفٍ على انفِرادِه؟ أو للصِّنفِ الخائِفِ، وذلك مبنيٌّ على قَولِه: «لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» هل يُرادُ به واحِدٌ أو جماعةٌ؟ وقال الزمخشريُّ: إنَّما قال: جنَّتانِ؛ لأنَّه خاطَبَ الثَّقَلينِ، فكأنَّه قال: جَنَّةٌ للإنسِ، وجنَّةٌ للجِنِّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ كلامُ بَعضِ المفَسِّرينَ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن تَرَك المعصيةَ خَوفًا مِنَ اللهِ، فله جنَّتانِ على حِدَتِه، لا يشارِكُه فيهما غيرُه، وكلامُ بَعضِهم يدُلُّ على أنَّهما جَنَّتانِ لكُلِّ مَن خاف اللهَ تبارك وتعالى بتَركِ المعصيةِ، على المشارَكةِ فيهما، وهذا معنى قَولِ مُقاتِلٍ، يعني: جَنَّةَ عَدْنٍ، وجنَّةَ النَّعيمِ). ((البسيط)) (٢١/ ١٨١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٢).

وقال السعدي: (له جَنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وحِلْيتُهما وبُنيانُهما وما فيهما؛ إحدى الجنَّتينِ جزاءٌ على تَركِ المَنهيَّاتِ، والأُخرى على فِعلِ الطَّاعاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١١٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت هذه نِعمةً جامِعةً؛ سَبَّبَ عنها قَولَه تعالى[١]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت البَساتينُ لا يَكمُلُ مَدحُها إلَّا بكَثرةِ الأنواعِ والألوانِ، والفُروعِ المُشتَبِكةِ والأغصانِ؛ قال واصِفًا لهما[٣]:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾.

أي: وهاتانِ الجَنَّتانِ صاحِبَتا أغصانٍ كَثيرةٍ[٤].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٥]؟!

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الجِنانُ لا تقومُ إلَّا بالأنهارِ؛ قال[(١)]:

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)﴾.

أي: في هاتَينِ الجنَّتينِ عَينانِ تَجريانِ[(٢)].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١)﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[(٣)]؟!

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان بالمياهِ حَياةُ النَّباتِ وزَكاؤُه، قال ذاكِرًا أفضَلَ النَّباتِ[(٤)]:

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

قال القرطبي: (أي: في كلِّ واحدةٍ منهما عينٌ جاريةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

وقال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: تَجريانِ بالماءِ الزُّلالِ، إحداهما: السَّلْسَبيلُ، والأُخرى: التَّسْنيمُ. وقال عطيَّةُ: إحداهما: مِن ماءٍ غيرِ آسِنٍ، والأخرى: من خَمرٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٣).

واستظهر ابنُ عثيمين أنَّ هاتَينِ العينَينِ الجاريتَينِ غيرُ الأنهارِ الأربعةِ الَّتي ذكر اللهُ أنَّها في الجنَّةِ مِن ماءٍ ولَبَنٍ وخَمْرٍ وعَسَلٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١).

أي: في الجنَّتينِ مِن كُلِّ أنواعِ الفاكِهةِ صِنفانِ مُختَلِفانِ[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّفَكُّهُ لا يَكمُلُ حُسنُه إلَّا مع التَّنَعُّمِ مِن طِيبِ الفُرُشِ وغَيرِه؛ قال تعالى مُخبِرًا عن هؤلاء الَّذين يَخافونَ مَقامَ رَبِّهم[3]:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾.

أي: مُتنَعِّمينَ بالاتِّكاءِ على فُرُشٍ بطائنُها الَّتي تلي جِهةَ الأرضِ: مِنَ الحَريرِ الغَليظِ اللَّامِعِ، فكيفَ بظَواهِرِها الَّتي تَلي بَشَرَتَهم[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

قال ابنُ القيِّم: (اختُلِفَ في هذين الزَّوجَينِ بعدَ الاتِّفاقِ على أنَّهما صِنفانِ؛ فقالت طائِفةٌ: الزَّوجانِ: الرَّطْبُ، واليابِسُ الَّذي لا يَقصُرُ في فَضلِه وجَودتِه عن الرَّطبِ، وهو مُتمَتَّعٌ به كما يُتمتَّعُ باليابِسِ، وفيه نظَرٌ لا يخفَى. وقالت طائفةٌ: الزَّوجانِ: صِنفٌ مَعروفٌ، وصِنفٌ مِن شَكلِه غَريبٌ. وقالت طائفةٌ: نَوعانِ، ولم تَزِدْ. والظَّاهِرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّه الحُلوُ والحامِضُ، والأبيضُ والأحمَرُ؛ وذلك لأنَّ اختِلافَ أصنافِ الفاكِهةِ أعجَبُ وأشهى، وألَذُّ للعَينِ والفَمِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير =

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُتَّكِئُ قد يَشُقُّ عليه القيامُ لِتَناوُلِ ما يُريدُ، قال تعالى[1]:

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

أي: وثَمَرُ هاتَينِ الجنَّتينِ قَريبٌ مِن أهلِهما، فيَتناوَلونَه بيُسرٍ وسُهولةٍ[2].

قال تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢، ٢٣].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[3]؟!

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

= ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

قال ابنُ عاشور: (الاتِّكاءُ: افتِعالٌ مِنَ الوَكْءِ -مَهموزِ اللَّامِ- وهو الاعتِمادُ، فصار الاتِّكاءُ اسمًا لاعتِمادِ الجالِسِ ومَرفِقُه إلى الأرضِ وجَنبُه إلى الأرضِ، وهي هيئةٌ بيْنَ الاضطِجاعِ على الجَنبِ والقُعودِ... والاتِّكاءُ: جِلسةُ أهلِ التَّرَفِ المخدومينَ؛ لأنَّها جِلسةُ راحةٍ، وعَدَمِ احتياجٍ إلى النُّهوضِ للتَّناوُلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).

وقال البقاعي: (﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ثَخينُ الدِّيباجِ، يُوجَدُ فيه مِن حُسْنِه بَريقٌ كأنَّه مِن شِدَّةِ لَمَعانِه يَطلُبُ إيجادَه، حتَّى كأنَّه نورٌ مُجَرَّدٌ!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما ذُكِرَ لا تَتِمُّ نِعمتُه إلَّا بالنِّساءِ الحِسانِ؛ قال تعالى[(١)]:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾.

أي: فيهنَّ نِساءٌ قد قَصَرْنَ نَظَرَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يُبصِرْنَ سِواهم، ولا يَرغَبْنَ في غَيرِهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

قال ابن الجوزي: (وفي قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها تَعودُ إلى الجَنَّتَينِ وغيرِهما ممَّا أُعِدَّ لصاحبِ هذه القِصَّةِ، قاله الزَّجَّاجُ. والثَّاني: أنَّها تعودُ إلى الفُرُشِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٤).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ على الفُرُشِ المتقَدِّمِ ذِكرُها: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

قال مكِّي: (و«في» بمعنى «على»، والمعنى: على الفُرُشِ حورٌ قاصِراتُ الطَّرفِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٢٣٧).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّتَينِ: الزَّجَّاجُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧٠).

وقيل: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجِنانِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٣).

وقال الزمخشري: (﴿فِيهِنَّ﴾ في هذه الآلاءِ المعدودةِ مِن الجنَّتَينِ والعَينَينِ والفاكهةِ والفُرُشِ والجَنَى. أو في الجنَّتَينِ؛ لاشتِمالِهما على أماكنَ وقُصورٍ ومَجالِسَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿فِيهِنَّ﴾ أكثرُ العُلَماءِ يقولونَ: إنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّتينِ، وإنَّ الجَمعَ باعتبارِ أنَّ لكُلِّ واحِدٍ مِن النَّاسِ جَنَّةً خاصَّةً به، فيكونُ ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في جَنَّةِ كُلِّ واحِدٍ مِمَّن =

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاختِصاصُ بالشَّيءِ -ولا سيَّما المرأةِ- مِن أعظَمِ المَلَذَّاتِ؛ قال تعالى[1]:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

أي: لم يُجامِعْهنَّ فيفتَضَّ بَكارتَهنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ[2].

= هو في هاتينِ الجنَّتينِ ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وعندي أنَّ قولَه: ﴿فِيهِنَّ﴾ يَشملُ الجنَّاتِ الأربَعَ: هاتينِ الجنَّتينِ، والجنَّتينِ اللَّتينِ بَعْدَهما). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

قال ابنُ القيِّم في قولِه: ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: (المفسِّرونَ كُلُّهم على أنَّ المعنى: قَصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَطمَحْنَ إلى غَيرِهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

وقيل: المعنى: أنهنَّ قد قصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ مِن حُسنِهم وجمالِهم، وكمالِ محبَّتِهنَّ لهم، وقَصَرْنَ أيضًا طَرْفَ أزواجِهنَّ عليهنَّ؛ مِن حُسنِهنَّ وجمالِهنَّ ولَذَّةِ وِصالِهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

قال ابنُ القيِّم: (ظاهِرُ القُرآنِ أنَّ هؤلاء النِّسوةَ لَسْنَ مِن نِساءِ الدُّنيا، وإنَّما هُنَّ مِن الحُورِ العِينِ، وأمَّا نِساءُ الدُّنيا فقد طَمَثَهنَّ الإنسُ، ونِساءُ الجِنِّ قد طَمَثَهنَّ الجِنُّ، والآيةُ تدُلُّ على ذلك). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ٥٨﴾.

أي: أولئك الحُورُ العِينُ مِثلُ الياقوتِ والمَرْجانِ صَفاءً ولَونًا[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لِكُلِّ امْرِئٍ منهم زَوجتانِ، كلُّ واحدةٍ مِنهما يُرَى مُخُّ ساقِها مِن وَراءِ لَحمِها؛ مِنَ الحُسنِ!))[٣].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٤]؟!

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ٦٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

قال الزجاج: (قال أهلُ التَّفسيرِ وأهلُ اللُّغةِ: هنَّ في صفاءِ الياقوتِ، وبَياضِ المَرْجانِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٠٣).

وقال ابن القيِّم: (قال الحَسَنُ وعامَّةُ المفَسِّرينَ: أراد صَفاءَ الياقوتِ في بَياضِ المَرْجانِ، شَبَّههنَّ في صفاءِ اللَّونِ وبَياضِه بالياقوتِ والمَرْجانِ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ألَذُّ ما أفاده الإنسانُ مِنَ النِّعمِ ما كان تسَبُّبًا منه؛ قال[١]:

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: هل جَزاءُ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا إلَّا أن يُحسَنَ إليه بالتَّنعيمِ في الآخِرةِ[٢]؟!

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أضاف المَقامَ إلى اللهِ تعالى مِن حَيثُ هو بيْنَ يَدَيه، وفي هذه الإضافةِ تَنبيهٌ على صُعوبةِ المَوقِفِ، وتحريضٌ على الخَوفِ الَّذي هو أسرَعُ المطايا إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ هذا الخَوفُ يَستلزِمُ شَيئينِ:

الأوَّلُ: الإيمانُ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخافُ مِن شَيءٍ إلَّا وقد تيَقَّنَه.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧).

والثَّاني: أنْ يَتجنَّبَ محارِمَ اللهِ، وأنْ يقومَ بما أوجَبَه اللهُ خَوفًا مِن عِقابِ اللهِ تعالى؛ فعليه يَلزَمُ كلَّ إنسانٍ أنْ يُؤمِنَ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وأنْ يقومَ بما أوجَبَه اللهُ، وأنْ يَجتنِبَ محارِمَ اللهِ؛ فمَن خاف هذا المقامَ بيْنَ يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ فله جَنَّتانِ[1].

٣- مَن خاف اللهَ تعالى في الدُّنيا أمَّنَه في الآخِرةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2] [النازعات: ٤٠، ٤١].

٤- الإحسانُ مِن أفضَلِ مَنازِلِ العُبوديَّةِ؛ لأنَّه لُبُّ الإيمانِ ورُوحُه وكَمالُه، وجميعُ المنازِلِ مُنطَويَةٌ فيها؛ قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، وقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه))[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ لطيفةٌ: أنَّه لَمَّا قال تعالى في حَقِّ المُجرِمِ: إنَّه يَطوفُ بيْنَ نارٍ وبيْنَ حَميمٍ آنٍ -وهما نَوعانِ-، ذكَرَ لِغَيرِه -وهو الخائِفُ- جنَّتَينِ في مُقابَلةِ ما ذَكَر في حَقِّ المُجرِمِ، لكِنَّه ذَكَر هناك أنَّهم يَطوفونَ فيُفارِقونَ عَذابًا، ويَقَعونَ في الآخَرِ، ولم يَقُلْ هاهنا: يَطوفونَ بيْنَ الجَنَّتَينِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٦٥).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٧٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩) مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

جعَلَهم اللهُ تعالى مُلوكًا، وهم فيها يُطافُ عليهم، ولا يُطافُ بهم؛ احترامًا لهم، وإكرامًا في حَقِّهم[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ثوابَ مُحسِني الجِنِّ الجَنَّةُ؛ وَجْهُه: أنَّ «مَنْ» مِن صِيغِ العُمومِ، فتَتناوَلُ كلَّ خائفٍ. ولأنَّه رَتَّبَ الجزاءَ المذكورَ على خَوفِ مَقامِه، فدلَّ على استِحقاقِه به[٢]، وأيضًا في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُؤمِني الجِنِّ والإنسِ يَدخُلونَ الجَنَّةَ، وأنَّه لم يَسْبِقْ مِن أحَدٍ منهم طَمْثٌ لأحدٍ مِن الحُورِ؛ فدلَّ على أنَّ مُؤمِنيهم يَتأتَّى منهم طَمْثُ الحُورِ العِينِ بعدَ الدُّخولِ، كما يَتأتَّى مِن الإنسِ، ولو كانوا ممَّن لا يَدخُلُ الجَنَّةَ لَمَا حَسُنَ الإخبارُ عنهم بذلك[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ترتيبٌ في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه في أوَّلِ الأمرِ بَيَّنَ المَسكَنَ -وهو الجنَّةُ-، ثمَّ بَيَّن ما يُتنَزَّهُ به؛ فإنَّ مَن يَدخُلُ بُستانًا يتفرَّجُ أوَّلًا، فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾، ثمَّ ذكَر ما يُتناوَلُ مِن المأكولِ، فقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، ثمَّ ذكَر مَوضِعَ الرَّاحةِ بعدَ التَّناوُلِ وهو الفِراشُ، ثمَّ ذكَر ما يكونُ في الفِراشِ معه[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ وَحَّد الضَّميرَ؛ مُراعاةً لِلَفظِ «مَنْ» إشارةً إلى قِلَّةِ الخائفينَ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧١).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٥).
(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أنَّه سُبحانَه ضَمِنَ الجَنَّةَ لِمَن خافَه مِن أهلِ الإيمانِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إن قيلَ: إنَّه سُبحانَه سَوَّى بيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ في الاعتِدادِ بالإنعامِ على الثَّقَلَينِ بوَصفِهما، وإنَّما النِّعمةُ إحداهما دونَ الأُخرى!

فالجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى مُنعِمٌ على عبادِه نِعمَتَينِ: نِعمةَ الدُّنيا، ونِعمةَ الدِّينِ، وأعظَمُها في الأُخرى، واجتِهادُ الإنسانِ رَهبةً مِمَّا يُؤلِمُه أكثَرُ مِن اجتِهادِه رَغبةً فيما يُنَعِّمُه؛ فالتَّرهيبُ زَجرٌ عن المعاصي، وبَعثٌ على الطَّاعاتِ، وهو سَبَبُ النَّفعِ الدَّائِمِ، فأيَّةُ نِعمةٍ أكبَرُ إذَنْ مِن التَّخويفِ بالضَّرَرِ المُؤَدِّي إلى أشرَفِ النِّعَمِ؟! فلمَّا جاز عندَ ذِكرِ ما أنعَمَ به علينا في الدُّنيا، وعندَ ذِكرِ ما أعَدَّه للمُطيعينَ في الأُخرى أن يَقولَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ جاز أن يقولَ عندَ ذِكرِ ما تخَوَّفَنا به مِمَّا يَصرِفُنا عن مَعصيتِه إلى طاعتِه الَّتي تَكسِبُنا نعيمَ جَنَّتِه، لأنَّ هذا أسوَقُ إلى تلك الكرامةِ مِن وَصفِ ما أُعِدَّ فيها مِنَ النِّعمةِ[٢]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ و﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه أوصافٌ للجَنَّتينِ المذكورتَينِ، فهو كالكلامِ الواحِدِ، تَقديرُه: «جنَّتانِ ذواتا أفنانٍ، وفيهما عينانِ تجريانِ، وفيهما مِن كُلِّ فاكِهةٍ زَوجانِ»، فما الفائِدةُ في فَصلِ بَعضِها عن بَعضٍ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنَّه لم يَفصِلْ -حينَ ذَكَر العَذابَ- بيْنَ الصِّفاتِ، بل قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]، مع أنَّ إرسالَ النُّحاسِ غيرُ إرسالِ الشُّواظِ،

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٤٠).

وقولُه: ﴿يَطُوفُونَ﴾ [الرحمن: ٤٤] كلامٌ آخَرُ؟!

الجَوابُ: أنَّه جَمَع العذابَ جُملةً، وفَصلَ آياتِ الثَّوابِ؛ ترجيحًا لجانِبِ الرَّحمةِ على جانِبِ العَذابِ، وتَطييبًا للقَلبِ، وتَهييجًا للسَّامِعِ؛ فإنَّ إعادةَ ذِكرِ المحبوبِ مَحبوبٌ، وتطويلَ الكَلامِ في اللَّذَّاتِ مُستَحسَنٌ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ وَصْفُ الفُرُشِ بكَونِها مُبَطَّنَةً بالإستَبرَقِ، وهذا يدُلُّ على أمْرَينِ:

أحدُهما: أنَّها فُرُشٌ عاليةٌ، لها سمْكٌ وحشْوٌ بيْنَ البِطانةِ والظِّهارةِ.

الثَّاني: أنَّ ظهائِرَها أعلى وأحسَنُ مِن بطائِنِها؛ لأنَّ بطائِنَها للأرضِ، وظهائِرَها للجَمالِ والزِّينةِ والمُباشَرةِ؛ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ في قَولِه تعالى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾؛ قال: (هذه البطائِنُ قد أُخبِرْتُم بها، فكيف بالظَّهائِرِ؟!)[2]. فقولُه: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ يدُلُّ على نهايةِ شَرَفِها؛ فإنَّ ما تكونُ بَطائنُها مِنَ الإستبرَقِ تكونُ ظَهائرُها خَيرًا منها، وكأنَّه شَيءٌ لا يُدرِكُه البَصَرُ مِن سُندُسٍ، وهو الدِّيباجُ الرَّقيقُ النَّاعِمُ.

وفيه وجهٌ آخَرُ مَعنويٌّ: وهو أنَّ أهلَ الدُّنيا يُظهِرونَ الزِّينةَ ولا يتمَكَّنونَ من أن يَجعَلوا البَطائِنَ كالظَّهائِرِ؛ لأنَّ غَرَضَهم إظهارُ الزِّينةِ، والبَطائِنُ لا تَظهَرُ، وإذا انتفى السَّبَبُ انتفى المُسَبَّبُ؛ فلمَّا لم يَحصُلْ في جَعلِ البَطائِنِ مِن الدِّيباجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٠٥).

وقد أخرج أثرَ ابنِ مسعودٍ ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٢٢/ ٢٤٣)، والحاكمُ في ((مستدركه)) (٢/ ٥١٦).

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، وقال المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٣٨٦): (إسنادُه حسَنٌ)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٣٧٤٦).

مَقصودُهم -وهو الإظهارُ- تَركوه، وفي الآخِرةِ الأمرُ مَبنيٌّ على الإكرامِ والتَّنعيمِ؛ فتكونُ البطائِنُ كالظَّهائِرِ، فذَكَر البَطائنَ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ ذُكِرَ الاتِّكاءُ؛ لأنَّه حالُ الصَّحيحِ، الفارِغِ القَلبِ، المُتنعِّمِ، بخلافِ المَريضِ والمَهمومِ(٢). وقيل: ذُكِر الاتِّكاءُ فِي الجنَّة؛ لأنَّهم لا يَنامونَ(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ -بضَميرِ الجَمعِ- دَلالةٌ على أنَّ في كُلِّ بُستانٍ جَماعةً مِنَ النِّسوانِ(٤).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أنَّ الحُورَ المذكوراتِ في الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ والأُخرَيَينِ أوصافُهنَّ للجَميعِ؛ ولهذا تَجِدُ: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]، ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن: ٦٨] كلُّها بلَفظِ التَّثنيةِ، لكنْ لَمَّا تكَلَّمَ عن الحُورِ قال: ﴿فِيهِنَّ﴾ فأتى بالجَمْعِ، فيُستفادُ منه -واللهُ أعلَمُ- أنَّ هذه الأوصافَ -أوصافَ الحُورِ العِينِ- ثابتةٌ في كلٍّ مِن الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ والأُخرَيَينِ(٥).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ دَلالةٌ على عِفَّتِهنَّ، وعلى حُسنِ المُؤمِنينَ في أعيُنِهنَّ، فيُحبِبْنَ أزواجَهنَّ حُبًّا يَشغَلُهنَّ عن النَّظَرِ إلى غَيرِهم، ويدُلُّ أيضًا على الحَياءِ؛ لأنَّ الطَّرْفَ حَرَكةُ الجَفْنِ، والحُوريَّةُ لا تُحَرِّكُ جَفْنَها، ولا تَرفَعُ رَأسَها(٦)!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٤٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٦).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجِنَّ تَغشى كالإنسِ، وتَدخُلُ الجنَّةَ(١).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنَّ الجنَّ يَتناكَحونَ، وكذا في قَولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾(٢) [الكهف: ٥٠].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنَّه كما أنَّ كافِري الجِنِّ في النَّارِ فمُؤمِنُهم المُطيعُ في الجنَّةِ؛ فإنَّ في الآيةِ أنَّ في الجنَّةِ جانًّا يَطمِثونَ النِّساءَ، ومِن أصرَحِ الأدِلَّةِ في ذلك قَولُه تعالى مُخاطِبًا الجِنَّ والإنسَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، ثمَّ قال مُبيِّنًا دُخولَ الجِنِّ والإنسِ فيه: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فلو لم يكُنْ مِنَ الآلاءِ على الجِنِّ دُخولُهم الجنَّةَ لَمَا قال فيهم وفي الإنسِ معًا: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعدَ قَولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(٣)!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ دليلٌ على فَضْلِ الأبكارِ على الثَّيِّباتِ؛ إذْ لا يَصِفُهنَّ ببراءتِهنَّ مِنَ الطَّمْثِ إلَّا وقد فَضَّلَهنَّ على مَن طُمِثْنَ(٤).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ إعلامٌ بكمالِ اللَّذَّةِ بهنَّ؛ فإنَّ لَذَّةَ الرَّجُلِ بالمرأةِ الَّتي لم يَطَأْها سِواه لها فَضْلٌ على لَذَّتِه بغَيرِها،

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠).

والفضلُ هنا ليس فضْلَ الذَّواتِ، وإنَّما فضْلُ الصِّفاتِ مِن حيثُ قوَّةُ داعيةِ الرَّغبةِ، والإقبالِ على الزَّوجِ.

وكذلك هي أيضًا[(١)].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ تقديمُ الإنسِ على الجِنِّ، والحِكمةُ هنا: هو أنَّ النَّفيَ تابعٌ لِمَا تَعْقِلُه القُلوبُ مِن الإثباتِ، فيَرِدُ النَّفيُ عليه، وعِلْمُ النُّفوسِ بطَمْثِ الإنسِ ونفْرَتُها ممَّن طَمَثَها الرِّجالُ هو المعروفُ؛ فجاء النَّفيُ على مقتضى ذلك، وكان تقديمُ الإنسُ في هذا النَّفيِ أهمَّ[(٢)].

١٩- قد يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ أنَّ ألوانَهنَّ البَياضُ والحُمرةُ على نَوعٍ مِنَ الإشرابِ، وهو في غايةِ الإعجابِ مِن الشُّفوفِ والصَّفاءِ، وهو مع ذلك ثابتٌ لا يَعتَريه تغيُّرٌ، وقد شَبَّهَهنَّ بهما فيما يَحسُنُ التَّشبيهُ به؛ فالياقوتُ في إملاسِه وشُفوفِه، والمَرْجانُ في إملاسِه وجَمالِ مَنظَرِه[(٣)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ دليلٌ على أنَّ الصَّفاءَ والرِّقَّةَ مَدْحٌ في الأشخاصِ[(٤)].

٢١- هذه الآيةُ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ خِتامُ ثماني آياتٍ حاثَّةٍ على العَمَلِ الموصِلِ إلى الثَّمانيةِ الأبوابِ الكائنةِ لجَنَّةِ المُقرَّبينَ[(٥)].

٢٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ عُلِمَ منه أنَّ جَزاءَ الإساءةِ السُّوءُ؛ قال تعالى: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾[(٦)] [النبأ: ٢٦].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ كمالُ فَضْلِ اللهِ عزَّ

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١).

وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أحسَنَ إليك أوَّلًا بتوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثمَّ أحسَنَ إليك ثانيًا بالجَزاءِ عليه[١]. فمِن فَضْلِ اللهِ على عبْدِه أنْ يُحسِنَ إليه، ثمَّ يَعُدَّ إحسانَ العَبدِ إحسانًا[٢]!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ أنَّ مَن أَدَّى عن غيرِه واجبًا أنَّه يَرْجِعُ عليه به[٣]، وكذلك مَن خَلَّصَ مالَ غيرِه مِن التَّلَفِ بما أدَّاه عنه يَرجِعُ به عليه، مِثلُ مَن خَلَّصَ مالًا مِن قُطَّاعٍ، أو عَسْكَرٍ ظالمٍ، أو مُتَوَلٍّ ظالمٍ -ولم يُخَلِّصْه إلَّا بما أَدَّى عنه-؛ فإنه يَرجِعُ بذلك، وهو مُحسِنٌ إليه بذلك -وإنْ لم يكُنْ مؤتمَنًا على ذلك المالِ، ولا مُكْرَهًا على الأداءِ عنه-؛ فإنَّه مُحسِنٌ إليه بذلك، وهل جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ[٤]؟!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ أنَّ الأعمالَ مَحَلُّ الثَّناءِ والقَدْحِ؛ فقولُه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ مَحَلُّ الثَّناءِ، وقَولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] هذا قَدْحٌ؛ فالأعمالُ مَحَلُّ القَدْحِ ومَحَلُّ المَدْحِ، وإذا ثَبَتَ القَدْحُ أوِ المَدْحُ في العَمَلِ فهو يَستلزِمُ قَدْحَ العاملِ إنْ أساء، ومَدْحَه إنْ أحسَنَ، وهذا هو الأصلُ، ولاسيَّما في أمورِ الدُّنيا؛ فإنَّه ليس لنا إلَّا الظَّاهِرُ، أمَّا أمورُ الآخرةِ فعِندَ اللهِ؛ ولهذا لو أنَّنا رَأَيْنا شَخصًا يَسجُدُ لصَنَمٍ قُلْنا: كافِرٌ، مع أنه يَحتَمِلُ أنْ يكونَ جاهِلًا، فإنِ استقامَ ووَحَّدَ اللهَ ارتفَعَ عنه هذا الوَصفُ، وإلَّا فهو باقٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قولُه تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ شُروعٌ في تَعدادِ الآلاءِ الفائضةِ عليهم في الآخرةِ، بعْدَ تَعدادِ ما وصَلَ إليهم في الدُّنيا مِن الآلاءِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[١].

- وهو انتِقالٌ مِن وصْفِ جَزاءِ المُجرمين إلى ثَوابِ المتَّقينَ، والجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] إلى آخرِها[٢].

- قولُه: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، أي: خاف مَوقِفَه الَّذي يقِفُ فيه العِبادُ للحِسابِ، وفي هذه الإضافةِ تَنبيهٌ على صُعوبةِ الموقفِ. أو خاف قِيامَ اللهِ على أحوالِه، مِن: قام عليه، إذا راقَبَه. أو خاف مَقامَ الخائفِ عندَ ربِّه للحسابِ؛ فأُضِيفَ إلى الرَّبِّ تَفخيمًا وتَهويلًا. أو خاف ربَّه، و(مَقام) مُقحَمٌ؛ للمُبالَغةِ والتَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قيل: يَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ جِنسَينِ مِن الجنَّاتِ، وقد ذُكِرَت الجنَّاتُ في القُرآنِ بصِيغةِ الجمْعِ غيرَ مرَّةٍ، فالمرادُ جِنسانِ مِن الجنَّاتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ التَّثنيةُ مُستعمَلةً كِنايةً عن التَّعدُّدِ، وإيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ هنا لمُراعاةِ الفواصلِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ؛ فقد بُنِيَت قرائنُ السُّورة عليها، والقرينةُ ظاهرةٌ، وعلى هذا فجَميعُ ما أُجرِيَ بصِيغةِ التَّثنيةِ في شأْنِ الجنَّتينِ فمُرادٌ به الجمْعُ. وقيل: المرادُ بالجنَّتينِ جنَّةٌ واحدةٌ، وإنَّما ثَنَّى مُراعاةً للفواصلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي =

- ولَمَّا ذَكَر سُبحانه الخوفَ ذَكَر المقامَ، وعندَ الخشيةِ ذَكَر اسمَه الكريمَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]؛ لأنَّهم عرَفوا عَظَمةَ اللهِ فخافوه لا لِذُلٍّ منهم، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]؛ لأنَّه يَعرِفُ ربَّه بالعَظَمةِ فيَخشاه، فالخَوفُ خَشيةٌ سببُها ذُلُّ الخاشي، والخشيةُ خَوفٌ سببُه عَظَمةُ المَخشيِّ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ صِفةٌ للجنَّتينِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَهما؛ تَنبيهًا على أنَّ تَكذيبَ كلٍّ مِن الموصوفِ والصِّفةِ مُوجِبٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ[٢].

- وخَصَّ الأفنانَ بالذِّكرِ -وهي الأغصانُ الَّتي تَتشعَّبُ مِن فُروعِ الشَّجرةِ-؛ لأنَّها هي الَّتي تُورِقُ وتُثمِرُ، فمنها تَمتَدُّ الظِّلالُ، ومنها تُجْتنى الثِّمارُ[٣]. أو خَصَّ الأفنانَ بالذِّكرِ ونكَّرَها؛ لأنَّ المقصودَ هنا أفنانٌ عظيمةٌ، كثيرةُ الإيراقِ والإثمارِ والظِّلِّ، بقَرينةِ أنَّ الأفنانَ لا تَخلو عنها الجنَّاتُ، فلا يُحتاجُ إلى ذِكرِ الأفنانِ لولا قصْدُ ما في التَّنكيرِ مِن التَّعظيمِ[٤].

= حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

- وإنْ كان الجنَّتانِ اثنتَينِ لكلِّ مَن خاف مَقامَ ربِّه؛ فلكلِّ جنَّةٍ منهما عَينٌ؛ فهما عَينانِ لكلِّ مَن خاف مَقامَ ربِّه. وإنْ كان الجنَّتانِ جِنسَينِ، فالتَّثنيةُ مُستعمَلةٌ في إرادةِ الجمْعِ، أي: عُيونٌ على عددِ الجنَّاتِ. وكذلك إذا كان المرادُ مِن تثنيةِ ﴿جَنَّتَانِ﴾ الكثرةَ، كان تَثنيةُ ﴿عَيْنَانِ﴾ للكثرةِ[١].

- وجاء الفصْلُ بيْنَ قولِه: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ وبيْنَ قولِه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ بقولِه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ -والأفنانُ عليها الفواكهُ-؛ لأنَّ الدَّاخلَ إلى البُستانِ لا يَقْدَمُ إلَّا للتَّفرُّجِ بِلَذَّةِ ما فيه بالنَّظرِ إلى خُضرةِ الشَّجرِ، وجرْيِ الأنهارِ، ثمَّ بعْدُ يَأخُذُ في اجتِناءِ الثِّمارِ للأكلِ[٢].

أو فصَلَ بيْنَ الأفنانِ وبيْنَ ذِكرِ الفاكهةِ بذِكرِ العَينينِ، معَ أنَّ الفاكهةَ بالأفنانِ أنسَبُ؛ لأنَّه لَمَّا جَرَى ذِكرُ الأفنانِ -وهي مِن جَمالِ مَنظَرِ الجنَّةِ-، أعقَبَ بما هو مِن مَحاسِنِ الجنَّاتِ -وهو عُيونُ الماءِ- جمْعًا للنَّظيرَينِ، ثمَّ أعقَبَ ذلك بما هو مِن جَمالِ المَنظَرِ -أعني: الفواكهَ في أفنانِها- ومِن مَلذَّاتِ الذَّوقِ[٣].

- وأمَّا تَثنيةُ ﴿زَوْجَانِ﴾ فإنَّ الزَّوجَ هنا النَّوعُ، وأنواعُ فواكهِ الجنَّةِ كثيرةٌ، وليس لكلِّ فاكهةٍ نَوعانِ: فإمَّا أنْ تكونَ التَّثنيةُ بمعْنى الجمْعِ، ويكونَ إيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ لمُراعاةِ الفاصِلةِ، ومِن أجْلِ المُزاوَجةِ مع نَظائِرِها مِن قولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ إلى هنا، وإمَّا أنْ تكونَ تَثنيةُ ﴿زَوْجَانِ﴾ لكونِ الفواكهِ بَعضُها يُؤكَلُ رَطْبًا، وبَعضُها يُؤكَلُ يابِسًا؛ مِثلُ الرُّطَبِ والتَّمرِ، والعِنبِ والزَّبيبِ، وغيرِها[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ بيانٌ لـ ﴿زَوْجَانِ﴾ مُقدَّمٌ على المُبيَّنِ؛ لرعْيِ الفاصِلةِ[(١)].

٣- قوله تعالى ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- انتصَبَ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالًا مِن (لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)، وجِيءَ بالحالِ صِيغةَ جمْعٍ باعتِبارِ معْنى صاحبِ الحالِ، وصَلاحيةِ لَفْظِه للواحدِ والمتعدِّدِ، لا باعتبارِ وُقوعِ صِلتِه بصِيغةِ الإفرادِ؛ فإنَّ ذلك اعتبارٌ بكونِ (مَن) مُفرَدةَ اللَّفظِ، والمعْنى: أُعْطوا الجِنانَ، واستقَرُّوا بها، واتَّكؤوا على فُرُشٍ. وقيل: العاملُ مَحذوفٌ، أي: يَتنعَّمون مُتَّكئينَ. وقيل: نُصِبَ على المدْحِ[(٢)].

- قولُه: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، البِطانةُ: هي الثَّوبُ الَّذي يُجعَلُ على الفِراشِ، والظِّهارةُ: الثَّوبُ الَّذي يُجعَلُ فوقَ البطانةِ؛ لِيَظهَرَ لرُؤيةِ الدَّاخلِ للبَيتِ، فتكونُ الظِّهارةُ أحسَنَ مِن البطانةِ في الفِراشِ، فالمعْنى هنا: أنَّ بطائنَ فُرشِ الجنَّةِ مِن إستبرقٍ، وإذا كانت البطائنُ كذلك فما ظنُّكَ بالظَّهائرِ؟! فلا بُدَّ أنَّها أجودُ مِن ذلك، فوَصْفُ البطائنِ بذلك هنا كِنايةٌ عن نَفاسةِ وصْفِ ظَهائرِ الفُرشِ[(٣)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣١٣).

- قولُه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ مع أنَّ قبْلَه ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ لرُجوعِه إلى الآلاءِ المعدودةِ في الجنَّتَينِ، أو إلى الجنَّتَينِ لكنَّ جمْعَه لاشتِمالِهما على قُصورٍ ومَنازلَ، أو إلى المنازلِ والقصورِ الَّتي دلَّ عليها ذِكرُ الجنَّتينِ، أو إلى الفُرُشِ لقُرْبِها، وتكونُ (في) بمعْنى (على)، كما في قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨]، أي: عليه[(١)].

- وضَميرُ ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ إلى ﴿فُرُشِۭ﴾ -على قولٍ-، وهو سَببُ تأْخيرِ نِعَمِ أهلِ الجنَّةِ بلَذَّةِ التأنُّسِ بالنِّساءِ عمَّا في الجنَّاتِ مِن الأفنانِ والعُيونِ والفواكهِ والفُرشِ؛ ليكونَ ذِكرُ الفُرشِ مُناسبًا للانتقالِ إلى الأوانسِ [جمع آنسةٍ] في تلك الفُرشِ، وليَجِيءَ هذا الضَّميرُ مُفيدًا معنًى كثيرًا مِن لفْظٍ قليلٍ، وذلك مِن خَصائصِ التَّرتيبِ في هذا التَّركيبِ فـ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ كائنةٌ في الجنَّةِ، وكائنةٌ على الفُرشِ مع أزواجِهنَّ[(٢)].

- و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، تَقديرُه: نِساءٌ، وشاعَ المدْحُ بهذا الوصفِ في الكلامِ حتَّى نُزِّلَ مَنزلةَ الاسمِ[(٣)]. وحُذِفَ الموصوفُ لِنُكتةٍ، وهي أنَّه تعالى لم يَذكُرْهنَّ باسمِ الجِنسِ -وهو النِّساءُ- بل بالصِّفاتِ، فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ [الواقعة: ٢٢]، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ [النبأ: ٣٣]، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الصافات: ٤٨]، ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ﴾ [الرحمن: ٧٢]، ولم يقُلْ: نِساءٌ عُرُبٌ، ولا نِساءٌ قاصِراتٌ؛ لِوَجهَينِ: إمَّا على عادةِ العُظماءِ -كبناتِ الملوكِ- إنَّما يُذكَرْنَ بأوصافِهنَّ، وإمَّا لأنهنَّ لَمَّا كَمَلْنَ كأنَّهنَّ خرَجْنَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦، ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جِنسِهنَّ[١].

- والطَّمْثُ: مَسيسُ الأُنثى البِكرِ، وعُبِّرَ عن البكارةِ بقولِه: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ إطنابًا في التَّحسينِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ﴾، أي: لم يَطمِثْهُنَّ أحدٌ قبْلُ، وقولُه: ﴿وَلَا جَآنّٞ﴾ تَتميمٌ واحتِراسٌ[٣]، وهو إطنابٌ دَعا إليه أنَّ الجنَّةَ دارُ ثوابٍ لصالحِي الإنسِ والجنِّ، فلمَّا ذُكِرَ ﴿إِنسٞ﴾ نشَأَ توهُّمُ أنْ يَمسَّهُنَّ جِنٌّ؛ فدُفِعَ ذلك التَّوهُّمُ بهذا الاحتِراسِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

(٣) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها.
والاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.
والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩-٥١، ٢٤٠ - ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

- وفي قولِه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإردافِ[١]، والمعْنى في الآيةِ: فيهنَّ عَفيفاتٌ قد قَصَرت عِفَّتُهنَّ طَرْفَهنَّ على بُعولتِهنَّ، وعُدِلَ عن المعْنى الخاصِّ إلى لَفظِ الإردافِ؛ لأنَّ كلَّ مَن عفَّ غضَّ الطَّرْفَ عن الطُّموحِ، فقد يَمتدُّ نظَرُ الإنسانِ إلى شَيءٍ وتَشتهيهِ نفْسُه ويَعِفُّ عنه مع القُدرةِ عليه لأمرٍ آخَرَ، وقصْرُ طَرْفِ المرأةِ على بَعْلِها، أو قصْرُ طَرْفِها حَياءً وخَفَرًا[٢]، أو قَصْرُ عَينَيْ مَن يَنظُرُ إليهنَّ عن النَّظرِ إلى غيرِهنَّ؛ أمرٌ زائدٌ على العِفَّةِ؛ لأنَّ مَن لا يَطمَحُ طَرْفُها لغيرِ بَعْلِها، أو لا يَطمَحُ حَياءً وخَفَرًا؛ فإنَّها ضَرورةً تكونُ عَفيفةً، فكلُّ قاصرةِ الطَّرْفِ عَفيفةٌ، وليست كلُّ عفيفةٍ قاصرةَ الطَّرْفِ؛ فلذلك عُدِلَ عن اللَّفظِ الخاصِّ إلى لَفظِ الإردافِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[٤] مُجمَلٌ، قيل: وَجْهُ الشَّبهِ

---

(١) الإرداف: هو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ معنًى، فلا يُعبِّرُ عنه بلَفظِه الموضوعِ له، بلْ بلَفظٍ هو رِدفُ المعْنى الخاصِّ وتابِعُه قَريبٌ مِن لَفظِ المعْنى الخاصِّ قُرْبَ الرَّديفِ مِن الرِّدفِ. وهو شبيهٌ بالتَّنكيتِ، إلَّا أنَّ الإردافَ يُتْرَكُ فيه اللَّفظُ الَّذي يُدَلُّ به عادةً على المعنَى، ويُسْتَخدَمُ تعبيرٌ غيرُه؛ لتحقيقِ أغراضٍ فِكريَّةٍ ومَعانٍ لا تُؤَدَّى بالتَّعبيرِ المتروكِ. يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٧)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٠٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨٠).

(٢) الخَفَرُ: شِدَّةُ الحَياءِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦).

(٤) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذي وصفٍ في وصْفِه. وقيل: أن تُثبتَ للمُشَبَّه حُكمًا من أحكامِ المُشَبَّهِ به. وقد اتَّفَق الأدباءُ على شرَفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادها كمالًا، وكساها حلَّةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المُركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ =

في لَونِ الحُمرةِ المَحمودةِ، أي: حُمرةُ الخدودِ، كما يُشبَّهُ الخدُّ بالورْدِ، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ بهما في الصَّفاءِ واللَّمعانِ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما فُصِّلَ قبْلَه[2]. وهو تَذييلٌ للجُمَلِ المَبدوءةِ بقولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: لأنَّهم أحْسَنوا فجازاهم ربُّهم بالإحسانِ[3].

- والاستِفهامُ هنا مُستعمَلٌ في النَّفيِ؛ ولذلك عُقِّبَ بالاستِثناءِ، فأفاد حصْرَ مُجازاةِ الإحسانِ في أنَّها إحسانٌ، وهذا الحصرُ إخبارٌ عن كَونِه الجزاءَ الحقَّ، ومُقتضى الحكمةِ والعدلِ، وإلَّا فقدْ يَتخلَّفُ ذلك لدى الظَّالِمينَ، قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[4] [الواقعة: ٨٢].



= وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّون لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المُركَّبِ. ومنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانت أداةُ التَّشبيهِ فيه محذوفةً. ويَنقسِمُ باعتبارٍ آخَرَ إلى: مؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفت فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مَرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفُ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٢-٧٨)

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾: دُونَ: أقلُّ، أي: أقَلُّ منهما في المَنزِلةِ والقَدرِ، يُقالُ للقاصِرِ عن الشَّيءِ: دُون، وقيل: (دون) بمعنَى (غير)، ولها مَعانٍ كثيرةٌ، و(دُونَ) قيل: هو مقلوبٌ مِن الدُّنوِّ، وأصل (دون): يدُلُّ على المُداناةِ والمُقارَبةِ[١].

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾: أي: سَوْداوانِ؛ مِن شِدَّةِ الخُضرةِ والرِّيِّ، والأصلُ في ذلك أنَّ الخُضرةَ إذا اشتَدَّت ضَرَبَت إلى السَّوادِ[٢].

﴿نَضَّاخَتَانِ﴾: أي: فوَّارتانِ بالماءِ بقُوَّةٍ، والنَّضْخُ: فَورُ الماءِ مِنَ العَينِ، وهو أكثَرُ مِنَ النَّضْحِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٥، ٢/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠)، ((غريب =

﴿حُورٌ﴾: جمعُ حوراءَ، وهي: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سَوادِها[(١)].

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾: أي: مَحبوساتٌ مَستوراتٌ، والقَصرُ: المَنعُ والحَبسُ[(٢)].

﴿رَفْرَفٍ﴾: أي: ما تدَلَّى مِنَ الأَسِرَّةِ مِن غالي الثِّيابِ والبُسُطِ؛ مِن رَفَّ البَيتُ: إذا تنَعَّمَ وحَسُنَ، جَمعٌ واحِدتُها: رَفرَفةٌ[(٣)].

﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ أي: بُسُطٍ ووسائِدَ فائِقةِ الجَمالِ، بديعةِ الصُّنعِ، والعَبقريُّ: نِسبةٌ

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٢٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

قال الرازي: (إمَّا أنْ يَكونَ أصْلُه مِن رَفَّ الزَّرْعُ إذا بَلَغ مِن نضارَتِه، فيكونَ مُناسِبًا لقولِه تعالَى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]، ويكونَ التَّقديرُ أنَّهم مُتَّكِئونَ على الرِّياضِ والثِّيابِ العبقرِيَّةِ. وإمَّا أنْ يكونَ مِن رفرفةِ الطَّائرِ، وهي حَوْمُه في الهواءِ حوْلَ ما يُريدُ النُّزولَ عليه، فيكونَ المعنَى أنَّهم على بُسُطٍ مَرْفوعةٍ، كما قال تعالَى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]، وهذا يدُلُّ على أنَّ قولَه تعالَى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] أنَّهما دونَهما في المكانِ، حيثُ رُفِعَتْ فُرُشُهم). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨١).

إلى عَبقَرٍ: اسمُ بلادِ الجِنِّ في مُعتَقَدِ العَرَبِ، فنَسَبوا إليه كُلَّ ما تجاوَزَ العادةَ في الإتقانِ والحُسْنِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن دُونِ هاتَينِ الجَنَّتَينِ -اللَّتَينِ تقَدَّمَ ذِكرُهما- في الرُّتبةِ والفَضلِ جَنَّتانِ أُخْرَيانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثُمَّ يُفصِّلُ اللهُ سُبحانَه أوصافَ هاتَينِ الجَنَّتَينِ، فيقولُ: هاتانِ الجَنَّتانِ مُسْوَدَّتانِ؛ مِن شِدَّةِ خُضرتِهما؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما عَيْنانِ فوَّارتانِ بالماءِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما فَواكِهُ ونَخلٌ ورُمَّانٌ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفِيهِنَّ نساءٌ خَيْراتُ الصِّفاتِ والأخلاقِ، حِسانُ الوُجوهِ والأبدانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟! وهُنَّ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، مَحجوباتٌ في بُيوتِ اللُّؤلؤِ المُجَوَّفِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟! ولم يُجامِعْهنَّ فيَفتَضَّ بَكارتَهُنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

يَتنَعَّمونَ بالاتِّكاءِ على ثيابٍ خَضراءَ فاخِرةٍ مُتدَلِّيةٍ مِن فُرُشِهم، وعلى بُسُطٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٥).

ووسائِدَ بديعةِ الصُّنعِ، حَسَنةِ المَنظَرِ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثُمَّ يختِمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ، فيقولُ: تَبارَكَ اسمُ رَبِّك -يا محمَّدُ- ذي العَظَمةِ والإكرامِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد عُلِمَ مِمَّا ذُكِرَ أوَّلَ هذا الكلامِ مِنَ الخَوفِ مَعَ ذِكرِ وَصفِ الإكرامِ، وآخِرَه مِن ذِكرِ الإحسانِ: أنَّ هذا الفَريقَ مُحسِنٌ، وكان مِن المعلومِ أنَّ العامِلينَ طَبَقاتٌ، وأنَّ كُلَّ طَبَقةٍ أجرُها على مِقدارِ أعمالِها؛ اقتضى الحالُ بَيانَ ما أُعِدَّ لِمَن دُونَهم[1].

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: ومِن دُونِ الجَنَّتَينِ -اللَّتَينِ تقَدَّمَ ذِكرُهما- جَنَّتانِ أقَلُّ مِنهما رُتبةً وفَضلًا[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٢ - ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: دُونَهما في الفَضلِ والرُّتبةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ، وابن القيِّم، وابن كثير، والبقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٢، ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

=

عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جَنَّتانِ مِن فِضَّةٍ، آنِيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ من ذَهَبٍ، آنِيَتُهما وما فيهما))[١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: هاتانِ الجَنَّتانِ مُسْوَدَّتانِ؛ من شِدَّةِ خُضرتِهما[٣].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾.

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأبو موسى الأشعريُّ، وابنُ زَيدٍ، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤٣).

قال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرون: مِن دُونِهما في الفضلِ والدَّرَجاتِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧٥).

وذكَر ابنُ عطيَّةَ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ على هذا التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥).

وقيل: المعنى: هما أقرَبُ مَكانًا من الأُولَيَينِ، وأفضَلُ مِنهما مَرتبةً ومَنزلةً. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٩٣).

وقال الشوكاني: (ومعنَى «مِنْ دُونِهما» أيْ: مِن أمامِهما ومِنْ قَبلِهما، أي: هما أقرَبُ منهما). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١). ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

قال ابن حجر: (قولُه: «جنَّتانِ» إشارةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، وتفسيرٌ له). ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦﴾.

أي: في هاتَينِ الجنَّتَينِ عَينانِ فوَّارتانِ بالماءِ بقُوَّةٍ[٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الرِّيَّ والسَّبَبَ فيه؛ ذَكَر ما يَنشَأُ عنه، فقال[٤]:

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾.

أي: في هاتَينِ الجَنَّتَينِ فَواكِهُ ونَخيلٌ ورُمَّانٌ[٥].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٦]؟!

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨، ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما ذُكِرَ لا تَكمُلُ لذَّتُه إلَّا بالأنيسِ؛ قال[١]:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: فِيهنَّ خَيْراتُ الصِّفاتِ والأخلاقِ والشِّيَمِ، وحِسانُ الوُجوهِ والأبدانِ؛ فهنَّ في غايةِ الجَمالِ خَلْقًا وخُلُقًا[٢]!

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: مِن وَصفِهنَّ أنَّهنَّ بِيضٌ شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها[٤]، مَحجوباتٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾: في هذه الجِنانِ الأربَعِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٢٢).

وذهب الشوكاني إلى أنَّ هذه الصِّفةَ ليست عائدةً إلى الجِنانِ الأربَعِ، وذكَرَ أنَّه لا وَجْهَ لهذا؛ وعلَّل ذلك بأنَّه قد وَصَف نِساءَ الجنَّتَينِ الأُولَيَينِ بأنَّهنَّ قاصِراتُ الطَّرفِ كأنَّهنَّ الياقوتُ والمَرجانُ، قال: (وبَيْنَ الصِّفتَينِ بَونٌ بعيدٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٤) الحُورُ جَمعُ حَوراءَ، قيل: هي المرأةُ البيضاءُ، وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ بَياضِ العَينِ، =

ومَحبوساتٌ في بُيوتِ اللُّؤلُؤِ المُجَوَّفِ(١).

= والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبَيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢) و(١٧/ ١٨٨).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَين: ابنُ عطيَّةَ، والعُلَيمي، فقالا: الحَوْراءُ هي البيضاءُ، القويَّةُ بياضِ بياضِ العَينِ، وسَوادِ سَوادِها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠).

قال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ الحُورَ مأخوذٌ مِنَ الحَوَرِ في العَينِ: وهو شِدَّةُ بَياضِها مع قُوَّةِ سَوادِها، فهو يتضَمَّنُ الأمْرَينِ... ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَيْنِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الطُّورِ، الآية (٢٠).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٨، ١٨٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٣، ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٢).

قال ابنُ عاشور: (المقصوراتُ: اللَّائي قُصِرْنَ على أزواجِهنَّ لا يَعْدُونَ الأُنسَ مع أزواجِهنَّ، وهو من صِفاتِ التَّرَفِ في نساءِ الدُّنيا؛ فهُنَّ اللَّائي لا يحتَجْنَ إلى مُغادرةِ بُيوتِهنَّ لِخدمةٍ أو وِردٍ أو اقتِطافِ ثِمارٍ، أي: هُنَّ مخدوماتٌ مُكْرَماتٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٨/ ٢٧٩).

وقال السعدي: (أي: محبوساتٌ في خِيامِ اللُّؤلُؤِ، قد تهيَّأْنَ وأعدَدْنَ أنفُسَهنَّ لأزواجِهنَّ، ولا يَنفي ذلك خُروجَهنَّ في البَساتينِ ورِياضِ الجنَّةِ، كما جَرَت العادةُ لبناتِ المُلوكِ ونَحوِهنَّ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

وقال ابن القيِّم: (قال تعالى في وصْفِهنَّ: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، المقصوراتُ: المحبوساتُ. قال أبو عُبَيدةَ: خُدِّرْنَ في الخيامِ. وكذلك قال مقاتلٌ: محبوساتٌ في الخِيامِ. وفيه معنًى آخَرُ، وهو أن يكونَ المرادُ: أنَّهنَّ مَحبوساتٌ على أزواجِهنَّ، لا يَرَوْنَ غيرَهم، وهم في الخيامِ. وهذا معنَى قولِ مَن قال: قُصِرْنَ على أزواجِهنَّ، فلا يُرِدْنَ غيرَهم، ولا يَطمَحْنَ إلى مَن سِواهم، وذكره الفرَّاءُ.

قلتُ: وهذا معنى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ولكنَّ أولئك قاصِراتٌ بأنفُسِهنَّ، =

عن أبي موسى الأَشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((في الجنَّةِ خَيمةٌ مِن لُؤلؤةٍ مُجَوَّفةٍ، عَرضُها سِتُّونَ مِيلًا، في كُلِّ زاويةٍ منها أهلٌ ما يَرَونَ الآخَرينَ، يَطوفُ عليهم المُؤمِنُ!))[(١)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[(٢)]؟!

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت أنفُسُ الأخيارِ، ذَوِي الهِمَمِ العاليةِ الكِبارِ، في الالتِفاتِ إلى الأبكارِ؛ قال[(٣)]:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾.

= وهؤلاء مقصوراتٌ. وقولُه: ﴿فِي ٱلْخِيَامِ﴾ على هذا القولِ صِفةٌ لـ﴿حُورٌ﴾، أي: هُنَّ في الخيامِ، وليس معمولًا لـ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾، وكأنَّ أربابَ هذا القولِ فرُّوا مِن أن يَكُنَّ مَحبوساتٍ في الخيامِ، لا تُفارِقْنَها إلى الغُرَفِ والبَساتينِ.

وأصحابُ القولِ الأوَّلِ يُجيبونَ عن هذا بأنَّ اللهَ سُبحانَه وصَفَهنَّ بصِفاتِ النِّساءِ المُخَدَّراتِ المَصوناتِ، وذلك أجملُ في الوصفِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنَّهنَّ لا يُفارِقْنَ الخيامَ إلى الغُرَفِ والبَساتينِ، كما أنَّ نساءَ الملوكِ وذَويهم مِن النِّساءِ المُخدَّراتِ المَصوناتِ لا يَمتنِعُ أن يَخرُجْنَ في سفَرٍ وغيرِه إلى مُتنزَّهٍ وبُستانٍ ونحوِه، فوَصْفُهنَّ اللَّازِمُ لهنَّ: القصرُ في البيتِ، ويَعرِضُ لهنَّ مع الخدَمِ الخُروجُ إلى البساتينِ ونحوِها. وأمَّا مجاهدٌ فقال: مقصوراتٌ قلوبُهُنَّ على أزواجِهِنَّ في خيامِ اللُّؤْلُؤِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٠)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦).

(١) رواه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩١).

أي: لم يُجامِعْهنَّ فيَفتَضَّ بَكارتَهُنَّ قبلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ[(١)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[(٢)]؟!

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أي: يَتنَعَّمونَ بالاتِّكاءِ على ثيابٍ خَضراءَ فاخِرةٍ رَقيقةٍ مُتدَلِّيةٍ مِن فُرُشِهم، ومُتَّكِئينَ على بُسُطٍ فائِقةِ الجَمالِ، بديعةِ الصُّنعِ، حَسَنةِ المَنظَرِ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣، ٢٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٠، ١٩٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٠٧-٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٣).

ممَّن اختار أنَّ الرَّفْرَفَ هو ما تدلَّى مِن الأَسِرَّةِ مِن عالي الثِّيابِ: أبو حيَّان، والسَّمينُ الحلبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٨٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالرَّفرفِ: البُسُطُ: السمعانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٢).

وقال ابن القيِّم: (والرَّفْرَفُ: ثيابٌ خُضْرٌ يُتَّخَذُ منها المحابسُ [وهي الثيابُ الَّتي تُطرَحُ على ظَهرِ الفِراشِ للنَّومِ عليه] الواحدةُ رَفْرَفةٌ، وكلُّ ما فضَل مِن شَيءٍ فثُنِيَ وعُطِف فهو رَفْرَفٌ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابن الجوزي: (واختلَف المفسِّرونَ في المرادِ بالرَّفرفِ على ثلاثةِ أقوالٍ؛ أحدُها: فُضولُ المحابسِ والبُسُط... والثَّاني: أنَّها رياضُ الجنَّةِ... والثَّالثُ: أنَّها الوسائدُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٧). =

= وقال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ الرَّفْرَفُ المحابِسُ. وقال ابنُ عَبَّاسٍ: الرَّفْرَفُ فضولُ الفُرُشِ والبُسُطِ. وعنه أيضًا: الرَّفْرَفُ المحابِسُ يَتَّكِئونَ على فضولِها، وقالَه قَتادةُ. وقال الحسنُ والقُرَظيُّ: هي البُسُطُ. وقال ابنُ عُيَيْنَةَ: هي الزَّرابيُّ. وقال ابنُ كَيْسانَ: هي المرافقُ، وقالَه الحسَنُ أيضًا... وقال اللَّيثُ: ضَرْبٌ مِن الثِّيابِ الخضْرِ تُبْسَطُ. وقيلَ: الفُرُشُ المرتفعةُ. وقيل: كلُّ ثوبٍ عريضٍ عندَ العربِ فهو رَفْرَفٌ... وهذه أقوالٌ مُتَقارِبَةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٠).

وقال السعدي: (أي: أصحابُ هاتينِ الجنَّتينِ مُتَّكَؤُهم على الرَّفرفِ الأخضَرِ، وهي الفُرُشُ الَّتي فوق المجالسِ العاليةِ، الَّتي قد زادت على مجالِسِهم، فصار لها رَفرفةٌ مِن وراءِ مَجالِسِهم؛ لزيادةِ البَهاءِ، وحُسنِ المنظَرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: مُعتَمِدينَ بأيديهم وظُهورِهم ﴿عَلَىٰ رَفۡرَفٍ﴾ أي: على مَسانِدَ تُرفرِفُ مِثلَ ما يكونُ على أطرافِ المسانِدِ، ويكونُ في الأَسِرَّةِ، هكذا يُرفرِفُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٣).

وقال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها الزَّرابيُّ -كُلُّ ما بُسِطَ واتُّكِئَ عليه-، قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وكذلك قال ابنُ قُتَيْبةَ: العَبقريُّ: الطَّنَافِسُ -بِساطٌ له خَمْلٌ رَقيقٌ- الثِّخانُ. قال أبو عُبَيدةَ: يُقالُ لكُلِّ شَيءٍ مِنَ البُسُطِ: عَبقريٌّ.

والثَّاني: أنَّه الدِّيباجُ الغَليظُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٧). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٤).

وقال ابنُ جرير: (وأمَّا العَبقريُّ فإنَّه الطَّنافِسُ الثِّخانُ، وهي جمْعٌ، واحِدُها: عَبقريَّةٌ، وقد ذُكِرَ عن العربِ أنَّها تُسمِّي كُلَّ شَيءٍ مِنَ البُسُطِ عَبقريًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٦).

وقال ابن عاشور: (عَبقريٌّ: وَصفٌ لِما كان فائِقًا في صِنفِه، عَزيزَ الوُجودِ، وهو نِسبةٌ إلى عَبْقَرٍ -بفَتحٍ فسُكونٍ ففَتحٍ-: اسمُ بلادِ الجِنِّ في مُعتَقَدِ العَرَبِ، فنَسَبوا إليه كُلَّ ما تجاوَزَ العادةَ في الإتقانِ والحُسنِ، حتَّى كأنَّه ليس مِنَ الأصنافِ المعروفةِ في أرضِ البَشَرِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٥).

وقال السعدي: (﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ العَبْقريُّ: نِسبةٌ لكُلِّ مَنسوجٍ نَسجًا حَسَنًا فاخِرًا؛ ولهذا وَصَفَها بالحُسنِ الشَّامِلِ؛ لحُسنِ الصَّنعةِ، وحُسنِ المنظَرِ، ونُعومةِ المَلمَسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٧٧.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ(١)؟!

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ ٧٨.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَتَم سُبحانَه نِعَمَ الدُّنيا بقَولِه تعالى: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، خَتَم نِعَمَ الآخِرةِ بقَولِه: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الباقيَ والدَّائِمَ لِذَاتِه هو اللهُ تعالى لا غيرُ، والدُّنيا فانيةٌ، والآخِرةُ وإن كانت باقيةً لكِنَّ بقاءَها بإبقاءِ اللهِ تعالى(٢).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى سَعةَ فَضلِه وإحسانِه؛ قال(٣):

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ ٧٨.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ بالواوِ رَفعًا على الوَصفِ لـ﴿ ٱسۡمُ ﴾(٤).

٢- قِراءةُ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ بالياءِ جَرًّا على الوَصفِ لـ﴿ رَبِّكَ ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

(٤) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٨).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٨).

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾.

أي: تَبارَكَ اسمُ رَبِّك -يا محمَّدُ- فالبَرَكةُ كلُّها منه، فكلُّ ما ذُكِر عليه بُورِك فيه(1)، صاحِبِ العَظَمةِ الباهِرةِ، المُستَحِقِّ لتَعظيمِه وعِبادتِه، والمُكرِمِ عِبادَه

(1) قال ابن أبي زمنين: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾: تقدَّسَ اسْمُ رَبِّك). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٣٥).
وقال العُلَيمي: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمُه مِن حَيثُ إنَّه مُطلَقٌ على ذاتِه، فما ظَنُّك بذاتِه). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٧).
وقال السعدي: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي: تعاظَمَ وكَثُرَ خَيرُه، الَّذي له الجَلالُ الباهِرُ، والمجدُ الكامِلُ، والإكرامُ لأوليائه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).
وقال ابن عثيمين: (﴿تَبَٰرَكَ﴾: قال العُلَماءُ: معناها: تعالى وتعاظَمَ إنْ وُصِفَ بها اللهُ، كقَولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وإنْ وُصِفَ بها اسمُ اللهِ، معناها: أنَّ البَرَكةَ تكونُ باسمِ اللهِ، أي: إنَّ اسمَ اللهِ إذا صاحَبَ شَيئًا، صارت فيه البَرَكةُ... فنقول: إنَّ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ هنا ليست بمعنى: تعالى وتعاظَمَ، بل: يتعَيَّنُ أن يكونَ معناها: حَلَّت البَرَكةُ باسمِ اللهِ، أي: إنَّ اسمَه سَبَبٌ للبَرَكةِ إذا صَحِبَ شَيئًا). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٤٩، ٣٥٠).
وقيل: الاسمُ هنا يُرادُ به المسَمَّى. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٤).
قال القاسمي: (و «الاسمُ» هنا كنايةٌ عن الذَّاتِ العَليَّةِ؛ لأنَّه كَثُر اقترانُ الفِعلِ المذكورِ معها، كآيةِ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وآيةِ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١] ونحوِهما، وسِرُّ إيثارِ الاسم: التَّنبيهُ على أنَّه لا يُعرَفُ منه تعالى إلَّا أسماؤه الحُسنى [أي: وما تضَمَّنَتْه مِن أوصافِ الكمالِ، وكذا أوصافُه الَّتي دلَّ عليها النَّقلُ]؛ لاستِحالةِ اكتناهِ الذَّاتِ المقَدَّسةِ، فما عَرَفَ اللهَ إلَّا اللهُ. هذا هو التَّحقيقُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٤).
وقال ابنُ تيميَّة: (قال ابنُ الأنباريِّ وغيرُه: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعَلَ مِن البَرَكةِ، والمعنَى: أنَّ البركةَ تُكتَسَبُ وتُنالُ بذِكرِ اسمِه، فلو كان لفظُ الاسمِ مَعْناه المسَمَّى لَكانَ يكفي قولُه: «تبارَكَ رَبُّك»؛ فإنَّ نفْسَ الاسمِ عندَهم هو نفْسُ الرَّبِّ، فكان هذا تكريرًا. وقد قال بعضُ النَّاسِ: إنَّ ذِكْرَ الاسمِ هنا صِلَةٌ، والمرادُ تبارَكَ رَبُّك، ليسَ المرادُ الإخبارَ عن اسمِه بأنَّه تبارَكَ. وهذا غَلَطٌ؛ فإنَّه على هذا يكونُ قولُ المصَلِّي: تَبارَكَ اسمُك، أي: تبارَكْتَ أنت، ونَفْسُ أسماءِ الرَّبِّ لا بركةَ فيها! ومعلومٌ أنَّ نفْسَ أسْمائِه مُباركةٌ، وبَرَكتُها مِن جهةِ دَلالَتِها على المسمَّى). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ١٩٣).

بنِعَمِه، المُستَحِقِّ للإكرامِ والحُبِّ مِن جَميعِ خَلْقِه[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ الصِّفاتِ الأخلاقيَّةَ تُزاحِمُ الصِّفاتِ المادِّيَّةَ في نعتِ هؤلاءِ الرَّفيقاتِ العُلويَّاتِ، ليس ذلك فحَسْبُ، ولكنِ العنصرُ الأخلاقيُّ يَتقدَّمُ على المادِّيِّ، ومِن ثَمَّ وجَدْنا: ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] [النساء: ٥٧]، و﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ -أوَّلًا- ﴿حِسَانٌ﴾، و﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ -أوَّلًا- ﴿عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]، ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢]، وهنَّ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٤-٣٢٥).

قال الماوَرْدي: (في ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه الجليلُ. الثَّاني: أنَّه المستَحِقُّ للإجلالِ والإعظامِ. وفي «الإكرامِ» وجهانِ؛ أحَدُهما: الكريمُ. الثَّاني: ذو الإكرامِ لِمن يُطيعُه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٤).

وقال ابنُ جرير: (﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ يعني: ذي العَظَمةِ ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ يعني: ومَن له الإكرامُ مِن جَميعِ خَلْقِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨).

وقال ابنُ القَيِّم: (حقيقةُ العِبادةِ هي الحُبُّ والذُّلُّ، وهذا هو الإجلالُ والإكرامُ الَّذي وَصَف به نفْسَه في قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وأصَحُّ القولَينِ في ذلك: أنَّ الجَلالَ هو التَّعظيمُ، والإكرامَ هو الحُبُّ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ١٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿الْجَلَالِ﴾ بمعنى: العَظَمةِ. ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ بمعنى: التَّكريم، وهو صالِحٌ لأن يكونَ الإكرامُ مِن اللهِ لِمَن أطاعه، وممَّن أطاعه له. فـ﴿الْجَلَالِ﴾: عَظَمتُه في نفْسِه، ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾: عَظَمتُه في المؤمِنينَ، فيُكرِمونَه ويُكرِمُهم). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٥٠).

وقال البِقاعي: (قال الرَّازي في «اللَّوامِعِ»: كأنَّه يريدُ بالاسمِ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ، وقد انعطَفَ آخِرُ السُّورةِ على أوَّلِها على وَجهٍ أعَمَّ، فيَشملُ الإكرامَ بتَعليمِ القُرآنِ وغيرِه، والانتِقامَ بإدخالِ النِّيرانِ وغيرِها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٩٤).

لا يَبرَحْنَها. هذه الصِّفاتُ الأخلاقيَّةُ ذاتُها هي الَّتي أمَرَنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن نبنيَ عليها اختيارَنا الزَّوْجيَّ، فقال: ((تُنكَحُ المرأةُ لِأربَعٍ: لِمالِها، ولِحَسَبِها، وجمالِها، ولدِينِها، فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَداك))[١].

٢- قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ فأثنى عليهنَّ بكَونِهنَّ مَقصوراتٍ في خِيامِهنَّ، لا يَخرُجْنَ منها، كما قال تعالى لأزواجِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وكَونُ المرأةِ مَقصورةً في بيتِها لا تخرُجُ منه مِن صِفاتِها الجميلةِ، وذلك معروفٌ في كلامِ العربِ[٢]؛ وذلك لأنَّ الصِّيانةَ تَصونُ ماءَ الملاحةِ ومعناها، والابتِذالَ يُذهِبُ ذلك كلَّه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أنَّه إذا عَلِمْنا أنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بالجَلالِ فإنَّ ذلك يَستوجِبُ أنْ نُعَظِّمَه، وأنْ نُجِلَّه، وإذا عَلِمْنا أنَّه مَوصوفٌ بالإكرامِ فإنَّ ذلك يَستوجِبُ أنْ نرجوَ كَرَمَه وفَضْلَه، وبذلك نُعَظِّمُه بما يَستَحِقُّه مِن التَّعظيمِ والتَّكريمِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ سُؤالٌ: كيف انقَسَمتْ هذه الجِنانُ الأربَعُ على مَن خاف مَقامَ رَبِّه؟

الجوابُ: لَمَّا كان الخائِفونَ نَوعَينِ: مُقَرَّبينَ، وأصحابَ يمينٍ، كان للمُقَرَّبينَ

---

(١) يُنظر: ((دستور الأخلاق في القرآن)) لمحمد عبد الله دراز (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٠٩٠)، ومسلمٌ (١٤٦٦) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣، ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((رحلة الحج إلى بيت الله الحرام)) للشنقيطي (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٥).

منهم الجَنَّتانِ العاليتانِ، ولأصحابِ اليَمينِ الجَنَّتانِ اللَّتانِ دُونَهما[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أنَّ هاتَينِ الجنَّتَينِ دونَ الجنَّتَينِ الأُولَيَينِ، وكما وَصَف الأُولَيَينِ بعِدَّةِ أوصافٍ لم يَصِفْ بها الأُخرَيَينِ؛ فقال في الأُولَيَينِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وفي الأُخرَيَينِ: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، ومِنَ المعلومِ الفَرقُ بيْنَ الجاريةِ والنَّضَّاخةِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨]، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، وفي الأُخرَيَينِ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وقد عُلِمَ ما بيْنَ الوَصفَينِ مِنَ التَّفاوُتِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، وقال في الأُولَيَينِ -في وَصفِ نِسائِهم وأزواجِهم-: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقال في الأُخرَيَينِ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، وقد عُلِمَ التَّفاوُتُ بيْنَ ذلك، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ الأُولَيَينِ جَزاءُ المُحسِنينَ، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، ومجَرَّدُ تَقديمِ الأُولَيَينِ على الأُخرَيَينِ يدُلُّ على فَضلِهما، فبهذه الأوجُهِ يُعرَفُ فَضلُ الأُولَيَينِ على الأُخرَيَينِ، وأنَّهما مُعَدَّتانِ للمُقَرَّبينَ مِنَ الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ وخَواصِّ عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، وأنَّ الأُخرَيَينِ مُعَدَّتانِ لعُمومِ المُؤمِنينَ[2]. وقيل: جَعَل عزَّ وجَلَّ لِمَن خاف مَقامَ رَبِّه -وهو الرَّجُلُ يَهُمُّ بالمعصيةِ، ثمَّ يَدَعُها مِن خَوفِ اللهِ- أربعَ جِنانٍ؛ لِيَتضاعَفَ سُرورُه بالتَّنَقُّلِ[3].

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).
(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٤١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾ يَحتجُّ به مَن يُخرِجُ الرُّمَّانَ والنَّخلَ مِن مُطلَقِ اسمِ الفاكِهةِ؛ لأنَّ الشَّيءَ لا يُعطَفُ على نَفْسِه، وإنَّما يُعطَفُ على غَيرِه، هذا ظاهِرُ الكَلامِ. والشَّافعيُّ يقولُ: هو كقَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[1] [البقرة: ٩٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أنَّ التَّقديمَ ليس لازِمًا للفَضلِ، فلَمْ يَدُلَّ التَّقديمُ فيها على فَضْلِ المبدوءِ به[2].

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ وقال قَبْلًا: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، إنْ قيلَ: كيف قال في ذِكْرِ النِّساءِ: ﴿فِيهِنَّ﴾ في الموضِعَين، ولَمَّا ذَكَرَ غيرَهُنَّ قال: «فيهما»؟!

قيل: لَمَّا ذَكَر الفُرُشَ في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الرحمن: ٥٤] قال بَعْدَها: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، ثمَّ أعاده هنا في الجَنَّتَينِ الأُخرَيَينِ بهذا اللَّفظِ؛ لِيَتشاكَلَ اللَّفظُ والمعنى. واللهُ أعلَمُ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أنَّهنَّ خَيراتُ الأخلاقِ، حِسانُ الأوجُهِ؛ فجَمَعْنَ بيْنَ جَمالِ الظَّاهِرِ والباطِنِ، وحُسْنِ الخَلْقِ والخُلُقِ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ إشارةٌ إلى عَظَمتِهنَّ؛ فإنَّهنَّ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٩٧)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٣).
ويُنظر ما سيأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

ما قُصِرْنَ حَجرًا عليهِنَّ، وإنَّما ذلك إشارةٌ إلى ضَربِ الخِيامِ لهنَّ، وإدلاءِ السِّترِ عليهنَّ، والخَيمةُ مَبيتُ الرَّجُلِ كالبَيتِ مِن الخَشَبِ، حتَّى إنَّ العَرَبَ تُسَمِّي البَيتَ مِنَ الشَّعرِ خيمةً؛ لأنَّه مُعَدٌّ للإقامةِ.

إذا ثَبَت هذا، فقَولُه: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ إشارةٌ إلى معنًى في غايةِ اللُّطفِ، وهو أنَّ المؤمِنَ في الجنَّةِ لا يحتاجُ إلى التَّحرُّكِ لشَيءٍ، وإنَّما الأشياءُ تتحَرَّكُ إليه؛ فالمأكولُ والمشروبُ يَصِلُ إليه مِن غيرِ حَركةٍ منه، ويُطافُ عليهم بما يَشتَهونَه[١]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنَّ الحُورَ العِينَ لَسْنَ مِن نِساءِ أهلِ الدُّنيا -وهو المَشهورُ-، وإنَّما هُنَّ مَخلوقاتٌ في الجنَّةِ؛ فإنَّ أكثَرَ نِساءِ أهلِ الدُّنيا مَطْموثاتٌ[٢].

٩- بهذه الآيةِ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تَمَّت النِّعَمُ الثَّماني المُختَصَّةُ بجَنَّةِ أصحابِ اليَمينِ؛ إشارةً إلى العَمَلِ لأبوابِها الثَّمانيةِ[٣].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قَولُه تعالى: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ (ذي) صِفةٌ لـ (ربِّكَ)، وكأنَّه يريدُ الاسمَ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الرحمن: ١]، فافتتَحَ بهذا الاسمِ، فوَصَف خَلْقَ الإنسانِ والجِنِّ، وخَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ، وصُنْعَه، وأنَّه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ووَصَف تَدبيرَه فيهم، ثمَّ وَصَف يومَ القيامةِ وأهوالَها وصِفةَ النَّارِ، ثمَّ خَتَمها بصِفةِ الجِنانِ، ثمَّ قال في آخِرِ السُّورةِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: هذا الاسمُ الَّذي افتَتَح به هذه السُّورةَ، كأنَّه يُعْلِمُهم أنَّ هذا كُلَّه خرَج لكم مِن رحمتي؛ فمِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٣).

رحمتي خلَقْتُكم، وخلَقْتُ لكم السَّماءَ والأرضَ، والخَلْقَ والخليقةَ، والجنَّةَ والنَّارَ؛ فهذا كُلُّه لكم مِن اسمِ الرَّحمنِ؛ فمَدَح اسمَه، ثمَّ قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ جَليلٌ في ذاتِه، كريمٌ في أفعالِه سُبحانَه وتعالى[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ختَمَ اللهُ تبارك وتعالى هذه السُّورةَ بهذه الجُملةِ العَظيمةِ، أي: ما أعظَمَ بَرَكةَ اللهِ عزَّ وجلَّ! وما أعظَمَ البَرَكةَ باسمِه! حتَّى إنَّ اسمَ اللهِ يُحَلِّلُ الذَّبيحةَ أو يُحَرِّمُها؛ لو ذَبَحَ الإنسانُ ذبيحةً ولم يَقُلْ: باسمِ اللهِ، تكونُ مَيْتةً حَرامًا نَجِسةً، مُضِرَّةً على البَدَنِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فانظُرِ البَرَكةَ! والإنسانُ إذا رأى الصَّيدَ الزَّاحِفَ أوِ الطَّائِرَ فرَماه ولم يُسَمِّ، يكونُ هذا الصَّيدُ حَرامًا مَيْتةً نَجِسًا مُضِرًّا على البَدَنِ، فانظُرِ البَرَكةَ! والإنسانُ إذا أتى أهلَه -يعني: جامَعَ زوجتَه- وقال: «باسمِ اللهِ، اللَّهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رَزَقْتَنا» كان هذا حمايةً لهذا الوَلَدِ الَّذي يَنشَأُ مِن هذا الجِماعِ؛ حِمايةً له مِن الشَّيطانِ؛ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لو أنَّ أحدَهم إذا أراد أن يأتيَ أهلَه قال: باسمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رَزَقْتَنا؛ فإنَّه إنْ يُقَدَّرْ بيْنَهما وَلَدٌ في ذلك لم يَضُرَّه الشَّيطانُ أبدًا))[٢]، وكلُّ هذا دَليلٌ على بَرَكةِ اسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُدْهَآمَّتَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٦٦).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٣٨٨)، ومسلمٌ (١٤٣٤) مِن حديثِ عبدِ الله بن عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٤).

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: ومِن دُونِ تَينِكَ الجنَّتَينِ جنَّتانِ، أي: لِمَن خاف مَقامَ ربِّه(١).

- وقدْ وَصَف ما في هاتَينِ الجنَّتَينِ بما يُقارِبُ ما وَصَف به ما في الجنَّتَينِ الأُولَيَينِ وصْفًا سُلِكَ فيه مَسلَكُ الإطنابِ أيضًا؛ لبَيانِ حُسْنِهما؛ تَرغيبًا في السَّعْيِ لنَيلِهما بتَقْوى اللهِ تعالى، فذلك مُوجِبٌ تَكريرَ بَعضِ الأوصافِ، أو ما يَقرُبُ مِن التَّكريرِ بالمُترادِفاتِ(٢).

- وقولُه: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ صِفةٌ لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾، وُسِّطَ بيْنَهما الاعتِراضُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ لِما ذُكِر مِن التَّنبيهِ على أنَّ تَكذيبَ كلٍّ مِن الموصوفِ والصِّفةِ حَقيقٌ بالإنكارِ والتَّوبيخِ(٣).

- وقولُه: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ وصْفٌ مُشتَقٌّ مِن الدُّهمةِ، وهي لَونُ السَّوادِ، ووَصْفُ الجنَّتَينِ بالسَّوادِ مُبالَغةٌ في شِدَّةِ خُضرةِ أشجارِهما حتَّى تَكونَا بالْتِفافِ أشجارِها وقُوَّةِ خُضرتِها كالسَّوداوَينِ؛ لأنَّ الشَّجرَ إذا كان ريَّانَ اشتدَّتْ خُضرةُ أوراقِه حتَّى تَقرُبَ مِن السَّوادِ(٤).

- قولُه: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ قيل: فيه إشعارٌ بأنَّ الغالبَ على هاتَينِ الجنَّتَينِ النَّباتُ والرَّياحينُ المنبسِطةُ على وجْهِ الأرضِ، وعلى الأُولَيَينِ الأشجارُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

والفواكهُ(١)؛ فإنَّ الأشجارَ توصَفُ بأنَّها ذَواتُ أفنانٍ، والنَّباتَ يوصَفُ بالخُضرةِ الشَّديدةِ، فالاقتِصارُ في كلٍّ منهما على أحدِ الأمْرَينِ مُشعِرٌ بما ذُكِر(٢).

- وُصِفَتِ العَينانِ في قولِه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ بغَيرِ ما وُصِفَت به العَينانِ في الجنَّتينِ المذكورتينِ قبْلُ؛ فقيل: هما صِنفانِ مُختلِفانِ في أوصافِ الحُسنِ، يُشيرُ اختِلافُهما إلى أنَّ هاتَينِ الجنَّتينِ دونَ الأُولَيَينِ في المَحاسِنِ؛ ولذلك جاء هنا ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وجاء فيما تَقدَّم ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقيل: الوصْفانِ سَواءٌ؛ وعليه فالمُخالَفةُ بيْنَ الصِّنفَينِ من الأوصافِ تَفنُّنٌ(٣).

- قولُه: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، عطَفَ النَّخلَ والرُّمَّانَ على الفاكهةِ -وهما منْها-؛ اختِصاصًا لهما، وبَيانًا لفضْلِهما وشَرَفِهما؛ فإنَّهما كأنَّهما مِن المَزِيَّةِ جِنسانِ آخَرانِ، فهذا العطْفُ من بابِ عطْفِ الجُزئيِّ على الكُلِّيِّ؛ تَنويهًا ببَعضِ أفرادِ الجنَّتينِ، أو لأنَّ النَّخلَ ثَمرةُ فاكهةٍ وطَعامٍ، والرُّمَّانَ فاكهةٌ ودَواءٌ؛ فلم يَخلُصَا للتَّفكُّهِ(٤).

- وهذا كقولِه تَعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]؛ وذلك لأنَّ الفاكهةَ أرضيَّةٌ -نحْو البِطِّيخِ وغيرِه من الأرضيَّاتِ المزروعاتِ- وشَجريَّةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢١).

-نحْو النَّخلِ وغيرِه مِن الشَّجَريَّاتِ-؛ فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ بأنواعِ الخُضَرِ الَّتي منها الفواكهُ الأرضيَّةُ، وفيهما أيضًا الفواكهُ الشَّجَريَّةُ، وذَكَر منها نوعَين -وهما الرُّمَّانُ والرُّطَبُ-؛ لأنَّهما مُتقابِلانِ؛ فأحدُهما حُلوٌ والآخرُ غيرُ حُلوٍ، وكذلك أحدُهما حارٌّ، والآخرُ باردٌ، وأحدُهما فاكهةٌ وغِذاءٌ، والآخَرُ فاكهةٌ، وأحدُهما مِن فَواكهِ البلادِ الحارَّةِ، والآخرُ مِن فَواكهِ البلادِ الباردةِ، وأحدُهما أشجارُه في غايةِ الطُّولِ، والآخرُ أشجارُه بالضِّدِّ، وأحدُهما ما يُؤكَلُ منه بارزٌ وما لا يُؤكَلُ كامنٌ، والآخرُ بالعكسِ؛ فهما كالضِّدَّينِ، والإشارةُ إلى الطَّرَفينِ تَتناوَلُ الإشارةَ إلى ما بيْنَهما؛ كما قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[1] [الرحمن: ١٧].

- وجاءتْ جُملُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُعترِضاتٍ بيْنَ ﴿جَنَّتَانِ﴾ وصِفاتِها؛ اعتراضًا للازديادِ مِن تَكريرِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ لِمَن حُرِموا مِن تلك الجنَّاتِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ ضَميرُ ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ إلى الجنَّاتِ الأربعِ -على قولٍ-: الجنَّتينِ الأُولَيينِ، والجنَّتَينِ اللَّتَينِ مِن دُونِهما، فيَجوزُ أنْ يكونَ لصاحبِ الجنَّتَينِ الأُوليَينِ جَنَّتانِ أُخريانِ؛ فصارت له أربعُ جنَّاتٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ تَوزيعًا على مَن خافوا ربَّهم[3].

- و﴿خَيْرَٰتٌ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ يُناسِبُ صِيغةَ الوصْفِ، أي: نِساءٌ خَيْراتٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

و(خَيْراتٌ) مُخفَّفٌ مِن خَيِّراتٍ بتَشديدِ الياءِ؛ مُؤنَّثِ خَيِّرٍ، وهو المُختَصُّ بأنَّ صِفتَه الخيرُ ضِدَّ الشَّرِّ. وخُفِّفَ في الآيةِ؛ طلَبًا لخِفَّةِ اللَّفظِ، معَ السَّلامةِ مِن اللَّبسِ بما أُتبعَ به مِن وَصفِ ﴿حِسَانٌ﴾ الَّذي هو جمْعُ حَسناءَ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ فيه وصْفُ نِساءِ الجَنَّتينِ الأُوليَيْنِ بأنَّهنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، ووصْفُ نِساءِ الجنَّاتِ الأربعِ بأنهنَّ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾؛ فعُلِم أنَّ الصِّفاتِ الثَّابتةَ لِنساءِ الجنَّتَينِ واحِدةٌ[2].

- واعتُرِضَ بجُملةِ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بيْن البَدَلِ ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ والمُبدَلِ منه ﴿حُورٌ﴾، وبيْن الصِّفتَينِ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾؛ لقَصْدِ التَّكريرِ في كلِّ مَكانٍ يَقْتضيه[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ مِن ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، كُرِّرَت بدونِ عطْفٍ؛ لأنَّها في مَقامِ تَعدادِ النِّعمِ، وهو مَقامٌ يَقْتضي التَّكريرَ استِئنافًا. أو حالٌ حُذِفَ عامِلُه، أي: يَتنعَّمون، أو نُصِبَ على الاختِصاصِ[4].

- وقولُه: ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرَّفرفُ: ضَرْبٌ مِن البُسطِ، وهو اسمُ جمْعِ رَفرفةٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٠).

وهي ما يُبسَطُ على الفِراشِ لِيُنامَ عليه، وهي تُنسَجُ على شِبهِ الرِّياضِ، ويَغلِبُ عليها اللَّونُ الأخضرُ، فوصْفُ الرَّفرفِ بأنَّها خُضْرٌ وصْفٌ كاشفٌ؛ لاستِحضارِ اللَّونِ الأخضرِ؛ لأنَّه يَسُرُّ النَّاظرَ[1].

- و(عَبْقَرِيٌّ) وصْفٌ لِمَا كان فائقًا في صِنفِه، عَزيزَ الوجودِ؛ فضَرَبه القرآنُ مثَلًا لِما هو مألوفٌ عندَ العرَبِ في إطلاقِه[2].

- وقولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكريرٌ في آخرِ الأوصافِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ لَمَّا ختَمَ تعالى نِعَمَ الدُّنيا بقولِه: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ختَمَ نِعَمَ الآخرةِ بقولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وناسَبَ هنالك ذِكرُ الوصفِ بالبَقاءِ والدَّيمومةِ له تعالى؛ إذ ذُكِرَ فَناءُ العالَمِ، وناسَبَ هنا ذِكرُ ما اشتُقَّ مِن البَرَكةِ -وهي النُّموُّ والزِّيادةُ-؛ إذ جاء ذلك عَقِبَ ما امتنَّ به على المؤمنينَ، وما آتاهُم في دارِ كَرامتِه مِن الخَيرِ وزِيادتِه ودَيمومتِه[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ تَنزيهٌ وتَقديسٌ له سُبحانَه تعالَى، فيه تَقريرٌ لِمَا ذُكِرَ في السُّورةِ الكَريمةِ مِن آلائِه الفائِضةِ على الأنامِ، أي: تعالَى اسمُه الجليلُ الَّذي مِن جُمْلتِه ما صُدِّرتْ به السُّورةُ مِن اسمِ الرَّحمنِ المُنبئِ عن إفاضتِه الآلاءَ المُفصَّلةَ، وارتفَعَ عمَّا لا يَليقُ بشأنِه مِن الأمورِ الَّتي مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٢).

جُملتِها جُحودُ نَعمائِه وتَكذيبُها. وإذا كان حالُ اسمِه بمُلابَسةِ دَلالتِه عليه؛ فما ظنُّك بذاتِه الأقدسِ الأَعْلى(١)؟!

- قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ إيذانٌ بانتِهاءِ الكلامِ، وفَذْلَكةٌ(٢) لِما بُنِيَتْ عليه السُّورةُ مِن التَّذكيرِ بعَظَمةِ اللهِ تعالى ونَعْمائِه في الدُّنيا والآخِرةِ، والكلامُ إنشاءُ ثَناءٍ على اللهِ تعالى مُبالَغٍ فيه بصِيغةِ التَّفعُّلِ، الَّتي إذا كان فِعلُها غيرَ صادرٍ مِن اثنينِ فالمَقصودُ منها المُبالَغةُ(٣).

- وأُسنِدَ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ إلى ﴿ٱسۡمُ﴾ -وهو ما يُعرَفُ به المُسمَّى- دونَ أنْ يقولَ: (تبارَكَ ربُّك)؛ لقصْدِ المُبالَغةِ في وَصْفِه تعالى بصِفةِ البَرَكةِ، على طَريقةِ الكِنايةِ؛ لأنَّها أبلَغُ مِن التَّصريحِ؛ لأنَّه إذا كان اسمُه قد تبارَكَ، فإنَّ ذاتَه تبارَكَت لا مَحالةَ؛ لأنَّ الاسمَ دالٌّ على المُسمَّى، فذِكرُ ﴿ٱسۡمُ﴾ في قولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ﴾ مُراعًى فيه أنَّ ما عُدِّدَ مِن شُؤونِ اللهِ تعالى ونِعَمِه وإفضالِه، لا تُحيطُ به العِبارةُ، فعُبِّرَ عنه بهذه المُبالَغةِ -إذ هي أقْصى ما تَسمَحُ به اللُّغةُ في التَّعبيرِ-؛ ليَعلَمَ النَّاسُ أنَّهم مَحقوقونَ للهِ تعالى بشُكرٍ يُوازي عِظَمَ نِعَمِه عليهم(٤).

- وفي استِحضارِ الجَلالةِ بعُنوانِ (ربّ) مُضافًا إلى ضَميرِ المُخاطَبِ -وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٧).

(٢) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق من الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحِسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيله، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- إشارةٌ إلى ما في معْنى الرَّبِّ مِن السِّيادةِ المَشوبةِ بالرَّأفةِ والتَّنميةِ، وإلى ما في الإضافةِ مِن التَّنويهِ بشَأنِ المُضافِ إليه، وإلى كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الواسِطةَ في حُصولِ تلك الخَيراتِ للَّذين خافوا مَقامَ ربِّهم بما بلَّغَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الهُدى(١).

- وقولُه: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وُصِفَ به الرَّبُّ تعالى تَكميلًا لِما ذُكِرَ مِن التَّنزيهِ والتَّقريرِ(٢).

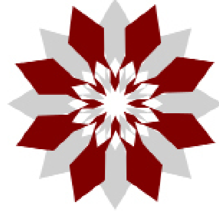


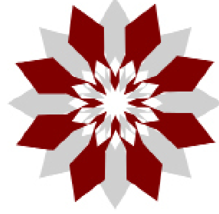
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٧).

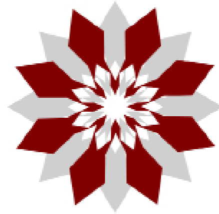
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)







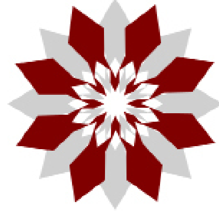


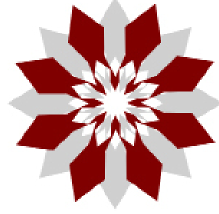
تَفْسِيرُ

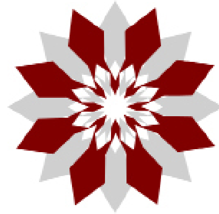
سُورَةِ الواقِعةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)







سورةُ الواقِعةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الواقِعةِ(١).

بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ الواقِعةِ مَكِّيَّةٌ(٢)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

تقريرُ البَعثِ والجزاءِ، والتَّذكيرُ بيَومِ القيامةِ، وبيانُ أقسامِ النَّاسِ فيه(٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّذكيرُ بيومِ القيامةِ، والحَديثُ عن أهوالِها، وبيانُ أصنافِ النَّاسِ في هذا

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ الواقعةِ؛ لِافتِتاحِها بلَفظِ (الواقِعة). يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠).
قال ابنُ عاشور: (وهكذا سُمِّيَتْ في المصاحِفِ وكُتُبِ السُّنَّة، فلا يُعْرَفُ لها اسمٌ غيرُ هذا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٩).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً منها فمَدَنيَّةٌ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. وقيل: والآيةُ الَّتي قَبْلَها. وقيل: السُّورةُ كُلُّها مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠).
ونَسَب ابنُ الجوزي إلى الأكثَرينَ القَولَ بأنَّها مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧).

اليومِ، ومآلِ كُلِّ صِنفٍ.

٢- الحَديثُ عن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وسَعةِ رَحمتِه، وعَظيمِ فَضْلِه.

٢- تأكيدُ أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، وأنَّه نِعمةٌ أنعَمَ اللهُ بها عليهم فلم يَشكُروها، وكَذَّبوا بما فيه.

٣- ذِكرُ مَشهَدِ الاحتِضارِ، وحالِ المتوَفَّينَ وأقسامِهم، وعاقِبةِ كُلِّ قِسمٍ.



الآيات (١-٩)

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾: أي: القيامةُ، والواقِعَةُ لا تُقالُ إلَّا في الشِّدَّةِ والمَكروهِ[(١)].

﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾: أي: ليس لمجيئِها رَدٌّ ولا رُجوعٌ ولا تكذيبٌ، والكاذِبةُ هنا: مَصدَرٌ بمعنى الكَذِبِ، كالخائِنةِ، واللَّاغيةِ، والخاطِئةِ، والعافيةِ، والعاقِبةِ[(٢)].

﴿رُجَّتِ﴾: أي: زُلْزِلَتْ واضطَرَبت، وأصلُ (رجج): يدُلُّ على الاضطِرابِ[(٣)].

﴿وَبُسَّتِ﴾: أي: فُتِّتَتْ، وقيل: خُلِطَتْ فصارَتْ كالدَّقيقِ المبْسوسِ، وهو الملتوتُ بشيءٍ مِن الماءِ، وقيل: معناه: سِيقَت سَوقًا سَريعًا؛ من قَولِهم: انْبَسَّتِ الحيَّاتُ: أي: انسابت انسيابًا سريعًا، وأصلُ (بسس) هنا: فَتُّ الشَّيءِ وخَلْطُه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٣- ٢١٤)، ((المفردات)) =

﴿هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾: أي: غُبارًا مُنتشِرًا مُتفَرِّقًا كالَّذي يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ إذا دَخَل مِنَ الكَوَّةِ، وأصلُ (هبو): يدُلُّ على غَبرةٍ ورِقَّةٍ فيها، وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ وإظهارُه(١).

﴿أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾: أي: أصنافًا وأنواعًا ثلاثةً، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لشَيءٍ(٢).

﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: أي أصحابُ اليمينِ، والمَيمنةُ: ناحيةُ اليمينِ(٣).

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾: أي: وأصحابُ الشِّمالِ، وأصلُ (شأم): يدُلُّ على الجانبِ اليَسارِ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مقرِّرًا الحقيقةَ الَّتي لا بدَّ مِن وُقوعِها: إذا قامت القيامةُ وتحقَّقَ وُقوعُها، ليس وُقوعُها بكَذِبٍ؛ فهو أمرٌ حَقٌّ واقعٌ لا محالةَ، فتَخفِضُ أقوامًا فيَدخُلونَ النَّارَ، وتَرفَعُ آخَرينَ فيَدخُلونَ الجنَّةَ.

= للراغب (ص: ١٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢) و (٦/ ٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٩).

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى ما يَحدُثُ في هذا اليَومِ، فيقولُ: إذا زُلْزِلَت الأرضُ زِلزالًا شَديدًا، وفُتِّتَت الجِبالُ تَفتيتًا، فصارت غُبارًا مُتفرِّقًا، وصِرْتُم -أيُّها النَّاسُ- أصنافًا ثلاثةً.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى مفصِّلًا أحوالَ الأزواجِ الثَّلاثةِ: فالصِّنفُ الأوَّلُ: أصحابُ اليَمينِ، ما أعظَمَ شَأنَهم! والصِّنفُ الثَّاني: أصحابُ الشِّمالِ، ما أفظَعَ شأنَهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ١﴾.

أي: إذا قامت القيامةُ، وتحقَّقَ وُقوعُها[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٥].

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢﴾.

أي: ليس وُقوعُها بكَذِبٍ؛ فهو أمرٌ حَقٌّ واقِعٌ يَقينًا لا مَحالةَ[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨).

قال ابنُ كثير: (الواقِعةُ: مِن أسماءِ يومِ القيامةِ؛ سُمِّيَت بذلك لتحَقُّقِ كَونِها ووُجودِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يحتمِلُ ثلاثةَ أوجُه:

الأوَّلُ: أن تكونَ الكاذبةُ مصدرًا كالعافيةِ، والمعنى: ليس لها كذِبٌ ولا ردٌّ. =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣﴾.

أي: تَخفِضُ أقوامًا إلى النَّارِ فيَدخُلونَ الجَحيمَ، وإن كانوا في الدُّنيا أعِزَّاءَ، وتَرفَعُ أقوامًا إلى الجنَّةِ فيَنالونَ النَّعيمَ، وإن كانوا في الدُّنيا أذِلَّاءَ(١)!

= الثَّاني: أن تكونَ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفةَ مَحذوفٍ، كأنَّه قال: ليس لها حالةٌ كاذبةٌ، أي: هي صادِقةُ الوُقوعِ، ولا بُدَّ، وهذا المعنى قريبٌ مِن الأوَّلِ.

الثَّالثُ: أن يكونَ التَّقديرُ: ليس لها نفْسٌ كاذبةٌ أيَّ تكذيبٍ في إنكارِ البعثِ؛ لأنَّ كلَّ نفْسٍ تؤمنُ حينَئذٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤).

وممَّن اختار القولَ المذكورَ وأنَّ المرادَ: تَخفِضُ قَومًا إلى النَّارِ، وتَرفَعُ آخَرينَ إلى الجنَّةِ: ابن جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبي، والبغوي، وابن جُزَي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٣).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: تَخفِضُ أقوامًا إلى أسفَلِ السَّافِلينَ في النَّارِ، وتَرفَعُ أقوامًا إلى عِلِّيِّينَ في الجنَّةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ، وعثمانُ بنُ عبدِ الله بنِ سُراقةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)،))تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٢)،))تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤، ٥).

وقيل: المعنى: خَفَضَت صَوتَها فأسمَعَت القَريبَ، ورَفَعَت صَوتَها فأسمَعَتِ البعيدَ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ ﴾.

أي: إذا زُلْزِلَت الأرضُ على سَعَتِها وثِقْلِها، فحُرِّكت تَحريكًا شَديدًا، فاهتَزَّت واضطَرَبتْ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١].

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ ﴾.

أي: وفُتِّتَت الجِبالُ على عَظَمتِها وصَلابتِها تَفتيتًا[(٢)]!

= ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ المعنى: خافِضةٌ الأشياءَ المُرتَفِعةَ كالنُّجومِ، رافِعةٌ الأشياءَ الَّتي كانت مُنخَفِضةً. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٩، ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١، ٥١٢).

قال الشنقيطي: (وقولُه تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ في معناه لأهلِ العلمِ أوجهٌ متقارِبةٌ، لا يُكذِّبُ بعضُها بعضًا، وكلُّها حقٌّ، وكلُّها يشهدُ له قرآنٌ). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١)

وذكَر الواحديُّ في معنى (بُسَّت) ثلاثةَ أقوالٍ: =

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

أي: فصارت ذَرَّاتِ غُبارٍ صَغيرةً مُتطايرةً مُتفَرِّقةً، كالَّتي تُرَى لدى انعِكاسِ أشِعَّةِ الشَّمسِ في مَوضِعٍ مُظلِمٍ[1]!

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾.

أي: وصِرْتُم -أيُّها النَّاسُ- أصنافًا ثلاثةً بحَسَبِ أعمالِكم في الدُّنيا[2].

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾.

= الأوَّلُ: خُلِطت، فصارَتْ كالدَّقيقِ المبسوسِ، وهو الملتوتُ بشيءٍ مِن الماءِ.

الثَّاني: أنَّ معنَى البسِّ الفتُّ.

الثَّالثُ: أنَّ البسَّ هو السَّوقُ والطَّردُ، فمعنى (بُسَّت) سِيقَتْ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٤).

ونسَب الشِّنقيطي إلى أكثرِ المفسِّرينَ أنَّ معنَى ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتَتْ تفتيتًا حتَّى صارَتْ كالبسيسةِ، وهي دقيقٌ ملتوتٌ بسمنٍ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٤-٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَسَّمَهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ، وفَرَّع تَقسيمَهم؛ ذكَرَ أحوالَهم، فقال[1]:

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ ﴾.

أي: فالصِّنفُ الأوَّلُ: أصحابُ اليَمينِ الَّذين يَدخُلونَ الجنَّةَ، وما أعظَمَ شَأنَ أصحابِ اليَمينِ[2]!

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ ﴾.

أي: والصِّنفُ الثَّاني: أصحابُ الشِّمالِ الَّذين يَدخُلونَ النَّارَ، وما أفظَعَ شأنَ أصحابِ الشِّمالِ[3]!

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [البلد: ١٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- هذه السُّورةُ لو لم يَنزِلْ في القُرآنِ إلَّا هي، لَكانت كافيةً في الحَثِّ على فِعلِ الخَيرِ وتَرْكِ الشَّرِّ؛ فقد ذَكَرَ اللهُ تعالى في أوَّلِها يومَ القيامةِ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٤).

قال الشنقيطي: (قال بَعضُ العُلَماءِ: قيل لهم أصحابُ اليَمينِ؛ لأنَّهم يُؤتَونَ كُتُبَهم بأيْمانِهم. وقيل: لأنَّهم يُذهَبُ بهم ذاتَ اليَمينِ إلى الجنَّةِ. وقيل: لأنَّهم عن يمينِ أبيهم آدَمَ، كما رآهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كذلك لَيلةَ الإسراءِ. وقيل: سُمُّوا أصحابَ اليَمينِ وأصحابَ المَيمَنةِ؛ لأنَّهم ميامينُ، أي: مُبارَكونَ على أنفُسِهم؛ لأنَّهم أطاعوا ربَّهم فدَخَلوا الجنَّةَ، واليُمْنُ: البَرَكةُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٤).

ﱡﭐ ٱلۡوَاقِعَةُ ﱠ، ثمَّ قَسَّمَ النَّاسَ فيها إلى ثلاثةِ أقسامٍ: السَّابقِينَ، وأصحابِ اليمينِ، وأصحابِ الشِّمالِ، ثمَّ ذَكَر اللهُ في آخِرِها حالَ الإنسانِ عندَ الموتِ، وقَسَّمَ كلَّ النَّاسِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: مُقَرَّبينَ، وأصحابِ يَمينٍ، ومُكذِّبينَ ضالِّينَ، وكذلك ذَكَر اللهُ فيها ابتِداءَ الخلْقِ في قَولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ * ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، والرِّزْقَ مِن طَعامٍ وشَرابٍ وما يُصلِحُهما؛ فهي سورةٌ مُتكامِلةٌ؛ ولهذا ينبغي للإنسانِ أنْ يَتدبَّرَها إذا قَرَأها، كما يَتدبَّرُ سائِرَ القُرآنِ، لكنْ هي اشتَمَلتْ على مَعانٍ عظيمةٍ. واللهُ الموفِّقُ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ ترغيبٌ وترهيبٌ؛ لِيَخافَ النَّاسُ في الدُّنيا مِن أسبابِ الخَفضِ في الآخِرةِ، فيُطيعوا اللهَ، ويَرغَبوا في أسبابِ الرَّفعِ فيُطيعوه أيضًا(٢).

٣- عَن زَيدِ بنِ أسلَمَ في قَولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ قال: (مَنِ انخفَضَ يَومَئِذٍ لم يَرتَفِعْ أبدًا، ومَن ارتَفَع يومَئِذٍ لم يَنخَفِضْ أبدًا)(٣)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّها تَقَع دَفْعةً واحِدةً؛ فالواقِعةُ: للمَرَّةِ الواحِدةِ(٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ إلى قَولِه: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٨] بِشارةٌ للمُؤمنينَ كَبيرةٌ، ورَدٌّ على المُعتَزِلةِ واضِحٌ؛ لأنَّ اللهَ -جلَّ جَلالُه- زَمَرَ جميعَ خلْقِه ثلاثَ زُمَرٍ، وأخبَرَ عن كلِّ زُمرةٍ بما هو فاعِلٌ بها ومُصَيِّرُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنَّف)) (٧/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٥).

إليه، فأخبَرَ عن المقرَّبينَ بما أخبَرَ، فعُلِمَ أنَّه مَيَّزَهم عنِ المؤمنينَ بفَضلِ الطَّاعةِ، وزيادةِ ما أُوتوا؛ إذ فيهم الأنبياءُ والصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ، وأخبَرَ عن أصحابِ اليَمينِ بما أخبَرَ، فعُلِمَ أنَّهم دونَهم في المَنزِلةِ، مُساوونَ لهم في التَّوحيدِ، فمَن كان مُذنِبًا مُوَحِّدًا فهو داخِلٌ معهم، وأخبَرَ عن أصحابِ الشِّمالِ بما أخبَرَ، وجَعَل في صِفَتِهم أنَّهم كانوا: ﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]؛ فعُلِمَ أنَّهم الكُفَّارُ كلُّهم عَبَدةُ الأوثانِ، والمنافقونَ، وأهلُ الكتابِ الَّذين لا يُؤمِنونَ باللهِ ولا باليَومِ الآخِرِ، وكذا قال في آخرِ السُّورةِ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤]، فلم يَذْكُرْ لهم ثالِثًا، وذَكَرَ أصحابَ الأعرافِ -في موضعٍ آخَرَ- وذَكَرَ نجاتَهم؛ فهُم زُمَرٌ ثلاثٌ لا رابعَ لهم، أو أربَعٌ لا خامِسَ لهم، فمَنِ الزُّمرةُ الخامِسةُ -ليتَ شِعْري!- الَّتي يُخَلِّدُها المُعتَزِلةُ مع الكُفَّارِ في النَّارِ؟! إذ غيرُ مُمكِنٍ أنْ تُجعَلَ واحِدةً مِن هؤلاء، ولا خارجَ في قَولِهم بَتَّةً!

فقد وَضَحَ -بنِعمةِ اللهِ- دَحْضُ حُجَّتِهم في الوَعيدِ، بالدَّليلِ العَتيدِ في هذا الفَصلِ، وحَقَّتْ بِشارةُ المؤمنينَ المُذنِبينَ بالنَّجاةِ، بنِعمةِ ربِّهم ورَأفَتِه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ذَكَرَهم اللهُ تعالى غيرَ مُرَتَّبينَ في الفَضلِ؛ فبَدَأَ اللهُ بأصحابِ المَيمَنةِ، ثمَّ ثَنَّى بأصحابِ الشِّمالِ، ثمَّ ثَلَّثَ بالسَّابِقينَ، لكِنْ عندَ التَّفصيلِ بَدَأَ بهم مُرَتَّبينَ على حَسَبِ الفَضلِ؛ فبَدَأَ بالسَّابِقينَ، ثمَّ بأصحابِ اليَمينِ، ثمَّ بأصحابِ الشِّمالِ، وهذا التَّفصيلُ المُرَتَّبُ خِلافُ التَّرتيبِ المُجمَلِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١١).

وهو مِن أساليبِ البلاغةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾

- افتِتاحُ هذِه السُّورةِ بالظَّرفِ المُتضمِّنِ الشَّرطَ -وهو قولُه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾- افتتاحٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يَسْترعي الألْبابَ لترقُّبِ ما بعْدَ هذا الشَّرْطِ الزَّمانيِّ، معَ ما في الاسمِ المُسنَدِ إليه -﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾- مِن التَّهويلِ بتوقُّعِ حدَثٍ عَظيمٍ يَحدُثُ[٢].

- و(إذَا) في قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قيل: إنَّها هي الظَّرفيَّةُ المضَمَّنةُ معنَى الشَّرطِ، وإنَّ قولَه الآتيَ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ بدَلٌ مِن قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، وجوابَ (إذا) هو قولُه: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ فالمعْنى: إذا قامتِ القِيامةُ، وحَصَلَتْ هذه الأحوالُ العَظيمةُ؛ ظَهَرت مَنزِلةُ أصحابِ الميمنةِ وأصحابِ المشْأمةِ[٣]. وقيل: إنَّ انتصابَ (إذَا) بمُضمَرٍ يُنبِئُ عن الهَولِ والفَظاعةِ، ولتذهبَ النَّفْسُ فيه كلَّ مَذهبٍ؛ فيَكونَ أهْوَلَ، أي: إذا وقعتْ كانتْ أمورًا يَضيقُ عنها نِطاقُ الحَصرِ، أو كأنَّه قيلَ: إذَا وقَعتِ الواقعةُ يَكونُ مِن الأهوالِ ما لا يَفي به المَقالُ[٤].

- والتَّعبيرُ عن القِيامةِ بالواقِعةِ؛ للإيذانِ بتَحقُّقِ وُقوعِها لا مَحالةَ، فكأنَّه قِيل: إذا وقَعت الَّتي لا بُدَّ من وُقوعِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) =

- وأيضًا حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ في هذِه الآياتِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ...﴾؛ مِن أجْلِ أنْ يَذهبَ الذِّهنُ في تَقديرِه كلَّ مذهبٍ، يعني: إذا وقعتِ الواقعةُ صارتِ الأهوالُ العظيمةُ، وصارَ انقسامُ النَّاسِ، وحصَل ما حصَل ممَّا أخبَرَ به اللهُ سُبحانَه، ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا يكونُ في يومِ القيامةِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ...﴾ إلخ، وهو اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ...﴾ [الواقعة: ٨] إلخ، والجوابُ قولُه: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]، فيُفيدُ جوابًا للشَّرطِ، ويُفيدُ تَفصيلَ جُملةِ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، وتكونُ الفاءُ مُستعمَلةً في مَعنيَينِ: ربْطِ الجوابِ، والتَّفريعِ، وتكونُ جُملةُ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ وما بعْدَه اعتِراضًا[٢].

- وقيل: انتصابُ (إذَا) بمُضمَرٍ يُنبِئُ عن الهَولِ والفظاعةِ كأنَّه قيلَ: إذَا وقعتِ الواقعةُ يكونُ من الأهوالِ ما لا يفي به المقالُ، وعليه فقولُه ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ الشَّرطِ، على أنَّ الكاذبةَ مَصدَرٌ كالعافيةِ، أي: ليسَ لأجْلِ وَقْعَتِها وفي حقِّها كذِبٌ أصْلًا، بلْ كلُّ ما ورَدَ في شأْنِها من الأخبارِ حقٌّ صادقٌ لا رَيبَ فيه[٣].

- وهذا وَعيدٌ بتَحذيرِ المُنكِرينَ للقِيامةِ مِن خِزْيِ الخَيبةِ، وسَفاهةِ الرَّأيِ بيْنَ

= (٨/ ١٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

أهلِ الحشْرِ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ خَبرانِ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ ضَميرِ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، أي: هي خافضةٌ رافعةٌ(٢).

- وهذا تَقريرٌ لعَظَمةِ القِيامةِ، وتَهويلٌ لأمْرِها؛ فإنَّ الوقائعَ العِظامَ شأْنُها كذلك، أو بَيانٌ لِما يكونُ حِينَئذٍ مِن حَطِّ الأشقياءِ إلى الدَّرَكاتِ، ورفْعِ السُّعداءِ إلى الدَّرجاتِ، ومِن زَلزلةِ الأشياءِ، وإزالةِ الأجرامِ عن مَقارِّها، بنَثْرِ الكواكبِ، وإسقاطِ السَّماءِ كِسَفًا، وتَسييرِ الجبالِ في الجوِّ كالسَّحابِ(٣).

- وتَقديمُ الخفْضِ على الرَّفعِ؛ للتَّشديدِ في التَّهويلِ(٤).

- وفي قولِه: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ مُحسِّنُ الطِّباقِ(٥)، مع الإغرابِ بثُبوتِ الضِّدَّينِ لشَيءٍ واحدٍ(٦).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ الرَّجُّ: الاضطرابُ والتَّحرُّكُ الشَّديدُ، وهو ما يَطرَأُ فيها مِن الزَّلازلِ والخسْفِ ونحْوِ ذلك، والتَّأكيدُ بالمَصدرِ ﴿رَجّٗا﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِه، وليَتأتَّى التَّنوينُ المُشعِرُ بالتَّعظيمِ والتَّهويلِ(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٥) تقدَّم تعريفه (ص: ٢١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ فيه تأْكيدُ الفِعلِ ﴿ وَبُسَّتِ ﴾ بقولِه: ﴿بَسًّا ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيمِ بالتَّنوينِ[١].

- وتَفريعُ ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ على (بُسَّتِ الْجِبَالُ) لائقٌ بمَعْنيَي البَسِّ -وهما التَّفتُّتُ وتَفريقُ الأجزاءِ، والسَّوقُ-؛ لأنَّ الجِبالَ إذا سُيِّرت فإنَّما تُسيَّرُ تَسييرًا يُفتِّتُها ويُفرِّقُها، أي: تَسْييرَ بَعثرةٍ وارتِطامٍ[٢].

- والمُنبَثُّ: مُطاوِعُ بثَّه، إذا فرَّقَه، واختِيرَ هذا المُطاوِعُ لمُناسَبتِه مع قولِه: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ في أنَّ المَبنيَّ للنَّائبِ معْناه كالمُطاوَعةِ[٣].

- قولُه: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: فكانت كالهَباءِ المُنبَثِّ[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ الخِطابُ في ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ للنَّاسِ كلِّهم، وهذا تَخلُّصٌ للمَقصودِ مِن السُّورةِ، وهو المَوعِظةُ[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ لَمَّا وقَعَ قولُه: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة: ٧] عطْفًا على الجُمَلِ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذا) مِن قولِه: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ [الواقعة: ٤]، كان هو مَحَطَّ القصْدِ مِن التَّوقيتِ بـ (إذا) الثَّانيةِ الواقعةِ بَدَلًا مِن (إذا) الأُولى، وكِلْتاهما مُضمَّنةٌ معْنى الشَّرطِ، فكان هذا في معْنى الجَزاءِ؛ فيجوزُ جعْلُ الفاءِ في قولِه: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ لربْطِ الجَزاءِ، مع التَّفصيلِ للإجمالِ، وتكونُ جُملةُ ﴿ فَأَصْحَٰبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ﵟٱلۡمَيۡمَنَةِﵞ جوابًا لـ (إذا) الثَّانيةِ، يَؤُولُ إلى كَونِه جوابًا لـ (إذا) الأُولى؛ لأنَّ الثَّانيةَ مُبدَلةٌ منها؛ ولذلك جاز أنْ يكونَ هذا هو جوابَ (إذا) الأُولى، فتَكونَ الفاءُ مُستعمَلةً في مَعْنَيَيها: ربْطِ الجَوابِ بالشَّرطِ، والتَّفريعِ -كما تقدَّمَ عِندَ قولِه تعالَى: ﵟلَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌﵞ[1] [الواقعة: ٢].

- وقد أفاد التَّفصيلُ أنَّ الأصنافَ ثلاثةٌ: صِنفٌ منهم أصحابُ المَيمنةِ، واليمينُ جِهةُ عِنايةٍ وكَرامةٍ في العُرفِ، قيل: اشتُقَّتْ مِن اليُمْنِ، أي: البَرَكةِ، وصِنفٌ أصحابُ المَشأمةِ، وهي اسمُ جِهةٍ، قيل: هي مُشتقَّةٌ مِن الشُّؤمِ، وهو ضِدُّ اليُمْنِ، فهو الضُّرُّ وعدَمُ النَّفعِ، وقد سُمِّيَا في الآيةِ الآتيةِ ﵟأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِﵞ [الواقعة: ٢٧]، وﵟوَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِﵞ [الواقعة: ٤١]؛ فجُعِلَ الشِّمالُ ضِدَّ اليَمينِ، كما جُعِلَ المَشأمةُ هنا ضِدَّ المَيمنةِ؛ إشعارًا بأنَّ حالَهم حالُ شُؤمٍ وسُوءٍ، وكلُّ ذلك مُعبَّرٌ به عمَّا عُرِفَ في كَلامِ العَربِ مِن إطلاقِ هذَينِ اللَّفظَينِ على هذا المعْنى الكِنائيِّ الَّذي شاعَ حتَّى ساوَى الصَّريحَ؛ ولذلك استُغنِيَ هنا عن الإخبارِ عن كِلَا الفَريقينِ بخبَرٍ فيه وصْفُ بَعضِ حالَيْهما بذِكرِ ما هو إجمالٌ لحالَيْهما، ممَّا يُشعِرُ به ما أُضِيفَ إليه أصحابُه مِن لَفظَيِ المَيمنةِ والمَشأمةِ بطَريقةِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في التَّعجيبِ مِن حالِ الفريقَينِ في السَّعادةِ والشَّقاوةِ، وهو تَعجيبٌ تُرِكَ على إبْهامِه هنا؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ مُمكنٍ مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فـ(ما) في المَوضعينِ اسمُ استِفهامٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٨٥، ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٥، ٢٨٦).

- وإظهارُ لَفظَيْ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وتَكريرُهما بعْدَ الاستِفهامَينِ دونَ الإتيانِ بضَميرَيْهما؛ لأنَّ مَقامَ التَّعجيبِ والتَّفخيمِ والتَّشهيرِ يَقْتضي الإظهارَ، كما في قولِه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۞ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣]، وكما يُقالُ: زيدٌ ما زيدٌ! والمقصودُ تكثيرُ ما لأصحابِ الميمنةِ مِن الثَّوابِ، وما لأصحابِ المشأمةِ مِن العِقابِ(١).

- قيل: والَّذي تَقتضيهِ جَزالةُ التَّنزيلِ أنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وقولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ فإنَّ المُترقَّبَ عندَ بَيانِ انقسامِ النَّاسِ إلى الأقسامِ الثَّلاثةِ بَيانُ أنفَسِ الأقسامِ الثَّلاثةِ، وأمَّا أَوصافُها وأَحوالُها فحَقُّها أنْ تُبيَّنَ بعْدَ ذلكَ بإسنادِها إليها، والتَّقديرُ: فأحدُها أصحابُ المَيمنةِ، والآخَرُ أصحابُ المشْأَمة، والثَّالثُ السَّابِقونَ، خَلا أنَّه لَمَّا أُخِّرَ بيانُ أحوالِ القِسمَينِ الأوَّلَينِ، عُقِّبَ كلٌّ منهُما بجُملةٍ مُعترِضةٍ بيْنَ القِسمَينِ مُنبئةٍ عن تَرامي أحوالِهما في الخَيرِ والشَّرِّ إنباءً إجماليًّا، مُشعِرًا بأنَّ لأحوالِ كلٍّ منهُما تفصيلًا مُترقَّبًا، لكنْ لا على أنَّ (مَا) الاستِفهاميَّةَ مُبتدَأٌ وما بعْدَها خَبرٌ، بلْ على أنَّها خبَرٌ لِما بعْدَها؛ فإنَّ مَناطَ الإفادةِ بَيانُ أنَّ أصحابَ المَيمنةِ أمْرٌ بَديعٌ، كما يُفيدُه كونُ (ما) خبَرًا، لا بَيانُ أنَّ أمْرًا بَديعًا أصحابُ المَيمنةِ، كما يُفيدُه كونُها مُبتدأً، وكذا الحالُ في أصحابِ المشْأمةِ، وأمَّا القِسمُ الأخيرُ فحيثُ قُرِنَ بَيانُ مَحاسِنِ أحوالِه بذِكْرِه لم يُحتَجْ فيهِ إلى تَقديمِ الأُنْمُوذَجِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأٌ، والإظهارُ في مقامِ الإضمارِ للتَّفخيمِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٣٣، ١٣٤).

الآيات (١٠-٢٦)

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ
عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾
وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ
﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ثُلَّةٞ﴾: أي: فِرقةٌ وجَماعةٌ غَيرُ مَحصورةِ العَدَدِ في قِلَّةٍ ولا كَثرةٍ، وأصلُ (ثلل) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[1].

﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾: أي: مَنسوجةٍ مُتداخِلٍ بعضُها في بَعضٍ، والوَضْنُ: نَسجُ الدِّرْعِ، ويُستَعارُ لكُلِّ نَسجٍ مُحكَمٍ[2].

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي: لَا يَموتونَ، مِن الخُلْدِ وهو البقاءُ، أو: يبقونَ على حالِهم لا يَتغيَّرونَ، ولا يَكبَرونَ، ولا يهرَمونَ، والعربُ تقولُ للَّذي لا يشيبُ: مخلَّدٌ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والملازمةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، =

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ﴾: الأكوابُ جَمْعُ كُوبٍ، وهو الإناءُ المستديرُ الرَّأسِ الَّذي لا عُرْوةَ له ولا خُرطومَ، فإنْ كان له ذلك فهو الإبريقُ، والكأسُ: الإناء فيه الخَمرُ والشَّرابُ، فإن كان فارغًا فليس بكأسٍ، فالكأسُ اسْمٌ يَقعُ لكلِّ إناءٍ معَ شَرابِه[1].

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: شرابٍ ظاهرٍ للعيونِ جارٍ، يقالُ: مَعَن الماءُ: أي: جرى، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، وقيل: هو مشتقٌّ مِن العينِ، ووزنُه مفعولٌ، فالميمُ زائدةٌ[2].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾: أي: لا تُصَدَّعُ رُؤوسُهم مِن شُرْبِها، والتَّصديعُ: الإصابةُ بالصُّداعِ، وهو وَجَعُ الرَّأسِ النَّاشِئُ عن السُّكرِ، والصَّدعُ: الشَّقُّ في الأجسامِ الصُّلبةِ، كالزُّجاجِ والحَديدِ ونَحوِهما، واستُعيرَ منه الصُّداعُ، وهو شِبهُ الانشِقاقِ

= ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧، ١٢٣، ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٤) و(٢٢/ ٢٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١) و(٥/ ١٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٤٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ١٨٣) و(٣/ ٣٦٢، ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).
ذكر الرَّازيُّ أنَّ ﴿مَّعِينٍ﴾ على وزن فَعِيلٍ أو مَفعولٍ، ثمَّ قال: (فإنْ قُلْنا: «فَعيل» فهو من مَعَن الماءُ، إذا جرى، وإنْ قُلْنا: «مفعول» فهو مِن عانه، إذا شخَصه بعَينِه وميَّزه، والأوَّلُ أصحُّ وأظهَرُ؛ لأنَّ المَعْيونَ يوهِمُ بأنَّه مَعيوبٌ؛ لأنَّ قولَ القائلِ: عانَني فُلانٌ معناه: ضرَّني إذا أصابَتْني عَيْنُه، ولأنَّ الوصفَ بالمفعولِ لا فائدةَ فيه، وأمَّا الجرَيانُ في المشروبِ فهو إن كان في الماءِ فهو صِفةُ مدحٍ، وإن كان في غيرِه فهو أمرٌ عجيبٌ لا يوجَدُ في الدُّنيا، فيكونُ كقولِه تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥]). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٤).

في الرَّأسِ مِنَ الوَجَعِ[١].

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾: أي: لا يَسْكَرونَ، ولا تَذْهَبُ عُقولُهم، ولا يَنفَدُ شَرابُهم، يقالُ: أنزَفَ الرَّجُلُ: إذا فَنِيَت خَمرُه، وأنزَفَ: إذا ذَهَب عَقْلُه مِنَ السُّكْرِ، وأصلُ (نزف): يدُلُّ على نَفادِ شَيءٍ وانقِطاعٍ[٢].

﴿وَحُورٌ﴾: جمعُ حَوْراءَ، وهي: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سَوادِها[٣].

﴿عِينٌ﴾: جمعُ عَيْناءَ، وهي نَجْلاءُ العَيْنِ (أي: واسِعَتُها) في حُسْنٍ، وأصلُ (عين): يدُلُّ على حاسَّةِ البَصَرِ[٤].

﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾: أي: المَصُونِ المَخزونِ في الصَّدَفِ لم تَمَسَّه الأيدي، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١١).

﴿لَغۡوٗا﴾: أي: باطِلًا مِن القَولِ يَصدُرُ عن خَلَلِ العَقلِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به(١).

﴿تَأۡثِيمًا﴾: أي: ما يُؤَثِّمُهم مِن فِعلٍ أو قَولٍ، مِثلُ الضَّربِ والشَّتمِ وغَيرِهما، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ مُتأخِّرٌ عنه(٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾: فيه وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّهما مُبتدَأٌ وخَبَرٌ، على وَجهِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، كقَولِهم: أنتَ أنتَ، والنَّاسُ النَّاسُ! أو على تقديرِ: والسَّابِقونَ إلى الإيمانِ: السَّابِقونَ إلى الجنَّةِ، أو السَّابِقونَ إلى طاعةِ اللهِ: السَّابقونَ إلى رَحمتِه، أو نحوِ ذلك. وعليه يَكونُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ بدَلًا أو خبَرًا ثانيًا.

الوَجهُ الثَّاني: أَنْ يكونَ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الثَّاني توكيدًا لَفظيًّا للأوَّلِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ جملةٌ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ للمُبتَدَأِ، والرَّابِطُ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾(٣).

- قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٩٥).

قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ﴾: مَرفوعٌ على وَجهَين:

أحَدُهما: أنَّه مُبتدأٌ مَرفوعٌ خَبَرُه مَحذوفٌ مُقَدَّمٌ عليه، تَقديرُه: لهم حُورٌ، أو عِندَهم، أو ثَمَّ.

الثَّاني: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿وِلْدَانٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾(١) [الواقعة: ١٧].

- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾

قولُه تعالى: ﴿قِيلًا﴾ مَنصوبٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ؛ لأنَّ هذا القِيلَ لا يندَرِجُ تحتَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ.

قولُه تعالى: ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ فيه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه بدَلٌ مِن ﴿قِيلًا﴾، أي: لا يَسمَعونَ فيها إلَّا سَلامًا سَلامًا.

الثاني: أنَّه مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ بالمَصدَرِ ﴿قِيلًا﴾، أي: إلَّا أن يَقولَ بَعضُهم لِبَعضٍ: سَلامًا سَلامًا.

الثَّالِثُ: أنَّه نَعتٌ لـ﴿قِيلًا﴾ على معنى: إلَّا قِيلًا يسلَمُ فيه مِنَ اللَّغوِ والإثمِ.

الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المَصدَريَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: إلَّا قِيلًا اسْلَموا سَلامًا، و﴿سَلَامًا﴾ الثَّاني: توكيدٌ لَفظيٌّ للأوَّلِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٧٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢١٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٢٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٠٥).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أحوالَ السَّابقينَ، فيقولُ: والسَّابقونَ إلى الإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحةِ هم السَّابقونَ إلى دخولِ الجنَّاتِ، أولئك المُقَرَّبونَ عِندَ اللهِ تعالى، في جَنَّاتِ النَّعيمِ، وهم جَماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ، وعَدَدٌ قَليلٌ مِنَ الآخِرينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ ما أعدَّه لهؤلاءِ السَّابقينَ بالخَيراتِ مِن النَّعيمِ، فيقولُ: يَجلِسونَ على سُرُرٍ مَنسوجةٍ بالذَّهَبِ واللَّآلِئِ وغيرِهما، متَّكِئينَ على تلك السُّرُرِ مُتقابِلينَ لا يَنظُرُ بَعضُهم إلى قَفا بَعضٍ.

ويَدورُ عليهم لخِدمتِهم وِلدانٌ صِغارٌ لا يَهرَمونَ ولا يموتونَ؛ يَطوفُون عليهم بأكوابٍ وأباريقَ وكُؤوسٍ مِن خَمرٍ ظاهرةٍ جاريةٍ بلا انقطاعٍ، لا يُصيبُهم مِن تلك الخَمْرِ صُداعٌ، ولا يَسْكَرونَ، ولا ينفَدُ شرابُهم، ويَطوفُ عليهم أولئك الوِلْدانُ بفاكِهةٍ مِمَّا يَتخَيَّرونَه، ولَحْمِ طَيرٍ مِمَّا يَشتَهونَه، ولهم نِساءٌ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، واسعاتُ الأعْيُنِ معَ حُسنِها، وهُنَّ في بَياضِهنَّ وجَمالِهنَّ كالدُّرِّ الأبيَضِ الصَّافي، المحفوظِ المَستورِ؛ جَزاءً بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا.

لا يَسمَعونَ في تلك الجَنَّاتِ كَلامًا باطِلًا، ولا ما يُوقِعُهم في الإثمِ، إنَّما يَسمَعون فيها التَّسليمَ، والقَولَ السَّالِمَ مِنَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾.

أي: والَّذين يَسبِقونَ إلى الإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحاتِ، ويُبادِرونَ إلى فِعلِ الخَيراتِ هم السَّابقونَ إلى دخولِ الجنَّاتِ ونَيلِ الكراماتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ عُلُوَّ شأنِهم، ونَسَب السَّبْقَ إليهم؛ تَرجَمَه نازِعًا للفِعلِ منهم، بقَولِه[1]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾.

أي: أولئك الَّذين يُقرِّبُهم اللهُ تعالى منه[2].

= ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ لفظَ «السَّابِقونَ» الأوَّلَ (المبتدأ)، غيرُ الثَّاني (الخبر)، وأنَّ المعنى: والسَّابِقونَ في الدُّنيا إلى الطَّاعاتِ هم السَّابِقونَ في الآخِرةِ إلى الجنَّاتِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، واستظهره ابنُ القَيِّم، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٣)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

وقيل: السَّابِقونَ الأوَّلُ: مُبتدَأٌ، والثَّاني: خَبَرُه، على وَجهِ التَّعظيم، كقولِك: أنتَ أنتَ! أو النَّاسُ النَّاسُ. وممَّن اختار هذا المعنى: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٧).

وقال أبو حيَّان: (ويرجِّحُ هذا القولَ أنَّه ذَكَر أصحابَ المَيمَنةِ مُتعَجِّبًا منهم في سعَادتِهم، وأصحابَ المَشأَمةِ مُتعَجِّبًا منهم في شَقاوتِهم، فناسَبَ أن يَذكُرَ «السَّابِقونَ» مُثبِتًا حالَهم مُعَظِّمًا، وذلك بالإخبارِ أنَّهم نهايةٌ في العَظَمةِ والسَّعادةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩).

وقيل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأوَّلُ مُبتدَأٌ، والثَّاني توكيدٌ، والخبرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩، ٣٣٠).

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما ذَكَر السَّابِقينَ وأنَّهم المقرَّبونَ؛ بَيَّن تَقريبَه لهم بقَولِه تعالى[١]:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾.

أي: في جَنَّاتٍ مُشتَمِلةٍ على نِعَمٍ كَثيرةٍ -بَدَنيَّةٍ وقَلبيَّةٍ- لا تَنقَطِعُ أبدًا[٢].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّابِقينَ فَصَّلَهم؛ فقال[٣]:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾.

أي: هم جَماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧-٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١).
قيل: المرادُ: جماعةٌ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وقَليلٌ مِن أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٨). =

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ١٤﴾.

أي: وهم عَدَدٌ قَليلٌ مِنَ الآخِرينَ(١).

= قال الشنقيطي: (ظاهِرُ القرآنِ في هذا المقامِ أنَّ الأوَّلينَ في الموضِعَينِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ، والآخِرينَ فيهما مِن هذه الأُمَّةِ، وأنَّ قولَه تعالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ في السَّابقينَ خاصَّةً، وأنَّ قولَه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] في أصحابِ اليمينِ خاصَّةً. وإنَّما قُلْنا: إنَّ هذا هو ظاهِرُ القرآنِ في الأمورِ الثَّلاثةِ، الَّتي هي شُمولُ الآياتِ لجميعِ الأُمَمِ، وكَونُ قليلٍ مِن الآخِرينَ في خصوصِ السَّابقينَ، وكَونُ ثُلَّةٍ مِن الآخِرينَ في خصوصِ أصحابِ اليمينِ؛ لأنَّه واضحٌ مِن سِياقِ الآياتِ. أمَّا شمولُ الآياتِ لجميعِ الأُمَمِ فقد دَلَّ عليه أوَّلُ السُّورةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إلى قولِه: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ لا شكَّ أنَّه لا يَخُصُّ أُمَّةً دُونَ أمَّةٍ، وأنَّ الجَميعَ مُسْتَوونَ في الأهوالِ والحسابِ والجزاءِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ قولَه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ عامٌّ في جميعِ أهلِ المحشَرِ، فظَهَر أنَّ السَّابقينَ وأصحابَ اليمينِ مِنهم مَنْ هو مِنَ الأُمَمِ السَّابقةِ، ومنهم مَنْ هو مِنْ هذه الأمَّةِ. وعلى هذا فظاهِرُ القُرآنِ أنَّ السَّابِقينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ أكثَرُ مِنَ السَّابقينَ مِن هذه الأمَّةِ، وأنَّ أصحابَ اليمينِ مِن الأُممِ السَّابِقةِ ليست أكثَرَ من أصحابِ اليمينِ من هذه الأمَّةِ؛ لأنَّه عَبَّر في السَّابقينَ مِن هذه الأمَّةِ بقولِه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وعَبَّر عن أصحابِ اليمينِ مِن هذه الأُمَّةِ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٠]. ولا غرابةَ في هذا؛ لأنَّ الأُمَمَ الماضيةَ أُممٌ كثيرةٌ، وفيها أنبياءُ كثيرةٌ ورُسُلٌ، فلا مانِعَ مِن أن يَجتَمِعَ من سابِقيها مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكثرُ مِن سابِقِي هذه الأُمَّةِ وحْدَها. أمَّا أصحابُ اليمينِ مِن هذه الأمَّةِ فيحتملُ أنْ يَكونوا أكثرَ مِن أصحابِ اليمينِ مِن جميعِ الأممِ؛ لأنَّ الثُّلَّةَ تتناوَلُ العددَ الكثيرَ، وقد يكونُ أحدُ العددَيْنِ الكثيرَينِ أكثَرَ من الآخَرِ، معَ أنَّهما كِلَيْهما كثيرٌ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٥).

وقيل: الأوَّلونَ هم أوَّلُ هذه الأُمَّةِ، والآخِرونَ: المُتأخِّرونَ مِن هذه الأُمَّةِ. وممَّن رجَّح هذا القَولَ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧-٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء =

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥﴾.

أي: مَجالِسُهم على سُرُرٍ مَنسوجةٍ بالذَّهَبِ وغَيرِه مِنَ الجواهِرِ واللَّآلِئِ[1]!

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السُّرَرَ وبَيَّنَ عَظَمتَها؛ ذَكَر غايتَها، فقال[2]:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾.

أي: متَّكِئينَ على تلك السُّرُرِ مُتقابِلينَ بوُجوهِهم، لا يَنظُرُ بَعضُهم إلى قَفا

= البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٧).

قال البِقاعي: (﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ وهو ما يَسُرُّ الإنسانَ مِن المقاعِدِ العاليةِ المصنوعةِ للرَّاحةِ والكرامةِ، الَّتي هي آيةُ المُلْكِ، وهو العَرشُ ﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾ أي: مَنسوجةٍ نَسْجًا مُضاعَفًا، مَنضودةٍ، داخِلٍ بَعضُها في بَعضٍ، مُقارِبةِ النَّسْجِ... لكِنْ نَسْجُها بالذَّهَبِ، مُفَصَّلًا بالجَوهَرِ مِنَ الدُّرِّ والياقوتِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠٢).

وقال ابن عاشور: (السُّرُرُ: جَمعُ سَريرٍ، وهو كُرسيٌّ طَويلٌ مُتَّسِعٌ، يجلِسُ عليه المُتَّكِئُ والمُضطجِعُ، له سُوقٌ أربَعٌ، مُرتَفِعٌ على الأرضِ بنَحوِ ذِراعٍ، يُتَّخَذُ من مُختَلِفِ الأعوادِ، ويتَّخِذُه الملوكُ مِن ذَهَبٍ ومِن فِضَّةٍ، ومِن عاجٍ ومِن نَفيسِ العُودِ... والمَوضونةُ: المَسبوكُ بَعضُها ببَعضٍ، كما تُسبَكُ حِلَقُ الدُّروعِ، وإنَّما تُوضَنُ سُطوحُها، وهي ما بَينَ سُوقِها الأربَعِ، حيث تُلقى عليها الطَّنافِسُ أو الزَّرابيُّ؛ للجُلوسِ والاضطِجاعِ؛ لِيَكونَ ذلك المَفرَشُ وَثيرًا، فلا يُؤلِمَ المُضطجِعَ ولا الجالِسَ. وفَسَّرَ بَعضُهم ﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾ بمَرمولةٍ، أي: مَنسوجةٍ بقُضبانِ الذَّهَبِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٢).

بَعضٍ؛ فليس أحَدٌ منهم وراءَ أحَدٍ[(١)]!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُتَّكِئُ قد يَصعُبُ عليه القيامُ لحاجتِه؛ بَيَّنَ تعالى أنَّهم في غايةِ الرَّاحةِ، بقَولِه تعالى[(٢)]:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧)﴾.

أي: يَدورُ عليهم لخِدمتِهم وِلدانٌ صِغارٌ، لا يَهرَمونَ ولا يموتونَ[(٣)]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَدْحُهم هذا في غايةِ الإبلاغِ مع الإيجازِ، وكان فيه -إلى تبليغِ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٧).
قال السَّعدي: (﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك السُّرُرِ، جُلوسَ تمكُّنٍ وطُمأنينةٍ، وراحةٍ واستِقرارٍ. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ وَجهُ كُلٍّ مِنهم إلى وَجهِ صاحِبِه؛ مِن صفاءِ قُلوبِهم، وحُسنِ أدَبِهم، وتَقابُلِ قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٣).

لهم- تحريكٌ إلى مِثْلِ أعمالِهم، وكان الأكلُ الَّذي هو مِن أعظَمِ المآرِبِ مُشارًا إليه بالمَدحِ العَظيمِ الَّذي مِن جُملتِه الاستِراحةُ على الأسِرَّةِ الَّتي عُلِمَ أنَّ مِن عادةِ الملوكِ أنَّهم لا يَتسَنَّمونَها إلَّا بعدَ قَضاءِ الوَطَرِ منه؛ فلم يَبْقَ بَعدَه إلَّا ما تدعو الحاجةُ إليه مِنَ المَشارِبِ وما يَتْبَعُها- قال تعالى[١]:

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾.

أي: يَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بأكوابٍ مُستديرةٍ لا خراطيمَ لها ولا آذانَ، وأباريقَ يَبرُقُ لَونُها مِن صَفائِها، لها خراطيمُ وآذانٌ[٢].

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

أي: ويَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بكُؤوسٍ مِن خَمرٍ ظاهِرةٍ جاريةٍ تَنبُعُ كما يَنبُعُ الماءُ، بلا انقِطاعٍ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣، ٢٩٤).

قال البقاعي: (﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي: كِيزانٍ مُستديرةِ الأفواهِ بلا عُرًى ولا خَراطيمَ، لا يَعوقُ الشَّارِبَ منها عائِقٌ عن الشُّربِ مِن أيِّ مَوضِعٍ أراد منها، فلا يحتاجُ أن يحَوِّلَ الإناءَ عن الحالةِ الَّتي تَناوَله بها لِيَشرَبَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (الأباريقُ: جَمعُ إبريقٍ، وهو إناءٌ تُحمَلُ فيه الخَمرُ للشَّارِبينَ، فتُصَبُّ في الأكوابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

قال الزجاج: (الكأسُ: الإناءُ فيه الشَّرابُ، فإن لم يكُنْ فيه شَرابٌ فليس بكأسٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١١٠).

وقال ابن جُزَي: (وقيل: الكأسُ إناءٌ واسعُ الفَمِ، ليس له مِقْبَضٌ، سواءٌ كان فيه خمرٌ أمْ لا). =

كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثبَتَ نَفْعَها وما يُشَوِّقُ إليها؛ نفَى ما يُنَفِّرُ عنها، فقال تعالى[١]:

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾.

أي: لا يَنشَأُ عن شُربِهم مِن تلك الخَمرِ صُداعٌ في رُؤوسِهم[٢].

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بكَسرِ الزَّايِ، أي: لا يَسكَرونَ بها، أو: لا يَنفَدُ شَرابُهم[٣].

٢- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ بفَتحِ الزَّايِ، قيل: لا تذْهَبُ عُقولُهم. أو: لا يسكرون. وقيل: لا تَتَغَيَّرُ ألوانُهم، وَقيل غيرُ ذلك[٤].

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) قرأ بها عاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٦).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧). =

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

أي: لا يَسْكَرُ بها شارِبُوها، فتَزولَ عُقولُهم، ولا ينفَدُ شرابُهم(١).

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ويَطوفُ عليهم الوِلْدانُ بفاكِهةٍ مِمَّا يَختارونَه مِن أصنافِ الفَواكِهِ الكَثيرةِ في الجَنَّةِ(٢).

= ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

ذكَر الفرَّاءُ أنَّ ﴿يُنزِفُونَ﴾ لها معنيانِ: الأوَّلُ: مِن أنزفَ الرَّجلُ إذا فنِيتْ خَمْرُه، والثَّاني: مِن أنزفَ إذا ذهَب عقلُه. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٥).

وممَّن اختار أنَّه على قراءةِ الكسرِ فالمعنى: لا يَنفَدُ شَرابُهم، ولا تفنَى خمرُهم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٠٤).

وممن اختار أنَّ المعنَى: لا تذهبُ عقولُهم، ولا يسكرونَ: جلالُ الدِّين المحلِّي، وأبو السُّعودِ، والشَّوكاني، والقنوجي، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٠) ((تفسير القنوجي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السَّابقينِ: السَّمرقندي، فقال: (لا تَذْهبُ عقولُهم، ولا ينفَدُ شرابُهم). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما جَرَت العادةُ بتَناوُلِه لمُجَرَّدِ اللَّذَّةِ؛ أَتْبَعَه ما العادةُ أنَّه لإقامةِ البِنْيَةِ، وإنْ كان هناك لمجَرَّدِ اللَّذَّةِ أيضًا؛ فقال تعالى[١]:

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ٢١﴾.

أي: ويَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بلَحْمِ طَيرٍ مِمَّا تَرغَبُ أنفُسُهم في أكْلِه[٢].

قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ عن الكَوثَرِ، فقال: نَهرٌ أعطانِيه رَبِّي، أشَدُّ بَياضًا مِنَ اللَّبَنِ، وأحلى مِنَ العَسَلِ، وفيه طَيرٌ كأعناقِ الجُزُرِ[٣]! فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ تلك لَطَيرٌ ناعِمةٌ! فقال: أكَلَتُها أنعَمُ منها يا عُمَرُ!))[٤].

= (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

قال السعدي: (أي: مِن كُلِّ صِنفٍ مِنَ الطُّيورِ يَشتَهونَه، ومِن أيِّ جِنسٍ مِن لَحمِه أرادوا، وإنْ شاؤوا مَشويًّا أو طَبيخًا أو غيرَ ذلك!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٣) الجُزُرُ: جمعُ جَزُورٍ، وهو: ما يَصلُحُ للذَّبحِ مِنَ الإبِلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٩١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٤٢)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٧٠٣)، وأحمد (١٣٣٠٦) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حَسَنٌ غريبٌ). وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٤٢): (حَسَنٌ =

﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَكُنْ بعْدَ الأكلِ والشَّرابِ أشهَى مِنَ النِّساءِ؛ قال تعالى[1]:

﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾ بالخَفضِ، قيل: المعنى: ويُطافُ عليهم بِحُورٍ عِينٍ. وقيل: المعنى: يُنعَّمونَ بحُورٍ عِينٍ، أو يُكرَمونَ بحُورٍ عِينٍ. وقيل هي عَطفٌ على قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٢]، على تقدير: أولئك المُقَرَّبونَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، وفي حُورٍ عِينٍ، أي: في مُقارَنةِ حُورٍ عِينٍ، أو مُباشَرةِ حُورٍ عِينٍ[2].

= صَحيحٌ). وصَحَّح إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٤).

(٢) قرأ بها أبو جعفرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢).

وقال ابنُ كثير: (وقراءةُ الجرِّ تحتمِلُ مَعنَيَينِ؛ أحَدُهما: أن يكونَ الإعرابُ على الإتْباعِ لِما قَبْلَه؛ لِقَولِه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٍ عِينٍ﴾، كما قال: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] [على قراءةِ الجَرِّ]، وكما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. [على قراءةِ الجَرِّ]. والاحتِمالُ الثَّاني: أن يكونَ مِمَّا يَطوفُ به الوِلْدانُ المخَلَّدونَ عليهم: الحُورُ العِينُ، ولكِنْ يكونُ ذلك في القُصورِ، لا بيْن بَعضِهم بَعضًا، بل في الخيامِ يطوفُ عليهم الخُدَّامُ بالحُورِ العِينِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤).

٢- قِراءةُ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرَّفعِ، على معنى: ولهم حُورٌ عِينٌ، أو: وعِندَهم حُورٌ عِينٌ. وقيل: هو مَعطوفٌ على ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾، والمعنى: ويَطوفُ عليهم حُورٌ عِينٌ[(١)].

﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢﴾.

أي: ولهم نِساءٌ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهِنَّ وبَياضُها، واسِعاتُ الأعيُنِ مَعَ حُسنِها[(٢)].

﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣﴾.

أي: وهُنَّ في بَياضِهنَّ وجَمالِهنَّ وصَفائِهنَّ يُشبِهْنَ الدُّرَّ الأبيَضَ الصَّافيَ المُتَلألِئَ المَستورَ عن لَمسِ الأيدي، وإصابةِ الغُبارِ والشَّمسِ والرِّياحِ[(٣)]!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).
الحُورُ جَمعُ حَوراءَ، قيل: هي المرأةُ البيضاءُ النَّقيَّةُ البياضِ.
وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ بَياضِ العَينِ، والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ.
وقيل جمعًا بينَ القولينِ السابقينِ: هي البيضاءُ القويَّةُ بَياضِ بياضِ العَينِ، وسوادِ سَوادِها.
والعِينُ: جمعُ عَيناءَ، وهي العظيمةُ العَينِ في حُسنٍ وسَعةٍ.
وقيل: المرادُ بالعِينِ حِسانُ الأعيُنِ.
ويُنظَرُ ما تقدَّمَ في سورةِ (الدُّخَان) الآية (٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).
ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالمكنونِ: أي: في أصدافِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، =

﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبلَغَ في وَصفِ جَزائِهم بالحُسْنِ والصَّفاءِ؛ دَلَّ على أنَّ أعمالَهم كانت كذلك؛ لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فقال تعالى[1]:

﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: إنَّما كانت جَنَّاتُ النَّعيمِ ثوابًا لأولئك السَّابِقينَ المُقَرَّبينَ؛ بسَبَبِ أعمالِهم الصَّالِحةِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[2].

قال تعالى: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

= والسمعاني، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١، ٤١).

قال الألوسي: (وقُيِّد بالمكَنونِ -أي: المستورِ بما يَحفَظُه؛ لأنَّه أصفى وأبعَدُ مِن التَّغيُّرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تكملةٌ لوصفِ النَّعيمِ بذِكْرِ نعمةٍ رُوحيَّةٍ؛ فإنَّ سَلامةَ النَّفْسِ مِن سَماعِ ما لا يُحَبُّ سَماعُه، ومِن سَماعِ ما يُكرَهُ سَماعُه مِنَ الأذى: نِعمةٌ براحةِ البالِ، وشُغلِه بسَماعِ المَحْبوبِ[١].

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لا يَسمَعونَ في تلك الجَنَّاتِ كَلامًا باطِلًا لا يَنفَعُهم، ولا يَسمَعونَ فيها كَلامًا يَجلِبُ عليهم الإثمَ، فيَضُرُّهم[٢].

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١٠، ١١].

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أتبَعَ ذِكرَ النِّعمةِ السَّابِقةِ بذِكرِ نِعمةٍ أُخرى مِنَ الإنعامِ بالمَسموعِ الَّذي يُفيدُ الكَرامةَ؛ لأنَّ الإكرامَ لَذَّةٌ رُوحيَّةٌ، يَكسِبُ النَّفْسَ عِزَّةً وإدلالًا؛ بقَولِه تعالى[٣]:

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: إنَّما يَسمَعُ أهلُ الجَنَّةِ فيها التَّسليمَ، والقَولَ السَّالِمَ مِنَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤، ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٠، ٤٠٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ بِشارةٌ للمُسلِمينَ بأنَّ حَظَّهم في هذا الصِّنفِ كحَظِّ المُؤمِنينَ السَّالِفينَ -أصحابِ الرُّسُلِ-؛ لأنَّ المُسلِمينَ كانوا قد سَمِعوا في القُرآنِ وفي أحاديثِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تنويهًا بثَباتِ

= القرطبي)) (١٧/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٥، ٣٣٦).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ هنا: التَّسليمُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، وابنُ عاشور، وهو ظاهِرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥١، ١٥٢) و(٣/ ٤٦٦) و(٧/ ٥١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤١).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ: عُمومُ الكلامِ السَّالِمِ مِنَ اللَّغوِ والإثم: الواحديُّ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٣٦).

وظاهِرُ عبارةِ ابنِ كثيرٍ الجَمعُ بيْنَ المَعنَيَين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ وهذا فيه نَفيٌ لِسَماعِ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ، وإثباتٌ لِضِدِّه، وهو السَّلامُ المُنافي لهما، فالمَقصودُ به نَفيُ شَيءٍ، وإثباتُ ضِدِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

وقال السعدي: (﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أي: إلَّا كلامًا طيِّبًا؛ وذلك لأنَّها دارُ الطَّيِّبينَ، ولا يكونُ فيها إلَّا كلُّ طيِّبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

المُؤمِنينَ السَّالِفينَ مع الرُّسُلِ ومُجاهَدتِهم؛ فرُبَّما خامَرَ نُفوسَهم أنَّ تلك صِفةٌ لا تُنالُ بَعْدَهم، فبَشَّرَهم اللهُ بأنَّ لهم حَظًّا منها، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٦] وغَيرِها؛ تلهيبًا للمُسلِمينَ، وإذكاءً لِهِمَمِهم في الأخذِ بما يُلحِقُهم بأمثالِ السَّابِقينَ مِن الأوَّلينَ، فيَستَكثِرونَ مِن تلك الأعمالِ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ قولُه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿عَلَىٰ﴾ مِن قولِه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾، وهو العاملُ فيها، أي: استقَرُّوا عليها مُتَّكِئينَ مُتَقابلينَ، لا يَنظُرُ بَعضُهم في أقْفاءِ بَعضٍ، وُصِفوا بحُسنِ العِشرةِ، وتَهذيبِ الأخلاقِ والآدابِ[2]، فلَدَيهم مِن كَمالِ الأدَبِ ما لا يُمكِنُ أنْ يَستَدبِرَ أحدُهم الآخَرَ، كلُّهم مُؤَدَّبونَ، كلُّهم قُلوبٌ صافيةٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] ولو أنَّ أحدًا يُكلِّمُك وقد ولَّاك ظَهْرَه، هل يكونُ سماعُك له ومحبَّتُك له كما لو كان يُحَدِّثُك مُستَقبِلًا إيَّاك؟ وهذا شيءٌ مُشاهَدٌ مَعلومٌ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أنَّ كلَّ شيءٍ يُخالِفُ الإسلامَ فهو تأخُّرٌ، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة: ١٠٠] هؤلاء هم أهلُ السَّبْقِ، هم أهلُ التَّقدُّم، هم أهلُ السَّعادةِ والفَلاحِ في الدُّنيا والآخِرةِ، أمَّا مَن خَرَجَ عن سَبيلِهم فهو في تأخُّرٍ، إلَّا أنْ يُرادَ بالتَّقدُّمِ أنَّه كما قال اللهُ تعالى في فِرعَونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾[1] [هود: ٩٨]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ذَكَرَ سُبحانَه مَنزِلتَهم قبْلَ ذِكْرِ مَنزِلِهم، وكما يقالُ: الجارُ قبْلَ الدَّارِ، وكما قالتِ امرأةُ فِرعَونَ: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] بدأتْ بالجِوارِ ﴿لِي عِندَكَ﴾، وهنا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ قبْلَ أنْ يَبدأَ بذِكرِ الثَّوابِ؛ لأنَّ قُربَهم مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ فوقَ كلِّ شيءٍ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضاف الجَنَّاتِ إلى النَّعيمِ؛ لأنَّ ساكِنَها مُنَعَّمٌ في بَدَنِه، ومُنَعَّمٌ في قَلْبِه، كما قال عزَّ وجلَّ في سورةِ (الإنسانِ): ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١٠، ١١]؛ نَضرةً في الوُجوهِ، وسُرورًا في القُلوبِ، فهم في نِعمَتَينِ؛ هما: نَعيمُ البَدَنِ، ونَعيمُ القَلبِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دَلالةٌ على فَضلِ صَدرِ هذه الأُمَّةِ -في الجُملةِ- على مُتأخِّريها؛ لِكَونِ المُقرَّبينَ مِنَ الأوَّلينَ أكثَرَ مِنَ المتأخِّرينَ[4]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: تَبشيرٌ ببَعضِ ما لهم مِنَ النَّعيمِ مِمَّا تَشتاقُ إليه النُّفوسُ في هذه الحياةِ الدُّنيا؛ لِتَشويقِهم إلى هذا المَصيرِ، فيَسْعَوا لنوالِه بصالحِ الأعمالِ، وليس الاقتِصارُ على المذكورِ هنا بمُقتَضٍ حَصْرَ النَّعيمِ فيما ذُكِرَ؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾(١) [الزخرف: ٧١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أنَّ مِن تمامِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ أنْ يكونَ مع الإنسانِ في بُستانِه ومَنزِلِه مَن يُحِبُّ مُعاشَرتَه، ويُؤْثِرُ قُربَه، ولا يكونَ بَعيدًا منه، قد حِيلَ بَيْنَه وبيْنَه، بل سريرُه إلى جانبِ سَريرِ مَن يُحِبُّه(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ دَلالةٌ على سَعةِ المكانِ؛ لأنَّ المكانَ إذا كان ضَيِّقًا فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ النَّاسُ مُتقابِلينَ، والجَنَّةُ عَرضُها كعَرضِ السَّمَواتِ والأرضِ، ومَن يحيطُ بسَماءٍ واحدةٍ؟! كيف وهي عَرضُ السَّمَواتِ السَّبْعِ، والسَّمواتُ السَّبْعُ بعضُها مِن فَوقِ بعضٍ، وكُلَّما كان الشَّيءُ فَوقَ كانت دائِرتُه أوسَعَ، فمَن يحيطُ بهذا إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؟! إذَنْ هم مُتقابِلونَ؛ لأنَّ أمكِنتَهم واسِعةٌ(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ التَّخليدَ لا يَختَصُّ بالوِلْدانِ في الجنَّةِ؟!

الجَوابُ: مَعناه: أنَّهم لا يَتحَوَّلونَ عن شَكلِ الوِلْدانِ(٤)، فهم مُخلَّدونَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٢).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٨).

صفةِ الوِلْدانِ، أي: بالشَّبابِ والغضاضةِ، أي: ليسوا كوِلْدانِ الدُّنيا يَصيرونَ قريبًا فِتيانًا، فكُهولًا، فشُيوخًا. فهم دائِمونَ على الطَّوافِ عليهم ومُناوَلتِهم، لا يَنقطِعون عن ذلك. وإذ قد ألِفوا رؤيتَهم؛ فمِنَ النِّعمةِ دَوامُهم معهم(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ دليلٌ على جوازِ أكلِ الفاكِهةِ على صِفةِ التَّخَيُّرِ، وهو مُستثنًى مِنَ الأكلِ مِمَّا يلي(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى قال: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: «ممَّا يَختارونَ» مع قُربِ أحَدِهما إلى الآخَرِ في المعنى، وهو أنَّ التَّخَيُّرَ مِن بابِ التَّكَلُّفِ، فكأنَّهم يأخُذونَ ما يكونُ في نهايةِ الكَمالِ، وهذا لا يُوجَدُ إلَّا مِمَّن لا يكونُ له حاجةٌ ولا اضطِرارٌ(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ لَمَّا كان في لَحمِ الطَّيرِ مِمَّا يُرغَبُ عنه، احترَز عنه بقَولِه: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: غايةَ الشَّهوةِ، بحيثُ يَجِدونَ لآخِرِه مِنَ اللَّذَّةِ ما لأوَّلِه(٤).

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الصَّفاءَ والرِّقَّةَ مَدْحٌ في الأشخاصِ(٥).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّ العملَ سببٌ للثَّوابِ، فالباءُ للسَّبَبِ(٦)، وأنَّه كما حَسُنَت منهم الأعمالُ، أحسَنَ اللهُ لهم الجزاءَ، ووَفَّرَ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠)
(٦) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٤٥).

الفَوزَ والنَّعيمَ(١).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ دليلٌ على حُسنِ أدَبِ أهلِ الجنَّةِ في خِطابِهم فيما بَيْنَهم؛ وأنَّه أطيَبُ كَلامٍ، وأسَرُّه للنُّفوسِ، وأسلَمُه مِن كُلِّ لَغوٍ وإثمٍ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هو القِسمُ الثَّالثُ مِن الأزواجِ الثَّلاثةِ، ولعلَّ تأْخيرَ ذِكرِهم مع كَونِهم أسبَقَ الأقسامِ، وأقدَمَهم في الفضلِ؛ لِيَقترِنَ ذِكرُهم ببَيانِ مَحاسنِ أحوالِهم، على أنَّ إيرادَهم بعُنوانِ السَّبقِ مُطْلَقًا مُعرِبٌ عن إحرازِهم لقَصَبِ السَّبقِ مِن جَميعِ الوجوهِ(٣).

أو: أُخِّرَ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في الذِّكرِ عن أصحابِ اليمينِ؛ لتَشويقِ السَّامِعينَ إلى مَعرفةِ صِنفِهم بعْدَ أنْ ذُكِرَ الصِّنفانِ الآخَرانِ مِن الأصنافِ الثلاثةِ؛ تَرغيبًا في الاقتِداءِ(٤).

- وقولُه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ثانيًا يَجوزُ جعْلُه خبَرًا عن ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأوَّلِ، كما أُخبِرَ عن أصحابِ المَيمنةِ بأنَّهم ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨]؛ لأنَّه يدُلُّ على وصْفِهم بشَيءٍ لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه، بحيث لا يَفي به التَّعبيرُ بعبارةٍ غيرِ تلك الصِّفةِ؛ إذ هي أقْصى ما يَسَعُه التَّعبيرُ، فإذا أراد السَّامعُ أنْ يَتصوَّرَ صِفاتِهم، فعليهِ أنْ يَتدبَّرَ حالَهم. ويَجوزُ جَعْلُه تأْكيدًا للأوَّلِ، فمآلُ جُملةِ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).

﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، ونَظيرتِها ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، وجُملةِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هو التَّعجيبُ مِن حالِهم، وطَريقُه هو الكِنايةُ، ولكنَّ بيْن الكنايتَين فرْقًا بأنَّ إحداهما كانتْ مِن طريقِ السُّؤالِ عن الوصْفِ، والأُخرى مِن طَريقِ تَعذُّرِ التَّعبيرِ بغيرِ ذلك الوصْفِ، والمعْنى: أنَّ حالَهم بلَغَت مُنتهَى الفضْلِ والرِّفعةِ، بحيث لا يَجِدُ المُتكلِّمُ خبَرًا يُخبِرُ به عنهم أدَلَّ على مَرتبتِهم مِن اسمِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فهذا الخبَرُ أبلغُ في الدَّلالةِ على شرَفِ قدْرِهم مِن الإخبارِ بـ(ما) الاستِفهاميَّةِ التَّعجيبيَّةِ في قولِه: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، ألَا ترى كيف سبَقَ بَسْط حالِ السَّابقينَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، فجمعَ بيْنَ اسمِ الإشارةِ المشارِ به إلى مَعروفٍ، وبيْنَ الإخبارِ عنه بقولِه: ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ مُعرَّفًا بالألِفِ واللَّامِ العهديَّةِ، وليس مِثلُ هذا مَذكورًا في بَسْطِ حالِ أصحابِ اليمينِ؛ فإنَّه مُصدَّرٌ بقولِه: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ [الواقعة: ٢٨]، معَ ما في اشتِقاقِ لَقَبِهم مِن (السَّبْق) مِن الدَّلالةِ على بُلوغِهم أقْصى ما يَطلُبُه الطَّالِبون[(١)].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مُستعمَلًا في المُبادَرةِ والإسراعِ إلى الخَيرِ في الدِّينِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في المُغالَبةِ في تَحصيلِ الخَيرِ[(٢)].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في الآيةِ؛ لقصْدِ جَعْلِ وَصْفِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ بمَنزلةِ اللَّقَبِ لهم، وليُفيدَ العُمومَ، أي: إنَّهم سابِقون في كلِّ مَيدانٍ تَتسابَقُ إليه النُّفوسُ الزَّكيَّةُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨٧).

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّها جَوابٌ عمَّا يُثيرُه قولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مِن تَساؤُلِ السَّامعِ عن أثَرِ التَّنويهِ بهم، وبذلك كان هذا ابتداءَ تَفصيلٍ لجَزاءِ الأصنافِ الثَّلاثةِ على طَريقةِ النَّشرِ بعْدَ اللَّفِّ[1]، اقتَضَتْه مُناسَبةُ اتِّصالِ المَعاني بالنِّسبةِ إلى كلِّ صِنفٍ أقرَبَ ذِكرًا، ثمَّ مُراعاةُ الأهمِّ بالنِّسبةِ إلى الصِّنفينِ الباقيَينِ؛ فكان

(١) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

بَعضُ الكلامِ آخِذًا بِحُجَزِ بَعضٍ[١].

- قولُه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾، المُقرَّبُ: أبلَغُ مِن القريبِ؛ لدَلالةِ صِيغتِه على الاصطفاءِ والاجتباءِ[٢].

- قولُه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى السَّابقينَ، وما فيه مِن معْنى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ[٣]، وفي جَعْلِ المُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تَنبيهٌ على أنَّهم أحْرياءُ بما يُخبَرُ عنه مِن أجْلِ الوصْفِ الواردِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهو أنَّهم السَّابقونَ[٤].

- ولم يُذكَرْ مُتعلَّقُ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾؛ لظُهورِ أنَّه مُقرَّبٌ مِن اللهِ[٥].

- قولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾، أو بمُضمَرٍ هو حالٌ مِن ضَميرِه، أي: كائنينَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، وإيقاعُ قولِه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بعْدَ وصْفِ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ مُشيرٌ إلى أنَّ مَضمونَه مِن آثارِ التَّقريبِ المذكورِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة: ١٢] وجُملةِ ﴿ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴾ [الواقعة: ١٥]، وهذا الاعتِراضُ يُقصَدُ منه التَّنويهُ بصِنفِ السَّابقينَ، وتَفضيلُهم بطَريقِ الكِنايةِ عن ذلك بلَفْظَيْ ﴿ ثُلَّةٞ ﴾ ﴿وَقَلِيلٞ﴾ المُشعِرَينِ بأنَّهم قُلٌّ مِن كُثْرٍ، فيَستلزِمُ ذلك أنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠).

صِنفٌ عَزيزٌ نَفيسٌ؛ لِما عُهِدَ في العُرفِ مِن قِلَّةِ الأشياءِ النَّفيسةِ(١).

- و﴿ ثُلَّةٌ ﴾ خبَرٌ عن مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: همْ ثُلَّةٌ، ومَعادُ الضَّميرِ المُقدَّرِ (السَّابِقون)، أي: السَّابقونَ ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ، وقَليلٌ مِن الآخِرينَ(٢).

- ولِما في هذا الاعتِراضِ مِن الإشعارِ بالعِزَّةِ، قُدِّمَ على ذِكرِ ما لهم مِن النَّعيمِ؛ للإشارةِ إلى عَظيمِ كَيفيَّتِه المُناسبةِ لوَصْفِهم بالسَّابقينَ، بخلافِ ما يَأتي في أصحابِ اليمينِ(٣).

- و(مِن) في قولِه: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ تَبعيضيَّةٌ، فاقْتَضى أنَّ السَّابقينَ في الأزْمنةِ الماضيةِ وزَمانِ الإسلامِ حاضِرِه ومُستقبَلِه، بَعضٌ مِن كلٍّ، والبَعضيَّةُ تَقْتضي القِلَّةَ النِّسبيَّةَ، ولَفظُ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ مُشعِرٌ بذلك، ولَفظُ (قَلِيلٌ) صَريحٌ فيه، وإنَّما قُوبِلَ لَفظُ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ بلَفظِ (قَليلٌ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الثُّلَّةَ أكثَرُ منه(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٩١).

- قولُه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] [الواقعة: ١٢].

- قولُه: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الكأْسُ جِنسٌ يَصدُقُ بالواحدِ والمُتعدِّدِ، فليس إفرادُه هنا للوَحدةِ؛ فإنَّ المُرادَ كُؤوسٌ كَثيرةٌ كما اقتضاهُ جمْعُ أكوابٍ وأباريقَ، فإذا كانت آنيةُ حمْلِ الخمْرِ كَثيرةً كانت كُؤوسُ الشَّاربينَ أكثَرَ، وإنَّما أُوثِرَت صِيغةُ المُفرَدِ؛ لأنَّ في لَفظِ (كُؤوس) ثِقَلًا بوُجودِ همْزةٍ مَضمومةٍ في وَسَطِه مع ثِقَلِ صِيغةِ الجمْعِ[2]. وقيلَ: إنَّما أفرَدَ الكأْسَ؛ لأنَّها لا تُسمَّى كأْسًا إلَّا إذا كانتْ مَمْلوءةً[3].

- في قولِه: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ فنُّ الإيجازِ، فجُمِعَ في هاتَينِ الكَلمتينِ جَميعُ عُيوبِ الخمْرِ في الدُّنيا[4].

- ومعْنى ﴿عَنْهَا﴾ مُجاوزِينَ لها، أي: لا يقَعُ لهم صُداعٌ ناشئٌ عنها، أي: فهي مُنزَّهةٌ عن ذلك، بخِلافِ خُمورِ الدُّنيا، فاستُعْمِلَت (عن) في معْنى السَّببيَّةِ، وعُطِفَ ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ على ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ عنها، فيُقدَّرُ له مُتعلَّقٌ دلَّ عليه مُتعلَّقُ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾؛ فقد قال في سُورةِ (الصَّافاتِ): ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، أي: لا يَعتريهم نَزْفٌ بسَببِها كما يَحصُلُ للشَّاربينَ في الدُّنيا[5].

- و(ما يَتخيَّرون) هو الجِنسُ الَّذي يَختارونه ويَشْتهونَه، أي: يَطوفون عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

بفاكهةٍ مِن الأنواعِ الَّتي يَختارونها؛ ففِعلُ ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يُفيدُ قُوَّةَ الاختيارِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ ذكَر لحمَ الطَّيرِ؛ لأنَّ لحومَ الطَّيرِ أنعمُ اللُّحومِ وألَذُّها، وأشهاها وأعزُّها[٢].

- قولُه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الاشتِهاءُ: مَصدرُ اشْتَهى، وهو افتِعالٌ مِن الشَّهوةِ الَّتي هي مَحبَّةُ نَيلِ شَيءٍ مَرغوبٍ فيه مِن مَحسوساتٍ ومعْنوياتٍ، يُقالُ: شَهِيَ كرَضِيَ، وشَها كدَعا، والأكثرُ أنْ يُقالَ: اشْتَهى، والافتِعالُ فيه للمُبالَغةِ[٣].

- وتَقديمُ ذِكرِ الفاكهةِ على ذِكرِ اللَّحمِ قد يكونُ لأنَّ الفواكِهَ أعَزُّ، وبهذا يَظهَرُ وجْهُ المُخالَفةِ بيْن الفاكهةِ ولَحمِ طَيرٍ، فجُعِلَ التَّخيُّرُ للأوَّلِ، والاشتِهاءُ للثَّاني؛ لأنَّ الاشتِهاءَ أعلَقُ بالطَّعامِ منه بالفواكِهِ؛ فلَذَّةُ كَسرِ الشَّاهيةِ بالطَّعامِ لَذَّةٌ زائدةٌ على لَذَّةِ حُسنِ طَعمِه، وكثرةُ التَّخيُّرِ للفاكهةِ هي لَذَّةُ تَلوينِ الأصنافِ[٤]؛ فإنَّ اللَّحمَ والفاكِهةَ إذا حَضَرا عندَ الجائعِ تميلُ نفْسُه إلى اللَّحمِ، وإذا حضَرا عند الشَّبعانِ تَميلُ نفْسُه إلى الفاكِهةِ؛ فالجائِعُ مُشتَهٍ، والشَّبعانُ غيرُ مُشتَهٍ، بل هو مختارٌ، وأهلُ الجنَّةِ إنَّما يأكُلونَ لا مِن جُوعٍ، بل للتفَكُّهِ؛ فمَيلُهم للفاكِهةِ أكثَرُ، فيتخَيَّرونَها؛ ولهذا ذُكِرَت في مواضِعَ كَثيرةٍ في القرآنِ، بخِلافِ اللَّحمِ، وإذا اشتهاه حَضَر بيْن يديه على ما يَشتَهيه، فتَميلُ نفْسُه إليه أَدنى مَيلٍ، فالفاكِهةُ تَلَذُّ الأعيُنُ بحُضورِها، واللَّحمُ لا تلَذُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأعيُنُ بحُضورِه؛ ولهذا قدَّم الفاكِهةَ على اللَّحمِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ[٢]، ووَجْهُ الشَّبَهِ هو الصَّونُ[٣].

- والأمثالُ: الأشباهُ. ودُخولُ كافِ التَّشبيهِ على (أمثال) للتَّأكيدِ، والمعْنى: هنَّ أمثالُ اللُّؤلؤِ المكنونِ[٤].

- ووَصَفَ اللُّؤلُؤَ بالمَكنونِ؛ لأنَّه أصْفَى وأبْعَدُ من التَّغيُّرِ[٥].

- قولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، انتصَبَ ﴿جَزَآءَ﴾ على المفعولِ لأجْلِه لِفعلٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، أي: أعطَيْناهم ذلك جَزاءً. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿جَزَآءَ﴾ مَصدرًا جاء بدَلًا عن فِعلِه، والتَّقديرُ: جازَيْناهم جَزاءً. والجُملةُ على التَّقديرَينِ اعتِراضٌ يُفيدُ إظهارَ كَرامتِهم، بحيثُ جُعِلَتْ أصنافُ النَّعيمِ الَّذي حُظُوا به جَزاءً على عمَلٍ قَدَّموه، وذلك إتمامٌ لكَونِهم مُقرَّبينَ[٦].

- قولُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾، فيه (تأْكيدُ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه) المُشتهِرُ في البَديعِ باسمِ (تأْكيدِ المدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ[٧])،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٤).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٧) تأكيدُ المدحِ بما يُشبه الذمَّ- أو: تأكيد الشَّيءِ بما يُشبه ضِدَّه-: هو عند عُلماءِ البلاغةِ استِثناءُ صِفة مَدْحٍ مِن صِفةِ ذمٍّ منفيَّةٍ عن الشَّيء، بتقديرِ دُخولِها في صِفة الذمِّ المنفيَّة. يُنظر: ((البرهان)) =

بأنْ يُستثنَى مِن صفةِ ذمٍّ مَنْفيَّةٍ عن الشَّيءِ صِفةُ مدحٍ بتقديرِ دُخولِها فيها، وله مَوقعٌ عَظيمٌ مِن البَلاغةِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تَعالى هنا: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾، وقال تعالى في سُورةِ (النَّبأِ): ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥]؛ ووجْهُ الفرْقِ بيْنَهما: أنَّ الكِذَّابَ كثيرُ التَّكذيبِ، ومعْناه -هناك-: أنَّهم لا يَسمَعون كذِبًا، ولا أحدًا يقولُ لآخَرَ: كذَبْتَ. وفائدتُه: أنَّهم لا يَعرِفون كذِبًا مِن مُعيَّنٍ مِن النَّاسِ، ولا مِن واحدٍ منهم غيرِ مُعيَّنٍ؛ لتَفاوُتِ حالِهم وحالِ الدُّنيا؛ فإنَّا نَعلَمُ أنَّ بَعضَ النَّاسِ بأعْيانِهم كذَّابون، فإنْ لم نَعرِفْ ذلك نَقطَعُ بأنَّ في النَّاسِ كذَّابًا؛ لأنَّ أحدَهم يقولُ لصاحِبِه: كذَبْتَ، فإنْ صدَقَ فصاحبُه كذَّابٌ، وإنْ لم يَصدُقْ فهو كاذبٌ، فيُعلَمُ أنَّ في الدُّنيا كذَّابًا بعَينِه أو بغيرِ عَينِه، ولا كذلك في الآخرةِ؛ فلا كَذِبَ فيها. وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾، وهو أبلَغُ مِن التَّكذيبِ؛ فإنَّ مَن يقولُ في حقِّ مَن لا يَعرِفُه: إنَّه زانٍ، أو شاربُ الخَمرِ -مثلًا-؛ فإنَّه يَأثَمُ -وقد يكونُ صادقًا-، فالَّذي ليس عن عِلمٍ: إثمٌ، فلا يقولُ أحدٌ لأحدٍ: قُلْتَ ما لا عِلمَ لك به، فالكلامُ هاهنا أبلَغُ؛ لأنَّه قصَرَ السُّورةَ على بَيانِ أحوالِ الأقسامِ؛ لأنَّ المذكورينَ هنا هم السَّابقون، وفي سُورةِ (النَّبأِ) هم المتَّقون، والسَّابقُ فوقَ المتَّقي(٢).

- القيلُ اسمٌ لقولٍ لم يُعلَمْ قائلُه؛ لذا قال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ لعدَمِ اختِصاصِ هذا القولِ بقائلٍ دونَ قائلٍ، فيُسمَعُ هذا القولُ دائمًا مِن الملائكةِ والنَّاسِ،

= للزركشي (٣/ ٥١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[١] [يس: ٥٨].

- وقولُه: ﴿سَلَٰمًا﴾ الأوَّلُ مَقُولُ ﴿قِيلًا﴾، أي: هذا اللَّفظُ الَّذي تَقديرُه: سلَّمْنا سَلامًا، فهو جُملةٌ مَحكيَّةٌ بالقولِ، و﴿سَلَٰمًا﴾ الثَّاني تكريرٌ لـ﴿سَلَٰمًا﴾ الأوَّلِ تَكريرًا ليس للتَّأكيدِ، بلْ لإفادةِ التَّعاقُبِ، أي: سَلامًا إثرَ سَلامٍ، أو مُشارًا به إلى كَثرةِ المُسَلِّمينَ، فهو مُؤْذِنٌ -مع الكرامةِ- بأنَّهم مُعظَّمونَ مُبجَّلون، والفرقُ بيْنَ الوَجهَينِ أنَّ الأوَّلَ يُفيدُ التَّكريرَ بتَكريرِ الأزمنةِ، والثَّانيَ يُفيدُ التَّكرارَ بتَكرارِ المسَلِّمينَ. وقيل: التَّكرارُ للدَّلالةِ على فُشُوِّ السَّلامِ بيْنَهم[٢].

وقيل: فائِدةُ تَكريرِ السَّلامِ الإشارةُ إلى تمامِ النِّعْمةِ؛ وذلك لأنَّ أثَرَ السَّلامِ في الدُّنيا لا يَتِمُّ إلَّا بالتَّسليمِ وردِّ السَّلامِ، فكما أنَّ أحَدَ المُتلاقِيَينِ في الدُّنيا يقولُ للآخَرِ: السَّلامُ عليك، فيَقولُ الآخَرُ: وعليك السَّلامُ، فكذلك في الآخِرةِ يَقولونَ: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[٣].

- وإنَّما جِيءَ بلفظِ ﴿سَلَٰمًا﴾ مَنصوبًا دونَ الرَّفعِ، مع كَونِ الرَّفعِ أدلَّ على المُبالَغةِ -كما ذكَروه في قولِه: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ في سُورةِ (هودٍ) [٦٩]، وسُورةِ (الذَّارياتِ) [٢٥]: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾-؛ لأنَّه أُرِيدَ جَعْلُه بدَلًا مِن ﴿قِيلًا﴾[٤].

وقيل: الفرقُ بيْن قولِه تَعالى: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ -بنصْبِهما-، وبيْن قولِه تَعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ [هود: ٦٩]؛ أنَّ قولَه: (سلامٌ عليك) أتمُّ وأبلَغُ مِن قولِهم: (سلامًا عليك)؛ فإبراهيمُ عليه السَّلامُ أراد أنْ يَتفضَّلَ عليهم بالذِّكرِ، ويُجيبَهم بأحسَنَ ممَّا حَيَّوا -وذلك على قولٍ-، وأمَّا هنا فلا يَتفضَّلُ أحدٌ مِن أهلِ الجنَّةِ على الآخَرِ مِثلَ التَّفضُّلِ في تلك الصُّورةِ؛ إذ هم مِن جِنسٍ واحدٍ -وهم المؤمنون-، ولا يَنسُبُ أحدٌ إلى أحدٍ تَقصيرًا(١).

- وأيضًا قال اللهُ تعالى في سُورةِ (يس): ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ولم يكُنْ له رَدٌّ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَسليمَ اللهِ على عبْدِه مُؤمِّنٌ له، فأمَّا اللهُ تَعالى فهو مُنزَّهٌ عن أنْ يُؤمِّنَه أحدٌ، بل الرَّدُّ -إنْ كان- فهو قولُ المؤمَّنِ: سلامٌ عَلينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٤٠)

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِدْرٍ﴾: أي: شَجَرِ نَبْقٍ[١].

﴿مَّخْضُودٍ﴾: أي: مَنْزوعِ الشَّوكِ، والخَضْدُ: كَسرُ الشَّيءِ اللَّيِّنِ، وأصلُ (خضد): يدُلُّ على تَثَنٍّ في شَيءٍ لَيِّنٍ[٢].

﴿وَطَلْحٍ﴾:الطَّلْحُ: شَجَرٌ ذو شَوكٍ، له ظِلٌّ بارِدٌ طَيِّبٌ. وقيل: المرادُ به هنا المَوْزُ[٣].

﴿مَّنضُودٍ﴾: أي: مُتراكِمٍ بَعضُه على بَعضٍ، قد جُمِع بعضُه إلى بعضٍ، أو نُضِدَ بالحِمْلِ (الثَّمرِ) مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، فليست له سُوقٌ بارزةٌ، والنَّضْدُ هو الرَّصُّ، والمُنَضَّدُ: المرصوصُ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شيءٍ في اتِّساقٍ وجَمعٍ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٢).
قيل: هو شجرٌ يشبهُ الطَّلحَ فِي الكِبَرِ وَحسنِ المنظرِ، فالجنَّةُ لا شوكَ فيها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٢)، ((مقاييس =

﴿مَّسْكُوبٍ﴾: أي: مَصبوبٍ جارٍ غَيرِ مُنقَطِعٍ، وأصلُ (سكب): يدُلُّ على صَبِّ الشَّيءِ[1].

﴿عُرُبًا﴾: جَمعُ عَرُوبٍ: وهي المُتَحَبِّبةُ إلى زَوجِها، الحَسَنةُ التَّبَعُّلِ، وأصلُ (عرب) هنا: يدُلُّ على النَّشاطِ وطِيبِ النَّفْسِ، والإبانةِ والإفصاحِ؛ فالمرأةُ العَروبُ: ضَحَّاكةٌ طَيِّبةُ النَّفْسِ، تُفصِحُ عن حُبِّها لِزَوجِها[2].

﴿أَتْرَابًا﴾: أي: أقرانًا مُستَوياتٍ على سِنٍّ واحدةٍ، والتِّرْبُ: هو الَّذي مَسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وَقتٍ واحِدٍ، وأصلُ (ترب) هنا: يدُلُّ على التَّساوي[3].

المعنى الإجماليُّ:

يبينُ الله تعالى نعيمَ أصحابِ اليمينِ بعدَ أن ذكَر السَّابقينَ، فيقولُ: وأصحابُ اليَمينِ ما أعظَمَ شَأنَهم! فهم في شَجَرٍ نَبْقٍ لا شَوكَ فيه، وشَجَرِ طَلحٍ ثَمَرُه مُتراصٌّ بَعضُه مع بَعضٍ، وظِلٍّ دائِمٍ لا يَزولُ، وماءٍ مَصبوبٍ جارٍ بلا أُخدودٍ، وفاكِهةٍ كثيرةٍ لا تَنقَطِعُ عنهم ولا تُمنَعُ، وهم في فُرُشٍ عاليةٍ مُرتَفِعةٍ.

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

إنَّا خَلَقْنا نِساءَ أهلِ الجَنَّةِ خَلْقًا، فجَعَلْناهنَّ أبكارًا، مُحِبَّاتٍ لأزواجِهنَّ، مُتَساوِياتٍ في السِّنِّ، أنشَأْناهنَّ لأصحابِ اليَمينِ، وأصحابُ اليَمينِ جَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ، وجَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الآخِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ حالَ السَّابِقينَ؛ شَرَع في شأنِ أصحابِ المَيمَنةِ مِنَ الأزواجِ الثَّلاثةِ، فقال تعالى[١]:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧﴾.

أي: وأصحابُ اليَمينِ ما أعظَمَ شَأنَهم! وما أحسَنَ حالَهم[٢]!

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨﴾.

أي: هم في شَجَرِ نَبْقٍ لا شَوكَ فيه، مُثقَلةٍ أغصانُه بالثَّمَرِ الكثيرِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

قال ابن القيِّم: (والمخضودُ: الَّذي قد خُضِد شَوكُه، أي نُزِع وقُطِع، فلا شوكَ فيه... وقالت طائفةٌ: المخضودُ: هو المُوقَرُ حَمْلًا، وأُنكِر عليهم هذا القولُ، وقالوا: لا يُعرَفُ في اللُّغةِ الخَضدُ بمعنى الحملِ، ولم يُصِبْ هؤلاء الَّذين أنكروا هذا القولَ، بل هو قولٌ صحيحٌ، وأربابُه ذهبوا إلى أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لَمَّا خضَدَ شَوْكَه وأذهَبَه، وجعَلَ مكانَ كلِّ شَوكةٍ ثَمَرةً أوقَرَه بالحملِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٦٥). =

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ٢٩﴾.

أي: وفي شَجَرِ طَلحٍ بلا شَوكٍ، ذي ثَمَرٍ مَنظومٍ مُتراكِمٍ ومُتراصٍّ بَعضُه مع بَعضٍ، على تَرتيبٍ في غايةِ الحُسنِ[1].

= وقال ابن كثير: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهِدٌ، وأبو الأحوصِ، وقَسامةُ بنُ زُهَيرٍ، والسَّفْرُ ابنُ نُسَيْرٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، وعبدُ الله بنُ كثيرٍ، والسُّدِّيُّ، وأبو حَزْرةَ، وغيرُهم: هو الَّذي لا شَوكَ فيه. وعن ابنِ عبَّاسٍ: هو المُوقَرُ بالثَّمرِ. وهو روايةٌ عن عِكْرِمةَ، ومجاهدٍ، وكذا قال قَتادةُ أيضًا: كنَّا نُحَدَّثُ أنَّه المُوقَرُ الَّذي لا شوكَ فيه.

والظَّاهرُ أنَّ المرادَ هذا وهذا؛ فإنَّ سِدْرَ الدُّنيا كثيرُ الشَّوكِ قليلُ الثَّمرِ، وفي الآخرةِ على عكسٍ من هذا؛ لا شوكَ فيه، وفيه الثَّمرُ الكثيرُ الَّذي قد أثقَلَ أصْلَه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ عطية، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وقال الواحدي: (قَولُه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال اللَّيثُ: الطَّلْحُ شَجَرُ أمِّ غيلانَ، له شَوكٌ أحجَنُ، وهو مِن أعظَمِ العِضاهِ شَوكًا، وأصلَبِه عُودًا، وأجوَدِه صَمغًا، والواحِدةُ طَلحةٌ، وهذا قَولُ جميعِ أهلِ اللُّغةِ في الطَّلْحِ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٣٠).

وقيل: المرادُ: شجَرُ المَوزِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: القُشَيريُّ، والزمخشري، والواحدي، والسمعاني، والرازي، والقرطبي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٣).

ونسَبَ أبو عُبَيْدةَ، والهَرَويُّ، والواحديُّ هذا القولَ إلى أهلِ التَّفسيرِ، ونسَبَه الثَّعلبيُّ والقُرطبيُّ والرَّسْعَنيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير =

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾.

أي: وهُم في ظِلٍّ دائِمٍ باقٍ لا يتقَلَّصُ أو يَزولُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ في الجَنَّةِ شَجَرةً يَسيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مِئةَ عامٍ لا يَقطَعُها، واقرؤُوا إنْ شِئتُم: ﴿وَظِلٍّ

= الثعلبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩٨).

ونَسَبه ابن جرير إلى مُفَسِّري السَّلَفِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ، وأبو هُرَيرةَ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وعَطاءٌ، وقَسامةُ بنُ زُهَيرٍ، وقَتادةُ، وأبو حَزْرةَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٣).

وذهب ابنُ القيِّم إلى أنَّ مَنْ ذَكَر الموزَ مِنَ السَّلَفِ إنَّما أراد التَّمثيلَ به لحُسْنِ نَضْدِه، لا التَّخصيصَ. واللهُ أعلَمُ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٠٩)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٦).

قال ابنُ عاشور: (هو ظِلٌّ حاصِلٌ مِن التِفافِ أشجارِ الجنَّةِ وكَثرةِ أوراقِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: لا نهايةَ له؛ لأنَّ الجنَّةَ ليس فيها شَمسٌ، بل هي ظِلٌّ، وصَفَها بَعضُ السَّلَفِ بأنَّها كالنُّورِ الَّذي يكون قُربَ طُلوعِ الشَّمسِ؛ تجِدُ الأرضَ مملوءةً نُورًا، ولكِنْ لا تُشاهِدُ شَمسًا، فهو ظِلٌّ ممدودٌ في المساحةِ والزَّمَنِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٣٦).

مَّمْدُودٖ﴾))[١].

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١﴾.

أي: وفي ماءٍ مَصبوبٍ جارٍ مِن غيرِ أُخدودٍ، لا ينقطعُ[٢].

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢﴾.

أي: وفي فَواكِهَ كَثيرةٍ مُتنَوِّعةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ [ص: ٥١].

﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾.

أي: لا تَنقَطِعُ عنهم تلك الفَواكِهُ في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ، ولا يَمنَعُهم مِن تَناوُلِها

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٨١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٢٦).
ورواه البخاريُّ (٣٢٥١) أيضًا من حديثِ أنَسِ بنِ مالكٍ رَضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٩).
ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ماءٌ مصبوبٌ جارٍ مِن غيرِ أُخدودٍ، دائمُ الجرَيانِ لا يَنقَطِعُ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٣).
وقال مقاتلٌ، والسمرقنديُّ: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ أي: منصبًّا كثيرًا. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٩).

مانِعٌ أبَدًا(١).

عن عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خَسَفَت الشَّمسُ على عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فصَلَّى، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، رَأَيْناك تناوَلْتَ شَيئًا في مَقامِك، ثمَّ رَأَيناك تكَعْكَعْتَ(٢)! قال: إنِّي أُرِيتُ الجنَّةَ، فتناوَلْتُ منها عُنقودًا، ولو أخَذْتُه لأكلْتُم منه ما بَقِيَت الدُّنيا!))(٣).

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّفَكُّهُ لا يَكمُلُ الالتِذاذُ به إلَّا مع الرَّاحةِ؛ قال(٤):

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: وهم في فُرُشٍ عاليةٍ مُرتَفِعةٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) تَكَعْكَعْتَ: أي: توقَّفْتَ وأحجَمْتَ وتأخَّرْتَ إلى وراءٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٨٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٢١٣).

(٣) رواه البخاري (٧٤٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٩٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

قيل: المعنى: أنَّ الفُرُشَ مَرفوعةٌ فوقَ السُّرُرِ بعضها فوقَ بعضٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠). =

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الَّذي مع الإنسانِ في الفِراشِ الحُورَ العِينَ؛ قال اللهُ تعالى[1]:

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا نِساءَ أهلِ الجَنَّةِ خَلْقًا فأوجَدْناهنَّ[2].

= قال الواحدي: (وجماعةُ المفسِّرينَ قالوا: بعضُها فوقَ بعضٍ، فهي مرفوعةٌ، أي: عاليةٌ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٣٤).

وقال ابن الجوزي بعدَ أن عرَّف الفُرُشَ بأنَّها الحَشايا المفروشةُ للجلوسِ والنَّوم، قال: (وفي رفْعِها قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّها مرفوعةٌ فوقَ السُّرُرِ. والثَّاني: أنَّ رفْعَها: زيادةُ حَشوِها؛ لِيَطيبَ الاستِمتاعُ بها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

وقيل: الفُرُشُ هي الأَسِرَّةُ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٦).

قال ابن عاشور: (والفُرُشُ: جمْعُ فِراشٍ بكسرِ الفاءِ، وهو ما يُفرَشُ... و﴿مَّرۡفُوعَةٍ﴾: وصْفٌ لفُرُشٍ، أي: مرفوعةٍ على الأسِرَّةِ، أي: ليست مفروشةً في الأرضِ. ويجوزُ أن يُرادَ بالفُرُشِ الأسِرَّةُ، مِن تسميةِ الشَّيءِ باسمِ ما يَحلُّ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ بالفُرُشِ: النِّساءُ، ونسَبَه السَّمْعانيُّ لجماعةٍ مِن التَّابِعينَ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى أبي عُبَيْدةَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤).

قال ابن الجوزي: (وفي معنى رَفْعِهنَّ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّهنَّ رُفِعْنَ بالجَمالِ على نساءِ أهلِ الدُّنيا. والثَّاني: رُفِعنَ عن الأدناسِ. والثَّالثُ: رُفِعنَ في القلوبِ؛ لشِدَّةِ المَيلِ إليهِنَّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٦، ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨). =

= قيل: المرادُ: أنَّ اللهَ تعالى ابتدَأَ إنشاءَ خَلْقٍ جَديدٍ لم تَقَعْ عليه وِلادةٌ مِن قَبلُ، وهُنَّ الحُورُ العِينُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، واستظهره أبو حيَّانَ، وذهب إليه الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٤).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ أنَّ الإنشاءَ هو الاختِراعُ الَّذي لم يُسبَقْ بخَلقٍ، ويكونُ ذلك مخصوصًا بالحُورِ اللَّاتي لَسْنَ مِن نَسْلِ آدَمَ، ويحتَمِلُ أن يُريدَ إنشاءَ الإعادةِ، فيَكونَ ذلك لبناتِ آدَمَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٢).

وقال ابن القيِّم: (الظَّاهِرُ أنَّ المرادَ: أنْشَأَهنَّ اللهُ تعالى في الجَنَّةِ إنشاءً [ولَسْنَ هُنَّ نساءَ الآدميَّاتِ]، ويدُلُّ عليه وُجوهٌ:

أحدُها: أنَّه قد قال في حقِّ السَّابِقينَ: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] إلى قولِه: ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، فذَكَر سُرُرَهم، وآنيتَهم، وشرابَهم، وفاكهتَهم، وطعامَهم، وأزواجَهم، والحُوْرَ العِينَ، ثمَّ ذَكَرَ أصحابَ المَيمنةِ وطعامَهم، وشرابَهم، وفِراشَهم، ونساءَهم، والظَّاهرُ أنهنَّ مِثْلُ نساءِ مَن قَبْلَهم خُلِقْنَ في الجَنَّةِ.

الثَّاني: أنَّه سُبحانَه قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، وهذا ظاهرٌ أنه إنشاءٌ أوَّلُ لا ثانٍ؛ لأنَّه سُبحانَه حيثُ يريدُ الإنشاءَ الثَّانيَ يُقَيِّدُه بذلك، كقولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧]، وقولِه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢].

الثَّالثُ: أنَّ الخِطابَ بقولِه: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ [الواقعة: ٧] إلى آخِرِه للذُّكورِ والإناثِ، والنَّشأةُ الثَّانيةُ عامَّةٌ أيضًا للنَّوعَينِ، وقولُه: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ ظاهِرُه اختصاصُهُنَّ بهذا الإنشاءِ، وتأمَّلْ تأكيدَه بالمصدرِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: نِساءُ الدُّنيا مِن أهلِ الجنَّةِ. والمعنى: أعاد إنشاءَهنَّ وخَلْقَهنَّ على صِفةٍ أُخرى. وممَّن قال بهذا القَولِ في الجُملةِ: الماوَرْديُّ، وابنُ كثيرٍ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٩).

قال ابنُ الجوزي: (وفي المُشارِ إليهِنَّ قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّهنَّ نِساءُ أهلِ الدُّنيا المؤمِناتُ. ثمَّ في إنشائِهنَّ قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه إنشاؤُهنَّ مِنَ القُبورِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: إعادتُهنَّ بعدَ الشَّمَطِ والكِبَرِ صِغارًا. قاله الضَّحَّاكُ.

والثَّاني: أنَّهنَّ الحُورُ العِينُ، وإنشاؤُهنَّ: إيجادُهنَّ عن غَيرِ وِلادةٍ. قاله الزَّجَّاجُ.

والصَّوابُ أن يُقالَ: إنَّ الإنشاءَ عمَّهنَّ كُلَّهنَّ؛ فالحُورُ أُنشِئْنَ ابتِداءً، والمُؤمِناتُ أُنشِئْنَ بالإعادةِ =

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان للنَّفْسِ أتَمُّ التِفاتٍ إلى الاختِصاصِ، وكان الأصلُ في الأُنثى المُنْشأةِ أن تكونَ بِكرًا؛ نَبَّه على أنَّ المرادَ بَكارةٌ لا تَزولُ إلَّا حالَ الوَطْءِ ثمَّ تَعودُ، فكُلَّما عاد إليها وَجَدَها بِكرًا[1]!

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فجَعَلْناهنَّ أبكارًا عَذارى[2].

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: جَعَلْناهُنَّ مُظهِراتٍ شِدَّةَ مَحبَّتِهنَّ لأزواجِهنَّ، وجعَلْناهُنَّ على سِنٍّ واحِدةٍ في غايةِ الشَّبابِ[3].

= وتَغييرِ الصِّفاتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

وممَّن ذهب إلى حَملِ الآيةِ على العُمومِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

قال السعدي: (عمومُ ذلك يَشملُ الحُورَ العِينَ ونِساءَ أهلِ الدُّنيا، وأنَّ هذا الوَصفَ -وهو البَكارةُ- ملازِمٌ لهنَّ في جميعِ الأحوالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٣، ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١١)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣٣].

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: أنشَأْنا تلك النِّسوةَ على تلك الصِّفاتِ لأصحابِ اليَمينِ(١).

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وأصحابُ اليَمينِ جَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ(٢).

= قال البِقاعي: (لَمَّا كان الاتِّفاقُ في السِّنِّ أَدعى إلى المحبَّةِ ومَزيدِ الأُلْفةِ قال: ﴿أَتْرَابًا﴾، أي: على سِنٍّ واحدةٍ، وقَدٍّ واحدٍ، بناتِ ثلاثٍ وثلاثينَ سَنةً، وكذا أزواجُهنَّ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١٠).

وقال ابنُ عاشور: (جُعِلْنَ في سِنٍّ مُتساويةٍ لا تفاوُتَ بَيْنَهنَّ، أي: هُنَّ في سِنِّ الشَّبابِ المُستوي، فتكونُ مَحاسِنُهنَّ غيرَ مُتفاوِتةٍ في جميعِ جِهاتِ الحُسنِ، وعلى هذا فنِساءُ الجنَّةِ هنَّ الموصوفاتُ بأنَّهنَّ «أترابٌ» بَعضُهنَّ لِبَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١).

وممَّن قال بأنَّ قَولَه تعالى: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يتعلَّقُ بقَوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: ذلك المذكورُ مِنَ النَّعيمِ النَّفْسيِّ والبَدَنيِّ لأصحابِ اليَمينِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

قيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾: جماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وجماعةٌ كثيرةٌ مِن أُمَّةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الَّتي هي آخِرُ الأُمَمِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦١). =

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ٤٠﴾.

أي: وجَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الآخِرينَ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ وقَولِه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ سؤالٌ: ما الحِكمةُ في ذِكرِ الأشجارِ المُورِقةِ بأنفُسِها، وذِكرِ أشجارِ الفواكِهِ بثِمارِها؟

الجوابُ: أنَّ الأوراقَ حُسنُها عندَ كَونِها على الشَّجَرِ، وأمَّا الثِّمارُ فهي في أنفُسِها مَطلوبةٌ، سواءٌ كانت عليها أو مقطوعةً؛ ولهذا صارت الفواكِهُ لها أسماءٌ بها تُعرَفُ أشجارُها، فيُقالُ: شَجَرُ التِّينِ ووَرَقُه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَّخْضُودٍ﴾ تنبيهٌ على أنَّ كُلَّ ما لا نَفْعَ فيه، أو فيه نوعُ أذًى؛

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٥).

وتقدَّم (ص: ٣٨٠) كلامُ الشنقيطيِّ أنَّ ظاهِرَ القرآنِ في هذا المقامِ أنَّ (الأوَّلينَ) في هذا الموضعِ والموضعِ السَّابقِ مِن الأُممِ الماضيةِ، والآخِرينَ فيهما من هذه الأمَّةِ، وتوجيهُه لهذا القولِ.

وقيل: المرادُ: جماعةٌ كثيرةٌ مِن أوَّلِ هذه الأمَّةِ المحَمَّديَّةِ، وجماعةٌ كَثيرةٌ مِن آخِرِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، وابنُ جُزَي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ، ومجاهِدٌ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، ومحمَّدُ بنُ سيرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣، ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٦).

له في الجَنَّةِ وُجودٌ كَريمٌ؛ لأنَّ الجنَّةَ إنَّما خُلِقَت للنَّعيمِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في وَصفِ الفاكِهةِ بالكَثرةِ، لا بالطِّيبِ واللَّذَّةِ؟

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى حيثُ ذَكَر الفاكِهةَ ذَكَر ما يدُلُّ على الكَثرةِ؛ لأنَّها ليست لدَفعِ الحاجةِ حتَّى تكونَ بقَدْرِ الحاجةِ، بل هي للتَّنَعُّمِ؛ فوَصَفَها بالكَثرةِ والتَّنَوُّعِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ * لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴾ أنَّ طعامَ الجَنَّةِ، وما فيها: لا يَنفَدُ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴾ تَفضيلُ الأبكارِ على الثَّيِّباتِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا * عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴾ جَمَع سُبحانَه بيْنَ حُسْنِ صُورتِهنَّ، وحُسْنِ عِشرَتِهنَّ، وهذا غايةُ ما يُطلَبُ مِن النِّساءِ، وبه تَكمُلُ لَذَّةُ الرَّجُلِ بِهِنَّ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ الآخِرينَ أكثَرُ؛ فإنَّ وَصْفَ الأوَّلِينَ بالكَثرةِ لا يُنافي كَونَ غَيرِهم أكثَرَ؛ لِيَتَّفِقَ مع إخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ هذه الأُمَّةَ ثُلُثا أهلِ الجنَّةِ؛ فقد قال: ((أهلُ الجنَّةِ عِشرونَ ومِئةُ صَفٍّ، ثمانونَ منها مِن هذه الأُمَّةِ، وأربعونَ مِن سائرِ الأمَمِ))[٦]، على قولٍ في معنى الآيةِ.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١١). =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ شُروعٌ في تَفصيلِ ما أُجمِلَ عندَ التَّقسيمِ مِن شؤونِهم الفاضِلةِ إثْرَ تَفصيلِ شُؤونِ السَّابقينَ، وعَوْدٌ إلى نشْرِ ما وقَعَ لَفُّه في قولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[1] [الواقعة: ٧].

- جُملةُ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٥] عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ[2].

- وجُملةُ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ خبَرٌ عن ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ بإبهامٍ يُفيدُ التَّنويهَ بهم، وهي جُملةٌ استفهاميَّةٌ لتَفخيمِهم، والتَّعجيبِ مِن حالِهم[3].

- الفائدةُ في ذِكرِهم بلَفظِ: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] عندَ ذِكرِ الأقسامِ، وبلَفظِ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ عندَ ذِكرِ الإنعامِ مِن وَجهينِ:

الأوَّلُ: «المَيْمَنةُ» مَفعلةٌ؛ إمَّا بمعْنى مَوضعِ اليمينِ -كالمحكمةِ لموضعِ الحُكمِ-، أي: الأرضُ الَّتي فيها اليمينُ، وإمَّا بمعْنى مَوضعِ اليمنِ -كالمنارةِ مَوضعُ النَّارِ، والمِجْمرةِ مَوضعُ الجمْرِ-؛ فكَيْفما كان فالمَيمنةُ فيها دَلالةٌ على الموضعِ، لكنَّ الأزواجَ الثَّلاثةَ في أوَّلِ الأمرِ يَتميَّزُ بعضُهم عن بَعضٍ ويَتفرَّقون؛ لقولِه تَعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:

= والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٥٤٦)، وابنُ ماجه (٤٢٨٩) مِن حديثِ بُرَيْدةَ الأسْلَميِّ رضيَ الله عنه.

قال الترمذيُّ: (حيثٌ حسَنٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ (٧٤٦٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

٤٣]، فيَتفرَّقونَ بالمكانِ؛ فأشار في الأوَّلِ إليهم بلَفظٍ يدُلُّ على المكانِ، ثمَّ عندَ الثَّوابِ وقَعَ تَفرُّقُهم بأمرٍ مُبهَمٍ لا يَتشاركونَ فيه كالمكانِ؛ فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[١]. الثَّاني: أنَّ ذلك تَفنُّنٌ في العبارةِ، والمعنى واحدٌ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ خبَرٌ ثانٍ للمُبتدَأِ، أو خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ لبَيانِ ما أُبهِمَ في قولِه تعالى: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ مِن عُلوِّ الشَّأنِ، أي: همْ في سِدْرٍ غيرِ ذي شَوكٍ، لا كَسِدْرِ الدُّنيا[٣].

قيل: خُصَّ السِّدرُ -وكان مَحبوبًا للعرَبِ- بالذِّكرِ مِن بيْنِ شَجرِ الجنَّةِ؛ إغرابًا به وبمَحاسِنِه الَّتي كان مَحرومًا منها مَن لا يَسكُنُ البواديَ، وبوَفْرةِ ظِلِّه، وتَهَدُّلِ أغصانِه، ونَكهةِ ثَمرِه، ووُصِفَ بالمَخضودِ، أي: المُزالِ شَوكُه؛ فقد كمَلَت مَحاسنُه بانتِفاءِ ما فيه مِن أذًى[٤].

- قولُه: ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ يُسكَبُ لهم أينَ شاؤوا، وكيف شَاؤوا بلا تعَبٍ، أو مَصبوبٍ سائلٍ، كأنَّه لَمَّا شبَّهَ حالَ السَّابقينَ في التَّنعُّمِ بأعْلى ما يُتصوَّرُ لأهلِ المُدُنِ، شَبَّهَ حالَ أصحابِ اليمينِ بأكمَلِ ما يَتمنَّاهُ أهلُ البوادي؛ إشعارًا بالتَّفاوُتِ بيْن الحالَينِ[٥].

- وسكْبُ الماءِ: صبُّه، وأُطلِقَ هنا على جَرْيِه بقوَّةٍ تُشْبِهُ السَّكبَ، وهو ماءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٣).

أنهارِ الجنَّةِ[١].

- ووُصِفَت الفاكهةُ بأنَّها ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ وَصْفًا بانتفاءِ ضِدِّ المطلوبِ؛ إذ المطلوبُ أنَّها دائمةٌ مَبذولةٌ لهم، والنَّفيُ هنا أوقَعُ مِن الإثباتِ؛ لأنَّه بمَنزِلةِ وصْفٍ وتَوكيده[٢].

- وجُمِعَ بيْن الوصْفين ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾؛ لأنَّ فاكهةَ الدُّنيا لا تَخْلو مِن أحدِ ضِدَّيْ هذَينِ الوصْفَينِ؛ فإنَّ أصحابَها يَمنعونَها، فإنْ لم يَمنَعوها فإنَّ لها إبَّانًا تَنقطِعُ فيه[٣].

- قولُه: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ إنْ أُرِيدَ بها النِّساءُ كانت كنايةً عن مَوصوفٍ، والعرَبُ تُسمِّي المرأةَ فِراشًا ولِباسًا[٤]. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالفُرُشِ الأَسِرَّةُ؛ مِن تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ ما يَحُلُّ فيه[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ لَمَّا جرى ذِكرُ الفُرشِ -وهي ممَّا يُعَدُّ للاتِّكاءِ والاضطجاعِ وقتَ الرَّاحةِ في المَنزِلِ- يَخطُرُ بالبالِ بادئَ ذي بَدْءٍ مُصاحَبةُ الحُورِ العِينِ معهم في تلك الفُرُشِ، فيُتشوَّفُ إلى وَصْفِهنَّ، فكانت جُملةُ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ بيانًا؛ لأنَّ الخاطرَ بمَنزِلةِ السُّؤالِ عن صِفاتِ الرَّفيقاتِ، فضَميرُ المؤنَّثِ مِن ﴿أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ عائدٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ، ولكنَّه مَلحوظٌ في الأفهامِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٠، ٣٠١).

- في قولِه: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ كِنايةٌ عن عَودتِهنَّ أو نَشأتِهنَّ في سِنٍّ صَغيرةٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾

- اللَّامُ في ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ لإفادةِ تَوكيدِ الاعتناءِ بأصحابِ اليمينِ المُستفادِ مِن المقامِ مِن قولِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] الآيةَ[٢].

- وقيل: إنَّما أُخِّرَ هذا ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ عن ذِكرِ ما لهم مِن النَّعيمِ؛ للإشعارِ بأنَّ عِزَّةَ هذا الصِّنفِ وقِلَّتَه دونَ عِزَّةِ صِنفِ السَّابقينَ؛ فالسابقونَ أعزُّ، وهذه الدَّلالةُ مِن مُستتبَعاتِ التَّراكيبِ المُستفادةِ مِن تَرتيبِ نظْمِ الكلامِ[٣].



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٣).

الآيات (٤١-٥٦)

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ
﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَمُومٍ﴾: أي: رِيحٍ حارَّةٍ تدخُلُ مَسامَّ الإنسانِ، وأصلُ (سمم): يدُلُّ على مَدخَلٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَحَمِيمٍ﴾: أي: ماءٍ حارٍّ شَديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[2].

﴿يَحْمُومٍ﴾: أي: دُخَانٍ شَديدِ السَّوادِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الاسوِدادِ[3].

﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي: الذَّنْبِ العَظيمِ، وهو الشِّركُ، وأصلُ (حنث): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

الإثْمِ والحَرَجِ[١].

﴿زَقُّومٍ﴾: الزَّقُّومُ: ثَمَرُ شَجَرةٍ خَبيثةٍ مُرَّةٍ كَريهةِ الطَّعمِ، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، فهم يتزَقَّمونَه على أشَدِّ كراهيةٍ، ومنه قَولُهم: تزقَّمَ الطَّعامَ: إذا تناوَلَه على كُرهٍ ومَشقَّةٍ شَديدةٍ[٢].

﴿الْهِيمِ﴾: أي: الإبِلِ العِطاشِ الَّتي أصابَها مَرَضٌ لا تَرْوَى معه مِنَ الماءِ، وأصلُ (هيم): يدُلُّ على عَطَشٍ شَديدٍ[٣].

﴿نُزُلُهُمْ﴾: أي: رِزْقُهم وطَعامُهم، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للضَّيفِ مِنَ الزَّادِ عندَ قُدومِه[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا حالَ أصحابِ الشِّمالِ وما أعدَّه لهم: وأصحابُ الشِّمالِ ما أفظَعَ شَأنَهم؛ فهم في رِيحٍ حارَّةٍ، وماءٍ شَديدِ الحَرارةِ، وظِلٍّ مِن دُخَانٍ شَديدِ السَّوادِ، لا باردٍ ولا حَسَنِ المَنظَرِ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّت بهم إلى هذا المصيرِ، فيقولُ: إنَّهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠).

كانوا في الدُّنيا مُترَفينَ مُقبلينَ على شَهَواتِهم، وكانوا مُقيمينَ على الشِّركِ باللهِ تعالى، وكانوا يَقولونَ مُنكِرينَ البَعثَ يومَ القيامةِ: أَئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمَبعوثونَ أحياءً مِن بَعدِ ذلك، أوَيُبعَثُ آباؤُنا الأوَّلونَ كذلك؟!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنكِرينَ البَعثَ: إنَّ الأوَّلِينَ والآخِرينَ لَمَجموعونَ إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ معلومٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ ما سيُصيبُهم مِن العذابِ في هذا اليومِ، فيقولُ: ثمَّ إنَّكم -أيُّها الضَّالُّونَ المكذِّبونَ- لَآكِلونَ مِن شَجَرٍ مِنَ الزَّقُّومِ كَريهٍ مُرٍّ خَبيثٍ، فمَالِئونَ منه بُطونَكم؛ لشِدَّةِ جُوعِكم، فشارِبونَ على هذا الشَّجَرِ شَرابًا مُغْلًى شديدَ الحَرارةِ، فشارِبونَ مِن هذا الحَميمِ شُربَ الإبلِ العِطاشِ الَّتي لا تَرْوَى مِن الماءِ لمرضٍ أصابها، وهذا الطَّعامُ والشَّرابُ هو ما أُعِدَّ لأولئك الضَّالِّينَ المُكَذِّبينَ عِندَ مَقْدَمِهم يَومَ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى حالَ أصحابِ اليمينِ؛ عطَف عليهم بذكرِ أصحابِ الشِّمالِ، وتَفصيلِ أحوالِهم الَّتي أُشيرَ عندَ التَّنويعِ إلى هَولِها وفَظاعتِها، فقال[1]:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

أي: وأصحابُ الشِّمالِ ما أفظَعَ شَأنَهم! وما أسوَأَ حالَهم[١]!

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَمَّهم وعابَهم، ذَكَر عَذابَهم؛ لِيُعلَمَ أنَّ القِسمَ الأشَدَّ منهم في الشُّؤمِ أشَدُّ عَذابًا؛ فقال[٢]:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: هم في رِيحٍ شَديدةِ الحَرارةِ، وشَرابٍ بَالِغِ الغايةِ في الحَرارةِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٠، ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

وقال السعدي: (المرادُ بأصحابِ الشِّمالِ: هم أصحابُ النَّارِ، والأعمالِ المَشؤومةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

قيل: سُمُّوا بأصحابِ الشِّمالِ؛ لأنَّهم يُؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمالِ مِن مَوقِفِ الحِسابِ إلى النَّارِ. وقيل: لأنَّهم على شِمالِ العَرشِ، وهنالك هي النَّارُ. وقيل: لأنَّهم يَأخُذونَ كُتُبَهم بشَمائِلِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣).

قال ابنُ القَيِّم: (مَصيرُهم ومآلُهم إلى جِهةٍ واحِدةٍ، وهي جِهةُ الشِّمالِ؛ مُستَقَرِّ أهلِ النَّارِ، والنَّارُ مِن جِهةِ الشِّمالِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٢٠).

وقال البِقاعي: ([وهي] الجهةُ الَّتي تَتشاءَمُ العربُ بها، وعُبِّر بها عن الشَّيءِ الأخَسِّ، والحظِّ الأنقَصِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١١).

وذكر ابنُ كثيرٍ ما ظاهِرُه الجمعُ بيْن هذه الأقوالِ، وهو أنَّ عامَّةَ أهلِ النَّارِ يومَ القيامةِ يَكونونَ عن يَسارِ العرشِ، وأنَّهم هم الَّذين خرَجوا من شقِّ آدَمَ الأيسَرِ، ويُؤْتَوْنَ كُتُبَهم بشَمائِلِهم، ويُؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمالِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ * يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وفي ظِلٍّ مِن دُخانٍ شَديدِ السَّوادِ[١]!

قال تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ * لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣١].

﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المعهودُ مِنَ الظِّلِّ البَردَ والإراحةَ؛ نفَى ذلك عنه، فقال[٢]:

﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وهو ظِلٌّ غيرُ باردٍ، وليس بحَسَنِ المَنظَرِ[٣]!

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

= قال القرطبي: (السَّمومُ: الرِّيحُ الحارَّةُ الَّتي تَدخُلُ في مَسامِّ البَدَنِ، والمرادُ هنا: حَرُّ النَّارِ ولَفْحُها). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣).

وقال ابنُ عاشور: (السَّمومُ: الرِّيحُ الشَّديدُ الحرارةِ الَّذي لا بَلَلَ معه، وكأنَّه مأخوذٌ مِنَ السُّمِّ، وهو ما يُهلِكُ إذا لاقى البَدَنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر -جلَّ وعلا- ما أعَدَّ لأصحابِ الشِّمالِ مِن العذابِ؛ بَيَّن بعضَ أسبابِه[(١)]، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥)﴾.

أي: إنَّ أصحابَ الشِّمالِ كانوا في الدُّنيا قبْلَ أن يُصيبَهم هذا العَذابُ في تنَعُّمٍ وإسرافٍ وإقبالٍ على الشَّهَواتِ؛ فاستحَقُّوا تلك العُقوباتِ[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦)﴾.

أي: وكانوا في الدُّنيا مُستَمِرِّينَ على الإقامةِ على الذَّنْبِ العَظيمِ، وهو الشِّركُ باللهِ تعالى[(٣)].

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)﴾.

أي: وكانوا يَقولونَ إنكارًا للبَعثِ يومَ القيامةِ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمَبعوثونَ أحياءً من بَعدِ ذلك[(٤)]؟!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨﴾.

أي: وهل يُبعَثُ أيضًا آباؤُنا الأوَّلونَ[1]؟!

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى استِفهامَهم عن البَعثِ على طَريقِ الاستِبعادِ والإنكارِ؛ أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَهم ببَعثِ العالَمِ -أوَّلِهم وآخِرِهم- للحِسابِ، وبما يَصِلُ إليه المُكَذِّبونَ للبَعثِ مِنَ العَذابِ[2].

وأيضًا لَمَّا جَرى تَعليلُ ما يُلاقيه أصحابُ الشِّمالِ مِن العذابِ بما كانوا عليه مِن كُفْرانِ النِّعمةِ، وكان المقصودُ مِن ذلك وَعيدَ المُشرِكين، وكان إنكارُهم البعثَ أدخَلَ في استِمرارِهم على الكفْرِ -أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُخاطِبَهم بتَحقيقِ وُقوعِ البعثِ، وشُمولِه لهم ولآبائِهم ولجَميعِ الناسِ[3]، فقال:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنكِرينَ للبَعثِ: إنَّ الأوَّلينَ والآخِرينَ مِنكم أو مِن غَيرِكم[4].

= (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤). =

﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾.

أي: لَمَجموعونَ بالبَعثِ والحَشرِ إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ عِندَ اللهِ تعالى، وهو يومُ القيامةِ(١).

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم بعْدَ بَعثِكم أيُّها الضَّالُّونَ عن طَريقِ الهُدى، المكذِّبونَ بالحَقِّ(٢).

﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾.

= قيل: المرادُ: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن آبائِكم، ﴿وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ منكم. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٩).

وقيل: المرادُ: الأوَّلونَ والآخِرونَ مِن جَميعِ بني آدَمَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

وقيل: المرادُ بالأوَّلينَ: الأُمَمُ الماضيةُ. وبالآخِرينَ: أمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٥).

وقال الشَّوكاني: (قُلْ لهم يا محمَّدُ: إنَّ الأوَّلينَ مِن الأمَمِ، والآخِرينَ منهم الَّذين أنتم مِن جُملَتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾: أنَّهم يُبعَثونَ ويُحشَرونَ جميعًا، وليس البَعثُ على أفواجٍ في أزمانٍ مُختَلِفةٍ كما كان موتُ النَّاسِ، بل يُبعَثُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في يومٍ واحِدٍ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

أي: لَآكِلونَ مِن شَجَرٍ كَريهِ المَنظَرِ والطَّعْمِ والرَّائِحةِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٦].

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)﴾.

أي: فمَالِئونَ مِن شَّجَرِ الزقُّومِ بُطونَكم؛ لشِدَّةِ جُوعِكم، واضطِرارِكم للأكْلِ(٢).

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ أكْلَهم؛ أتْبَعَه مَشْرَبَهم(٣).

وأيضًا لَمَّا كان مَن يأكُلُ كَثيرًا يَعطَشُ عَطشًا شَديدًا، فيَشرَبُ ما قَدَر عليه؛ رَجاءَ تَبريدِ ما به مِن حَرارةِ العَطَشِ- سَبَّبَ عنه قَولَه تعالى(٤):

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤)﴾.

أي: فشارِبونَ على هذا الزَّقُّومِ الَّذي مَلأْتُم به بُطونَكم شَرابًا مُغْلًى قد بَلَغ النِّهايةَ في الحَرارة(٥)!

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤١). =

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨].

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان شُربُهم لأدنى قَطرةٍ مِن ذلك في غايةِ العَجَبِ؛ أتْبَعَه ما هو أعجَبُ منه، وهو شِدَّةُ تَمَلُّئِهم منه؛ فقال مُسَبِّبًا عَمَّا مضى[(١)]:

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فشارِبونَ مِن هذا الحَميمِ شُربَ الإبِلِ العِطاشِ الَّتي أصابَها مَرَضٌ لا تَرْوَى معه مِن الماءِ[(٢)]!

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كأنَّه قيل: هذا عَذابُهم كُلُّه؟! قيل تهكُّمًا بهم، ونِكايةً لهم[(٣)]:

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: هذا الطَّعامُ والشَّرابُ مِن الزَّقُّومِ والحَميمِ هو ضيافةُ أولئك الضَّالِّينَ

= قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الزَّقُّومِ، أو على الأكْلِ، أو على الشَّجَرِ؛ لأنَّه يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤).

وقال ابن جرير: (قوله: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾ مرادٌ به مِن الشَّجرِ، أنَّث للمعنَى، وقال: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ مُذَكَّرًا للَفظِ الشَّجرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٨).

المُكَذِّبينَ، المُعَدَّةُ لهم عندَ مَقْدَمِهم، وذلك في يَومِ القيامةِ الَّذي يُحاسِبُ اللهُ فيه عِبادَه، ويُجازيهم على أعمالِهم[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نَفْيُ محاسِنِ الظِّلالِ عن أصحابِ الشِّمالِ؛ ففيه تذكيرٌ للسَّامِعينَ بما حُرِمَ منه أصحابُ الشِّمالِ؛ عسى أن يَحذَروا أسبابَ الوُقوعِ في الحِرْمانِ، ولإفادة هذا التَّذكيرِ عُدِلَ عن وصْفِ الظِّلِّ بالحرارةِ والمَضرَّةِ إلى وصْفِه بنَفْيِ البَرْدِ ونفْيِ الكرَمِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ فيه ذَمُّ التَّرَفِ والتَّنَعُّمِ في الدُّنيا، والتَّرَفُ طريقٌ إلى البَطالةِ، وتَرْكِ التَّفكُّرِ في العاقِبةِ[(٣)].

٣- الإسرافُ في المباحاتِ منهيٌّ عنه، كما قال تعالى عن أصحابِ النَّارِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[(٤)] [الفرقان: ٦٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١، ٣١٢).

وقال البِقاعي: (﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ أي: ما يُعَدُّ لهم أوَّلَ قُدومِهم مكانَ ما يُعَدُّ للضَّيفِ أوَّلَ حُلولِه؛ كرامةً له... وإذا كان هذا نُزُلَهم فما ظَنُّك بما يأتي بَعْدَه؟!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١٣٣).

وذكر ابنُ تيميَّةَ أنَّ الإسرافَ في المباحاتِ هو مُجاوَزةُ الحدِّ، وهو مِن العُدوانِ المحرَّمِ، وكذلك فإنَّ الامتِناعَ مِن فِعلِ المُباحاتِ مُطلَقًا، كالَّذي يمتنِعُ مِن أكلِ اللَّحمِ أو لبسِ الكَتَّانِ والقُطنِ، ولا يَلبَسُ إلَّا الصُّوفَ، ويمتنِعُ مِن نكاحِ النِّساءِ، ويظُنُّ أنَّ هذا مِن الزُّهدِ المُستحَبِّ؛ فهذا جاهلٌ ضالٌّ، مِن جنسِ زُهَّادِ النَّصارى.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لَمَّا كانتِ اليمينُ جهةَ الخَيرِ والفَلاحِ -وأهلُها هم النَّاجون- أُفْرِدَتْ؛ لأنَّ طريقَ الحقِّ واحدٌ؛ إذ مرَدُّه إلى اللهِ الملكِ الحقِّ، ولَمَّا كانتِ الشِّمالُ جهةَ أهلِ الباطلِ -وهم أصحابُ الشِّمالِ- جُمِعَتْ في قَولِه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨]؛ لأنَّ طرقَ الباطلِ متشعِّبةٌ متعدِّدةٌ؛ فإنْ قيلَ: فهَلَّا كذلك في قَولِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؟ وما بالُها جاءتْ مُفرَدةً؟

الجوابُ: جاءتْ مُفرَدةً؛ لأنَّ المرادَ أهلُ هذه الجهةِ، ومصيرُهم، ومآلُهم إلى جهةٍ واحدةٍ؛ وهي جهةُ الشِّمالِ؛ مُستَقَرُّ أهلِ النَّارِ، والنَّارُ مِن جهةِ الشِّمالِ؛ فلا يَحْسُنُ مجيئُها مجموعةً؛ لأنَّ الطُّرُقَ الباطلةَ -وإنْ تَعَدَّدَتْ- فغايتُها المَرَدُّ إلى طريقِ الجحيمِ، وهي جهةُ الشِّمالِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ هذه الآياتُ تَضمَّنَتْ ذِكْرَ ما يُتبَرَّدُ به في الدُّنيا مِن الكَرْبِ والحَرِّ، وهو ثلاثةٌ: الماءُ، والهواءُ، والظِّلُّ؛ فهواءُ جَهنَّمَ: السَّمُومُ، وهو الرِّيحُ الحارَّةُ الشَّديدةُ الحَرِّ، وماؤُها: الحميمُ الَّذي قد اشتَدَّ حَرُّهُ، وظِلُّها: اليَحْمومُ، وهو قِطَعُ دُخَانِها[٢]، كأنَّه قيل: أبرَدُ الأشياءِ في الدُّنيا حارٌّ عِندَهم، فكيف أحَرُّها[٣]؟!

٣- لم يقُلِ اللهُ سبحانَه في حقِّ أصحابِ اليمينِ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

أمَّا تَركُ فُضولِ المُباحاتِ -وهو ما لا يحتاجُ إليه لمصلحةِ دينِه- فهو مِن الزُّهدِ المُباحِ، ويُثابُ على تركِ فُضولِها. يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (١/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٠٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٩).

[الواقعة: ٢٤] كما قاله عزَّ وجلَّ في حقِّ السَّابقينَ؛ رمزًا إلى أنَّ الفضلَ في حَقِّهم مُتمَحِّضٌ، كأنَّ عمَلَهم -لقُصورِه عن عملِ السَّابقينَ- لم يُعتبَرِ اعتِبارَه[١].

٤- النَّارُ محلُّ ذوي الشَّهواتِ الَّذين ليس لهم همٌّ إلَّا اتِّباعُ شهواتِهم، ولذلك أكثرُ مَن يَدخُلُ النَّارَ المُترَفونَ؛ فالتَّرَفُ سببٌ للتَّلَفِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ إصرارَهم على الحِنْثِ وإنكارَهم البَعثَ لا يَخفى تَسَبُّبُه في العَذابِ؛ لأنَّ اللهَ توَعَّدَهم عليه فلم يُقلِعوا عنه، وإنَّما يَبقى النَّظَرُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾؛ فإنَّ التَّرَفَ في العَيشِ ليس جريمةً في ذاتِه، وكم مِن مُؤمِنٍ عاش في تَرَفٍ؟! وليس كُلُّ كافرٍ مُترَفًا في عَيشِه، فلا يكونُ التَّرَفُ سَبَبًا مُستَقِلًّا في تسَبُّبِ الجزاءِ الَّذي عُومِلوا به، فما وجْهُ ذلك؟

الجَوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ الإترافَ سَبَبٌ باعتِبارِ ضَميمةِ ما ذُكِرَ بَعْدَه إليه، بأنْ كان إصرارُهم على الحِنْثِ وتكذيبُهم بالبَعثِ جَريمتَينِ عَظيمتَينِ؛ لأنَّهما مَحفوفتانِ بكُفرِ نِعمةِ التَّرَفِ الَّتي خَوَّلَهم اللهُ إيَّاها، على نَحوِ قَولِه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، فيكونُ الإترافُ جُزءَ سَبَبٍ، وليس سَبَبًا مُستَقِلًّا، وفي هذا مِن معنى قَولِه تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢١)، ((شرح صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٨/ ٣٨١).

الثَّاني: أنَّ التَّرَفَ في العَيشِ عَلَّقَ قُلوبَهم بالدُّنيا، واطمأنُّوا بها؛ فكان ذلك مُمْليًا على خَواطِرِهم إنكارَ الحياةِ الآخِرةِ، فيَكونُ المرادُ التَّرَفَ الَّذي هذا الإنكارُ عارِضٌ له وشَديدُ المُلازَمةِ له، فوِزانُه وِزانُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

فجُعِلَ أهلُ الشِّمالِ مُترَفِينَ؛ لأنَّهم لا يخلو واحِدٌ منهم عن تَرَفٍ -ولو في بَعضِ أحوالِه وأزمانِه- مِن نِعَمِ الأكْلِ والشُّرْبِ، والنِّساءِ، وكُلُّ ذلك جديرٌ بالشُّكرِ لواهِبِه، وهم قد لابَسوا ذلك بالإشراكِ في جميعِ أحوالِهم، أو لأنَّهم لَمَّا قَصَروا أنظارَهم على التَّفكيرِ في العِيشةِ العاجِلةِ صَرَفَهم ذلك عن النَّظَرِ والاستِدلالِ على صِحَّةِ ما يدعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهذا وجْهُ جَعْلِ التَّرَفِ في الدُّنيا من أسبابِ جَزائِهم الجَزاءَ المذكورَ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لَطيفةٌ: وهي أنَّه أشار في الآياتِ الثَّلاثِ إلى الأُصولِ الثَّلاثةِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ -مِن حيثُ الاستِعمالُ- يدُلُّ على ذَمِّهم بإنكارِ الرُّسُلِ؛ إذ المُترَفُ مُتكَبِّرٌ بسَبَبِ الغِنى، فيُنكِرُ الرِّسالةَ. والمُترَفونَ كانوا يَقولونَ: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]. وقَولُه: ﴿يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إشارةٌ إلى الشِّركِ ومخالفةِ التَّوحيدِ. وقَولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إشارةٌ إلى إنكارِ الحَشرِ والنَّشْرِ(٢).

٧- أنَّ الجَدَّ يُسمَّى أبًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾، وآباؤُهم الأَوَّلون أجدادٌ سابِقونَ، فالجَدُّ يُسمَّى أبًا، ويَتفرَّعُ على ذلك مَسألةٌ فَرضيَّةٌ، وهي: أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١١).

الجَدَّ يُسقِطُ الإِخْوةَ، أشقَّاءَ كانوا، أمْ لأبٍ، أمْ لأمٍّ[(١)].

٨- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ * فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، والنُّزُلُ: هو ما يُعَدُّ للضَّيفِ عندَ قُدومِه، فدَلَّت هذه الآياتُ على أنَّ أهلَ النَّارِ يُتحَفونَ عندَ دُخولِها بالأكْلِ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ، والشُّربِ مِن الحَميمِ، وهم إنَّما يُساقُونَ إلى جَهنَّمَ عِطاشًا[(٢)]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ * وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾

- في هذا الاستِفهامِ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ تَعظيمُ مُصابِهم[(٣)].

- وأُتْبِعَ الإبهامُ الَّذي في قولِه: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ بما يُبيِّنُ بَعضَه[(٤)].

- قولُه: ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ * وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ وصْفُ الظِّلِّ بأنَّه مِن يَحمومٍ؛ للإشعارِ بأنَّه ظِلُّ دُخَانٍ لهَبِ جهنَّمَ، والدُّخَانُ الكثيفُ له ظِلٌّ؛ لأنَّه بكَثافتِه يَحجُبُ ضَوءَ الشَّمسِ، وإنَّما ذُكِرَ مِن الدُّخَانِ ظِلُّه لمُقابَلتِه بالظِّلِّ الممدودِ المُعَدِّ لأصحابِ اليمينِ في قولِه: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٧).

وهذا المذكورُ -أي: حَجْبُ الجدِّ للإخوةِ- هو قولُ أبي حنيفةَ، وهو خلافُ قولِ مالكٍ، والشَّافعيِّ، وأحمدَ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

٣٠]، أي: لا ظِلَّ لأصحابِ الشِّمالِ سِوى ظِلِّ اليَحْمومِ، وهذا مِن قَبيلِ التَّهكُّمِ، ولتَحقيقِ معْنى التَّهكُّمِ وُصِفَ هذا الظِّلُّ بما يُفيدُ نفْيَ البرْدِ عنه ونفْيَ الكرَمِ، فبرْدُ الظِّلِّ ما يَحصُلُ في مَكانِه مِن دفْعِ حَرارةِ الشمْسِ، وكرَمُ الظِّلِّ ما فيه مِن الصِّفاتِ الحَسَنةِ في الظِّلالِ؛ مِثل سَلامتِه مِن هبُوبِ السَّموم عليه، وسَلامةِ الموضعِ الَّذي يُظِلُّه مِن الحشراتِ والأوساخِ، وسَلامةِ أرْضِه مِن الحجارةِ ونحْوِ ذلك؛ إذ الكريمُ مِن كلِّ نوعٍ هو الجامعُ لأكثرِ مَحاسِنِ نَوعِه، فوُصِفَ ظِلُّ اليَحمومِ بوصْفٍ خاصٍّ، وهو انتفاءُ البُرودةِ عنه، وأُتبِعَ بوصْفٍ عامٍّ، وهو انتفاءُ كَرامةِ الظِّلالِ عنه[1].

أو هذا تَتْميمٌ[2] لنفْيِ كَرامةِ مَن يَستروِحُ إليه، والمرادُ همْ، أي: يَستظِلُّون إليه وهم مُهانون، وقد يُحتمَلُ المجلسُ الرَّديءُ لنَيلِ الكرامةِ. وقد يجوزُ أنْ يكونَ ﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ صِفةً لـ﴿يَحۡمُومٖ﴾، ويَلزَمُ منه أنْ يكونَ الظِّلُّ مَوصوفًا بذلك[3].

- وفي قولِه: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّعريضِ[4]،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٦).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٤).

(٤) التَّعريضُ في اصطلاحِ البَلاغيِّينَ: هو الدَّلالةُ على المعنى مِن طريقِ المفهومِ، أي: تضمينُ الكلامِ ما يَصلُحُ للدَّلالةِ على مقصودِ المتكلِّمِ، ويصلُحُ للدَّلالةِ على غيرِ مقصودِه؛ إلَّا أنَّ إشعارَه بجانبِ المقصودِ أتمُّ وأرجَحُ. وقد يُسمَّى تلويحًا؛ لأنَّه يَلوحُ منه ما يُريدُ. والفرقُ بيْن الكِنايةِ والتَّعريضِ: أنَّ الكِنايةَ ذِكرُ الشَّيءِ بذِكرِ لَوازِمه، كقولِك: فُلانٌ طويلُ النِّجادِ، كثيرُ الرَّمادِ... والتَّعريضَ: ذِكرُ كلامٍ يحتملُ مقصودَ المتكلِّمِ ويحتملُ غيرَ مقصودِه، إلَّا أنَّ قرائنَ الأحوالِ تؤكِّدُ حمْلَه على مقصودِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٦٩)، ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣١١)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٠٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢/ ١٢٧).

وهو أنَّ الَّذين يَستأهِلون الظِّلَّ الَّذي فيه بَرْدٌ وإكرامٌ غيرُ هؤلاء، فيَكونُ أشْجَى لحُلوقِهم، وأدْعَى لتَحسُّرِهم[١].

- وفي قولِه: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ مُقابَلَةٌ خَفيَّةٌ كامِنةٌ فيما بيْن سُطورِ هذا الكلامِ العجيبِ؛ فهؤلاء الَّذين أمْسَوا بهذه المَثابةِ كانوا في الدُّنيا يَعيشون غارِقين في التَّرَفِ، مُتقلِّبين في أعطافِه، فإذا بهم وقد لَفَّهم السَّمومُ واليَحْمومُ، يَتذكَّرون ما كانوا فيه، ويُقابِلون بيْنه وبيْن حالتِهم الرَّاهنةِ، والتَّجسيدُ والتَّخييلُ حاضرانِ مُهيَّآنِ أمامَهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ * وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تَعليلٌ لِما يَلقاهُ أصحابُ الشِّمالِ مِن العذابِ، فيَتعيَّنُ أنَّ ما تَضمَّنَه هذا التَّعليلُ كان مِن أحوالِ كُفْرِهم، وأنَّه ممَّا له أثرٌ في إلحاقِ العذابِ بهم؛ بقَرينةِ عطْفِ ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾... ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾ إلخ عليه[٣].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُصِرُّونَ﴾ و﴿يَقُولُونَ﴾ تُفيدُ تَكرُّرَ الإصرارِ والقولِ مِنْهم[٤].

- وذِكرُ فِعلِ (كَانُوا)؛ لإفادةِ أنَّ ذلك دَيدنُهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ الاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كِنايةً عن الإحالةِ والاستبعادِ(١).

- وتَقديمُ التُّرابِ؛ لعَراقتِه في الاستِبعادِ، وانْقلابِه مِن الأجْزاءِ الباديةِ(٢).

- وأُعيدَ الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾؛ تَوكيدًا للاستبعادِ والإنكارِ، وللدَّلالةِ على إنكارِ البعثِ مُطلقًا(٣).

- وتَحليةُ الجُملةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ بـ(إنَّ) لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكارِ التَّأكيدِ؛ كما عَسَى يُتوَهَّمُ مِن ظاهِرِ النَّظمِ؛ فإنَّ تَقديمَ الهَمزةِ لاقتِضائِها الصَّدارةَ -كما في مِثلِ قولِه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، ومعناه: تعقيبُ الإنكارِ لا إنكارُ التَّعقيبِ، ومَرجِعُه إلى إنكارِ البَعثِ بعدَ تِلك الحالةِ، وفيه مِن الدَّلالةِ على غُلوِّهم في الكُفْرِ وتَماديهم في الضَّلالِ ما لا مَزيدَ عليه(٤).

- وتَكريرُ الهَمزةِ في قولِه تعالَى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ لتأْكيدِ النَّكيرِ والاستبعادِ، والواوُ للعطْفِ على المُستكِنِّ في ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾، وحسُنَ العطْفُ على المُضمَرِ في ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ مِن غيرِ تأكيدٍ بـ(نحن)؛ لوُجودِ الفاصلِ الَّذي هو الهمزةُ(٥). وهذه الهَمزةُ على قِراءةِ بَعضِ القُرَّاءِ ﴿أَوْ﴾ بسُكونِ الواوِ(٦)؛ فمعْنى الآيةِ: استِبعادُ أنْ يُبعَثوا همْ وآباؤهم على حدٍّ واحدٍ مِن الاستبعادِ. وعلى قِراءةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٦) قرأ بها أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وقالونُ، وقرأ الباقونَ بفتحِ الواوِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).

الجُمهور: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ بتَحريكِ الواوِ، على أنَّها واوُ العطْفِ دخَلَ عليها ألِفُ الاستِفهامِ، ومعْناها: شِدَّةُ الاستبعادِ في الآباءِ، كأنَّهم استَبْعَدوا أنْ يُبعَثوا، ثمَّ أتَوا بذِكرِ مَنِ البعثُ فيهم أبعَدُ، وهذا بيِّنٌ لأهلِ العلمِ بلِسانِ العربِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ افتُتِحَ الكلامُ بالأمْرِ بالقولِ؛ للاهتِمامِ به، كما افتُتِحَ به نَظائرُه في آياتٍ كثيرةٍ؛ لِيَكونَ ذلك تَبليغًا عن اللهِ تعالى، فيكون قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إلخ استئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ حِكايةِ قَولِهم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ [الواقعة: ٤٧] الآيةَ(٢).

- وفي تَقديمِ الأوَّلِينَ مُبالَغةٌ في الرَّدِّ؛ حيثُ كان إنكارُهم لبَعثِ آبائِهم أشدَّ مِن إنكارِهم لبَعْثِهم، مع مُراعاةِ التَّرتيبِ الوُجوديِّ(٣).

- قولُه: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ معْناهُ أنَّهم يُبعَثون ويُحشَرون جميعًا، وهذا إبطالٌ لِما اقتضاهُ عطْفُ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ في كَلامِهم مِنَ اسْتِنتاجِ استِبعادِ البَعثِ؛ لأنَّهم عَدُّوا سبْقَ مَن سبَقَ مَوتُهم أدَلَّ على تَعذُّرِ بَعثِهم بعْدَ أنْ مَضَت عليهم القرونُ ولم يُبعَثْ فريقٌ منهم إلى يومِ هذا القيلِ(٤).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لرَدِّ إنكارِهم مَضمونَه(٥).

- وقد ضُمِّنَ ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ معْنى (مَسوقون)؛ فتَعلَّقَ به مَجرورُه بحرْفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(إلى) للانتهاءِ، وإلَّا فإنَّ ظاهرَ (مَجمُوعون) أنْ يُعدَّى بحرْفِ (في). وأفاد تَعليقُ مَجرورٍ ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ به بواسطةِ (إلى) أنَّه مُسيَّرٌ إليه حتَّى يَنْتهيَ إليه؛ فدلَّ على مَكانٍ، وهذا مِن الإيجازِ[1].

- وإضافةُ ﴿مِيقَٰتِ﴾ إلى ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ لأنَّ التَّجمُّعَ واقعٌ في ذلك اليَومِ، وإذ كان التَّجمُّعُ الواقعُ في اليومِ واقعًا في ذلك المِيقاتِ، كانت بيْنَ المِيقاتِ واليومِ مُلابَسةٌ صحَّحت إضافةَ المِيقاتِ إليه لأدْنى مُلابَسةٍ، وهذا أدقُّ مِن جَعْلِ الإضافةِ بَيانيَّةً، وهذا تَعريضٌ بالوعيدِ بما يَلْقَونه في ذلك اليومِ الَّذي جَحَدوه[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ * فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ * فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾، هذا مِن جُملةِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقولَه لهم، و(ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ فإنَّ في التَّصريحِ بتَفصيلِ جَزائِهم في ذلك اليومِ ما هو أعظَمُ وقْعًا في النُّفوسِ مِن التَّعريضِ الإجماليِّ بالوعيدِ الَّذي استُفِيدَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وهذا التَّراخي الرُّتبيُّ بمَنزلةِ الاعتِراضِ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٩] وجُملةِ ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾[3] [الواقعة: ٥٧].

- قولُه: ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾، نِداؤُهم بهذَين الوصْفينِ إيماءٌ إلى أنَّهما سبَبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما لَحِقَهم مِن الجزاءِ السَّيِّئِ[(١)].

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ تَفظيعُ حالِهم في جَزائِهم على ما كانوا عليه مِن التَّرَفِ في الدُّنيا بمَلْءِ بُطونِهم بالطَّعامِ والشَّرابِ مَلْئًا أنْساهم إقبالَهم عليه، ومنَعهم مِن التَّفكُّرِ في مَصيرِهم. وقد زِيدَ تَفظيعًا بالتَّشبيهِ في قولِه: ﴿فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾[(٢)].

- يَجوزُ أنْ يكونَ (علَى) في قولِه: ﴿فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ للاستِعلاءِ، أي: شارِبون فوقَه الحميمَ، ويَجوزُ مع ذلك استِفادةُ معْنى (مع) مِن حرْفِ (علَى) تَعجيبًا مِن فَظاعةِ حالِهم، أي: يَشرَبون هذا الماءَ المُحرِقَ مع ما طَعِموه مِن شجَرِ الزَّقُّوم، فيُفيدُ أنَّهم يَتجرَّعونه، ولا يَستطيعونَ امتِناعًا[(٣)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ عطْفٌ على ﴿لَـَٔاكِلُونَ﴾؛ لإفادةِ تَعقيبِ أكْلِ الزَّقُّومِ بـ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ دونَ فَترةٍ ولا استراحةٍ، وإعادةُ ﴿فَشَـٰرِبُونَ﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ لنَظيرِه، وفائدةُ هذا التَّوكيدِ زيادةُ تَقريرِ ما في هذا الشُّربِ مِن الأعجوبةِ، وهي أنَّه مع كَراهتِه يَزدادونَ منه، فيَزيدُهم تَقطيعًا لأمعائِهم؛ لإفادةِ التَّعجيبِ مِن حالِهم تَعجيبًا ثانيًا بعْدَ الأوَّلِ؛ فإنَّ كَونَهم شارِبين للحَميمِ على ما هو عليه مِن تَناهي الحرارةِ أمْرٌ عَجيبٌ، وشُرْبُهم له كما تَشرَبُ الإبلُ الهِيمُ في الإكثارِ أمْرٌ عَجيبٌ أيضًا؛ فكانتَا صِفتينِ مُختلفتَينِ[(٤)].

- وجملةُ ﴿هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ مَسوقةٌ مِن جِهَتِه تعالَى بطَريقِ الفَذْلَكةِ[(٥)]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١).

(٥) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٠).

مُقرِّرةٌ لمَضمونِ الكَلامِ المُلقَّنِ، غَيرُ داخلةٍ تَحتَ القولِ(١).

- والكلامُ أيضًا اعتِراضٌ بيْن جُمَلِ الخِطابِ، موجَّهٌ إلى السَّامِعينَ غيرِهم؛ فليس في ضَميرِ الغَيبةِ الْتِفاتٌ(٢).

- قولُه: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ تَشبيهٌ تَهكُّميٌّ؛ فقد سمَّى الجحيمَ وما فيه مِن صُنوفِ العذابِ وضُروبِ الأهوالِ نُزُلًا تَهكُّمًا بهم؛ لأنَّ النُّزُلَ ما يُعَدُّ للنَّازلِ تَكرِمةً له، كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣) [آل عمران: ٢١].

- وجَعْلُ يومِ الدِّينِ وقْتًا لنُزُلِهم مُؤْذِنٌ بأنَّ ذلك الَّذي عُبِّر عنه بالنُّزُلِ جَزاءٌ على أعمالِهم، وهذا تَجريدٌ(٤) للتَّشبيهِ التَّهكُّميِّ، وهو قَرينةٌ على التَّهكُّمِ(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٧).

(٤) التجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئنْ لَقيتَ زيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).

الآيات (٥٧-٦٢)

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّا تُمْنُونَ﴾: أي: ما تَقْذِفونَ وتَصبُّونَ في أرحامِ النِّساءِ مِن المَنيِّ؛ مِن قَولِك: أَمْنَى الرَّجُلُ: إذا خرَجَ منه المَنِيُّ، والمَنِيُّ: الماءُ الَّذي يُخلَقُ ويُقدَّرُ منه الوَلَدُ، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تقديرِ شَيءٍ، وقيل: سُمِّي المنيُّ مَنِيًّا لأنَّه يُمْنَى، أي: يُراقُ(١).

﴿النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾: أي: ابتِداءَ الخَلْقِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعِ شَيءٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مقرِّرًا للمَعادِ، ردًّا على المكذِّبينَ به، ومقيمًا الأدِلَّةَ على كمالِ قدرتِه: نحن خَلَقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ مِنَ العَدَمِ، فهَلَّا تُصَدِّقونَ خالِقَكم في إخبارِه ببَعْثِكم أحياءً يومَ القيامةِ بعْدَ مَوتِكم!

أفرأيتُم ما تَقْذِفونَ مِنَ المنيِّ في أرحامِ نِسائِكم، أأنتُم تَخلُقونَه أم نحن الخالِقونَ له؟

نحن قَضَيْنا بَيْنَكم الموتَ، وما نحن بعاجِزينَ عن تَبديلِ صُوَرِكم وأشخاصِكم، وأن نُنشِئَكم نَشأةً أُخرى في خِلْقةٍ لا تَعلَمونَها مِنَ الصُّوَرِ والهَيئاتِ، ولقد عَلِمتُم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩).

خَلْقنا لكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فهَلَّا تَتذكَّرونَ ذلك فتَعلَموا أنَّ الَّذي خلَقكم ولم تَكونوا شَيئًا، قادرٌ على إعادتِكم أحياءً بعْدَ مَوتِكم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ الكُفَّارُ بَعْثَهم وآبائِهم الأوَّلِينَ، وأمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَهم أنَّه تعالى باعِثٌ جَميعَ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، وذَكَر جَزاءَ مُنكِري البَعثِ بأكْلِ الزَّقُّومِ وشُربِ الحَميمِ- أتْبَع ذلك بالبَراهينِ القاطِعةِ الدَّالَّةِ على البَعثِ، فقال تعالى[1]:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)﴾.

أي: نحن خَلَقْناكم -أيُّها الكفرةُ المكذِّبونَ بالبعث[2]- أوَّلَ مرَّةٍ مِنَ العَدَمِ، فهَلَّا تُصَدِّقونَ خالِقَكم في إخبارِه ببَعْثِكم أحياءً يومَ القيامةِ بعْدَ مَوتِكم؟ فالَّذي قَدَر على ابتِداءِ خَلْقِكم قادِرٌ على إعادتِكم بطَريقِ الأَولى[3].

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: أفرأيتُم ما تَقْذِفونَ مِنَ المَنيِّ في أرحامِ نِسائِكم[1]؟

قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ * يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ * إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطارق: ٥ - ٨].

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت العِبرةُ بالمُسَبَّبِ لا بالسَّبَبِ، نَبَّه على ذلك بتَجديدِ الإنكارِ؛ تَنبيهًا على أنَّهم وإن كانوا مُعتَرِفينَ بتفَرُّدِه بالإبداعِ، فإنَّ إنكارَهم للبَعثِ مُستلزِمٌ لإنكارِهم لذلك، فقال تعالى[2]:

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: أأنتُم تَخلُقونَ ذلك المَنِيَّ أم نحن الخالِقونَ له[3]؟

﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تقريرٌ لِما سبَق، فقال: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ [الواقعة: ٥٧]، ثُمَّ قال: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨).

بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ فمَنْ قدَر على الإحياءِ والإماتةِ، وهما ضِدَّانِ ثبَت كونُه مختارًا، فيمكِنُ الإحياءُ ثانيًا منه بعدَ الإماتة(١).

وأيضًا لما كان الجوابُ عن قولِه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾: أنتَ الخالقُ وحدَك، وكان ربَّما نازَع في ذلك أهلُ الطَّبائِعِ، وكانت المفاوتةُ للآجالِ معَ المساواةِ في اسميةِ الحياةِ مِن الدَّلائلِ العظيمةِ على تمامِ القدرةِ على الإفناءِ والإبداءِ بالاختيارِ، مبطلةً لقولِ أهلِ الطَّبائعِ دافعةً لهم؛ أكَّد ذلك الدليلَ بقولِه(٢):

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

أي: نحن قَضَيْنا بَيْنَكم الموتَ، فما مِن إنسانٍ يُفلِتُ مِنَ الموتِ في الوَقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لذلك(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٩، ٥٣٠).
قال الشنقيطي: (قوله: ﴿قَدَّرْنَا﴾ فيه وجهانِ من التَّفسيرِ:
فقال بعضُ العلماءِ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، أنَّ قولَه: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: قدَّرْنا لِمَوتِكم آجالًا مُختلِفةً، وأعمارًا مُتفاوِتةً؛ فمنكم مَن يموتُ صغيرًا، ومنكم مَن يموتُ شابًّا، ومنكم مَن يموتُ شَيخًا. وهذا المعنى دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]، وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]...
الوجهُ الثَّاني: أنَّ ﴿قَدَّرْنَا﴾ بمعنى: قضَيْنا وكتَبْنا، أي: كتَبْنا الموتَ وقدَّرْناه على جميعِ الخلْقِ.
وهذا الوجهُ تَشهَدُ له آياتٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿... وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾.

أي: وما نحن بمَغلوبِينَ ولا عاجِزينَ على تَبديلِ صُوَرِكم وأشخاصِكم، وأن نُنشِئَكم نَشأةً أُخرى في خِلْقةٍ لا تَعلَمونَها مِنَ الصُّوَرِ والهَيئاتِ، والأحوالِ والصِّفاتِ[1]!

= ٨٨]، وقولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] [الأنبياء: ٣٥] [العنكبوت: ٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والسمرقندي، والخازن، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٧).

وبنحوِ هذا القولِ قولُ مَن قال: قسَمْناه عليكم قِسمةَ الرِّزقِ على اختِلافٍ وتَفاوُتٍ كما تَقتَضيه مَشيئتُنا، ووقَّتْنا موتَ كلِّ أحدٍ بوقتٍ مُعيَّنٍ؛ فاختلفتْ أعمارُكم مِن قصيرٍ وطويلٍ ومتوسِّطٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ: القرطبيُّ، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦، ٢١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم =

= الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢، ٣٤٣).

قال ابن جُزَي: (المسبوقُ على الشَّيءِ هو المغلوبُ عليه، بحيث لا يقدِرُ عليه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٧).

قال أبو حيَّان: (المعنَى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾: أيْ: نحنُ قادِرونَ على ذلك، لا تَغْلِبونَنا عليه، إنْ أرَدْنا ذلك. وقال الطَّبَريُّ: «المعنَى: نحنُ قادِرونَ، قَدَّرْنا بَيْنَكم الموتَ، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أيْ: بموتِ طائفةٍ ونُبَدِّلُها بطائِفةٍ، هكَذا قَرْنًا بعدَ قَرْنٍ». انتهى. فـ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بقولِه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾، وعلى القولِ الأوَّلِ مُتَعَلِّقٌ ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا نُسْبَقُ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٦).

ممَّن نصَّ على أنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ ...﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾: السمينُ الحلبي، وابنُ عادل، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٦).

قال الشنقيطي: (والمعنى: وما نحن بمغلوبينَ على أن نُبدِّلَ أمثالَكم إنْ أهلَكْناكم لو شِئْنا، فنحن قادرونَ على إهلاكِكم، ولا يوجَدُ أحدٌ يَغلِبُنا ويَمنَعُنا مِن خَلقِ أمثالِكم بدَلًا منكم. وهذا المعنى تَشهدُ له آياتٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] [فاطر: ١٦، ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أيُّها النَّاسُ في أنفُسِكم وآجالِكم، فمُفْتاتٌ علينا فيها في الأمرِ الَّذي قدَّرْناه لها مِن حياةٍ ومَوتٍ، بل لا يَتقدَّمُ شَيءٌ مِنها أجَلَنا، ولا يَتأخَّرُ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٦).

قال الشنقيطي موضِّحًا هذا القولَ: (﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: ما نحن بمَغلوبينَ... أي: وما نحن بمغلوبينَ على ما قدَّرْنا مِن آجالِكم، وحدَّدْناه مِن أعمارِكم، فلا يَقدِرُ أحدٌ أن يُقدِّمَ أجَلًا أخَّرْناه، ولا يؤخِّرَ أجَلًا قدَّمْناه.

وهذا المعنى دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] [النحل: ٦١]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ =

= [نوح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال أيضًا: (وعلى هذا القول، فقولُه تعالَى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾، ليس مُتَعَلِّقًا بـ«مَسْبُوقِينَ»، بل بقولِه تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، والمعنَى: نحنُ قَدَّرْنا بيْنَكم الموتَ على أنْ نُبَدِّلَ أمثالَكم، أي: نُبَدِّلَ مِن الَّذينَ ماتوا أمثالًا لهم نُوجِدُهم.

وعلى هذا، فمعنَى تبديلِ أمثالِهم: إيجادُ آخَرينَ مِن ذُرِّيَّةِ أُولئكَ الَّذين ماتوا، وهذا المعنَى تشهدُ له آياتٌ مِن كتابِ اللهِ؛ كقولِه تعالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال ابنُ القَيِّم: (المرادُ بتَبديلِ أمثالِهم: الخَلْقُ الجَديدُ، والنَّشأةُ الآخِرةُ الَّتي وُعِدوا بها... وكَونُهم أمثالَهم هو إنشاؤُهم خَلقًا جديدًا بعَينِه، فهم هم بأعيانِهم، وهم أمثالُهم، فهم أنفُسُهم يُعادُونَ، فإذا قُلتَ: المُعادُ هذا هو الأوَّلُ بعَينِه، صَدَقْتَ، وإنْ قُلْتَ: هو مِثلُه، صَدَقْتَ، فهو هو مُعادٌ، أو هو مِثلُ الأوَّلِ.

وقد أوضَحَ هذا سُبحانَه بقَوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، فهذا الخَلقُ الجَديدُ هو المتضمِّنُ لكَونِهم أمثالَهم، وقد سَمَّاه اللهُ سُبحانَه وتعالى إعادةً، والمُعادُ مِثلُ المُبتَدَأ، وسَمَّاه نشأةً أُخرى، وهي مِثلُ الأُولى، وسمَّاه خَلقًا جَديدًا، وهو مِثلُ الخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وسَمَّاه أمثالًا، وهم هم؛ فتطابَقَت ألفاظُ القُرآنِ، وصدَّقَ بَعضُها بعضًا، وبيَّنَ بَعضُها بَعضًا، وبهذا تَزولُ إشكالاتٌ أورَدَها مَن لم يَفهَمِ المَعادَ الَّذي أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ. ولا يُفهَمُ مِن هذا القَولِ ما قاله بَعضُ المتأخِّرينَ: إنَّهم غَيرُهم مِن كُلِّ وجْهٍ! فهذا خَطَأٌ قَطعًا -مَعاذَ اللهِ مِن اعتِقادِه-، بل هم أمثالُهم، وهم أعيانُهم، فإذا فُهِمَت الحقائِقُ فلا يُناقِشُ في العِبارةِ إلَّا ضَيِّقُ العَطَنِ، صَغيرُ العَقلِ، ضَعيفُ العِلمِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

وقال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه للعلماءِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ:

قال بعضُهم: نُنشِئَكم بعدَ إهلاكِكم فيما لا تَعلَمونه مِن الصُّوَرِ والهَيئاتِ، كأنْ نُنشِئَكم قِرَدةً وخَنازيرَ، كما فعَلْنا ببعضِ المجرمين قبْلَكم.

وقال بعضُهم: نُنشِئَكم فيما لا تَعلَمونه مِن الصِّفاتِ، فنُغيِّرَ صِفاتِكم، ونُجَمِّلَ المؤمنينَ ببَياضِ =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٧].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: ولقد عَلِمتُم خَلْقَنا لكم أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم تَكونوا شَيئًا قبْلَ ذلك(١)!

= الوُجوه، ونُقَبِّحَ الكافرين بسَوادِ الوُجوهِ وزُرقةِ العُيونِ. إلى غيرِ ذلك مِن الأقوالِ. ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قيل: المرادُ: خلْقُهم مِن نطفةٍ ثُمَّ مِن عَلَقةٍ ثُمَّ من مُضْغةٍ في بُطونِ أمَّهاتِهم، ولم يَكونوا قبْلَ ذلك شيئًا. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، وابن الجوزي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

وقيل: المرادُ: الإحداثةُ الأُولى والخِلْقةُ الأُولى: خلْقُ آدَمَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٠).

قال ابن عطية: (﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾: قال أكثرُ المفسِّرينَ: إشارةٌ إلى خلْقِ آدَمَ، ووقف عليه؛ لأنَّه لا تجِدُ أحدًا يُنكِرُ أنَّه مِن ولدِ آدَمَ، وأنَّه مِن طينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٨). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: فهَلَّا تَتذكَّرونَ ذلك؛ فتَعلَموا أنَّ الَّذي أنشَأكم النَّشْأةَ الأُولى ولم تَكونوا شَيئًا: لا يَتعَذَّرُ عليه إعادتُكم أحياءً بعْدَ مَوتِكم[(١)]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ التَّحريضُ على العَمَلِ الصَّالِحِ؛ لأنَّ التَّبديلَ والإنشاءَ -وهو الموتُ والحَشرُ- إذا كان واقِعًا في زَمانٍ لا يَعلَمُه أحَدٌ، فيَنبغي ألَّا يَتَّكِلَ الإنسانُ على طُولِ المُدَّةِ، ولا يَغفُلَ عن إعدادِ العُدَّةِ[(٢)].

٢- عن أبي جعفرٍ، قال: (كان يُقالُ: يا عجَبًا لِمَن يُكذِّبُ بالنَّشأةِ الآخرةِ وهو يرى النَّشأةَ الأُولَى! يا عجَبًا كلَّ العجَبِ لِمَن يُكَذِّبُ بالنَّشرِ بعدَ الموتِ وهو يُنْشَرُ في كلِّ يومٍ ولَيلةٍ!)[(٣)].

= وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَين البِقاعي -وتبعه الشربيني-، فذكَرَا أنَّ ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: التُّرابيَّة لأبيكم آدَمَ عليه السَّلامُ، واللَّحميَّة لأُمِّكم حوَّاءَ رضيَ الله عنها، والنُّطفيَّة لكم. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الأهوال)) (٢١١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هذا البُرهانُ الدَّالُّ على البَعثِ -الَّذي هو خلْقُ الإنسانِ مِن نُطفةِ مَنيٍّ تُمنَى- يَجِبُ على كُلِّ إنسانٍ النَّظَرُ فيه؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا وَجَّه صِفةَ الأمرِ بالنَّظَرِ فيه إلى مَنِيِّ الإنسانِ، والأصلُ في صيغةِ الأمرِ على التَّحقيقِ: الوُجوبُ إلَّا لدَليلٍ صارِفٍ عنه، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦] الآيةَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ سؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّهم مُصَدِّقون بذلك، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]؟

الجوابُ: هم وإنْ صَدَّقوا بألسِنَتِهم لكِنْ لَمَّا كان مَذهَبُهم خِلافَ ما يَقتَضيه التَّصديقُ، كانوا كأنَّهم مُكَذِّبونَ به، أو أنَّ ذلك تَحضيضٌ على التَّصديقِ بالبَعثِ بعدَ المَوتِ بالاستِدلالِ بالخَلْقِ الأوَّلِ، فكأنَّه قال: هو خَلَقَكم أوَّلًا باعتِرافِكم؛ فلا يَمتَنِعُ عليه أن يُعيدَكم ثانيًا؛ فهلَّا تُصَدِّقونَ بذلك[٢]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَرَونَ المقتولَ مَيِّتًا بغَيرِ أَجَلِه، وهو جَهلٌ بَيِّنٌ[٣]!

٤- قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ احتِجاجٌ عليهم، أي: إذا أقْرَرْتُم بأنَّا خالِقوه لا غيرُنا، فاعتَرِفوا بالبعثِ، وقولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٣).

بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ احْتِجاجٌ أيضًا، أي: الَّذي يَقدِرُ على الإماتةِ يَقدِرُ على الخلْقِ، وإذا قَدَر على الخلقِ قَدَر على البعثِ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ عُدِّيَ بـ «على» دونَ «إلى»؛ لأنَّه لَمَّا ضَمَّنَه معنى «مَغلوبِينَ ومَقهورِين» عَدَّاه بـ «على»، بخِلافِ «سَبقَه إليه»؛ فإنَّه فَرْقٌ بيْنَ «سَبقْتُه إليه» و«سَبقْتُه عليه»؛ فالأوَّلُ بمعنى: غَلَبْتُه وقَهَرْتُه عليه، والثَّاني بمعنى: وصَلْتُ إليه قَبْلَه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أنَّ مَن قَدَر على النَّشْأةِ الأُولى قَدَر على الثَّانيةِ؛ فإنَّها أقَلُّ صنعًا؛ لحُصولِ المَوادِّ، وتخصيصِ الأجزاءِ، وسَبْقِ المِثالِ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ دَليلٌ على صِحَّةِ القياسِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أُعقِبَ إبطالُ نفْيِهم البَعثَ بالاستِدلالِ على إمكانِه، وتَقريبِ كَيفيَّةِ الإعادةِ الَّتي أحالوها، فاستُدِلَّ على إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بأنَّ اللهَ خَلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ؛ فلا يَبعُدُ أنْ يُعِيدَ خلْقَهم، قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ لأنَّهم لم يَكونوا يُنكِرون ذلك، وليس المقصودُ إثباتَ أنَّ اللهَ خلَقَهم. وهذا الكلامُ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن تمامِ ما أُمِرَ بأنْ يَقولَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم، ويجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يكونَ استئنافًا مُستقلًّا. والخِطابُ على كِلا الوجهينِ مُوجَّهٌ للسَّامعينَ؛ فليس في ضَميرِ ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ الْتفاتٌ[(١)]. وقيل: قولُه: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تلوينٌ للخِطابِ، وتَوجيهٌ له إلى الكَفرةِ بطَريقِ الإلزامِ والتَّبكيتِ[(٢)].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿نَحۡنُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ؛ ردًّا على إحالتِهم أنْ يَكونَ اللهُ قادرًا على إعادةِ خَلْقِهم بعْدَ فَناءِ مُعظَمِ أجسادِهم حِينَ يَكونونَ تُرابًا وعِظامًا، فهذا تَذكيرٌ لهم بما ذُهِلوا عنه بأنَّ اللهَ هو خلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ، وهو الَّذي يُعيدُ خَلْقَهم ثانيَ مرَّةٍ؛ فإنَّهم -وإنْ كانوا يَعلَمون أنَّ اللهَ خلَقَهم- لَمَّا لم يَجْروا على مُوجَبِ ذلك العِلمِ بإحالتِهم إعادةَ الخَلْقِ؛ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يشُكُّ في أنَّ اللهَ خلَقَهم، فالمَقصودُ بتَقوِّي الحُكْمِ الإفضاءُ إلى ما سيُفرَّعُ عنه مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾[(٣)] [الواقعة: ٥٨- ٦١].

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ استِدلالٌ وعِلَّةٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]؛ ولذلك لم تُعطَفْ[(٤)].

- وأيضًا الفاءُ في قولِه: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ لترتيبِ التَّحضيضِ على ما قبْلَها، أي: فهلَّا تُصدِّقونَ بالخَلْقِ؟! فإنَّ ما لا يُحقِّقُه العمَلُ ولا يُساعِدُه -بلْ يُنبِئُ عن خِلافِه- ليس مِن التَّصديقِ في شَيءٍ. وقيل: التَّقديرُ: فلولا تُصدِّقونَ بالبَعثِ استِدلالًا عليه بالإنشاءِ؛ فإنَّ مَن قدَرَ عليه قدَرَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإعادةِ حتْمًا[١]؛ ففُرِّعَ على التَّذكيرِ بخلْقِ اللهِ لهم في قولِه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تَحضيضُهم على التَّصديقِ، أي: بالخَلْقِ الثاني، وهو البَعثُ؛ فإنَّ ذلك هو الَّذي لم يُصَدِّقوا به[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ تَفريعٌ على ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧]، أي: خلَقْناكُم الخلْقَ الَّذي لم ترَوه، ولكنَّكم تُوقِنون بأنَّا خلَقْناكم، فتَدبَّروا في خلْقِ النَّسلِ؛ لتَعلَموا أنَّ إعادةَ الخلْقِ تُشبِهُ ابتداءَ الخلْقِ[٣].

- والاستِفهامُ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ للتَّقريرِ بتَعْيينِ خالِقِ الجَنينِ مِن النُّطفةِ؛ إذ لا يَسَعُهم إلَّا أنْ يُقِرُّوا بأنَّ اللهَ خالِقُ النَّسلِ مِن النُّطفةِ، وذلك يَستلزِمُ قُدرتَه على ما هو مِن نَوعِ إعادةِ الخلْقِ[٤].

- وإنَّما ابتُدِئَ الاستِدلالُ بتَقديمِ جُملةِ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ زِيادةً في إبطالِ شُبهتِهم؛ إذ قاسُوا الأحوالَ المَغيبةَ على المُشاهَدةِ في قولِهم: لا نُعادُ بعْدَ أنْ كنَّا تُرابًا وعِظامًا، وكان حقُّهم أنْ يَقيسوا على تَخلُّقِ الجنينِ مِن مَبدأِ ماءِ النُّطفةِ، فيَقولوا: لا تَتخلَّقُ مِن النُّطفةِ المَيتةِ أجسامٌ حيَّةٌ، كما قالوا: لا تَصيرُ العِظامُ الباليةُ ذواتًا حيَّةً، وإلَّا فإنَّهم لم يدَّعُوا قطُّ أنَّهم خالِقون؛ فكان قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تَمْهيدًا للاستِدلالِ على أنَّ اللهَ هو خالقُ الأجنَّةِ بقُدرتِه، وأنَّ تلك القدرةَ لا تَقصُرُ عن الخلْقِ الثَّاني عندَ البَعْثِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ءَأَنتُمۡ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ لإفادةِ التَّقوِّي؛ لأنَّهم لَمَّا نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَزعُمُ ذلك، صِيغَتْ جُملةُ نَفْيِه بصِيغةٍ دالَّةٍ على زَعْمِهم تَمكُّنَ التَّصرُّفِ في تَكوينِ النَّسْلِ[1].

- وقد حصَلَ مِن نفْيِ الخلْقِ عنهم وإثباتِه للهِ تعالَى معْنى قَصْرِ الخلْقِ على اللهِ تعالَى[2].

- و﴿أَمۡ﴾ في قولِه: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ مُتَّصِلةٌ، مُعادِلةٌ للهَمزةِ، وما بعْدَها مَعطوفٌ؛ لأنَّ الغالبَ ألَّا يُذكَرَ له خبَرٌ اكتِفاءً بدَلالةِ خبَرِ المعطوفِ عليه على الخبَرِ المحذوفِ، وهاهنا أُعِيدَ الخَبرُ في قولِه: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ زِيادةً في تَقريرِ إسنادِ الخَلْقِ إلى اللهِ في المعْنى، وللإيفاءِ بالفاصلةِ، وامتدادِ نفَسِ الوقْفِ. ويَجوزُ أنْ نَجعَلَ ﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعةً بمعْنى (بل)؛ لأنَّ الاستِفهامَ ليس بحَقيقيٍّ، فليس مِن غرَضِه طلَبُ تَعيينِ الفاعلِ، ويكونَ الكلامُ قد تَمَّ عندَ قولِه: ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، والمعْنى: أتظُنُّون أنفُسَكم خالِقينَ النَّسَمةَ ممَّا تُمْنون[3]؟!

- قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ فيه احتِباكٌ[4]؛ ذكَرَ أوَّلًا «تَخلُقُونَ» دليلًا على حَذفِ مِثْلِه له سُبحانَه ثانيًا، وذكَرَ الاسمَ ثانيًا دَليلًا على حَذفِ مِثلِه لهم أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّه ذَكَر ما هو الأوفَقُ لأعمالِهم ممَّا يدُلُّ على وقتِ التَّجَدُّدِ ولو وقتًا ما، وما هو الأَولى بصِفاتِه سُبحانَه ممَّا يدُلُّ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤).
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

الثَّباتِ والدَّوامِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ استِدلالٌ بإماتةِ الأحياءِ على أنَّها مَقدورةٌ للهِ تعالَى، ضَرورةَ أنَّهم مُوقِنون بها ومُشاهِدونها، ووادُّون دفْعَها أو تأْخيرَها؛ فإنَّ الَّذي قدَرَ على خلْقِ الموتِ بعْدَ الحياةِ قادرٌ على الإحياءِ بعْدَ الموتِ؛ إذ القدرةُ على حُصولِ شَيءٍ تَقْتضي القُدرةَ على ضِدِّه، فلا جَرَمَ أنَّ القادرَ على خلْقِ حَيٍّ ممَّا ليس فيه حَياةٌ، وعلى إماتتِه بعْدَ الحياةِ، قَديرٌ على التَّصرُّفِ في حالتَيْ إحيائِه وإماتتِه، وما الإحياءُ بعْدَ الإماتةِ إلَّا حالةٌ مِن تَينِكَ الحقيقتَينِ؛ فوضَحَ دليلُ إمكانِ البَعثِ، هذا أصلُ المُفادِ مِن قولِه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾، ثمَّ هو مع ذلك تَنبيهٌ على أنَّ الموتَ جعَلَه اللهُ طَورًا مِن أطوارِ الإنسانِ؛ لِحكمةِ الانتِقالِ به إلى الحياةِ الأبَديَّةِ بعْدَ إعدادِه لها بما تُهيِّئُه له أسبابُ الكمالِ المُؤهِّلةُ لتلك الحياةِ؛ لتَتِمَّ المُناسَبةُ بيْن ذلك العالَمِ وبيْن عامِريه؛ فهذا وجْهُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ دونَ: (نحن نُميتُكم)، أي: إنَّ الموتَ مَجعولٌ على تَقديرٍ مَعلومٍ مُرادٍ، مع ما في مادَّةِ (قدَّرْنا) مِن التَّذكيرِ بالعِلمِ والقُدرةِ والإرادةِ؛ لتَتوجَّهَ أنظارُ العُقولِ إلى ما في طَيِّ ذلك مِن دَقائقَ، وهي كثيرةٌ، وخاصَّةً في تَقديرِ مَوتِ الإنسانِ الَّذي هو سَبيلٌ إلى الحياةِ الكاملةِ إنْ أُخِذَ لها أسبابُها[٢].

- وفي كَلمةِ ﴿بَيْنَكُمُ﴾ معْنًى آخَرُ، وهو أنَّ الموتَ يأْتي على آحادِهم تَداوُلًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤، ٣١٥).

وتَناوُبًا، فلا يُفْلِتُ واحدٌ منهم، ولا يَتعيَّنُ لحُلولِه صِنفٌ ولا عُمُرٌ، فآذَنَ ظَرفُ (بيْن) بأنَّ الموتَ كالشَّيءِ الموضوعِ للتَّوزيعِ، لا يَدري أحدٌ متى يُصِيبُه قِسطُه منه، فالنَّاسُ كمَن دُعُوا إلى قِسمةِ مالٍ، أو ثمَرٍ، أو نَعَمٍ، لا يَدْري أحدٌ متى يُنادَى عليه ليَأخُذَ قِسمَه، أو متى يَطيرُ إليه قِطُّه -أي: نصيبُه- ولكنَّه يُوقِنُ بأنَّه نائلُه لا مَحالةَ، وفي هذا كِنايةٌ عن كَونِ الموتِ فائدةً ومَصلحةً للنَّاسِ؛ أمَّا في الدُّنيا فلئلَّا تَضيقَ بهم الأرضُ والأرزاقُ، وأمَّا في الآخرةِ فلِلْجَزاءِ الوِفاقِ[١].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿قَدَّرْنَا﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكْمِ وتَحقيقِه، والتَّحقيقُ راجِعٌ إلى ما اشتَمَلَ عليه التَّركيبُ مِن فِعلِ (قدَّرْنا) وظَرفِ (بيْنكم) في دَلالتِهما على ما في خَلْقِ الموتِ من الحِكمةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا نَتيجةٌ لِما سبَقَ مِن الاستِدلالِ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على الإحياءِ بعْدَ الموتِ؛ فكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعطَفَ بفاءِ التَّفريعِ أو يُترَكَ عطْفُه، فعُدِلَ عن الأمْرَينِ، وعُطِفَ بالواوِ عَطْفَ الجُمَلِ، فيكونُ جُملةً مُستقلَّةً مَقصودًا لِذاتِه؛ لأنَّ مَضمونَه يُفيدُ النَّتيجةَ، ويُفيدُ تَعليمًا اعتقاديًّا، فيَحصُلُ الإعلامُ به تَصريحًا وتَعريضًا؛ فالصَّريحُ منه التَّذكيرُ بتَمامِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه لا يَغلِبُه غالبٌ، ولا تَضيقُ قُدرتُه عن شَيءٍ، وأنَّه يُبدِلُهم خلْقًا آخَرَ في البَعثِ مُماثِلًا لخلْقِهم في الدُّنيا، ويُفيدُ تَعريضًا بالتَّهديدِ باستئصالِهم وتَعويضِهم بأُمَّةٍ أُخرى، ولو جِيءَ بالفاءِ لَضاقتْ دَلالةُ الكَلامِ عن المعْنيَينِ الآخَرينِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ويَتعلَّقُ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ بـ (مَسْبُوقِينَ) -على قولٍ-؛ لأنَّه يُقالُ: غلَبَه على كذا، إذا حالَ بيْنه وبيْن نَوالِه، وأصْلُه: غلَبَه على كذا، أي: تمكَّنَ مِن كذا دُونَه؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، ويكونُ الوقفُ على قولِه: ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿قَدَّرۡنَا﴾ [الواقعة: ٦٠]، أي: قدَّرْنا الموتَ على أنْ نُحيِيَكم فيما بعْدُ، إدماجًا[١] لإبطالِ قولِهم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]؛ فتَكونَ (على) بمعْنى (مع)، وتَكونَ حالًا مُقدَّرةً، وهذا كقولِ الواعظِ: «على شَرْطِ النَّقضِ رُفِعَ البُنيانُ، وعلى شَرْطِ الخُروجِ دخَلَتِ الأرواحُ للأبدانِ»، ويكونَ مُتعلِّقُ (مَسبوقين) مَحذوفًا دالًّا عليه المَقامُ، أي: ما نحن بمَغلوبينَ فيما قدَّرْناه مِن خلْقِكم وإماتتِكم، ويُجعَل الوقْفُ على (مَسبوقِين)، ويُفيدُ قولُه: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ...﴾ إلخ وراءَ ذلك عِبرةً بحالِ الموتِ بعْدَ الحياةِ؛ فإنَّ في تَقلُّبِ ذَينكَ الحالَينِ عِبرةً وتدبُّرًا في عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وتَصرُّفِه، ومعْنَى: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾: نُبدِّلَ بكم أمْثالَكم، أي: نَجعَلَ أمْثالَكم بدَلًا، وفِعلُ (بدَّل) يَنصِبُ مَفعولًا واحدًا، ويَتعدَّى إلى ما هو في معْنى المفعولِ الثَّاني بحرْفِ الباءِ -وهو الغالبُ- أو بـ (مِن) البَدليَّةِ؛ فإنَّ مَفعولَ (بدَّلَ) صالحٌ لأنْ يكونَ مُبدَلًا ومُبدَلًا منه، فالتَّقديرُ هنا: على أنْ نُبدِّلَ منكم أمثالَكم، فحُذِفَ مُتعلَّقُ (نُبدِّل) وأُبقِيَ المفعولُ؛ لأنَّ المجرورَ أَوْلَى بالحَذْفِ. ويجوزُ أنْ يُفيدَ معْنى التَّهديدِ بالاستِئصالِ، أي: لو شِئْنا استِئصالَكم لَما أعْجزْتُمونا؛ فيَكونَ إدماجًا للتَّهديدِ في أثناءِ الاستدلالِ[٢].

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٦، ٣١٧).

- قولُه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عُطِفَ بالواوِ دونَ الفاءِ؛ لأنَّه بمُفردِه تَصويرٌ لقُدرةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه بعْدَ ما أفادَهُ قولُه: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ من إثباتِ أنَّ اللهَ قادرٌ على البعثِ(١).

- و(ما) في قولِه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ صادِقةٌ على الكَيفيَّةِ أو الهيئةِ الَّتي يَتكيَّفُ بها الإنشاءُ، أي: في كَيفيَّةٍ لا تَعلَمونها؛ إذ لم تُحِيطوا عِلمًا بخَفايا الخِلْقةِ، وهذا الإجمالُ جامِعٌ لجَميعِ الصُّوَرِ الَّتي يَفرِضُها الإمكانُ في بَعثِ الأجسادِ لإيداعِ الأرواحِ(٢).

- والظَّرفيَّةُ المُستفادةُ مِن (في) معْناها قوَّةُ المُلابَسةِ الشَّبيهةِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ؛ كقولِه: ﴿فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾(٣) [الانفطار: ٧، ٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أُعقِبَ دَليلُ إمكانِ البعثِ المُستنِدِ للتَّنبيهِ على صَلاحيةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ لذلك، ولسَدِّ مَنافذِ الشُّبهةِ -بدَليلٍ مِن قِياسِ التَّمثيلِ(٤)، وهو تَشبيهُ النَّشأةِ الثَّانيةِ بالنَّشأةِ الأُولى المَعلومةِ عندَهم بالضَّرورةِ، فنُبِّهوا لِيَقيسوا عليها النَّشأةَ الثَّانيةَ في أنَّها إنشاءٌ من أثَرِ قُدرةِ اللهِ وعِلمِه، وفي أنَّهم لا يُحيطون عِلمًا بدَقائقِ حُصولِها(٥).

- ولَمَّا كان عِلمُهم بالنَّشأةِ الأُولَى كافيًا لهم في إبطالِ إحالتِهم النَّشأةَ الثَّانيةَ، رُتِّبَ عليه مِن التَّوبيخِ ما لم يُرتَّبْ مِثلُه على قولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٨).

أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، فقال: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، أي: هلَّا تذكَّرْتم بذلك، فأمسَكْتُم عن الجحْدِ؟! وهذا تَجهيلٌ لهم في تَرْكِهم قِياسَ الأشباهِ على أشْباهِها(١).

- وجِيءَ بالمضارعِ في قولِه: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ بابَ التَّذكُّرِ مَفتوحٌ، فإنْ فاتَهُم التَّذكُّرُ فيما مَضى فلْيَتداركوه الآنَ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٣-٧٤)

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا
فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾
ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا
تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: فُتاتًا مُكَسَّرًا، مِن تحطَّمَ العُودُ: إذا تفَتَّت مِن اليُبْسِ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ(١).

﴿تَفَكَّهُونَ﴾: أي: تَنْدَمونَ. وقيلَ: تَتعَجَّبونَ مِمَّا نَزَل بزَرْعِكم(٢).

﴿لَمُغْرَمُونَ﴾: أي: مُعذَّبونَ؛ مِنَ الغَرامِ: وهو أَشَدُّ العَذابِ. وقيل: أي: غَرِمْنا أموالَنا وصار ما أنفَقْنا غُرْمًا علينا، والمُغْرَمُ: الَّذي ذهَب مالُه بغَيرِ عِوَضٍ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ(٣).

﴿ٱلْمُزْنِ﴾: أي: السَّحابِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، =

﴿أُجَاجًا﴾: أي: شَديدَ المُلوحةِ، وأصلُ (أجج): يدُلُّ على الشِّدَّةِ[1].

﴿تُورُونَ﴾: أي: تَستَخرِجونَ، يُقالُ: وَرَى الزَّنْدُ (أي: العودُ الَّذي تُقدَحُ به النَّارُ) يَري وَرْيًا: خَرَجَت نارُه[2].

﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: أي: مَنْفَعةً للمُسافِرينَ، والمُقْوِي: الَّذي يَنزِلُ بالقَوَاءِ: وهي الأرضُ الخاليةُ. وقيل: هم الَّذين لا زادَ معهم ولا مالَ لهم؛ مِن قَولِهم: أَقْوَتِ الدَّارُ، أي: خَلَت، فالمُقْوِي: الخالي مِنَ الزَّادِ، وأصلُ (قوي) هنا: يدُلُّ على قِلَّةِ خيرٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ اللهُ تعالى دليلًا آخَرَ على صِحَّةِ البعثِ وإمكانيَّتِه، وعلى كمالِ قدرتِه، وهو الدَّليلُ الثَّاني، فيقولُ: أفرأيتُمُ البَذْرَ الَّذي تَحرُثونَ له الأرضَ، فتُلْقونَه فيها لِيَنبُتَ؟ أأنتُم تُصَيِّرونَ ذلك البَذْرَ زَرْعًا أمْ نحن؟ لو نَشاءُ لَصَيَّرْنا ذلك الزَّرْعَ مُتفَتِّتًا يابِسًا، فبَقِيتُم نادِمينَ مُتعَجِّبينَ مِن هَلاكِه، فتَقولونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ، بل نحن مَحرومونَ!

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

ثمَّ يذكرُ الدَّليلَ الثَّالثَ، فيقولُ: أفرأيتُمُ الماءَ العَذْبَ الَّذي تَشرَبونَ؟ أأنتم أنزَلْتُموه مِنَ السَّحابِ أمْ نحن المُنزِلونَ؟ لو نَشاءُ جَعَلْنا ذلك الماءَ العَذْبَ مِلْحًا شَديدَ المَرارةِ، فهلَّا تَشكُرونَ اللهَ تعالى!

ثمَّ يذكرُ الدَّليلَ الرَّابعَ، فيقولُ: أفرأيتُمُ النَّارَ الَّتي تَستَخرِجونَها مِنَ الشَّجَرِ؟ أأنتُم أنشَأْتُم تلك الشَّجَرةَ الَّتي تَخرُجُ منها النَّارُ، أمْ نحن الَّذين أنشَأْناها بقُدْرتِنا؟ نحن جعَلْنا تلك النَّارَ تَذكيرًا للنَّاسِ بنارِ جهنَّمَ، ومَنفَعةً للمُسافِرينَ؛ فنَزِّهْ ربَّك العَظيمَ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ٦٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ إلى دليلٍ آخَرَ على إمكانِ البَعثِ، وصلاحيَةِ قُدرةِ اللهِ له، بضَربٍ آخَرَ مِن ضُروبِ الإنشاءِ بعدَ العَدَمِ(١).

وأيضًا فمُناسَبةُ الانتقالِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ النَّسلِ إلى الاستِدلالِ بنَباتِ الزَّرعِ: هي التَّشابُه البَيِّنُ بيْنَ تكوينِ الإنسانِ وتكوينِ النَّباتِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(٢) [نوح: ١٧].

وأيضًا لَمَّا كان عِلْمُهم بأمرِ النَّباتِ -الَّذي هو الآيةُ العظمى لإعادةِ الأمواتِ- أعظَمَ مِن عِلْمِهم بجَميعِ ما مضى، وكان أمرُه في الحَرثِ وإلقاءِ البَذرِ فيه أشبَهَ شَيءٍ بالجِماعِ وإلقاءِ النُّطفةِ -ولذلك سُمِّيَت المرأةُ حَرثًا-؛ وصل بما مضى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٢٠).

مُسَبِّبًا عنه قَولَه، مُنكِرًا عليهم[(١)]:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾.

أي: أفرأيتُمُ البَذْرَ الَّذي تَشُقُّون له الأرضَ وتُثيرونَها، فتُلْقونَه فيها لِيَنبُتَ[(٢)]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا لا يَدَّعُونَ القُدرةَ على الإنباتِ بوَجهٍ، وكان القادِرُ عليه قادِرًا على كُلِّ شَيءٍ، وهم يَعتَقِدونَ في أمرِ البَعثِ ما يُؤَدِّي إلى الطَّعنِ في قُدرتِه- كَرَّر الإنكارَ عليهم، فقال تعالى[(٣)]:

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾.

أي: أأنتُم تُصَيِّرونَ ذلك البَذْرَ زَرْعًا، أم نحن الَّذين أنبَتْناه بقُدرَتِنا[(٤)]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣).

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجوابُ قَطْعًا: «أنت الفاعِلُ لذلك وَحْدَك» قال مُوَضِّحًا -لأنَّه ما زَرَعَه غَيرُه- بأنَّ الفاعِلَ الكامِلَ هو مَن يَدفَعُ عَمَّا صَنَعَه ما يُفسِدُه، ومَن إذا أراد إفسادَه لم يَقدِرْ أحَدٌ على مَنْعِه[1]:

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾.

أي: لو نَشاءُ لَصَيَّرْنا ذلك الزَّرْعَ -الَّذي أنبَتْناه- هَشيمًا يابِسًا، فلا تَنتَفِعونَ به[2]!

﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾.

أي: فبَقِيتُم نادِمينَ مُتعَجِّبينَ مِن هَلاكِ زَرْعِكم، قد زال عنكم السُّرورُ والمَرَحُ[3]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: لو نَشاءُ لَجعَلْنا ما يَنبُتُ بعدَ خُروجِه مِنَ الأرضِ حُطامًا، بأن نُسَلِّطَ عليه ما يُحَطِّمُه مِن بَردٍ أو رِيحٍ أو حَشَراتٍ قبْلَ أن تَنتَفِعوا به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥).

﴿فَظَلۡتُمۡ﴾ أصلُه فظلَلْتُم، حُذِفتْ إحدى اللامينِ تخفيفًا. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بمعنى: تَنْدَمونَ على ما خَسِرْتُم مِنَ الإنفاقِ عليه، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وقال بعضُ العلماءِ: تَنْدَمونَ على مَعصيةِ اللهِ الَّتي كانت سَبَبًا لتَحطيمِ زَرْعِكم. والأوَّلُ مِنَ الوَجهَينِ في سَبَبِ النَّدَمِ هو الأظهَرُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: تَتفكَّهونَ بالكلامِ، تُريدونَ أن تُذهِبوا الحُزْنَ عنكم، فتَقولونَ: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾ أي: لَحِقَنا الغُرمُ بهذا الزَّرعِ الَّذي صار حُطامًا، ثمَّ تَستأنِفون فتقولون: ﴿بَلۡ نَحۡنُ =

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَفَكُّهَهم، وكان التَّفَكُّهُ يُطلَقُ على التَّعَجُّبِ والتَّنَدُّمِ، وعلى التَّنَعُّمِ؛ بَيَّن المرادَ بقَولِه حِكايةً لتفَكُّهِهم[1]:

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: فتَقولونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ[2]!

= مَحْرُومُونَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المعنى: يحتَمِلُ أن يكونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ؛ مِنَ الغَرامِ: وهو أشَدُّ العَذابِ... ويحتَمِلُ أن يكونَ: إنَّا لَمُحَمَّلونَ الغُرْمَ، أي: غَرِمْنا في النَّفَقةِ، وذَهَب زَرْعُنا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: الفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠).

قال الواحدي: (كأنَّهم ذهبوا إلى أنَّهم عُذِّبوا بذَهابِ أموالِهم). ((البسيط)) (٢١/ ٢٥٢).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: إنَّما نحن مَحرومونَ مِن مَنفَعةِ زَرْعِنا، وحُصولِ خَيْرِه، فلا حَظَّ لنا فيه[1]!

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى نِعمَتَه على عِبادِه بالطَّعامِ؛ ذكَرَ نِعمتَه عليهم بالشَّرابِ العَذْبِ الَّذي منه يَشرَبونَ[2].

وأيضًا فهذا انتِقالٌ إلى دليلٍ آخَرَ على إمكانِ البعثِ وصَلاحيةِ قُدرةِ اللهِ له، بضَرْبٍ آخَرَ مِن ضُروبِ الإنشاءِ بعْدَ العدَمِ، ومُناسبةُ الانتِقالِ أنَّ الحرْثَ إنَّما يَنبُتُ زَرْعُه وشَجرُه بالماءِ، فانتُقِلَ مِن الاستِدلالِ بتَكوينِ النَّباتِ إلى الاستِدلالِ بتَكوينِ الماءِ الَّذي به حياةُ الزَّرعِ والشَّجرِ[3].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: أفرأيتُمُ الماءَ العَذْبَ الَّذي تَشرَبونَ منه[4]؟

﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: أأنتُم الَّذين أنزَلْتُم هذا الماءَ مِنَ السَّحابِ إلى الأرضِ، أم نحن المُنزِلونَ

= (٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

له بقُدْرتِنا[١]؟

﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ۝٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجَوابُ عمَّا سَبقَ: «أنتَ وَحْدَك فعَلْتَ ذلك، على غِناكَ عن الخَلْقِ بما لك مِنَ الرَّحمةِ وكَمالِ الذَّاتِ والصِّفاتِ»؛ قال مُذَكِّرًا بِنعمةٍ أُخرى[٢]:

﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾.

أي: لو نَشاءُ جَعَلْنا ذلك الماءَ العَذْبَ مِلْحًا شَديدَ المَرارةِ؛ فلا يُمكِنُكم شُربُه، والانتِفاعُ به[٣]!

﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: فهلَّا تَشكُرونَ اللهَ الَّذي رزَقَكم الماءَ العَذْبَ الزُّلالَ[٤]!

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المُزْنُ: السَّحابُ، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (أي: السَّحابِ المَملوءِ المَمدوحِ الَّذي شأنُه الإسراعُ في المُضِيِّ. وقال الأصبهاني: وقيل: السَّحابُ الأبيَضُ خاصَّةً، وهو أعذَبُ ماءً). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتَقَلَ اللهُ تعالى إلى أمرٍ ثالثٍ يُصْلَحُ به الطَّعامُ والشَّرابُ، وهو النَّارُ[١].

وأيضًا مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ الماءِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ النَّارِ: هي ما تقدَّمَ في مناسَبةِ الانتِقالِ إلى خَلقِ الماءِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ الزَّرعِ والشَّجَرِ؛ فإنَّ النَّارَ تَخرُجُ مِن الشَّجَرِ بالاقتِداحِ، وتُذْكَى بالشَّجَرِ في الاشتِعالِ والالتِهابِ، وهذا استِدلالٌ على تقريبِ كَيفيَّةِ الإحياءِ للبَعثِ؛ مِن حَيثُ إنَّ الاقتِداحَ إخراجٌ، والزَّندُ الَّذي به إيقادُ النَّارِ يَخرُجُ مِن أعوادِ الاقتداحِ، وهي مَيِّتةٌ[٢]!

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ٧١﴾.

أي: أفرأيتُم النَّارَ الَّتي تَستَخرِجونَها مِنَ الشَّجَرِ بالاقتِداحِ، وتُوقِدونَها[٣]؟

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢﴾.

أي: أأنتُم أنشَأْتُم الشَّجَرةَ الَّتي تَخرُجُ منها النَّارُ، أم نحن الَّذين أنشَأْناها بقُدْرتِنا[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥، ٥٣٦).

قال ابنُ عاشور: (شَجَرةُ النَّارِ: هي جنسُ الشَّجَرِ الَّذي فيه حُرَّاقٌ، أي: ما يُقتَدَحُ منه النَّارُ، وهو شَجرُ الزَّنْدِ أو الزِّنادِ، وأشجارُ النَّارِ كَثيرةٌ؛ منها: المَرْخُ -بفَتحٍ فسُكونٍ-، والعَفَارُ -بفَتحِ العَينِ- ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥).

وقال ابن عثيمين: (وشجرةُ النَّارِ هي شجرٌ معروفٌ في الحجازِ، ورُبَّما يكونُ معروفًا غيره، يُسمَّى المَرْخَ والعَفَارَ، وهذا الشَّجرُ له خاصيَّةٌ إذا ضُرِب بالمَرْوِ أو بشَيءٍ يَنقدِحُ مع المُماسَّةِ، اشتعَل =

كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠].

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجوابُ عمَّا سَبقَ قَطْعًا: «أنتَ وَحْدَك»، قال دالًّا على ذلك؛ تنبيهًا على عِظَمِ هذا الخَبَرِ[١]:

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾.

أي: نحن جعَلْنا تلك النَّارَ تَذكيرًا للنَّاسِ بنارِ جَهنَّمَ، فيَعتَبِرونَ ويَنزَجِرونَ خَوفًا منها[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن نارِ جَهنَّمَ! قيلَ: يا رَسولَ اللهِ: إنْ كانت لَكافيةً! قال: فُضِّلَت عليهِنَّ بِتسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّهنَّ مِثلُ حَرِّها))[٣].

﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾.

أي: وجعَلْنا نارَ الدُّنيا مَنفَعةً للمُسافِرينَ؛ في الطَّبخِ، والتَّدفِئةِ، والاستِضاءةِ،

= نارًا يوقَدُ منه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤، ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٣).

وغيرِ ذلك[١].

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن مِن نِعَمِه ما يُوجِبُ الثَّناءَ عليه مِن عِبادِه، وشُكرَه وعبادتَه؛ أمرَ بتَسبيحِه وتحميدِه[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المكَذِّبينَ بالحَشرِ والوحدانيَّةِ، وذكَرَ الدَّليلَ عليهما بالخَلقِ والرِّزقِ، ولم يُفِدْهم الإيمانُ؛ قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ وظيفتَك أن تَكمُلَ في نفْسِك، وهو عِلمُك بربِّك، وعَمَلُك لرَبِّك؛ فسَبِّحْ باسمِ رَبِّك[٣].

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

أي: فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ، يَجِبُ على كُلِّ إنسانٍ

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٨)، ((ياقوتة الصراط)) لغلام ثعلب (ص: ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٥).

أن يَنظُرَ في هذا البُرهانِ الَّذي دَلَّت عليه هذه الآيةُ الكريمةُ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا وَجَّه في كتابه صِيغةَ أمرٍ صَريحةً عامَّةً في كُلِّ ما يَصدُقُ عليه مُسَمَّى الإنسانِ بالنَّظَرِ في هذا البُرهانِ العَظيمِ المتضَمِّنِ للامتِنانِ لأعظَمِ النِّعَمِ على الخَلقِ، ولِلدَّلالةِ على عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه على البَعثِ وغيرِه، وشِدَّةِ حاجةِ خَلْقِه إليه -مع غِناه عنهم-؛ وذلك قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢]. والمعنى: انظُرْ -أيُّها الإنسانُ الضَّعيفُ- إلى طعامِك، كالخُبزِ الَّذي تأكُلُه ولا غِنى لك عنه: مَنِ الَّذي خَلَق الماءَ الَّذي صار سَبَبًا لإنباتِه؟ هل يَقدِرُ أحَدٌ غَيرُ اللهِ على خَلقِ الماءِ، أي: إبرازِه من أصلِ العَدَمِ إلى الوُجودِ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الماءَ خُلِقَ، هل يَقدِرُ أحَدٌ غيرُ اللهِ أن يُنزِلَه على هذا الأُسلوبِ الهائِلِ العَظيمِ الَّذي يَسقي به الأرضَ مِن غَيرِ هَدْمٍ ولا غَرَقٍ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الماءَ نَزَل في الأرضِ، مَن الَّذي يَقدِرُ على شَقِّ الأرضِ عن مَسارِ الزَّرعِ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الزَّرعَ طَلَع، فمَن الَّذي يَقدِرُ على إخراجِ السُّنبُلِ منه؟ ثمَّ هَبْ أنَّ السُّنبُلَ خرَج منه، فمَن الَّذي يَقدِرُ على إنباتِ الحَبِّ فيه وتَنميتِه حتَّى يُدرَكَ صالِحًا للأكلِ(١)؟!

٢- النَّارُ مِن أكبرِ الماعونِ، وأعظمِ المنافعِ والمرافقِ، ولو لم يكُنْ فيها إلَّا أنَّ الله تعالى جعَلها الزَّاجرةَ عن المعاصي، لكان في ذلك ما يزيدُ في قدرِها ونباهةِ ذِكرِها، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، فالعاقِلُ المعتبرُ إذا تأمَّل قولَه تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ تصوَّر ما فيها مِن النِّعَمِ أوَّلًا ومِن

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٨، ٢١٩).

النِّقَم آخرًا[١]، فقولُه: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي: نذكِّرُ النَّاسَ بها في دارِ الدُّنيا -إذا أحسُّوا شدَّةَ حرارتِها- نارَ الآخرةِ، الَّتي هي أشدُّ منها حرًّا؛ لِيَنزَجِروا عن الأعمالِ المقتضيةِ لدُخولِ النَّارِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ دَلالةٌ على إباحةِ الزَّرعِ، مِن جِهةِ الامتِنانِ به[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى هو الزَّارِعُ، فكيف قال تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ [الفتح: ٢٩]؟

الجَوابُ: قد ثَبَت مِنَ التَّفسيرِ أنَّ الحَرْثَ مُتَّصِلٌ بالزَّرعِ؛ فالحَرثُ أوائِلُ الزَّرعِ، والزَّرعُ أواخِرُ الحَرْثِ، فيَجوزُ إطلاقُ أحَدِهما على الآخَرِ، لكِنْ قَولُه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ بدَلًا عن قَولِه: «يُعجِبُ الحُرَّاثَ» يدُلُّ على أنَّ الحارِثَ إذا كان هو المُبتدِئَ فرُبَّما يَتعجَّبُ بما يترتَّبُ على فِعْلِه مِن خُروجِ النَّباتِ، والزَّارِعُ لَمَّا كان هو المُنتهيَ، ولا يُعجِبُه إلَّا شَيءٌ عَظيمٌ؛ فقال: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ الَّذين تعَوَّدوا أخْذَ الحِرَاثِ، فما ظَنُّك بإعجابِه الحُرَّاثَ[٤]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ أنَّه يُوصَفُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّه الزَّارِعُ؛ ولا يُسمَّى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص: ٥٣٥)، ويُنظر أيضًا: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٠).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١١٩).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على ما لا يَفعَلُه؛ فإنَّه أخبرَ أنَّه لو شاء جَعَلَ الماءَ أُجاجًا، وهو لم يَفعَلْه، ومِثْلُ هذا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ [البقرة: ٢٥٣]؛ فإنَّه أخبرَ في غيرِ مَوضعٍ أنَّه لو شاء لَفَعَل أشياءَ، وهو لم يَفعَلْها، فلو لم يكُنْ قادِرًا عليها لَكان إذا شاءَها لم يُمكِنْ فِعلُها[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أنَّ جَميعَ الماءِ السَّاكِنِ في الأرضِ، النَّابعِ مِن العُيونِ والآبارِ ونَحوِ ذلك: أنَّ أصْلَه كُلَّه نازِلٌ مِنَ المُزْنِ، وأنَّ اللهَ أسكَنَه في الأرضِ، وخَزَنَه فيها لخَلْقِه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أنَّه لو شاء تعالى لجَعَل الماءَ غيرَ صالحٍ للشُّرْبِ، وقد جاء مَعناه في آياتٍ أُخَرَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]؛ لأنَّ الذَّهابَ بالماءِ، وجَعْلَه غورًا لا يُوصَلُ إليه، وجَعْلَه أُجاجًا: كُلُّ ذلك في المعنى سَواءٌ، بجامِعِ عَدمِ تأتِّي شُربِ الماءِ، وهذه الآياتُ المذكورةُ تدُلُّ على شِدَّةِ حاجةِ الخَلْقِ إلى خالِقِهم كما ترى[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ استِدلالٌ مِن اللهِ سُبحانه بأنَّه قادرٌ على نقْضِ ما في الماءِ مِن الصَّلاحيةِ للنَّفْعِ بعْدَ وُجودِ صُورةِ المائيَّةِ فيه؛ تكملةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لدَليلِ إمكانِ البعثِ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه لم يَقُلْ عندَ ذِكرِ الطَّعامِ «الشُّكْرَ»؛ وذلك لأوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه لم يَذكُرْ في المأكولِ أكْلَهم، فلمَّا لم يَقُلْ: «تأكُلونَ» لم يَقُلْ: «تَشكُرونَ»، وقال في الماءِ: ﴿تَشۡرَبُونَ﴾ فقال: ﴿تَشۡكُرُونَ﴾.

الثَّاني: أنَّ في المأكولِ قال: ﴿تَحۡرُثُونَ﴾ فأثبَتَ لهم سَعيًا، فلم يَقُلْ: «تَشكُرونَ»، وقال في الماءِ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ﴾ لا عَمَل لكم فيه أصلًا، فهو مَحْضُ النِّعْمةِ؛ فقال: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾.

ثالِثُها -وهو الأحسَنُ-: أن يُقالَ: النِّعمةُ لا تَتِمُّ إلَّا عندَ الأكلِ والشُّربِ؛ ألَا ترى أنَّ في البَراريِّ -الَّتي لا يُوجَدُ فيها الماءُ- لا يأكُلُ الإنسانُ شَيئًا مخافةَ العَطَشِ؟ فلمَّا ذَكَر المأكولَ أوَّلًا وأتَمَّه بذِكرِ المَشروبِ ثانيًا، قال: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ على هذه النِّعمةِ التَّامَّةِ[2]؟!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ بُطلانُ مَقولةِ: «أنَّ الأسبابَ مُؤثِّرةٌ بطبائِعها، بمُقتضى طَبيعتِها، مُؤثِّرةٌ بذاتِها»؛ فالحَجَرُ هو الَّذي كَسَرَ الزُّجاجةَ بنَفْسِه وبطَبيعتِه، والنَّارُ هي الَّتي أحرَقَت الوَرَقَ بنَفْسِها! وهذا القولُ باطلٌ بدَلالةِ الواقعِ ودَلالةِ الشَّرعِ، وهو نَوعٌ مِن الشِّركِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اعتقادَ أنَّ شيئًا ما يُؤَثِّرُ في الشَّيءِ الآخَرِ بنَفْسِه دونَ اللهِ: هذا شَيءٌ مِن الشِّركِ لا شكَّ فيه.

ووَجهُ بُطلانِه مِن الشَّرعِ قولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٢).

ﵟءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَﵞ، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الَّذي أَنْشَأَ شَجَرةَ النَّارِ -الَّتي تنقَدِحُ بها النَّارُ- هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وبَيَّنَ أنَّه جَعَلَها مَتاعًا للمُقْوِينَ، وتَذكِرةً للمُتَّقينَ.

وأمَّا الواقِعُ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال للنَّارِ الَّتي أُلقِيَ فيها إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﵟكُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَﵞ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت[1].

١٠- إنَّ بَرَكةَ الاسم تابِعةٌ لبَرَكةِ المُسمَّى؛ فقَولُه تعالى: ﵟفَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِﵞ دَليلٌ على الأمرِ بتَسبيحِ الرَّبِّ بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ تَنزيهَ الاسمِ مِن توابِعِ تَنزيهِ المُسمَّى[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﵟفَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِﵞ أنَّهم أثبَتوا ألِفَ الوَصلِ هنا في «باسمِ ربِّك»؛ لأنَّه لم يَكثُرْ دَورُه كَثْرتَه في البَسمَلةِ، وحَذَفوه منها؛ لكَثْرةِ دَورِها، وهم شأنُهم الإيجازُ وتقليلُ الكثيرِ إذا عُرِفَ مَعناه، وهذا مَعروفٌ لا

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٨٣).

قال ابن عثيمين: (النَّاسُ في الأسبابِ طرَفانِ ووسَطٌ:

فالطَّرَفُ الأوَّلُ: نُفاةٌ أنكَروا تأثيرَ الأسبابِ، وجعَلوها مجرَّدَ علاماتٍ يَحصُلُ الشَّيءُ عندَها، لا بها، حتَّى قالوا: إنَّ انكسارَ الزُّجاجةِ بالحجَرِ إذا رمَيْتَها به حصَل عندَ الإصابةِ، لا بها! وهؤلاء خالَفوا السَّمْعَ، وكابَروا الحِسَّ، وأنكَروا حِكمةَ الله تعالى في ربطِ المُسبَّباتِ بأسبابِها.

والطَّرَفُ الثَّاني: غُلاةٌ أثبَتوا تأثيرَ الأسبابِ، لكنَّهم غَلَوْا في ذلك وجعَلوها مؤَثِّرةً بذاتِها! وهؤلاء وقَعوا في الشِّركِ، حيث أثبَتوا مُوجِدًا مع الله تعالى، وخالَفوا السَّمعَ والحِسَّ...

وأمَّا الوسَطُ: فهم الَّذين هُدُوا إلى الحقِّ، وتوَسَّطوا بيْن الفريقَين، وأخَذوا بما مع كلِّ واحدٍ منهما مِن الحقِّ، فأثبَتوا للأسبابِ تأثيرًا في مُسبَّباتِها، لكنْ لا بذاتِها، بل بما أودَعه اللهُ تعالى فيها مِن القُوَى المُوجِبةِ، وهؤلاء هم الطَّائفةُ الوسَطُ الَّذين وُفِّقوا للصَّوابِ، وجمَعوا بيْن المَنقولِ والمعقولِ والمحسوسِ). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٩٨). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٧).

يُجهَلُ، وإثباتُ ما أُثبِتَ مِن أشكالِه مِمَّا لا يَكثُرُ: دَليلٌ على الحَذفِ منه؛ ولذا لا تُحذَفُ مع غيرِ الباءِ في «اسمِ اللهِ»، ولا مع الباءِ في غيرِ الجلالةِ الكريمةِ مِن الأسماءِ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، ولم تَدخُلْ في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟

الجوابُ: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ مَعنًى آخَرَ، ويُرادُ به ذلك مع الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتَنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تَسبيحًا، فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا مَعنى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعدَّى بحَرفِ جَرٍّ، لا تقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أردتَ المقرونَ بالفِعلِ -وهو الصَّلاةُ- أدْخَلتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ، كأنَّك قُلتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تَقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلَمُ- دَخَلتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولم يَقُلْ في مَوضِعٍ: سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]. وتأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ، فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتَنزيهَهم إيَّاه(٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٢).

قال النووي: (قال الكُتَّابُ مِن أهلِ العربيَّةِ: إذا قيل: «باسمِ الله» تعَيَّنَ كَتْبُه بالألِفِ، وإنَّما تُحذَفُ الألِفُ إذا كتب «بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيم» بكمالِها). ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

١٣- في قَوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ دَلالةٌ على أنَّه مأمورٌ بالذِّكرِ اللِّسانيِّ، وليس له أن يَقتَصِرَ على الذِّكرِ القَلبيِّ(١)! ففائِدةُ ذِكْرِ الاسم هي أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ؛ إذْ لا يُمكِنُ تَسبيحُ اللهِ تعالى باللِّسانِ إلَّا بذِكرِ اسمِه، أمَّا إذا لم تَذْكُرِ اسمَ اللهِ فإنَّ التَّسبيحَ يكونُ بالقَلبِ؛ ولهذا تقولُ: «سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ»، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه»، «سُبحانَ اللهِ العَظيمِ» تَذْكُرُ الاسمَ، ففائِدةُ ذِكْرِ الاسمِ هنا عَظيمةٌ جِدًّا؛ لئلَّا يَقتَصِرَ الإنسانُ على التَّسبيحِ بقَلبِه، الَّذي لا يَظْهَرُ معه الاسمُ(٢).

١٤- قوله تعالى: ﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ إلى قولِه: ﴿ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴾ وهذه الأربعةُ الَّتي ذكَرها الله تعالى ووقَفهم عليها -مِن أمرِ خلقِهم وما به قوامُ عيشِهم مِن المطعومِ والمشروبِ والنَّارِ- مِن أعظمِ الدَّلائلِ على البعثِ، وفيها انتِقالٌ مِن شيءٍ إلى شيءٍ، وإحداثُ شيءٍ من شيءٍ، ولذلك أمر في آخرِها بتنزيهِه تعالَى عمَّا يقولُ الكافِرونَ، ووَصَف تعالَى نفْسَه بالعظيمِ، فقال: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾؛ إذ مَن هذه أفعالُه تدُلُّ على عَظَمتِه وكبريائِه وانفرادِه بالخلقِ والإنشاءِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ * ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ الفاءُ لتَفريعِ ما بعْدَها على جُملةِ ﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧]، كما فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨]؛ لِيَكونَ الغرَضُ من هذه الجُمَلِ مُتَّحِدًا، وهو الاستِدلالُ على إمكانِ البعثِ، فقُصِدَ تَكريرُ الاستِدلالِ وتَعدادُه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٠).

بإعادةِ جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾، وإنْ كان مَفعولُ فِعلِ الرُّؤيةِ مُختلِفًا. وإنْ شِئتَ جعَلْتَ الفاءَ لتَفريعِ مُجرَّدِ استدلالٍ على استدلالٍ، لا لتَفريعِ معْنى مَعطوفِها على معْنى المعطوفِ عليه، على أنَّه لَمَّا آلَ الاستِدلالُ السَّابقُ إلى عُمومِ صَلاحيةِ القدرةِ الإلهيَّةِ، جاز أيضًا أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مُرادًا بها تَمثيلٌ بنَوعٍ عَجيبٍ مِن أنواعِ تَعلُّقاتِ القدْرةِ بالإيجادِ دونَ إرادةِ الاستدلالِ على خُصوصِ البعثِ؛ فيَصِحُّ جَعْلُ الفاءِ تَفريعًا على جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، مِن حيثُ إنَّها اقتَضَت سَعةَ القدْرةِ الإلهيَّةِ[١].

- وجُملةُ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥ...﴾ إلخ بَيانٌ لجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥ﴾ للتَّقريرِ[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ءَأَنتُمْ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿تَزْرَعُونَهُۥ﴾ لإفادةِ التَّقَوِّي؛ لأنَّهم لَمَّا نُزِّلوا مَنزلةَ مَن يَزعُمُ ذلك، صِيغَت جُملةُ نَفْيِه بصِيغةٍ دالَّةٍ على زَعْمِهم تَمكُّنَ إنباتِ ما يَحرُثون[٤].

- ونَفْيُ الزَّرعِ عنهم وإثباتُه للهِ تعالى يُفيدُ معْنى قَصْرِ الزَّرعِ -أي: الإنباتِ- على اللهِ تعالى، أي: دُونَهم، وهو قصْرُ مُبالَغةٍ[٥]؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بزَرعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٤، ٣٢١).

(٥) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ =

النَّاسِ[١].

وقيلَ: أضافَ الحرْثَ إليهم، والزَّرعَ إليه تَعالى؛ لأنَّ الحرْثَ فِعْلُهم، ويَجْري على اختِيارِهم، والزَّرعَ مِن فِعلِ اللهِ تَعالى، ويَنبُتُ على اختِيارِه لا على اختِيارِهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

- جُملةُ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ مَوقِعُها كمَوقِعِ جُملةِ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] في أنَّها استِدلالٌ مِن اللهِ سُبحانَه بإفْنائِه ما أوجَدَه

= الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧، ٢١٨).

على انفِرادِه بالتَّصرُّفِ إيجادًا وإعدامًا؛ تَكمِلةً لدَليلِ إمكانِ البَعثِ[١].

- ودخَلَتِ اللامُ على جَوابِ (لَوْ) في قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، ونُزِعَتْ مِن قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾؛ لِوُجوهٍ: الوجْهُ الأولُ: ذكَرَ في جَوابِ (لو) في الزَّرعِ اللَّامَ عمَلًا بالأصلِ، وحذَفَها منه في الماءِ اختصارًا؛ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه. الوجْهُ الثَّاني: أنَّ هذه اللَّامَ مُفيدةٌ معْنى التَّوكيدِ لا مَحالةَ، فأُدخِلَت في آيةِ المطعومِ دونَ آيةِ المشروبِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ أمْرَ المطعومِ مُقدَّمٌ على أمْرِ المشروبِ، وأنَّ الوعيدَ بفَقْدِه أشدُّ وأصعبُ؛ مِن قِبَلِ أنَّ المشروبَ إنَّما يُحتاجُ إليه تبَعًا للمَطعومِ؛ ولذلك رُتِّبَ على أمْرِ المطعومِ قولُه: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، وعلى أمْرِ المشروبِ قولُه: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، والأوَّلُ أدلُّ على التَّوبيخِ والتَّعييرِ على كُفرانِ النِّعَمِ؛ لمَجيئِه إخباريًّا مُفصَّلًا فيه تَصويرُ خَيبتِهم وتَحسُّرِهم. الوجْهُ الثالثُ: أنَّ الزَّرعَ ونباتَه وجَفافَه بعْدَ النَّضارةِ حتَّى يَعودَ حُطامًا، ممَّا يَحتمِلُ أنَّه مِن فِعلِ الزَّارعِ، أو أنَّه مِن سَقْيِ الماءِ، وجَفافُه مِن عدَمِ السَّقْيِ، فأخبَرَ سُبحانه أنَّه الفاعلُ لذلك على الحقيقةِ، وأنَّه قادرٌ على جَعْلِه حُطامًا في حالِ نُموِّه لو شاءَ، وإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ ممَّا لا يُتوهَّمُ أنَّ لأحدٍ قُدرةً عليه غيرَ اللهِ تعالى[٢].

وقيل: اللَّامُ تَقَعُ للاستِقبالِ؛ تقولُ: لَأضْرِبَنَّك -أي: فيما بعْدُ؛ لا في الحالِ، والمعنى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢١١، ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

حُطَٰمٗا ﴾ أي: في مُستقبَلِ الزَّمانِ إذا تَمَّ فاستَحْصَدَ (أي: حان له أن يُحصدَ)، وذلك أشدُّ العذابِ؛ لأنها حالةُ انتهاءِ تَعَبِ الزَّارِعِ، واجتماعِ الدَّيْنِ عليه؛ لرجاءِ القضاءِ بعدَ الحصادِ، مع فراغِ البيوتِ مِن الأقواتِ، وأمَّا في الماءِ فقال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ أي: الآنَ، لأنَّا لو أخَّرْنا ذلك لشَرِبَ العطشانُ، وادَّخَرَ الإنسانُ[١].

وقيل: أُدخِلت اللَّامُ في آيةِ المطعومِ دونَ آيةِ المشروبِ؛ لأنَّ جَعْلَ الماءِ العذبِ مِلحًا أسهلُ إمكانًا في العُرفِ والعادةِ، والموجودُ مِن الماءِ الملحِ أكثرُ مِن الماءِ العذبِ، وكثيرًا ما إذا جرَت المياهُ العذبةُ على الأراضي المتغيرةِ التربة أحالَتْها إلى الملوحةِ، فلم يحتَجْ في جعلِ الماءِ العذبِ ملحًا إلى زيادةٍ تأكيد، فلذلك لم تدخُلْ عليه لامُ التأكيدِ المفيدةُ زيادةَ التحقيقِ، وأمَّا المطعومُ فإنَّ جعلَه حطامًا مِن الأشياءِ الخارجةِ عن المعتادِ، وإذا وقَع فلا يكونُ إلا عن سخطٍ مِن الله شديدٍ، فلذلك قُرِن بلامِ التَّأكيدِ زيادةً في تحقيقِ أمرِه، وتقريرِ إيجادِه[٢].

وأيضًا قال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾، ولم يقُلْ عزَّ وجَلَّ: (لو نشاءُ لم نُخرِجْه)، بل قال: ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ أي: بَعْدَ أن يَخرُجَ ويكونَ زَرعًا وتتعَلَّقَ به النُّفوسُ، يَجعَلُه اللهُ تعالى حُطامًا! وهذا أشَدُّ ما يكونُ سَبَبًا للحُزنِ والأَسى؛ لأنَّ الشَّيءَ قبْلَ أن يَخرُجَ لا تتعَلَّقُ به النُّفوسُ، فإذا خَرَج وصار زَرْعًا ثمَّ سَلَّط اللهُ عليهم آفةً، فكان حُطامًا -أي: محطومًا لا فائدةَ منه-؛ فهو أشَدُّ حَسرةً[٣]!

- قولُه: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾، أي: فأقمْتُم دائمًا تَندَمونَ على مَعاصيكم الَّتي سبَّبَتْ ذلك التَّلفَ، أو تَتَعجَّبون، أو تَحدَّثونَ في ذلك ولم تُعرِّجوا على شُغلٍ

(١) الكلامُ لابنِ هُبَيْرةَ، نقَله عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)) لابن الأثير (٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣).

غَيرِه كما تَفعَلونَ عِندَ الأشياءِ السَّارَّةِ الَّتي هي في غايةِ الإعجابِ والمَلاحةِ والمُلاءَمةِ؛ ولهذا عبَّرَ عمَّا المرادُ به الإقامةُ مع الدَّوامِ بـ (ظَلَّ) الَّذي معْناه: أقامَ نَهارًا؛ إشارةً إلى تَرْكِ الأشغالِ الَّتي تُهِمُّ ومَحلُّها النَّهارُ، ويَمنَعُ الإنسانَ مِن أكثرِ ما يُهِمُّه مِن الكلامِ لهذا النَّازلِ الأعظَمِ[1].

- قولُهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ تَندُّمٌ وتَحسُّرٌ، أي: تَعلَمون أنَّ حَطْمَ زَرعِكُم حِرمانٌ مِن اللهِ جَزاءً لكُفْرِكم، ومعْنى ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ مِن الغَرامِ، وهو الهلاكُ[2]. وقيل: الجملةُ إخبارٌ بمعنى الإنكارِ والجحودِ[3]، وقُرِئ بالاستِفهامِ ﴿أَئِنَّا﴾[4] لإنكارِ هذا الواقعِ، والاستِعظامِ له، والتَّعجُّبِ منه، وهي مُنبِّهةٌ على أنَّهم -لِشِدَّةِ اضْطِرابِهم مِن ذلك الحادثِ- مُذَبْذَبونَ؛ تارةً يَجزِمون باليأسِ والشَّرِّ، وتارةً يَشُكُّون فيه، ويَنسُبونَ الأمرَ إلى سوءِ تصَرُّفِهم، وعليه يدُلُّ إضرابُهم: ﴿بَلْ نَحْنُ﴾[5].

- ومعْنى الآيةِ يَجوزُ أنْ يكونَ جاريًا على ظاهرِ مادَّةِ فِعلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ الَّذي هو المَسرَّةُ والفرَحُ، ويكون ذلك تَهكُّمًا بهم، حمْلًا لهم على مُعتادِ أخلاقِهم مِن الهَزْلِ بآياتِ اللهِ، وقَرينةُ التَّهكُّمِ ما بعْدَه مِن قولِه عنهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ مَحمَلُ الآيةِ على جَعْلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بمعْنى تَندَمون وتَحزَنون؛ ولذلك كان لفِعلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ هنا وقْعٌ لا يُعوِّضُه غيرُه[6].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٦).
(٤) وهي قراءةُ أبي بكرٍ عن عاصمٍ، وقرأه الباقونَ بهمزةٍ واحدةٍ على الخبَرِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥، ٢٢٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

- وجُملةُ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ مقولُ قولٍ مَحذوفٍ هو حالٌ مِن ضَميرِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾

- وَصْفُ ﴿ٱلْمَآءَ﴾ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ إدماجٌ[(٢)] للمِنَّةِ في الاستِدلالِ، أي: أفرأيتُم الماءَ العذْبَ الَّذي تَشرَبونه؛ فإنَّ شُرْبَ الماءِ مِن أعظَمِ النِّعَمِ على الإنسانِ؛ ليُقابَلَ بقولِه بعْدَه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[(٣)] [الواقعة: ٧٠].

- ووَجْهُ الاستِدلالِ على البعثِ هو إنشاءُ ما به الحياةُ بعْدَ أنْ كان مَعدومًا؛ بأنْ كوَّنَه اللهُ في السَّحابِ بحِكمةِ تكوينِ الماءِ، فكما استُدِلَّ بإيجادِ الحيِّ مِن أجزاءٍ مَيتةٍ في خلْقِ الإنسانِ والنَّباتِ، استُدِلَّ بإيجادِ ما به الحياةُ عن عدَمٍ؛ تَقريبًا لإعادةِ الأجسامِ بحِكمةٍ دَقيقةٍ خَفِيَّةٍ، أي: يَجوزُ أنْ يُمطِرَ اللهُ مطَرًا على ذواتِ الأجسادِ الإنسانيَّةِ يكونُ سَببًا في تَخلُّقِها أجسادًا كاملةً كما كانت أُصولُها، كما تَتكوَّنُ الشَّجرةُ من نَواةِ أصْلِها، وقد تمَّ الاستدلالُ على البعثِ عندَ قولِه: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾[(٤)].

- وجُعِل قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ استِدلالًا مَنوطًا بإنزالِ الماءِ مِن المُزْنِ على طَريقةِ الكنايةِ بإنزالِه عن تَكوينِه صالحًا للشَّرابِ؛ لأنَّ إنزالَه هو الَّذي يَحصُلُ منه الانتفاعُ به؛ ولذلك وُصِفَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأُعقِبَ قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ﴾ بقولِه: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ [الواقعة: ٧٠]، فحصَلَ بيْن الجُملتينِ احتِباكٌ(١)، كأنَّه قِيل: أأنْتُم خلَقْتُموه عَذْبًا صالحًا للشُّربِ وأنْزَلْتُموه من المُزْنِ؟ لو نَشاءُ جَعَلْناه أُجاجًا، ولَأمْسكناهُ في سَحاباتِه، أو أنْزَلْناه على البحارِ أو الخَلاءِ، فلمْ تَنتفِعوا به(٢).

- قولُه: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾، أي: جعَلْناه مِلْحًا، كَريهَ الطَّعمِ، لا يُمكِنُ أنْ يُشرَبَ، ولم يقُلْ: لو نَشاءُ لغَوَّرْناه، أو مَنَعْنا إنزالَه؛ لأنَّ كونَهم يَنظُرون إلى الماءِ رأْيَ العينِ ولكنْ لا يُمكِنُهم شُرْبُه، أشدُّ حَسرةً ممَّا لو لم يكُنْ مَوجودًا، واللهُ عزَّ وجلَّ يُريدُ أنْ يَتحدَّاهم بما هو أعظَمُ شَيءٍ في حَسرةِ نُفوسِهم(٣).

- جُملةُ ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٦٥] وجُملةُ ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ [الواقعة: ٧٠] شَرطيَّتانِ، مُستأنَفتانِ، مَسوقتانِ لبيانِ أنَّ عِصْمتَه تعالى للزَّرعِ والماءِ عمَّا يُخِلُّ بالتَّمتُّعِ بهما، نِعمةٌ أُخرى بعْدَ نِعمةِ الإنباتِ والإنزالِ، مُستوجِبةٌ للشُّكرِ(٤).

- وتُخُلِّصَ مِن هذا التَّتميمِ(٥) إلى الامتنانِ بقولِه: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾؛ تَحضيضًا لهم على الشُّكرِ، ونبْذِ الكفْرِ والشِّركِ(٦).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال سُبحانَه في الأُولى: ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال في الماءِ: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الأُولى تَنبيهٌ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

على البَعثِ والإعادةِ -وهي: النَّشأةُ الثَّانيةُ كالنَّشأةِ الأُولى-، وحمْلٌ على أنْ يَتذكَّرَ الأوَّلَ -الَّذي هو الأصلُ-؛ ليُثبِتَ به الثَّانيَ -الَّذي هو فرْعٌ على أنَّ القادرَ كما كان لم يَتغيَّرْ-، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ فإنَّه بعْدَ قولِه: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ [الواقعة: ٧٠]، أي: شديدَ المُلوحةِ كماءِ البَحرِ، كما قال: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ [الفرقان: ٥٣]، أي: فهلَّا تَشكُرون أنْ جعَلَه عَذْبًا؟! فكلُّ مكانٍ لائقٌ به ما ذُكِرَ فيه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ * ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ * نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ إدماجٌ للامتِنانِ في الاستِدلالِ بما تقدَّمَ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨]، وهو أيضًا وَصْفٌ للمَقصودِ من الدَّليلِ، وهو النَّارُ الَّتي تَقتدِحُ مِن الزَّنْدِ، لا النَّارُ المُلتهِبةُ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ حُذِفَ العائدُ على المَوصولِ؛ لأنَّ ضَميرَ النَّصبِ يَكثُرُ حذْفُه مِن الصِّلةِ، وتَقديرُه: الَّتي تُورُونَها. وتَعديةُ ﴿تُورُونَ﴾ إلى ضَميرِ النَّارِ تَعديةٌ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: تُورُونَ شَجرَتَها، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾، وقد شاعَ هذا الحذْفُ في الكَلامِ، فقالوا: أَورَى النارَ، كما قالوا: أَورَى الزِّنادَ[٣].

- وجُملةُ ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ عَبَّرَ عن خَلْقِ الشَّجرةِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٣/ ١٢٤٧-١٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالإنشاءِ المُنبِئِ عن بَديعِ الصُّنعِ المُعرِبِ عن كَمالِ القُدرةِ والحِكمةِ؛ لِمَا فيه مِن الغَرابةِ الفارقةِ بيْنها وبيْن سائرِ الشَّجرِ الَّتي لا تَخلُو عن النارِ، كما أنَّ التَّعبيرَ عن نفْخِ الرُّوحِ بالإنشاءِ في قولِه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لذلك[١].

- قولُه: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَنافعِها[٢]، أو بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي: مَنفعةً للنَّازلينَ بالقَواءِ -الأرضِ القَفْرِ-، وهم المسافِرون، يُقالُ: أقْوى الرَّجلُ؛ إذا نزَلَ بالقِيِّ والقَوَى، وهي الأرضُ الخاليةُ، وخصَّ المُقْوينَ بالذِّكرِ -وإنْ كانتْ مَنفَعتُها عامَّةً للمُسافِرينَ والمُقيمينَ؛ تَنْبيهًا لِعبادِه -واللهُ أعلَمُ بمُرادِه مِن كَلامِه- على أنَّهم كلَّهم مُسافِرون، وأنَّهم في هذه الدَّارِ على جَناحِ سَفرٍ، لَيْسوا هم مُقيمينَ ولا مُستوطِنينَ، وأنَّهم عابِرو سَبيلٍ وأبناءُ سَفرٍ[٤]، وأيضًا لشِدَّةِ حاجتِهم إليها في خَبْزِهم وطَبْخِهم؛ حيثُ لا يَجِدُون ما يَشترونَه، فيُغْنيهم عمَّا يَصنَعونَه بالنَّارِ[٥].

وقيل: إيثارُ هذا الوصْفِ في هذه الآيةِ لِيَجمَعَ بيْن مَعْنيَيِ القواءِ، فالمُقْوِي يُطلَقُ على الدَّاخلِ في القَوَاءِ، وهي القَفْرُ، ويُطلَقُ المُقْوِي على الجائعِ؛ فإنَّ النَّارَ مَتاعٌ للمُسافرينَ يَسْتضيئون بها في مناخِهم، ويَصْطَلون بها في البرْدِ، ويَراها السَّائرُ ليلًا في القفْرِ فيَهْتدي إلى مَكانِ النُّزَّلِ، فيَأْوي إليهم، ومَتاعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦).

للجائعينَ يَطبُخونَ بها طَعامَهم في الحضَرِ والسَّفرِ، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في خِلالِ الاستِدلالِ، واختيرَ هذانِ الوصفانِ ﴿تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ لأنَّ احتياجَ أصحابِهما إلى النَّارِ أشدُّ مِن احتياجِ غيرِهما(١).

- وقَدَّم سُبحانَه كَونَها تَذكِرةً على كَونِها مَتاعًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الأهمَّ هو النَّفعُ الأُخرويُّ(٢).

- وفي قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، بدَأَ بذِكرِ خلْقِ الإنسانِ، ثمَّ بما لا غِنى له عنه، وهو الحَبُّ الَّذي منه قُوتُه، ثمَّ بالماءِ الَّذي به سَوْغُه وعَجْنُه، ثمَّ بالنَّارِ الَّتي بها نُضْجُه وصَلاحُه، وذكَرَ عقِبَ كُلٍّ مِن الثَّلاثةِ الأُولى ما يُفسِدُه؛ فقال في الأولى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، وفي الثالثةِ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، ولم يقُلْ في الرَّابعةِ ما يُفسِدُها، بل قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي: جعَلْناها تَذكرةً تتَّعِظون بها، ومتاعًا للمسافِرينَ يَنتفِعون بها(٣).

- وفي الآياتِ الآنِفةِ الذِّكرِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بصِحَّةِ الأقسامِ؛ وهو استيفاءُ المُتكلِّمِ جميعَ الأقسامِ للمعْنى المذكورِ الآخِذِ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، فقد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧).
قال أبو السعود: (وقد جُوِّز أن يُرادَ بالمُقْوِينَ الَّذين خلَتْ بُطونُهم ومَزاوِدُهم مِن الطَّعامِ، وهو بعيدٌ؛ لعدَمِ انحصارِ ما يهمُّهم ويسُدُّ خللَهم فيما لا يؤكَلُ إلَّا بالطَّبخِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥١، ٤٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٩).

عُدِلَ عن لَفظِ الحِرمانِ والمنْعِ إلى لَفظٍ هو رِدفُه وتابعُه، وهو لَفظُ الجَعْلِ؛ إذ قال ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ * ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾، وكذلك جاء لَفظُ الاعتدادِ بالماءِ؛ حيث قال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ بلَفظِ الجَعْلِ عندَ ذِكرِ الحرمانِ وما هو في معْناه، وجاء العطاءُ بلَفظِ الزَّرعِ في الحرْثِ، وفي الماءِ بلَفظِ الإنزالِ[1].

- وأيضًا في هذه الآياتِ ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّسهيم؛ وهو أنْ يكونَ ما تقدَّمَ مِن الكلامِ دَليلًا على ما يَتأخَّرُ منه أو بالعكسِ؛ فقولُه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ تَقْتضي أوائلُ هذه الآياتِ أواخِرَها اقتِضاءً لَفظيًّا ومعنويًّا، كما ائْتَلَفت الألفاظُ فيها بمَعانيها المُجاورةِ؛ الملائمُ بالملائمِ، والمناسبُ بالمُناسبِ؛ لأنَّ ذِكرَ الحرْثِ يُلائمُ ذِكرَ الزَّرعِ، والاعتدادَ بكَونِه سُبحانَه لم يَجعَلْه حُطامًا مُلائمٌ لحُصولِ التَّفكُّهِ به، وعلى هذه الآيةِ يُقاسُ نظْمُ أخْتِها[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾، رُتِّب على ما مَضَى مِن الكلامِ المُشتمِلِ على دَلائلِ عَظَمةِ القُدْرةِ الإلهيَّةِ، وعلى أمثالٍ لتَقريبِ البَعثِ الَّذي أنْكَروا خبَرَه، وعلى جَلائلِ النِّعَمِ المُدمَجةِ في أثناءِ ذلك -أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُنزِّهَه تَنزيهًا خاصًّا، مُعقِّبًا لِما تُفيضُه عليه تلك الأوصافُ الجَليلةُ الماضيةُ مِن تَذكُّرٍ جَديدٍ يكونُ التَّنزيهُ عَقِبَه ضَرْبًا مِن التَّذكُّرِ في جَلالِ ذاتِه، والتَّشكُّرِ لآلائِه؛ فإنَّ للعباداتِ مَواقعَ تكونُ هي فيها أكمَلَ منها في دُونِها،

---

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٥).

فيكونُ لها مِن الفضْلِ ما يُجزَلُ ثوابُه، فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَخْلو عن تَسبيحِ ربِّه، والتَّفكُّرِ في عَظَمةِ شأْنِه، ولكنْ لاختلافِ التَّسبيحِ والتَّفكُّرِ مِن تَجدُّدِ مُلاحَظةِ النَّفْسِ، ما يَجعَلُ لكلِّ حالٍ مِن التَّفكُّرِ مَزايا تَكْسِبُه خَصائصَ، وتَزيدُه ثَوابًا؛ فالجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٤٩- ٧٣]، وهي تَذييلٌ، وتَعقيبُ الأمرِ بالتَّسبيحِ لَمَّا عدَّدَ مِن بَدائعِ صُنعِه وإنعامِه؛ إمَّا لتَنزيهِه تعالى عمَّا يقولُ الجاحِدون لوَحدانيَّتِه، الكافِرون لنِعمتِه، أو للتَّعجُّبِ مِن أمْرِهم في غَمْطِ نِعَمِه، أو للشُّكرِ على ما عدَّها مِن النِّعَمِ[1].

- ولَمَّا كان الكلامُ مَوضوعًا للدَّلالةِ على ما في النَّفْسِ، كان تَسبيحُ الاسمِ مُقتضيًا تَنزيهَ مُسمَّاهُ، وكان أيضًا مُقتضيًا أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللَّفظِ مع الاعتِقادِ، لا مُجرَّدَ الاعتِقادِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ لَمَّا عُلِّقَ بلَفظِ (اسم) تعيَّنَ أنَّه تَسبيحٌ لَفظيٌّ، أي: قُلْ كلامًا فيه معْنى التَّنزيهِ، وعلِّقْه باسمِ ربِّك؛ فكلُّ كلامٍ يدُلُّ على تَنزيهِ اللهِ مَشمولٌ بهذا الأمرِ، ولكنْ مُحاكاةُ لَفظِ القرآنِ أَولى وأجمَعُ، بأنْ يَقولَ: سُبحانَ اللهِ[2].

- والباءُ الدَّاخلةُ على ﴿بِاسْمِ﴾ قيل: زائدةٌ لتَوكيدِ اللُّصوقِ، أي: اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه؛ وذلك لوُقوعِ الأمْرِ بالتَّسبيحِ عَقِبَ ذِكرِ عدَّةِ أُمورٍ تَقْتضيهِ، حسبَما دلَّت عليه فاءُ التَّرتيبِ، فكان حَقيقًا بالتَّقويةِ والحثِّ عليه، وهذا بخِلافِ قولِه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؛ لوُقوعِه في صَدْرِ جُملتِه؛ كقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. وقيل: مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فسَبِّحْ مُتلَبِّسًا باسْمِ ربِّك، أو للمُصاحَبةِ، يعني: سبِّحِ اللهَ تسبيحًا مَصحوبًا باسمِه(١).



(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).
قال الشنقيطي: (وزيادةُ حرفِ الباءِ للتَّوكيدِ قبْلَ مفعولِ الفعلِ المتعدِّي بنفْسِه، كثيرةٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العربِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٩).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٨١).

الآيات (٧٥-٨٢)

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أي: مَطالِعِ النُّجومِ ومَغارِبِها، ومَساقِطِها ومَنازِلِها، وأصلُ (نجم): يدُلُّ على طُلوعٍ وظُهورٍ، وأصلُ (وقع): يدُلُّ على سُقوطِ شَيءٍ[1].

﴿مَّكۡنُونٖ﴾: أي: مَصونٍ مَحفوظٍ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[2].

﴿مُّدۡهِنُونَ﴾: أي: مُكَذِّبونَ، يُلاينُ بَعضُكم بَعضًا، ويتَّبِعُه على الكُفرِ؛ مِنَ الإدهانِ: وهو الجَريُ في الباطِنِ على خِلافِ الظَّاهِرِ، هذا أصلُه، ثمَّ قِيلَ للمُكَذِّبِ: مُدْهِنٌ وإنْ صَرَّح بالتَّكذيبِ والكُفرِ، والمُداهَنةُ: عِبارةٌ عن المُداراةِ والمُلايَنةِ، مَأخوذةٌ مِنَ الدُّهنِ؛ لِلِينِه وإملاسِه، وأصلُ (دهن): يَدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُثنيًا على كتابِه المجيدِ: فلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ في السَّماءِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٦، ٦/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠).

-وإنَّ هذا القَسَمَ لَقَسَمٌ عظيمٌ، لو تَعلَمونَ قَدْرَه وعَظَمتَه- إنَّ هذا القُرآنَ لَعَظيمُ النَّفعِ والخَيرِ، مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، في كِتابٍ مَصونٍ مِن كُلِّ سُوءٍ، لا يَمَسُّه إلَّا الملائِكةُ المطَهَّرونَ مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ، وهذا القُرآنُ الكريمُ مُنزَّلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا على الكافرينَ: أفبِهذا القُرآنِ أنتم كافِرونَ مُكذِّبونَ، وتَجعَلونَ شُكرَ رِزقِكم التَّكذيبَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن أنَّه خالِقُ الخلْقِ والرِّزقِ وله العَظَمةُ بالدَّليلِ القاطِعِ، ولم يؤمِنوا؛ قال: لم يَبْقَ إلَّا القسَمُ[1].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ في السَّماءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧) و(٢/ ١٩٢، ١٩٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠، ٣٣١).

قال ابن الجوزي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ في «لا» قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها دخلت توكيدًا. والمعنى: فأُقسِمُ، ومِثلُه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، قاله الزَّجَّاجُ، وهو مذهبُ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ.

والثَّاني: أنَّها على أصلِها. ثمَّ في مَعناها قَولانِ: =

= أحدُهما: أنَّها تَرجِعُ إلى ما تقدَّم، ومعناه: النَّهيُ [أي: ناهية]، تقديرُ الكلامِ: فلا تُكَذِّبوا، ولا تَجحَدوا ما ذَكَرْتُه مِن النِّعَمِ والحُجَجِ، قاله الماوَرْديُّ.
والثَّاني: أنَّ «لا» ردٌّ لِما يقولُه الكفَّارُ في القرآنِ: إنَّه سِحرٌ، وشِعرٌ، وكِهانةٌ [أي: نافية]، ثمَّ استأنف القسَمَ على أنَّه قرآنٌ كريمٌ، قاله عليُّ بنُ أحمدَ النَّيْسابوريُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩).
وممَّن قال: دَخَلَت (لا) توكيدًا. والمعنى: فأُقسِمُ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).
ونسَبَ هذا القولَ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ وجمهورِهم: البغويُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٨).
وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٢٠)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).
واختلف المُفَسِّرونَ في المُرادِ بالنُّجوم:
فقيل: المرادُ بها: نُجومُ السَّماءِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبي، وابن القيم، والسعدي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧) و(٢/ ١٩٢، ١٩٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠، ٣٣١).
ونسَبه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ جُرَيج، والضَّحَّاكُ، وعطاءُ بنُ أبي رباحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).
وعلى القولِ بأنَّ المرادَ نجومُ السَّماءِ فقد وقع خِلافٌ في المرادِ بمَواقِعِها، فقال ابنُ القيِّمِ: (... ففي مَواقِعِها أقوالٌ: =

= أحَدُها: أنَّه انكِدارُها وانتِشارُها يومَ القيامةِ. وهذا قَولُ الحَسَنِ. والمُنَجِّمونَ يُكَذِّبونَ بهذا ولا يُقِرُّونَ به.
والثَّاني: مَواقِعُها: مَنازِلُها. قاله عَطاءٌ وقَتادةُ [حكاه ابنُ الجوزي عنهما].
والثَّالِثُ: أنَّه مَغارِبُها.
والرَّابعُ: أنَّه مَواقِعُها عندَ طُلوعِها وغُروبِها. حكاه ابنُ عطيَّةَ عن مجاهدٍ وأبي عُبَيدةَ.
والخامِسُ: أنَّ مَواقِعَها: مَواضِعُها مِنَ السَّماءِ. وهذا الَّذي حكاه ابنُ الجوزي عن قَتادةَ حكاه ابنُ عطيَّةَ عنه، فيَحتَمِلُ أن يكونَا واحِدًا، وأن يكونَا قَولَينِ.
السَّادِسُ: أنَّ مَواقِعَها: انقِضاضُها إثرَ العِفريتِ وقْتَ الرُّجومِ. حكاه ابنُ عطيَّةَ أيضًا، ولم يَذكُرْ أبو الفَرَجِ بنُ الجوزيِّ سِوى الثَّلاثةِ الأُوَلِ)). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ١٩٢). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بمَواقِعِ النُّجومِ: مَساقِطُها ومَغايِبُها في السَّماءِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١).
وقيل: النُّجومُ: هي آياتُ القُرآنِ الكريمِ، ومَواقِعُها: هي نُزولُها شيئًا بعدَ شَيءٍ؛ فالقُرآنُ نَزَل جُملةً واحِدةً من اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ نَزَل مُنَجَّمًا -أي: مُفَرَّقًا- على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ورجَّحه الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٣، ٤٦٤).
وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلَفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وأبو حَزْرةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦).
قال ابنُ عطيَّةَ: (ويُؤَيِّدُ هذا القَولَ عَودُ الضَّميرِ على القُرآنِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾؛ وذلك أنَّ ذِكْرَه لم يتقَدَّمْ إلَّا على هذا التَّأويلِ، ومَن لا يتأوَّلُ بهذا التَّأويلِ يقولُ: إنَّ الضَّميرَ يَعودُ على القُرآنِ وإن لم يتقَدَّمْ ذِكرُه؛ لِشُهرةِ الأمرِ، ووُضوحِ المعنى، كقَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ =

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾.

أي: وإنَّ هذا القَسَمَ لَقَسَمٌ عَظيمٌ، لو تَعلَمونَ قَدْرَه وعَظَمتَه(١)!

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّ هذا القُرآنَ المُنزَّلَ على مُحمَّدٍ: قرآنٌ عَظيمُ الحُسْنِ والنَّفعِ، والخَيرِ والإنعامِ؛ مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ، مُنزَّهٌ عن كُلِّ شائبةِ نَقصٍ وعَيبٍ وقُبحٍ(٢)!

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾.

أي: إنَّ القُرآنَ مَحفوظٌ عِندَ اللهِ -تعالى- في كِتابٍ مَصونٍ مِن كُلِّ سُوءٍ(٣).

= [ص: ٣٢]، و﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦] وغيرِ ذلك. وقال جمهورٌ كَثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ: النُّجومُ هنا: الكواكِبُ المعروفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: وإنَّ هذا القسَمَ الَّذي أقسمتُ به لَقَسَمٌ عظيمٌ، لو تعلمون عظَمتَه لَعظَّمْتُم المُقسَمَ به عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).

وقال أبو السعود: (جوابُ ﴿لَوۡ﴾ إمَّا مَتروكٌ أُريدَ به نَفيُ عِلْمِهم، أو محذوفٌ ثِقةً بظُهوره، أي: لَعَظَّمتُموه، أو لَعَمِلتم بمُوجبِه). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠).

وقال أبو حيَّان: (في إقسامِه تعالى بمواقِعِ النُّجُومِ سِرٌّ في تعظيمِ ذلك لا نَعلَمُه نحن، وقد أعظَمَ ذلك تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦). =

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

أي: لا يَمَسُّ هذا الكِتابَ المكنونَ إلَّا الملائكةُ الَّذين طَهَّرهمُ اللهُ تعالى مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ(١).

= نَقَل ابنُ عَطيَّةَ اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ على أنَّ المكنونَ بمعنى: المَصُونِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١).

واختلَفوا في المرادِ بهذا الكِتابِ؛ فقيل هو: اللَّوحُ المحفوظُ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والرازي، والخازن، والعُلَيمي، والسعدي، ونسَبَه ابنُ عثيمينَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن جُزَي: (المرادُ بهذا الكتابِ المَكنونِ المصاحِفُ الَّتي كُتِب فيها القرآنُ، أو صُحُفُ القُرآنِ الَّتي بأيدي الملائكةِ عليهم السَّلامُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (الصَّحيحُ أنَّه الكتابُ الَّذي بأيدي الملائكةِ، وهو المذكورُ في قولِه: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ - ١٦]، ويدُلُّ على أنَّه الكتابُ الَّذي بأيدي الملائكةِ قولُه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فهذا يدُلُّ على أنَّه بأيديهم يَمَسُّونَه، وهذا هو الصَّحيحُ في معنى الآيةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: المصاحِفُ الَّتي بأيدي المُسلِمينَ، واستحسَنه ابنُ الفَرَس، وعليه فهذا إخبارٌ بغَيبٍ؛ وذلك لأنَّه لم تكُنْ مَصاحِفُ يومَ نزلَتِ الآيةُ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المُفَسِّرين على أنَّ الكِنايةَ -الضَّميرَ- في قَولِه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ تعودُ إلى الكتابِ المكنونِ، والمُطَهَّرونَ: هم الملائكةُ، قال المُبَرِّدُ: لا يَمَسُّ ذلك اللَّوحَ المحفوظَ إلَّا الملائكةُ الَّذين وُصِفوا بالطَّهارةِ. ومَذهَبُ قَومٍ: أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى القُرآنِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٣٩).=

= وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ يعودُ إلى الكتابِ المكنونِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ مِن ذلك عِندَنا: أنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه أخبَرَ أنَّه لا يَمَسُّ الكتابَ المكنونَ إلَّا المُطَهَّرونَ، فعَمَّ بخَبَرِه المُطَهَّرينَ، ولم يَخْصُصْ بَعضًا دونَ بَعضٍ؛ فالملائِكةُ مِنَ المُطَهَّرينَ، والرُّسُلُ والأنبياءُ مِنَ المُطَهَّرينَ، وكُلُّ مَن كان مُطَهَّرًا مِنَ الذُّنوبِ فهو مِمَّن اسْتُثْنِيَ وعُنِيَ بقَولِه: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧).

وتخصيصُ المُطَهَّرينَ هنا بالملائِكةِ: ذهب إليه مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

ونسَبَ الواحديُّ، وابنُ عاشور هذا القولَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: أنسٌ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وأبو الشَّعْثاءِ جابرُ بنُ زَيدٍ، وأبو نَهيكٍ، وباذانُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو العاليةِ، والضَّحَّاكُ، والكلبيُّ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).

قال ابن تيميَّةَ: (والصَّحيحُ اللَّوحُ المحفوظُ الَّذي في السَّماءِ مُرادٌ من هذه الآيةِ، وكذلك الملائِكةُ مُرادُونَ من قَولِه: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾؛ لوُجوهٍ:

أحدُهما: أنَّ هذا تفسيرُ جماهيرِ السَّلَفِ مِن الصَّحابةِ ومَن بعدَهم، حتَّى الفُقَهاءُ الَّذين قالوا: «لا يَمَسُّ القُرآنَ إلَّا طاهرٌ» من أئمَّة المذاهبِ صَرَّحوا بذلك، وشَبَّهوا هذه الآيةَ بقَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٦].

أنَّه أخبَرَ أنَّ القرآنَ جميعَه في كِتابٍ، وحينَ نزَلَتْ هذه الآيةُ لم يكُنْ نَزَلَ إلَّا بعضُ المكِّيِّ منه، ولم يُجْمَعْ جميعُه في المُصحَفِ إلَّا بعدَ وَفاةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وثالثُها: أنَّه قال: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ والمَكنونُ: المصونُ المُحْرَزُ الَّذي لا تَنالُه أيدي المُضِلِّينَ؛ فهذه صِفةُ اللَّوحِ المحفوظِ. =

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الَّذي منه صيانتُه؛ أتْبَعَه شَرَفَه بشَرَفِ مُنزِلِه[1]:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٠﴾.

= ورابِعُها: أنَّ قولَه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ صِفةٌ للكتابِ، ولو كان معناها الأمرَ لم يَصِحَّ الوَصفُ بها، وإنَّما يوصَفُ بالجُملةِ الخَبَريَّة.

وخامِسُها: أنَّه لو كان معنى الكلامِ الأمرَ لَقيل: «فلا يَمَسَّه»؛ لِتَوسُّطِ الأمرِ بما قَبْلَه.

وسادِسُها: أنَّه قال: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، وهذا يَقتَضي أنْ يكونَ تَطهيرُهم مِن غَيرِهم، ولو أُريدَ طهارةُ بني آدمَ فقط لقِيلَ: المُتَطَهِّرونَ، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وسابِعُها: أنَّ هذا مَسوقٌ لبيانِ شَرَفِ القُرآنِ وعُلُوِّه وحِفْظِه، وذلك بالأمرِ الَّذي قد ثَبَتَ واستقرَّ أبلَغُ منه بما يَحْدُثُ ويكونُ.

نعمْ، الوجهُ في هذا -واللهُ أعلمُ- أنَّ القرآنَ الَّذي في اللَّوحِ المحفوظِ هو القُرآنُ الَّذي في المُصحَفِ، كما أنَّ الَّذي في هذا المُصحَفِ هو الَّذي في هذا المُصحَفِ بعَينِه، سواءٌ كان المَحَلُّ وَرَقًا أو أديمًا، أو حَجَرًا أو لِخافًا، فإذا كان مِن حُكْمِ الكتابِ الَّذي في السَّماءِ ألَّا يَمَسَّه إلَّا المُطَهَّرونَ وَجَبَ أنْ يكونَ الكِتابُ الَّذي في الأرضِ كذلك؛ لأنَّ حُرمَتَه كحُرمَتِه، أو يكونُ الكِتابُ اسمَ جنسٍ يَعُمُّ كلَّ ما فيه القُرآنُ، سواءٌ كان في السَّماءِ أو الأرضِ، وقد أَوحى إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ - ٣]، وكذلك قولُه تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣]). ((شرح العمدة - كتاب الطهارة)) لابن تيمية (ص: ٣٨٣).

ويُنظر أيضًا: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

واستظهر أبو حيَّان أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى القُرآنِ، وذهب إليه السعديُّ، وكِلاهما على أنَّ المطَهَّرينَ هم الملائِكةُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

وقيل: المُطَهَّرونَ هم المُتَطَهِّرونَ مِنَ الجَنابةِ والحَدَثِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩).

أي: هذا القُرآنُ الكريمُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ؛ فهو الحَقُّ الَّذي لا مِرْيةَ فيه[١].

قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ٨١﴾.

أي: أفبِهذا القُرآنِ أنتم[٢] كافِرونَ مُكذِّبونَ[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

قال السعدي: (أي: إنَّ هذا القُرآنَ الموصوفَ بتلك الصِّفاتِ الجَليلةِ هو تنزيلُ رَبِّ العالَمينَ، الَّذي يُرَبِّي عِبادَه بنِعَمِه الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، ومِنْ أجَلِّ تربيةٍ ربَّى بها عِبادَه إنزالُه هذا القُرآنَ الَّذي قد اشتَمَل على مصالِحِ الدَّارَينِ، ورَحِمَ اللهُ به العِبادَ رَحمةً لا يَقدِرونَ لها شُكورًا!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

(٢) هذا خِطابٌ للكفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٠).

وقال البغوي: (﴿أَنتُم﴾ يا أهلَ مَكَّةَ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٨، ٣٣٩).

قيل: إنَّ المُدهِنَ هو الكذَّابُ المنافِقُ. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ، والبغوي، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٠).

وقال السمعاني: (مكذِّبون تكذيبَ مُنافِقٍ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٠).

وقال البِقاعي: (أي: كذَّابون منافِقون، بسببه تُظهِرون غيرَ ما تُبطِنون: أنَّه كذَّابٌ وأنتم تَعلَمون صِدقَه بحُسنِ مَعانيه، وعَجْزِكم عن مُماثَلَتِه في نُظومِه ومَبانيه، وتقولونَ: لو شِئْنا لَقُلْنا مِثلَ هذا! وجميعُ أفعالِكم تُخالِفُ هذا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٠).

وقال البغوي: (وهو مِن الإدهانِ، وهو الجريُ في الباطِنِ على خِلافِ الظَّاهِرِ، هذا أصْلُه، ثُمَّ قيل للمكَذِّبِ مُدْهِنٌ وإنْ صَرَّح بالتَّكذيبِ والكفرِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١). =

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا القُرآنُ مُتَكَفِّلًا بسَعادةِ الدَّارَينِ؛ قال تعالى[1]:

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وتَجعَلونَ شُكْرَ رِزقِكم التَّكذيبَ؛ فتَضَعونَ التَّكذيبَ مَوضِعَ الشُّكرِ، وتُقابِلونَ مِنَّةَ اللهِ عليكم بالكُفرِ بها[2]؟!

= وقيل: المعنى: مُتهاوِنون، كمَنْ يُدْهِنُ في الأمرِ أي: يُلينُ جانبَه ولا يَتصلَّبُ فيه تهاوُنًا به. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٠).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: أفبِهذا القُرآنِ الَّذي أنبَأْتُكم خَبَرَه، وقَصَصْتُ عليكم أمْرَه -أيُّها النَّاسُ- أنتم تُلِينونَ القَولَ للمُكَذِّبينَ به؛ مُمالأةً منكم لهم على التَّكذيبِ به والكُفرِ؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧).

وقال ابن عطية: (﴿مُّدْهِنُونَ﴾ معناه: يُلايِنُ بعضُكم بعضًا، ويَتبعُه في الكفرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢).

قال ابن عاشور: (وعلى تفسيرِ ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ بمعنى الإلانةِ، فالمعنى: لا تَتراخَوْا في هذا الحديثِ، وتَدبَّروه، وخُذوا بالفورِ في اتِّباعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والزَّمخشريُّ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادرُ السَّابقة.

قال ابن عطيَّة: (وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ الآيةَ =

= توبيخٌ للقائلينَ في المطَرِ الَّذي يُنزِلُه اللهُ للعِبادِ: هذا بنَوْءِ كذا وكذا... والمعنى: وتَجعَلونَ شُكرَ رِزْقِكم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿رِزْقَكُمْ﴾، أي: المطرَ؛ كما قال تعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]. وقولُه: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: بقوْلِكم: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٣).

وقال الرازي: (تَجعلونَ شُكْرَ النِّعَمِ أنَّكم تَقولونَ: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا! وهذا عليه أكثرُ المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٤).

وقال ابن الجوزي: (وتَجعلونَ شُكرَ رِزقِكم تكذيبَكم. قاله الأكثَرونَ؛ وذلك أنَّهم كانوا يُمطَرونَ، فيَقولون: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا!). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٩).

وقال ابن القيِّم: (ومِن بَعضِ معنى الآيةِ قَولُهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا، فهذا يَصلحُ أن تَدُلَّ عليه الآيةُ ويُرادَ بها، وإلَّا فمعناها أوسَعُ منه وأعَمُّ وأعلى. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٣٦).

وقيل: تَجعَلونَ شُكرَ اللهِ على ما رزَقَكم تكذيبَ رُسُلِه والكُفرَ به. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: وتَجعَلون حظَّكم ونصيبَكم مِن القرآنِ أنَّكم تُكَذِّبون: الثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٢).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: الحَسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٢).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿رِزْقَكُمْ﴾: الرِّزقُ هو العَطاءُ، والمرادُ به هنا ما هو أعَمُّ مِن المطرِ؛ فيَشملُ معنيَين:

الأوَّل: أنَّ المرادَ به رِزقُ العِلمِ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]، أي: تَخافونَهم فتُداهِنونَهم، وتَجعَلون شُكرَ ما رزَقَكم اللهُ به مِن العِلمِ والوحيِ أنَّكم تُكَذِّبون به، وهذا هو ظاهرُ سياقِ الآيةِ.

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالرِّزقِ المطرُ، وقد... صحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما في تفسيرِ الآيةِ: أنَّ المرادَ بالرِّزقِ المطَرُ، وأنَّ التَّكذيبَ به نِسبتُه إلى الأنواءِ...

والقاعدةُ في التَّفسيرِ: أنَّ الآيةَ إذا كانت تحتمِلُ المعنيَينِ جميعًا بدونِ مُنافاةٍ، تُحمَلُ عليهما جميعًا، وإن حصَل بيْنَهما مُنافاةٌ طُلِب المُرَجِّحُ. =

قال تعالى: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ * وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

= ومعنى الآيةِ: أنَّ اللهَ يوبِّخُ هؤلاء الَّذين يَجعلون شُكرَ الرِّزقِ التَّكذيبَ والاستِكبارَ والبُعدَ؛ لأنَّ شُكرَ الرِّزقِ يكونُ بالتَّصديقِ والقَبولِ والعمَلِ بطاعةِ المُنعِمِ...، سواءٌ قُلْنا: المرادُ بالرِّزقِ المطرُ الَّذي به حياةُ الأرضِ، أو قُلْنا: إنَّ المرادَ به القرآنُ الَّذي به حياةُ القُلوبِ؛ فإنَّ هذا مِن أعظَمِ الرِّزقِ؛ فكيف يليقُ بالإنسانِ أن يُقابِلَ هذه النِّعمةَ بالتَّكذيبِ؟!). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ١٩).

وجوَّز الرَّازيُّ أن يكونَ المعنى: تَخافون أنَّكم إن صدَّقتُم ومَنعْتُم ضُعَفاءَكم عن الكُفرِ يَفوتُ عليكم مِن كَسْبِكم ما تَربَحونَه بسَبَبِهم، فتَجعلونَ رِزقَكم أنَّكم تُكَذِّبونَ الرُّسُلَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: تَجعَلونَ شُكرَ اللهِ على رِزْقِه إيَّاكم أن تُكَذِّبوا بقُدرتِه على إعادةِ الحياةِ؛ لأنَّهم عَدَلوا عن شُكرِ اللهِ تعالى فيما أنعَمَ به عليهم، فاستَنقَصوا قُدرتَه على إعادةِ الأجسامِ، ونَسَبوا الزَّرعَ لأنفُسِهم، وزَعَموا أنَّ المطَرَ تُمطِرُه النُّجومُ المُسَمَّاةُ بالأنواءِ؛ فلذلك قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلت في قَولِهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، أي: لأنَّهم يقولونَه عن اعتقادِ تأثيرِ الأنواءِ في خَلْقِ المطَرِ، فمعنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ: نَزَلت في قَولِهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا- أنَّه مُرادٌ مِن معنى الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٠).

قال ابن القيِّم: (إنَّ اللهَ تعالى تأذَّنَ أنَّه لا بدَّ أن يَزيدَ الشَّكورَ مِن نِعَمِه، ولا بدَّ أن يَسْلُبَها مَن لم يَشكُرْها، فلمَّا وضَعوا الكفرَ والتَّكذيبَ مَوضِعَ الشُّكرِ والإيمانِ، جعَلوا رزقَهم نفْسَه تكذيبًا؛ فإنَّ التَّصديقَ والشُّكرَ لَمَّا كانا سببَ زيادةِ الرِّزقِ، وهما رِزقُ القلبِ حقيقةً، فهؤلاء جعَلوا مكانَ هذا الرِّزقِ التَّكذيبَ والكفرَ، فجعَلوا رِزقَهم التَّكذيبَ، وهذا المعنى هو الَّذي حامَ حوْلَه مَن قال: التَّقديرُ: وتَجعَلون شُكرَ رِزقِكم أنَّكم تُكَذِّبون). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

وقال القرطبي: (إنَّما صلَح أن يُوضَعَ اسمُ الرِّزق مكانَ شُكرِه؛ لأنَّ شُكرَ الرِّزقِ يَقتضي الزِّيادةَ فيه، فيكونُ الشُّكرُ رِزقًا على هذا المعنى، فقيل: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾، أي: شُكرَ رِزقِكم الَّذي لو وُجِد منكم لَعادَ رِزقًا لكم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨).

وعن زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّى بنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إِثْرِ السَّماءِ[١] كانت مِنَ اللَّيلِ، فلمَّا انصَرَف أقبَلَ على النَّاسِ فقال: هل تَدْرُونَ ماذا قال رَبُّكم؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: قال: أصبَحَ مِن عِبادي مُؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه فذلك مُؤمِنٌ بي، كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بنَوءِ[٢] كذا وكذا فذلك كافِرٌ بي، مُؤمِنٌ بالكوكَبِ))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَوا إلى ما قال رَبُّكم؟! قال: ما أنعَمْتُ على عبادي مِن نِعمةٍ إلَّا أصبَحَ فَريقٌ منهم بها كافِرينَ، يقولونَ: الكواكِبُ، وبالكواكِبِ!))[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ فوصَفه بما يَقتَضي حُسْنَه، وكَثرةَ خَيرِه ومَنافعِه، وجلالتَه؛ فإنَّ الكريمَ هو البَهيُّ، الكثيرُ الخَيرِ، العَظيمُ النَّفعِ، وهو مِن كلِّ شيءٍ أحسَنُه وأفضَلُه، واللهُ سُبحانَه وَصَف نفْسَه بالكَرَمِ، ووَصَف به كلامَه، ووَصَف به عرْشَه، ووَصَف به ما كَثُرَ خيْرُه وحَسُنَ منْظَرُه مِن النَّباتِ وغيرِه؛ ولذلك فَسَّرَ السَّلَفُ «الكريمَ» بالحَسَنِ. وبالجُملةِ فالكريمُ: الَّذي مِن شأنِه أنْ يُعطيَ الخَيرَ الكثيرَ بسُهولةٍ ويُسْرٍ، وضِدُّهُ: اللَّئيمُ: الَّذي لا يُخرِجُ خيْرَه النَّزْرَ إلَّا بعُسْرٍ وصُعوبةٍ، وكذلك الكريمُ في النَّاسِ واللَّئيمُ[٥]، والقُرآنُ يُعطي

(١) السَّمَاءِ: أي: المَطَر. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٦٠).

(٢) بنَوءِ كذا: أي: بنَجْمِ كذا، والنَّوءُ عندَ العَرَبِ: سُقوطُ نَجمٍ مِن نُجومِ المنازِلِ الثَّمانيةِ والعِشرينَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٩).

(٣) رواه البخاريُّ (١٠٣٨)، ومسلمٌ (٧١) واللَّفظُ له.

(٤) رواه مسلم (٧٢).

(٥) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٥).

أهلَه مِن الخَيراتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ والجِسْميَّةِ والقَلبيَّةِ؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ فهو سِلاحٌ لِمَن تمسَّكَ به، ولكنْ يَحتاجُ إلى أنْ نتمَسَّكَ به بالقَولِ والعَمَلِ والعَقيدةِ، فلا بُدَّ أنْ يُصَدِّقَ العَقيدةَ العَمَلُ؛ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَد الجَسَدُ كلُّه، ألَا وهي القَلبُ))[(١)]، ووَصَفَ اللهُ القرآنَ في آيةٍ أُخرى بأنَّه مَجيدٌ، والمَجْدُ صِفةُ العَظَمةِ والعِزَّةِ والقُوَّةِ، والقُرآنُ جامِعٌ بيْنَ الأمْرَينِ: فيه قُوَّةٌ وعَظَمةٌ، وكذا خَيراتٌ كثيرةٌ وإحسانٌ لِمَن تمسَّكَ به[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يَجِبُ علينا أنْ نَعمَلَ به؛ لأنَّ الَّذي أنزَلَه هو الرَّبُّ المُطاعُ الخالِقُ الرَّازِقُ الَّذي يَجِبُ أنْ نُطيعَه بما أمَرَ، وننتهيَ عمَّا نهى عنه وزَجَرَ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ إنكارٌ على مَن سَمِعَ أحَدًا يتكَلَّمُ في القُرآنِ بما لا يَليقُ، ثمَّ لا يُجاهِرُه بالعَداوةِ[(٤)]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أنَّ الواجِبَ على مَنْ آمَنَ بأنَّه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأنَّه قرآنٌ كريمٌ، وأنَّه لا يَمَسُّه إلَّا المطهَّرونَ- الواجِبَ أنْ يُصارِحَ ويُصَرِّحَ، ولا يُدْهِنَ، وقد قال اللهُ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، ولكنْ هذا ليس بحاصِلٍ، فالواجِبُ على المؤمِنِ أنْ يَبرُزَ بدينِه، ويَفتَخِرَ به، ويُظهِرَه، بخِلافِ ما عليه كثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ مع الأسفِ؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩) من حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضيَ اللهُ عنهما.

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٠).

تَجِدُ الرَّجُلَ منهم إذا قام ليصَلِّيَ يَستحي أنْ يُصَلِّيَ، ورُبَّما يُداهِنُ ويُؤَخِّرُ الصَّلاةَ عن وقتِها؛ موافَقةً لهؤلاء الَّذين لا يُصَلُّونَ! وهذا غلَطٌ عظيمٌ، بلِ الواجبُ أنْ يكونَ الإنسانُ صَريحًا، فلا يُداهِنَ في دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بيانُ أنَّ ما أصاب العِبادَ مِن خَيرٍ فلا يَنبغي أن يَرَوه مِن قِبَلِ الوَسائِطِ الَّتي جَرَت العادةُ بأن تكونَ أسبابًا، بل ينبغي أن يَرَوه مِن قِبَلِ الله تعالى، ثمَّ يُقابِلوه بشُكرٍ إنْ كان نِعمةً، أو صَبرٍ إن كان مَكروهًا؛ تعَبُّدًا له تعالى وتذَلُّلًا(٢).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تَجعَلونَ عَطاءَ اللهِ إيَّاكم تَكذيبًا له، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ومِن ذلك أنْ يَنسُبَ الإنسانُ نِعمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى السَّبَبِ مُتناسيًا المُسَبِّبَ سُبحانَه وتعالى، كقَولِه مثلًا: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، فيَنْسُبُ المطرَ إلى النَّوءِ لا إلى الخالقِ عزَّ وجلَّ، فهذا نَوعٌ مِن الشِّركِ(٣)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ تَنبيهٌ على فَضيلةِ القُرآنِ لِيَتدَبَّروه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠).

قال ابن عثيمين: (نِسبةُ المطرِ إلى النَّوءِ تَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١- نِسبةُ إيجادٍ، وهذه شِركٌ أكبَرُ.

٢- نِسبةُ سببٍ، وهذه شِركٌ أصغَرُ.

٣- نِسبةُ وقتٍ، وهذه جائزةٌ، بأن يريدَ بقولِه: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا؛ أي: جاءنا المطرُ في هذا النَّوءِ، أي: في وقتِه). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ٣١).

فإنَّه ليس بشِعرٍ ولا سِحرٍ ولا كِهانةٍ، كما زَعَموا[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ مِن إقسامِه سُبحانَه مع أنَّه صادقٌ بلا قَسَمٍ؛ لأنَّ القَسَمَ إنْ كان لقَومٍ يؤمِنون به ويُصَدِّقون كلامَه فلا حاجةَ إليه، وإنْ كان لقَومٍ لا يُؤمِنونَ به فلا فائدةَ منه؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]؟

الجوابُ: أنَّ فائدةَ القَسَمِ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ هذا أُسلوبٌ عربيٌّ لتأكيدِ الأشياءِ بالقَسَمِ، وإنْ كانت مَعلومةً عندَ الجميعِ، أو كانت مُنكَرةً عندَ المخاطَبِ، والقرآنُ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ.

الثَّاني: أنَّ المؤمِنَ يَزدادُ يقينًا مِن ذلك، ولا مانِعَ مِن زيادةِ المؤكِّداتِ الَّتي تَزيدُ في يقينِ العَبدِ؛ قال تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى يُقْسِمُ بأمورٍ عظيمةٍ دالَّةٍ على كَمالِ قدرتِه وعَظَمتِه وعِلْمِه، فكأنَّه يُقيمُ في هذا المُقسَمِ به البَراهينَ على صِحَّةِ ما أقسَمَ عليه بواسِطةِ عِظَمِ ما أقسَمَ به.

الرَّابعُ: التَّنويهُ بحالِ المُقسَمِ به؛ لأنه لا يُقسَمُ إلَّا بشَيءٍ عَظيمٍ، وهذانِ الوَجهان لا يَعودانِ إلى تصديقِ الخَبَرِ، بل إلى ذِكْرِ الآياتِ الَّتي أقسَمَ بها تَنويهًا له بها، وتنبيهًا على عِظَمِها.

الخامسُ: الاهتِمامُ بالمُقسَمِ عليه، وأنَّه جديرٌ بالعِنايةِ والإثباتِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذه الآيَةَ تَقتَضي أنَّه لم يُقسِمْ بهذا القَسَمِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يدُلُّ على خِلافِ ذلك، فما الجوابُ؟

الجوابُ على وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ «لا» النَّافيةَ يَتعَلَّقُ نَفيُها بكَلامِ الكُفَّارِ، فمعناها إذَنْ: ليس الأمرُ كما يَزعُمُه الكُفَّارُ المُكَذِّبونَ للرَّسولِ، وعليه فقَولُه: ﴿أُقۡسِمُ﴾ إثباتٌ مُؤتَنَفٌ.

الثَّاني: أنَّ لَفظةَ «لا» صِلةٌ، وهذا على عادةِ العَرَبِ؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَت «لا» من غيرِ قَصدِ مَعناها الأصليِّ، بل لمُجَرَّدِ تَقويةِ الكلامِ وتَوكيدِه، كقَولِه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] يعني: أن تتَّبِعَني[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ مُناسَبةٌ بيْنَ ذِكرِ النُّجومِ في القَسَمِ وبيْنَ المُقْسَمِ عليه -وهو القُرآنُ- مِن وُجوهٍ:

منها: أنَّ النُّجومَ جَعَلَها اللهُ يُهتدَى بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ، وآياتُ القُرآنِ يُهتدَى بها في ظُلُماتِ الجَهلِ والغَيِّ، فتلك هدايةٌ في الظُّلماتِ الحِسِّيَّةِ، وآياتُ القُرآنِ هِدايةٌ في الظُّلُماتِ المَعنويَّةِ، فجَمَعَ بيْنَ الهدايتَينِ. معَ ما في النُّجومِ مِن الرُّجومِ للشَّياطينِ، وفي آياتِ القُرآنِ من رُجومِ شياطينِ الإنسِ والجِنِّ.

والنجومُ آياتُه: المشهودةُ المُعايَنةُ، والقرآنُ آياتُه: المَتلوَّةُ السَّمعيَّةُ، معَ ما في مَواقِعِها عندَ الغُروبِ مِن العِبرةِ والدَّلالةِ على آياتِه القُرآنيَّةِ ومَواقِعِها عندَ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٩، ٢٦٣).
ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٩٧).

النُّزولِ[١].

٥- تأمَّلْ جُمَلَ القَسَمِ الَّتي في القُرآنِ، المُصَدَّرَةَ بحَرفِ النَّفيِ: كيفَ تجِدُ المُقْسَمَ عليه مَنفيًّا ومُتَضَمِّنًا للنَّفيِ، ولا يخرِمُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾؛ فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ بهذا القَسَمِ نَفيَ ما قاله الكُفَّارُ في القُرآنِ مِن أنَّه شِعرٌ أو كِهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلينَ، صَدَّرَ القَولَ بأداةِ النَّفيِ، ثمَّ أثبَتَ له خِلافَ ما قالوه، فتَضمَّنتِ الآيةُ معنى: ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ، ولكِنَّه قُرآنٌ كَريمٌ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أنَّ القُرآنَ لا يَهُونُ بكَثرةِ التِّلاوةِ؛ لأنَّ الكلامَ متى أُعيدَ وكُرِّرَ استُهينَ به، والقُرآنُ يكونُ إلى آخِرِ الدَّهرِ ولا يَزدادُ إلَّا عِزًّا[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وقولِه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] أنَّ القرآنَ حروفٌ وكلماتٌ؛ لأنَّ اللهَ أَخبرَ بأنه محفوظٌ في صدورِ أهلِ العلمِ، ومكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ ولا يُحفَظُ ويُكتَبُ إلَّا ما هو حروفٌ وكلماتٌ، والقرآنُ كلامُ اللهِ حروفُه ومعانيه[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أنَّه مِن كَرَمِ هذا القرآنِ العَظيمِ كَونُه مِن المَلِكِ الأعلى إلى خَيرِ الخَلقِ بسِفارةِ رُوحِ القُدُسِ، مُشتَمِلًا على أُصولِ العُلومِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٢٧، ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٢).

المُهِمَّةِ في إصلاحِ المَعاشِ والمَعادِ، وبِلِسانِ العَرَبِ -الَّذين اتَّفَقت عُلَماءُ الفِرَقِ على أنَّ لِسانَهم أفصَحُ الألسُنِ-، وعلى وَجهٍ أعجَزَ العَرَبَ كافَّةً، وبَقيَّةَ الخَلقِ أجمَعينَ[1]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ دَلالةٌ مِن أظهرِ الأدِلَّةِ على نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّ هذا القُرآنَ جاء مِن عِندِ اللهِ تعالى، وأنَّ الَّذي جاء به رُوحٌ مُطَهَّرٌ، فما للأرواحِ الخَبيثةِ عليه سَبيلٌ، وأنَّ الآيةَ أُختُ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾[2] [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ تفضيلٌ للقُرآنِ على أفرادِ نَوعِه مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مثل التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، وفَضْلُه عليها: بأنَّه فاقها في استيفاءِ أغراضِ الدِّينِ، وأحوالِ المَعاشِ والمَعادِ، وإثباتِ المعتَقَداتِ بدَلائلِ التَّكوينِ، والإبلاغِ في دَحْضِ الباطِلِ دَحْضًا لم يَشتَمِلْ على مِثْلِه كِتابٌ سابِقٌ -وخاصَّةً الاعتقادَ-، وفي وُضوحِ معانيه، وفي كثرةِ دَلالتِه مع قِلَّةِ ألفاظِه، وفي فصاحتِه، وفي حُسنِ آياتِه، وحُسنِ مواقِعِها في السَّمعِ، وذلك مِن آثارِ ما أراد اللهُ به مِن عُمومِ الهدايةِ به، والصَّلاحيةِ لكُلِّ أمَّةٍ ولكُلِّ زَمانٍ؛ فهذا وصْفٌ للقُرآنِ بالرِّفعةِ على جميعِ الكُتُبِ حَقًّا، لا يستطيعُ المخالِفُ طَعنًا فيه[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يَمَسُّ المُصحَفَ إلَّا طاهِرٌ؛ لأنَّه إذا كانت تلك الصُّحُفُ لا يَمَسُّها إلَّا المُطهَّرونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٣).

لكَرامتِها على اللهِ، فهذه الصُّحُفُ أَولى ألَّا يَمَسَّها إلَّا طاهِرٌ[(١)]، فدلَّت الآيةُ بتَنبيهِها على أنَّه لا يجوزُ أن يَمَسَّ القُرآنَ إلَّا طاهِرٌ؛ ولهذا قيل: إنَّ الآيةَ خَبَرٌ بمعنى النَّهيِ، أي: لا يَمَسَّ القُرآنَ إلَّا طاهِرٌ[(٢)].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يُدرِكُ مَعانيَ القُرآنِ ولا يَفهَمُه إلَّا القُلوبُ الطَّاهِرةُ، وحَرامٌ على القَلبِ المُتلوِّثِ بنَجاسةِ البِدَعِ والمُخالَفاتِ أنْ يَنالَ مَعانيَه، وأنْ يَفهَمَه كما ينبغي؛ قال البُخاريُّ في صَحيحِه في هذه الآيةِ: «لا يَجِدُ طَعْمَه ونفْعَه إلَّا مَنْ آمَنَ به»[(٣)]، وهذا أيضًا مِن إشارةِ الآيةِ وتَنبيهِها، وهو أنَّه لا يَلْتَذُّ به وبقِراءتِه وفَهْمِه وتدَبُّرِه إلَّا مَن شَهِدَ أنَّه كلامُ اللهِ، تكلَّمَ بها حقًّا، وأَنزَلَه على رَسولِه وَحْيًا، ولا يَنالُ مَعانيَه إلَّا مَن لم يكُنْ في قلْبِه حَرَجٌ منه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[(٤)]! وقد قيل: إنَّه لا يَبلُغُ حقائِقَ مَعرفةِ القُرآنِ إلَّا مَن يُطَهِّرُ نفْسَه مِن دَرَنِ الفَسادِ والجَهالاتِ والمُخالَفاتِ[(٥)]!

١٣- قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَتضَمَّنُ أُمورًا؛ أحدُها: أنَّه تعالى فوقَ خلْقِه كلِّهم، وأنَّ القرآنَ نَزَلَ مِن عندِه. والثَّاني: أنَّه تَكَلَّمَ به حقيقةً؛ لِقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

واتَّفَقت المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ على عدَمِ جوازِ مسِّ المصحفِ مِن غيرِ وُضوءٍ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٥٧)، ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (١/ ١٠٧)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٦٧)، ((الفروع)) لابن مفلح (١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ﴾ [آل عمران: ٩٣]) (٤/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٤٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٢٨).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولو كان غيرُه هو المتكلِّمَ به لَكان مِن ذلك الغَيرِ.

الأمرُ الثَّالثُ: ما تضمَّنَه قولُه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ رُبوبيَّتَه الكامِلةَ لِخَلْقِه تأبى أنْ يَترُكَهم سُدًى؛ لا يأمُرُهم ولا ينهاهُم، ولا يُرشِدُهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُحَذِّرُهم ما يَضُرُّهم، بل يَترُكُهم هَمَلًا بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ! فمَن زَعَمَ ذلك لم يَقْدُرْ رَبَّ العالَمينَ قَدْرَه، ونَسَبَه إلى ما لا يَليقُ به تعالى. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[١] [المؤمنون: ١١٦].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ ليس بمَخلوقٍ؛ لأنَّه نَزَلَ مِنَ اللهِ تعالى، فهو كَلامُه، وكَلامُه مِن صِفاتِه تعالى، وصِفاتُه غيرُ مَخلوقةٍ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ لجَميعِ الخَلْقِ؛ ففيه دَليلٌ على عُمومِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ مِن رَبِّهم، وإذا كان كذلك فهو الحَكَمُ بَيْنَهم، الحاكِمُ عليهم[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ نُزولَ القُرآنِ هو مِن كَمالِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، فإذا أُضيفَ إلى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٢، ٣] عُلِمَ أنَّ القُرآنَ رَحمةٌ للعِبادِ أيضًا، ورُبوبيَّةُ اللهِ تعالى مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، وكلُّ ما أمَرَ اللهُ به عبادَه أو نهاهم عنه فهو رَحمةٌ بهم[٥].

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٦ - ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، يُعرِبُ عن خِطابٍ مِن اللهِ تعالى مُوجَّهٍ إلى المُكذِّبين بالبعثِ القائلينَ: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]، انتُقِلَ به إلى التَّنويهِ بالقرآنِ؛ لأنَّهم لَمَّا كذَّبوا بالبعثِ، وكان إثباتُ البعثِ مِن أهمِّ ما جاء به القرآنُ، وكان ممَّا أغْراهُم بتَكذيبِ القرآنِ اشتِمالُه على إثباتِ البعثِ الَّذي عَدُّوه مُحالًا، زِيادةً على تَكذيبِهم به في غَيرِ ذلك ممَّا جاء به مِن إبطالِ شِرْكِهم وأكاذيبِهم؛ فلمَّا قامَتِ الحُجَّةُ على خَطَئِهم في تَكذيبِهم، فقد تَبيَّنَ صِدقُ ما أنْبَأَهم به القرآنُ، فثبَتَ صِدْقُه؛ ولذلك تَهيَّأَ المقامُ للتَّنويهِ بشَأْنِه[١].

- والفاءُ لتَفريعِ القسَمِ على ما سبَقَ مِن أدلَّةِ وُقوعِ البَعثِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] إخبارٌ بيومِ البعثِ، وإنذارٌ لهم به، وهم قد أنْكَروه، ومِن أجْلِ استِحالتِه في نَظَرِهم القاصرِ كذَّبوا القرآنَ، وكذَّبوا مَن جاء به، ففُرِّعَ على تَحقيقِ وُقوعِ البعثِ والإنذارِ به تَحقيقُ أنَّ القرآنَ مُنزَّهٌ عن النَّقائصِ، وأنَّه تنزيلٌ مِن اللهِ، وأنَّ الَّذي جاء به مُبلِّغٌ عن اللهِ؛ فتَفريعُ القسَمِ تَفريعٌ مَعنويٌّ باعتبارِ المُقسَمِ عليه، وهو أيضًا تَفريعٌ ذِكريٌّ باعتبارِ إنشاءِ القسَمِ إنْ قالوا لك: أَقْسِمْ بمَواقعِ النُّجومِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمعْنى: أُقسِمُ، و(لا) مَزيدةٌ للتَّوكيدِ، وأصْلُها نافيةٌ تدُلُّ على أنَّ القائلَ لا يُقدِمُ على القسَمِ بما أقسَمَ به خَشيةَ سُوءِ عاقبةِ الكذِبِ في القسَمِ، وبمعْنى أنَّه غيرُ مُحتاجٍ إلى القسَمِ؛ لأنَّ الأمرَ واضحُ الثُّبوتِ، ثمَّ كثُرَ هذا الاستِعمالُ فصارَ مُرادًا به تأْكيدُ الخبرِ، فساوى القسَمَ؛ بدليلِ قولِه عَقِبَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، وعلى الوجْهينِ فهو إدماجٌ[1] للتَّنويهِ بشأْنِ ما لو كان مُقسِمًا لأقسَمَ به. وعلى الوجْهِ الثَّاني يكونُ قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ﴾ بمعْنى: وإنَّ المذكورَ لَشيءٌ عظيمٌ يُقسِمُ به المُقسِمون، فإطلاقُ (قَسَم) عليه مِن إطلاقِ المصدرِ وإرادةِ المفعولِ، كالخلْقِ بمعْنى المَخلوقِ. ويجوزُ أنْ يكونَ (لا) حرْفًا مُستقِلًّا عن فِعلِ ﴿أُقۡسِمُ﴾، واقعًا جَوابًا لكلامٍ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه ما بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾، ردًّا على أقوالِهم في القرآنِ: إنَّه شِعرٌ، أو سِحرٌ، أو أساطيرُ الأوَّلين، أو قولُ كاهنٍ، ويكونَ قولُه: ﴿أُقۡسِمُ﴾ استِئنافًا، فمَعنى الكلامِ مع فاءِ التَّفريعِ: أنَّه تفرَّعَ على ما سطَعَ مِن أدلَّةِ إمكانِ البعثِ ما يُبطِلُ قولَكم في القرآنِ، فهو ليس كما تَزعُمون، بلْ هو قرآنٌ كريمٌ... إلخ[2].

- وذِكرُ (مَواقعِ النُّجومِ) تنويهٌ بها، وتَعظيمٌ لأمْرِها؛ لدَلالةِ أحوالِها على دَقائقِ حِكمةِ اللهِ تعالى في نِظامِ سَيرِها، وبدائعِ قُدرتِه على تَسخيرِها[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراضٌ في اعتراضٍ، قُصِدَ به

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١).

المُبالَغةُ في تَحقيقِ مَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ وتأكيدِه؛ حيث اعتُرِضَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ بيْنَ القسَمِ وجَوابِه الَّذي هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، وبقولِه تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ بيْنَ المَوصوفِ وصِفتِه[1]، فجاء هذا الاعتراضُ في ضِمْنِ هذا الاعتراضِ ألطَفَ شَيءٍ وأحسَنَه مَوقِعًا، وأحسَنُ ما يَقَعُ هذا الاعتِراضُ إذا تَضَمَّنَ تأكيدًا أو تَنبيهًا أو احتِرازًا[2].

- والعِلمُ الَّذي اقْتَضَى شَرْطُ (لو) الامتِناعيَّةِ عدَمَ حُصولِه لهم -إنْ كان ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدًا على القسَمِ- هو العِلمُ التَّفصيليُّ بأحوالِ مَواقعِ النُّجومِ؛ فإنَّ المُشرِكين لا يَخْلُون مِن عِلمٍ إجماليٍّ مُتفاوِتٍ بأنَّ في تلك المواقعِ عِبرةً للنَّاظِرينَ، أو نُزِّلَ ذلك العِلمُ الإجماليُّ مَنزِلةَ العدَمِ؛ لأنَّهم بكُفْرِهم لم يَجْرُوا على مُوجَبِ ذلك العِلمِ مِن تَوحيدِ اللهِ، فلو عَلِموا ما اشتَمَلَت عليه أحوالُ مَواقعِ النُّجومِ مِن مُتعلِّقاتِ صِفاتِ اللهِ تعالى، لَعَلِموا أنَّها مَواقعُ قُدْسيَّةٌ لا يَحلِفُ بها إلَّا بارٌّ في يَمينِه، ولكنَّهم بمَعزِلٍ عن هذا العِلمِ؛ فإنَّ جَلالةَ المُقسَمِ به ممَّا يَزَعُ الحالِفَ عن الكذبِ في يَمينِه[3].

- وجوابُ (لو) إمَّا محذوفٌ بالكليَّةِ؛ لأنَّه لا يتعلَّقُ بذِكرِه غرضٌ؛ إذ المقصودُ هو نفْيُ عِلْمِهم، أي: أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ، وإنَّه لقَسَمٌ عظيمٌ، ولكنَّكم لا تَعْلمونَ منزلتَه. وإمَّا أنْ يكونَ جوابُها مقدَّرًا، أي: لَعظَّمْتموه، ولآمنْتُم بما أقْسَمْنا عليه، لكنَّكم ما عظَّمتُموه ولا آمنْتُم، فعُلِم أنَّكم لا تَعْلمونَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٨٣).

- ومَفعولُ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ، أي: لو تَعلَمون عظَمَته، أي: دَلائلَ عَظَمتِه. ولك أنْ تَجعَلَ فِعلَ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ مُنزَّلًا مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: لو كان لكم عِلمٌ، لَكِنَّكم لا تَتَّصِفون بالعِلمِ(١).

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ راجعٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ؛ لكَونِه مَعلومًا مُستحضَرًا لهم(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- جُملةُ ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩]، فهي تابِعةٌ لصِفةِ القرآنِ، أي: فبُلوغُه إليكم كان بتَنزيلٍ مِن اللهِ، أي: نزَّلَ به الملائِكةَ(٣).

- وسمَّاه باسمِ المَصدَرِ للمُبالَغةِ، ولأنَّ هذا المَصدَرَ أغلَبُ أحوالِه؛ ولذلك غَلَب عليه هذا الاسمُ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ * وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، الفاءُ تَفريعٌ على ما سِيقَ لأجْلِه الكلامُ الَّذي قبْلَها في غرَضِه مِن التَّنويهِ بشأْنِ القرآنِ(٥).

- قولُه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ إشارةٌ إلى القرآنِ؛ لِمُناسَبةِ الانتِقالِ مِن التَّنويهِ بشأْنِ القرآنِ إلى الإنكارِ على المُكذِّبين به وتَوبيخِهم، فالتَّفريعُ على قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧).

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧] الآيَةَ، والعدولُ عن الإضمارِ إلى اسمِ الإشارةِ بقولِه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: أفبِه أنتُم مُدهِنون، إخراجٌ للكلامِ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لتَحصُلَ باسمِ الإشارةِ زيادةُ التَّنويهِ بالقرآنِ الَّذي ذُكِرَتْ نُعوتُه الجليلةُ المُوجِبةُ لإعظامِه وإجلالِه[١].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والإنكارِ، أي: كَلامُكم لا يَنْبغي إلَّا أنْ يكونَ مُداهَنةً، كما يُقالُ لأحدٍ قال كلامًا باطلًا: أتَهزَأُ؟! أي: قد نهَضَ بُرهانُ صِدقِ القرآنِ بحيث لا يُكذِّبُ به مُكذِّبٌ إلَّا وهو لا يَعتقِدُ أنَّه كذِبٌ؛ لأنَّ حُصولَ العلمِ بما قام عليه البرهانُ لا يَستطيعُ صاحبُه دفْعَه عن نفْسِه، فليس إصرارُكم على التَّكذيبِ بعْدَ ذلك إلَّا مُداهنةً لقَومِكم، تَخشَون إنْ صدَّقْتُم بهذا الحديثِ أنْ تَزولَ رِئاستُكم[٢].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ للاهتمامِ[٣].

- وصَوغُ الجُملةِ الاسميَّةِ في ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾؛ لأنَّ المُقرَّرَ عليه إدْهانٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ[٤].

- قولُه: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] عطْفَ الجُملةِ على الجُملةِ، فهي داخلةٌ في حيِّزِ الاستفهامِ ومُستقِلَّةٌ بمعْناها، والمعْنى: أفَتجْعَلون رِزقَكم أنَّكم تُكذِّبون؟! وهو تَفريعٌ على ما تَضمَّنَه الاستِدلالُ بتَكوينِ نسْلِ الإنسانِ، وخلْقِ الحَبِّ، والماءِ في المُزنِ، والنَّارِ مِن أعوادِ الاقتِداحِ؛ فإنَّ في مَجموعِ ذلك حُصولَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧، ٣٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُقوِّماتِ الأقواتِ، وهي رِزقٌ، والنَّسلُ رِزقٌ، يُقال: رُزِقَ فُلانٌ ولَدًا؛ لأنَّ الرِّزقَ يُطلَقُ على العطاءِ النَّافعِ، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ العاطفِ إنكاريٌّ[١].

- وإذ كان التَّكذيبُ لا يصِحُّ أنْ يُجعَلَ رِزقًا، تَعيَّنَ بدلالةِ الاقتضاءِ تَقديرُ مَحذوفٍ يُفيدُه الكلامُ، أي: شُكرَ رِزقِكم، أو نحْوه، أي: تَجعَلون شُكرَ اللهِ على رِزقِه إيَّاكم أنْ تُكذِّبوا بقُدرتِه على إعادةِ الحياةِ؛ لأنَّهم عَدَلوا عن شُكرِ اللهِ تعالى فيما أنْعَمَ به عليهم، فاسْتَنْقَصوا قُدرتَه على إعادةِ الأجسامِ، ونَسَبوا الزَّرعَ لأنفُسِهم، وزَعَموا أنَّ المطرَ تُمطِرُه النُّجومُ المُسمَّاةُ بالأنواءِ[٢]، وذلك على قولٍ.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٣٩، ٣٤٠).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٠٥).

الآيات (٨٢-٩٦)

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: أي: مَجْرى النَّفَسِ، وقيل: مجرَى الطَّعامِ[(١)].

﴿مَدِينِينَ﴾: أي: مَجْزيِّينَ مُحاسَبِينَ. وقيل: مَملوكينَ أذِلَّاءَ؛ مِن قَولِك: دِنْتُ له بالطَّاعةِ، وأصلُ (دين): يدُلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ، فالحسابُ والجزاءُ كِلاهما أمرٌ يُنْقادُ له[(٢)].

﴿فَرَوْحٌ﴾: أي: راحةٌ واستِراحةٌ وفَرَحٌ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ، وفُسحةٍ، واطِّرادٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

﴿وَرَيۡحَانٌ﴾: أي: رِزقٌ طَيِّبٌ. وقيل: هو النَّبتُ ذو الرَّائحةِ الجَميلةِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ، وفُسحةٍ، واطِّرادٍ، وأصلُ ذلك كلِّه الرِّيحُ[1].

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾: أي: دُخولٌ لها، ومُقاساةٌ لحَرِّها، وأصلُ (صلي): يدُلُّ على الإيقادِ بالنَّارِ، والجحيمُ: النَّارُ، وأصْلُ (جحم): عِظَمُ الحرارةِ وشِدَّتُها[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَ الاحتضارِ: فهلَّا إذا بَلَغَت رُوحُ المَيِّتِ حَلْقَه، وأنتم -أيُّها الحاضِرونَ عندَه- تَنظُرونَ إليه وهو في سَكَراتِ المَوتِ، ومَلائِكتُنا المُوكَّلونَ بقَبضِ رُوحِه أقرَبُ إليه منكم، ولكِن لا تَرَونَهم، فهلَّا إنْ كُنتُم -أيُّها المُكَذِّبونَ بالبَعثِ- غَيرَ مملوكينَ، ولا مُحاسَبينَ على أعمالِكم؛ هلَّا تَرجِعونَ رُوحَ المُحتَضَرِ إلى جَسَدِه إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعوى إنكارِ البَعثِ والحِسابِ!

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أحوالَ الطَّوائفِ الثَّلاثِ: المقرَّبينَ، وأصحابِ اليمينِ، والمكذِّبينَ الضَّالِّينَ، فيقولُ: فأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن المُقَرَّبينَ عِندَ اللهِ سُبحانَه تعالى، فله راحةٌ وسُرورٌ ورَحمةٌ، ورِزقٌ طَيِّبٌ وطِيبُ رائِحةٍ، وجَنَّةٌ يَتنَعَّمُ فيها؛ وأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن أصحابِ اليَمينِ، فيُقالُ له: سَلامٌ لك لأنَّك مِن أصحابِ اليَمينِ؛ وأمَّا إن كان المَيِّتُ مِنَ المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ، فله ضِيافةٌ من شَرابٍ شَديدِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤، ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و(٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

الحَرارةِ، ونارٌ يُقاسي حَرَّها.

إنَّ هذا الجَزاءَ المذكورَ لِمَن تَقَدَّمَ ذِكرُهم لَهُو أمرٌ ثابِتٌ لا شَكَّ في وُقوعِه؛ فنَزِّهْ ربَّك العَظيمَ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ اللهُ تعالى عليهم، وعَجَّب منهم في أن يَنسُبوا لِغَيرِه فِعلًا، أو يُكَذِّبوا له خبَرًا؛ سَبَّب عن ذلك -تحقيقًا لأنَّه لا فاعِلَ سِواه- قَولَه[1]:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾.

أي: فهلَّا إذا بَلَغت رُوحُ المَيِّتِ حَلْقَه حينَ خُروجِها مِن جَسَدِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٥٠).

ممَّن اختار أنَّ الحُلْقومَ هو مجرى الطَّعامِ: ابنُ عطيَّة، والسَّمينُ الحلبي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٥٧).

قال البقاعي: (﴿الْحُلْقُومَ﴾: وهو مَجرى الطَّعامِ في الحَلقِ، والحَلقُ: مَساغُ الطَّعامِ والشَّرابِ، مَعروفٌ، فكان الحُلْقومُ أَدنى الحَلقِ إلى جِهةِ اللِّسانِ؛ لأنَّ المِيمَ لِمُنقَطَعِ التَّمامِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٢).

وممَّن اختار أنَّ الحُلقومَ هو مجرى النَّفَسِ: الخازنُ، والنيسابوري، وابن عثيمين: يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٤٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنۡۚ رَاقٖ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ * وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠].

﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤﴾.

أي: وأنتم -أيُّها الحاضِرونَ عندَ المُحتَضَرِ- تَنظُرونَ إليه وهو في سَكَراتِ المَوتِ، ولا تَستَطيعونَ رَدَّ رُوحِه إلى مَوضِعِها(١).

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥﴾.

أي: ومَلائِكتُنا -الَّذين نُرسِلُهم إلى المُحتَضَرِ لِقَبضِ رُوحِه- أقرَبُ إليه منكم -أيُّها الحاضِرونَ عِندَه- ولكِن لا تَرَونَهم(٢).

= قال الأزهري: (والحُلْقومُ وهي الحُنْجورُ، وهو مَخْرَجُ النَّفَسِ، لا يَجْري فيه الطَّعامُ والشَّرابُ، والَّذي يجْري فيه الطَّعامُ والشَّراب يُقال له المَريءُ). ((تهذيب اللغة)) (٥/ ١٩٦). ويُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٤/ ٤٤).

وقال ابن أبي نصر: (والحُلْقومُ مَبدؤُه من أقْصَى الفَمِ، وهو مجْرى النَّفَسِ لا غيرُ). ((تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم)) (ص: ٧٥).

وفي ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٩٣): (الحُلْقومُ: تَجويفٌ خلْفَ تَجويفِ الفَمِ، وفيه سِتُّ فَتَحاتٍ: فَتْحةُ الفَمِ الخَلفيَّةُ، وفَتْحَتَا المَنخِرَينِ، وفتحَتا الأُذُنَينِ، وفتحةُ الحَنجرةِ، وهي مجْرى الطَّعامِ والشَّرابِ والنَّفَسِ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((شرح حديث النزول)) لابن تيميَّة (ص: ١٢٥-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

وقد دَلَّ سياقُ الآياتِ على أنَّ المرادَ بالآيةِ الملائِكةُ؛ فقولُه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذا القريبَ في المكانِ نفْسِه ولكن لا نُبصِرُه، وهذا يُعَيِّنُ أن يكونَ المرادُ قُربَ =

كما قال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النازعات: ١، ٢].

﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦﴾.

أي: فهلَّا إنْ كُنتُم -أيُّها المُكذِّبونَ بالبَعثِ- غَيرَ مقهورينَ مملوكينَ، ولا مُحاسَبينَ مَجْزيِّينَ بأعمالِكم(١).

= الملائكةِ؛ لاستِحالةِ ذلك في حقِّ الله تعالى. فاللهُ تعالى لو أراد قُرْبَ ذاتِه لم يُخَصَّ ذلك بهذه الحالِ، ولا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾؛ فإنَّ هذا إنَّما يُقالُ إذا كان هناك مَن يجوزُ أنْ يُبصَرَ في بَعضِ الأحوالِ، ولكِنْ نحن لا نُبصِرُه، والرَّبُّ تعالى لا يَراه في هذه الحالِ لا الملائِكةُ ولا البَشَرُ.

وأيضًا فإنَّ القُربَ مُقيَّدٌ بحالِ الاحتِضارِ، والَّذي يَحضُرُ الميتَ عند موتِه هم الملائكةُ.

وأيضًا فإنَّه قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾، فأخبَرَ عمَّن هو أقرَبُ إلى المُحتضَرِ مِن النَّاسِ الَّذين عِندَه في هذه الحالِ، ولا يجوزُ أنْ يرادَ به قُرْبُ الرَّبِّ الخاصُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ فإنَّ ذاك إنَّما هو قُربُه إلى مَن دعاه أو عَبَدَه، وهذا المُحتَضَرُ قد يكونُ كافِرًا أو فاجِرًا أو مُؤمِنًا أو مُقرَّبًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ * فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ * وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، ومَعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا المُكذِّب لا يَخُصُّه الرَّبُّ بقُرْبِه منه دونَ مَن حَوْلَه، وقد يكونُ حَوْلَه قومٌ مُؤمِنونَ، وإنَّما همُ الملائِكةُ الَّذين يَحضُرونَ عندَ المؤمِنِ والكافِرِ.

وممَّا يدُلُّ على ذلك أنَّه ذَكَره بصيغةِ الجَمعِ، فقال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾، وهذا كقَولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩]؛ فإنَّ مِثْلَ هذا اللَّفظِ إذا ذَكَرَه اللهُ تعالى في كتابِه دلَّ على أنَّ المرادَ أنَّه سُبحانَه يَفعَلُ ذلك بجُنودِه وأعوانِه مِن الملائِكةِ؛ فإنَّ صيغةَ «نحن» يقولُها المتبوعُ المُطاعُ العَظيمُ الَّذي له جُنودٌ يَتَّبِعون أمْرَه، وليس لأحدٍ جُندٌ يُطيعونَه كطاعةِ الملائِكةِ ربَّهم، وهو خالِقُهم وربُّهم؛ فكان لفظُ «نحن» هنا هو المناسِبَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٥٠٥ - ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير =

﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧﴾.

أي: هلَّا تَرجِعونَ رُوحَ المُحتَضِرِ إلى جَسَدِه إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعوى إنكارِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ[1]؟

= ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٢).

قال الرازي: (في ﴿مَدِينِينَ﴾ أقوالٌ؛ منهم مَن قال: المرادُ مَملوكينَ، ومنهم مَن قال: مَجزيينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ١٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَدِينِينَ﴾: أي: مَجزيِّينَ مُحاسَبينَ: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٢).

ونسَبَ الواحديُّ والبغويُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢).

وممَّن اختار أنَّ معنى مَدينينَ: مملوكينَ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن عطية، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٣).

قال الزمخشري: (ترتيبُ الآيةِ: فلولا ترجعونَها إذا بلَغَت الحلقومَ إنْ كنتُم غيرَ مدينينَ. و﴿فَلَوۡلَآ﴾ الثانيةُ مكرَّرةٌ للتوكيدِ، والضَّميرُ في ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ للنَّفسِ وهي الرُّوحُ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

قال ابن جرير: (جوابُ قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، وجوابُ قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ جوابٌ واحدٌ، وهو قولُه: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٥). ويُنظر: ((تفسير =

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ المُتوفَّى بعْدَ المماتِ، إثرَ بَيانِ حالِه عندَ الوفاةِ[1].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ بما ذُكِرَ على أنَّهم مُحاسَبونَ ومَجْزيُّونَ ومَملوكونَ؛ ذكَرَ طَبَقاتِهم[2].

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨﴾.

أي: فأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن المُقَرَّبينَ عِندَ اللهِ سُبحانَه تعالى[3].

﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩﴾.

﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَرُوحٌ﴾ بضَمِّ الرَّاءِ، أي: فله حياةٌ دائِمةٌ لا مَوتَ فيها. وقيل:

= القرطبي)) (١٧/ ٢٣١، ٢٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (معنى الكلامِ: قد أخبرَكم اللهُ بأنَّه يُجازي النَّاسَ على أفعالِهم؛ ولذلك فهو مُحْييهم بعْدَ موتِهم لإجراءِ الجَزاءِ عليهم، وقد دلَّكم على ذلك بانتِزاعِ أرواحِهم منهم قَهرًا، فلو كان ما تَزعُمونَ من أنَّكم غيرُ مَجزيِّينَ بعْدَ الموتِ، لَبَقِيَت الأرواحُ في أجسادِها؛ إذ لا فائِدةَ في انتِزاعِها منها بعْدَ إيداعِها فيها لولا حِكمةُ نَقْلِها إلى حياةٍ ثانيةٍ؛ لِيَجريَ جَزاؤُها على أفعالِها في الحياةِ الأُولى!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨).

قال ابنُ كثير: (هم الَّذين فَعَلوا الواجِباتِ والمُستَحَبَّاتِ، وتَرَكوا المحَرَّماتِ والمكروهاتِ وبَعضَ المُباحاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٣).

المعنى: تخرُجُ رُوحُه معها الرَّيحانُ. وقيل: فله رَحمةٌ(١).

٢- قِراءةُ: ﴿فَرَوْحٌ﴾ بفَتحِ الرَّاءِ، أي: فله بعْدَ مَوتِه راحةٌ. وقيل: رَحمةٌ ومَغفِرةٌ. وقيل: فَرَجٌ. وقيل: بَرْدٌ. وقيلَ: فَرَحٌ. وقيل: طِيبُ النَّسيمِ(٢).

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

أي: فله راحةٌ وسُرورٌ ورَحمةٌ، ورِزقٌ طَيِّبٌ وطِيبُ رائِحةٍ(٣).

---

(١) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧، ٣٤٨).
قال ابنُ جرير بعدَ أن ذكر الأقوالَ في الرَّوحِ، وأنَّ مِنهم مَن قال: هي الرَّاحةُ، ومنهم مَن قال: الفرَحُ، ومنهم مَن قال: الرَّحمةُ- قال: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ عندي: قَولُ مَن قال: عُنِيَ بالرَّوحِ: الفَرَحُ والرَّحمةُ والمَغفِرةُ، وأصْلُه مِن قَولِهم: وجَدْتُ رَوحًا: إذا وَجَد نَسيمًا رَوْحًا يَستريحُ إليه مِن كَرْبِ الحَرِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩). ويُنظر: ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٤٠).
وقال النَّحَّاسُ: (أمَّا ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ففي معناه ثلاثةُ أقوالٍ؛ منها أنَّه الرِّزقُ، ومنها أنَّه الرَّاحةُ، ومنها أنَّه الرَّيحانُ الَّذي يُشَمُّ). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٢٣٠).
ممَّن اختار أنَّ الرَّيحانَ المرادُ به الرِّزقُ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٢٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٣).
قال ابنُ جرير: (أمَّا الرَّيحانُ فإنَّه عِندي الرَّيحانُ الَّذي يُتلَقَّى به عندَ الموتِ، كما قال أبو =

عن أبي قَتادةَ بنِ رِبْعِيٍّ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم مُرَّ عليه بجِنازةٍ، فقال: مُستريحٌ ومُستراحٌ منه! قالوا: يا رَسولَ اللهِ، ما المُستريحُ والمُستراحُ منه؟ قال: العَبدُ المُؤمِنُ يَستريحُ مِن نَصَبِ الدُّنيا وأذاها إلى رَحمةِ اللهِ، والعَبدُ الفاجِرُ يَستريحُ منه العِبادُ والبِلادُ، والشَّجَرُ والدَّوابُّ!))[(١)].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهمُ الشَّمْسُ، معَهم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٍ[(٢)] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ علَيه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغْفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسِيلُ كَما تَسِيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ،

= العاليةِ والحَسَنُ ومَن قال في ذلك نحوَ قَولِهما؛ لأنَّ ذلك الأغلَبُ والأظهَرُ مِن معانيه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ -أي أنَّ الرَّيحانَ الرِّزقُ، وأيضًا النَّبتُ طيِّبُ الرَّائحةِ-: البِقاعي، فقال: ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي: رِزقٌ عظيمٌ، ونباتٌ حسَنٌ بهِجٌ، وأزاهيرُ طيِّبةُ الرَّائحةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٥).

وذكر ابنُ عثيمينَ أنَّ القولَ بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ كلُّ ما يسُرُّ النَّفْسَ، وما فيه راحتُها ولَذَّتُها من مأكولٍ، ومَشروبٍ، ومَلبوسٍ، ومنكوحٍ، ومَشمومٍ- هو أشمَلُ الأقوالِ، فتُحمَلُ الآيةُ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٣).

وقال ابنُ كثيرٍ -بعدَ أن ذكَر بعضَ الأقوالِ في الرَّوحِ والرَّيحانِ-: (وكلُّ هذه الأقوالِ مُتقاربةٌ صحيحةٌ؛ فإنَّ مَن مات مُقرَّبًا حصَل له جميعُ ذلك مِن الرَّحمةِ والرَّاحةِ والاستِراحةِ، والفرَحِ والسُّرورِ والرِّزقِ الحسَنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٩).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥١٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٥٠).

(٢) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفَةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها، فيَجْعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ، وفي ذلك الحَنُوطِ، ويَخْرُجُ مِنها كأَطْيَبِ نَفْحةِ[١] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماءِ السَّابِعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ[٢]، وأعيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي مِنها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنْها أُخْرِجُهم تارَةً أُخْرى. فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، فيَأتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقولانِ له: مَن رَبُّك؟ فيَقولُ: رَبِّيَ اللهُ، فيَقولانِ له: ما دِينُك؟ فيَقولُ: دِينيَ الإسلامُ، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِث فيكُم؟ فيَقولُ: هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَقولانِ له: وما عِلْمُك؟ فيَقولُ: قرَأتُ كِتابَ اللهِ، فآمَنْتُ به وصَدَّقتُ، فيُنادي مُنادٍ في السَّماءِ: أنْ صَدَق عَبْدي، فأفْرِشوه مِنَ الجنَّةِ، وألبِسُوه مِن الجَنَّةِ، وافْتَحوا له بابًا إلى الجنَّةِ. فيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِها[٣] وطِيبِها، ويُفْسَحُ[٤] له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه. ويَأْتيه رجُلٌ حَسَنُ الوَجهِ، حَسنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّك؛ هذا يومُك الَّذي كنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ له: مَن أنتَ؛ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالخَيرِ؟ فيَقولُ: أنا عمَلُكَ الصَّالحُ، فيَقولُ: رَبِّ أقِمِ السَّاعةَ حتَّى أرجِعَ إلى أهْلي ومالي))[٥].

---

(١) النَّفحةُ: المرَّةُ من نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٢) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).

(٣) مِن رَوْحِها (بفتحِ الرَّاءِ): أي: مِن نَسيمِها. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٤) يُفسَحُ: أي: يُوسَّعُ له. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٥) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والطيالسي (٧٨٩)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ. =

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

أي: وله جَنَّةٌ يَتنَعَّمُ فيها[١].

عن كَعبِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّما نَسَمةُ المُؤمِنِ طائِرٌ يَعْلُقُ[٢] في شَجَرِ الجَنَّةِ حتَّى يَرجِعَه اللهُ تبارك وتعالى إلى جَسَدِه يومَ يَبعَثُه))[٣].

وعن عائِشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقاءَه، ومَن كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَه. فقُلتُ: يا نبيَّ اللهِ، أكراهيةَ المَوتِ؟ فكُلُّنا نَكرَهُ الموتَ! فقال: ليس كذلك، ولكِنَّ المؤمِنَ إذا بُشِّرَ برَحمةِ اللهِ ورِضوانِه وجَنَّتِه، أحَبَّ لِقاءَ اللهِ، فأحَبَّ اللهُ لِقاءَه، وإنَّ الكافِرَ إذا بُشِّرَ

= صَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحَسَّنه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠). وصَحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابن مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): إسنادُه مُتَّصِلٌ مَشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجماعةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

قال السمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: الرَّوحُ والرَّيحانُ في القَبرِ، وجَنَّةُ نَعيمٍ يومَ القيامةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٢).

وقال ابن القيِّم: (فيُعطَون هذه الثَّلاثَ في البَرزَخِ وفي المَعادِ الثَّاني). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤١).

(٢) يَعلُقُ -بضَمِّ اللَّامِ- أي: يتناوَلُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢١٦).

(٣) أخرجه النَّسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وأحمد (١٥٧٧٨) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٤٦٥٧)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٦١٤)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ١٢٥)، وابنُ القيم في ((الروح)) (١/ ٣٨١)، وابنُ حجر في ((توالي التأسيس)) (١/ ٢٠٣)، وابن باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٠/ ٩٧)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٧١).

بعَذابِ اللهِ وسَخَطِه، كَرِهَ لِقاءَ اللهِ، وكَرِهَ اللهُ لِقاءَه))[١].

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠﴾.

أي: وأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن أصحابِ اليَمينِ[٢].

﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١﴾.

أي: فيُقالُ له: سَلامٌ لك لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠).

قال السعدي: (﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ وهم الَّذين أدَّوُا الواجباتِ، وتَرَكوا المحَرَّماتِ، وإنْ حَصَل منهم التَّقصيرُ في بَعضِ الحُقوقِ الَّتي لا تُخِلُّ بتوحيدِهم وإيمانِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: معناه: فسَلامٌ لك أنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، ثمَّ حُذِفَتْ «أن»، واجتُزِئَ بدَلالةِ «مِن» عليها منها، بمعنى: فسَلِمْتَ مِن عذابِ اللهِ، وممَّا تَكْرَهُ؛ لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨١).

وقال السمعاني: (وقولُه تعالَى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ. وهذا قولُ كثيرٍ مِن المُفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٣).

وقال ابن كثير: (أي: تُبَشِّرُهم الملائكةُ بذلك، تقولُ لأحدِهم: سلامٌ لك، أي: لا بأسَ عليك، أنت إلى سلامةٍ، أنت مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠).

وقال ابن القيِّم: (﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ أي: ثبَت لك السَّلامُ، وحصَل لك، وعلى هذا فالخِطابُ لكلِّ مَن هو مِن هذا الضَّربِ، فهو خِطابٌ للجِنسِ، أي: فسلامٌ لك يا مَن هو مِن أصحابِ اليمينِ، =

= كما تقولُ: هنيئًا لك يا مَن هو منهم؛ ولهذا -واللهُ أعلَمُ- أتى بحرفِ «مِن» في قولِه: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ حالٍ، أي سلامٌ لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ، كما تقولُ: هنيئًا لك مِن أتْباعِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وحِزبِه، أي: كائنًا منهم، والجارُّ والمجرورُ بعدَ المعرفةِ ينتصِبُ على الحالِ، كما تقولُ: أحبَبْتُك مِن أهلِ الدِّينِ والعِلمِ، أي: كائنًا منهم، فهذا معنَى هذه الآيةِ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٤٧).

وقال أيضًا: (أكثَرُ المفسِّرينَ حامُوا حوْلَ المعنى وما ورَدوه، وقالوا أقوالًا لا يَخفى بُعْدُها عن المقصودِ، وإنَّما معنى الآيةِ واللهُ أعلَمُ: فسلامٌ لك أيُّها الرَّاحلُ عن الدُّنيا حالَ كَوْنِك مِن أصحابِ اليمينِ، أي: فسلامُه لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ الَّذين سَلِموا من الدُّنيا وأنكادِها، ومِن النَّارِ وعذابِها، فبُشِّرَ بالسَّلامةِ عندَ ارتحالِه مِن الدُّنيا وقُدومِه على الله، كما يُبشِّرُ المَلَكُ رُوحَه عندَ أخْذِها بقولِه: «أبْشِري برَوحٍ ورَيْحانٍ، ورَبٍّ غيرِ غَضْبانَ»، وهذا أوَّلُ البُشْرى الَّتي للمؤمنِ في الآخرةِ). ((حادي الأرواحِ إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٩٦).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَسَلَٰمٞ﴾ أي: سلامةٌ ﴿لَّكَ﴾ أي: أيُّها المُحتضَرُ ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: أنت مِن أصحابِ اليمينِ، والمعنى: فسلامٌ لك حالَ كَونِك مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

وقال الفَرَّاءُ: (قولُه: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: فذلك مُسلَّمٌ لك أنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، وأُلغيَتْ «أنَّ» وهو معناها، كما تقولُ: أنت مُصَدَّقٌ مُسافرٌ عن قليلٍ، إذا كان قد قال: إنِّي مسافرٌ عن قليلٍ...). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٣١). وذكره البخاريُّ بلَفظِه. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٤٦).

قال ابن حجر: (ويؤيِّدُ ما قال الفَرَّاءُ ما أخرَج ابنُ المُنذِرِ من طريقِ عَطاءٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: تأتيه الملائكةُ مِن قِبَلِ الله: سلامٌ لك مِن أصحابِ اليمينِ، تُخبِرُه أنَّه مِن أصحابِ اليمينِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٢٧).

وقيل: المعنى: فسَلامٌ لك يا صاحبَ اليمينِ مِن إخوانِك أصحابِ اليمينِ يُسلِّمون عليك. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والسمين الحلبي، والشربيني، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٢٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢).

قال السعدي: («فـ»يُقالُ لأحَدِهم: «سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» أي: سلامٌ حاصلٌ لك مِن =

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الصِّنفَينِ النَّاجِيَينِ؛ أتْبَعَهما الهالِكِينَ، فقال[1]:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾.

= إخوانِك أصحابِ اليمينِ، أي: يُسَلِّمون عليه ويُحَيُّونه عندَ وُصولِه إليهم ولقائِهم له. أو يُقالُ له: سلامٌ لك مِن الآفاتِ والبَلِيَّاتِ والعذابِ؛ لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، الَّذين سَلِموا مِن الذُّنوبِ الموبِقاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

وقيل: المعنى: سلامةٌ لك يا محمَّدُ منهم، فلَسْتَ تَرَى فيهم إلَّا ما تُحِبُّ مِن السَّلامةِ، فلا تَهْتَمَّ بهم، فإنَّهم يَسْلَمونَ مِن عذابِ اللهِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والثَّعلبيُّ، والبَغَوي، والرَّسْعَني، والقُرطبي، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٥).

قال ابن جُزَي: (﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ معنى هذا على الجملةِ: نجاةُ أصحابِ اليمينِ وسعادتُهم، والسَّلامُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى السَّلامةِ أو التَّحيَّةِ، والخِطابُ في ذلك يحتمِلُ أن يكونَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أو لأحدٍ مِن أصحابِ اليمينِ؛ فإنْ كان للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فالسَّلامُ بمعنى السَّلامةِ، والمعنى: سلامٌ لك يا محمَّدُ منهم، أي: لا ترى منهم إلَّا السَّلامةَ مِن العذابِ، وإن كان الخِطابُ لأحدٍ مِن أصحابِ اليمينِ فالسَّلامُ بمعنى التَّحيَّةِ، والمعنى: سلامٌ لك -أي: تحيَّةٌ لك- يا صاحبَ اليمينِ مِن إخوانِك، وهم أصحابُ اليمينِ، أي: يُسَلِّمون عليك، فهو كقولِه: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦]، أو يكونُ بمعنى السَّلامةِ، والتَّقديرُ: سلامةٌ لك يا صاحبَ اليمينِ، ثمَّ يكونُ قولُه: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ خبَرَ ابتِداءٍ مُضمَرٍ تقديرُه: أنت مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٨، ٤٣٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٧).

أي: وأمَّا إن كان المَيِّتُ مِنَ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، الضَّالِّينَ عن سَبيلِه[١].

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: فله ضِيافةٌ مِن شَرابٍ قد بَلَغ الغايةَ في الحَرارةِ[٢]!

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

أي: وله نارٌ شَديدةُ التَّوَقُّدِ يُقاسِي حَرَّها[٣].

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعَهمُ المُسُوحُ[٤]، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجْلِسَ عِندَ رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

قال ابنُ عثيمين: (﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالخَبَرِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في العَمَلِ، فلا تصديقَ ولا التِزامَ؛ فكُلُّ كافِرٍ داخِلٌ في هذه الآيةِ حتَّى المُنافِقُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧١٠)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٠).

قال ابنُ عجيبة: (هذا يدُلُّ على أنَّ الكافِرَ بمُجَرَّدِ مَوتِه يَدخُلُ النَّارَ. وقيل: معنى ذلك: ما يَجِدُه في القَبرِ مِن سَمومِ النَّارِ ودُخَانِها. ويحتمِلُ: أنَّ الآيةَ لا تَختَصُّ بعالَمِ البَرزخِ، بل تَعُمُّ البَرْزَخَ وما بَعْدَه). ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣٠٥).

(٤) المُسوحُ: جمعُ المِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِن. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٩).

إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفرَّقُ في جسَدِه، فيَنتزِعُها كما يُنتزَعُ السَّفُّودُ[١] مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيأْخُذُها، فإذا أخَذَها لَم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفَةَ عَينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُجُ مِنها كأنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفْلى، فتُطْرَحُ رُوحُه طَرحًا. ثمَّ قرَأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، ويأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن ربُّك؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما دينُك؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ كَذَب، فأفْرِشوا له مِنَ النَّارِ، وافْتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيَأتيهِ مِنْ حَرِّها، وسَمُومِها، ويُضيَّقُ عليه قَبرُه حتَّى تَختَلِفَ فيه أَضلاعُه، ويأتيه رجُلٌ قَبيحُ الوَجْهِ، قبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذي يَسوؤُك! هذا يَومُك الَّذي كُنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ: مَن أنتَ؛ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالشَّرِّ، فيَقولُ: أنا عمَلُك الخَبيثُ، فيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعةَ))[٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى عليها اللَّحمُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٥٣٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقَضى الإخبارُ بتَقسيمِ أحوالِهم وما آلَ إليه كُلُّ قِسمٍ منهم؛ أكَّدَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: إنَّ هذا الخبَرَ المذكورَ في هذه السُّورةِ ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[(١)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾.

أي: إنَّ هذا المذكورَ عن المُقرَّبينَ وأصحابِ اليَمينِ وعن المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ، وما يَصيرونَ إليه: لَهُو خَبَرٌ أكيدٌ لا شَكَّ فيه، وأمرٌ ثابِتٌ لا بُدَّ مِن وُقوعِه[(٢)].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تحَقَّق للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هذا اليَقينُ؛ سَبَّبَ عنه أمْرَه بالتَّنزيهِ له سُبحانَه عمَّا وَصَفوه به مِمَّا يَلزَمُ منه وَصْفُه بالعَجزِ[(٣)]!

وأيضًا لَمَّا بَيَّن سُبحانَه الحَقَّ وامتَنَع الكُفَّارُ؛ قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا هو حَقٌّ؛ فإن امتَنَعوا فلا تترُكْهم ولا تُعرِضْ عنهم، وسَبِّحْ رَبَّك في نَفْسِك، وما عليك مِن قَومِك، سواءٌ صَدَّقوك أو كَذَّبوك[(٤)].

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ ذِكرُ الأقسامِ الثَّلاثةِ مُسهَبًا الكَلامُ فيهم؛ أمَرَه تعالَى بتنزيهِه عمَّا لا يَليقُ به مِن الصِّفاتِ، ولَمَّا أعاد التَّقسيمَ مُوجزًا الكلامَ فيه؛ أمَرَه أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٠).

بتَنزيهِه وتَسبيحِه(١).

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾.

فنَزِّهْ ربَّك المُتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ عِبارةٌ تَقتضي الأمرَ بالإعراضِ عن أقوالِ الكفَّارِ وسائرِ أمورِ الدُّنيا المُختصَّةِ بها، وبالإقبالِ على أمورِ الآخرةِ وعِبادةِ اللهِ تعالى والدُّعاءِ إليه(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى الحُلْقومَ دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

قال ابن تيميَّة: (قولُه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] و﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أمرٌ بتسبيحِ ربِّه، ليس أمرًا بصيغةٍ مُعيَّنة، فإذا قال: «سُبْحانَ اللهِ وبحَمْدِه» «سُبْحانَك اللَّهمَّ وبحَمدِك» فقد سبَّحَ ربَّه الأعلى والعظيمَ؛ فإنَّ اللهَ هو الأعلى وهو العظيمُ، واسمُه «اللهُ» يَتناوُلُ معانيَ سائرِ الأسماءِ بطريقِ التَّضمُّنِ، وإن كان التَّصريحُ بالعُلوِّ والعَظَمةِ ليس هو فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١١٧).

وقال أيضًا: (المراد المقصود من الاسم هو المُسمَّى، لا أنَّ نفْسَ اللَّفظِ هو المُسمَّى؛ فإنَّ هذا لا يقولُه عاقلٌ، وتنزيهُ الاسمِ وتسبيحُه تنزيهٌ للمُسمَّى وتسبيحٌ له، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٣/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٥).

المَرِيءِ؛ لأنَّ الحُلْقومَ مجرى النَّفَسِ -على قولٍ-، وبانقِطاعِه يَموتُ الإنسانُ، فإذا بلَغَتِ الرُّوحُ الحُلْقومَ وهي صاعِدةٌ مِن أسفَلِ البَدَنِ إلى هذا المَوضِعِ، حينَئذٍ تَنقَطِعُ العلائِقُ مِن الدُّنيا، ويَعرِفُ الإنسانُ أنه أقبَلَ على الآخرةِ، وانتهى مِن الدُّنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الرُّوحَ تَخرُجُ مِن أسفَلِ البَدَنِ، تَصْعَدُ حتَّى تَصِلَ إلى أعلى البَدَنِ، ثمَّ تُقبَضُ مِن هناك، فأوَّلُ ما يموتُ مِن الإنسانِ أسفَلُه[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ توقيفٌ على مَوضِعِ عَجزٍ يَقتَضي النَّظَرُ فيه أنَّ اللهَ تعالى مالكُ كُلِّ شَيءٍ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ لم يَقُلْ: «تُبصِرونَ»؛ لِئَلَّا يُظَنَّ أنَّ لهم إدراكًا بالبَصَرِ لِشَيءٍ مِن البَواطِنِ مِن حَقيقةِ الرُّوحِ وغَيرِها[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ ما أحْسَنَ إعادةَ «لولا» ثانيًا قبْلَ ذِكْرِ الفعلِ الَّذي يَقتضيه الأوَّلُ؛ وجَعْلَ الحَرْفَينِ يَقتَضِيانِه اقتِضاءً واحدًا، وذِكْرَ الشَّرطِ بيْنَ «لولا» الثَّانيةِ وما تَقتَضيه مِن الفعلِ، ثُمَّ الموالاة بيْنَ الشَّرطِ الأوَّلِ والثَّاني مع الفصلِ بيْنَهما بكلمةٍ واحدةٍ هي الرَّابطُ بيْنَ «لولا» الأُولى والثَّانيةِ؛ والشَّرطِ الأوَّلِ والثَّاني، وهذا تركيبٌ يَسجُدُ العقلُ والسَّمعُ لمعناه ولَفظِه. فتضمَّنَتِ الآيَتانِ تقريرًا وتوبيخًا واستِدلالًا على أصولِ الإيمانِ؛ مِن وُجودِ الخالقِ سُبحانَه، وكمالِ قدرتِه، ونُفوذِ مشيئتِه ورُبوبيَّتِه، وتَصرُّفِه في أرواحِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢).

عبادِه، حيثُ لا يَقْدِرون على التَّصرُّفِ فيها بشَيءٍ؛ وأنَّ أرواحَهم بيَدِه يَذْهَبُ بها إذا شاء، ويَرُدُّها إليهم إذا شاء، ويُخْلِي أبدانَهم منها تارةً، ويَجْمَعُ بيْنَها وبَيْنَها تارةً، وإثباتِ المعادِ، وصِدْقِ رسولِه فيما أخبَرَ به عنه، وإثباتِ ملائكتِه، وتقريرِ عبوديَّةِ الخَلْقِ. وأتَى بهذا في صورةِ تحضيضَينِ، وتوبيخَينِ، وتقريرَينِ، وجوابَينِ، وشرطَينِ، وجزاءَينِ، مُنتَظِمةً أحْسَنَ الانتِظامِ، ومُتداخِلةً أحْسَنَ التَّداخُلِ؛ مُتَعَلِّقًا بعضُها ببعضٍ، وهذا كلامٌ لا يَقدِرُ البشرُ على مِثلِ نَظْمِه ومعناه[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ارتباطٌ بيْنَ هذين الأمْرَينِ، وهو مِن أحسَنِ الاستِدلالِ وأبْلَغِه؛ فإنَّهم إمَّا أنْ يُقِرُّوا بأنَّهم مَربوبونَ مَملوكونَ -على قولٍ في معنى مَدِينينَ-، عَبيدٌ لمالِكٍ قادِرٍ مُتصَرِّفٍ فيهم قاهرٍ، آمِرٍ ناهٍ، أو لا يُقِرُّون بذلك؛ فإنْ أقَرُّوا به لَزِمَهم القيامُ بحقِّه عليهم، وشُكْرُه وتَعظيمُه وإجلالُه، وألَّا يَجعَلوا له نِدًّا ولا شَريكًا، وهذا هو الَّذي جاءهم به رَسولُه، ونَزَلَ عليه به كتابُه، وإنْ أنكروا ذلك وقالوا: إنَّهم ليسوا بعَبيدٍ ولا مملوكِينَ ولا مَربوبِينَ، وإنَّ الأمرَ إليهم؛ فهَلَّا يَرُدُّون الأرواحَ إلى مَقَارِّها إذا بَلَغتِ الحُلْقومَ! فإنَّ المتصرِّفَ في نفْسِه الحاكِمَ على رُوحِه لا يَمتَنِعُ منه ذلك! بخِلافِ المحكومِ عليه، المتصرِّفِ فيه غيرُه، المُدَبِّرِ له سِواهُ، الَّذي هو عَبدٌ مملوكٌ مِن جَميعِ الجِهاتِ، وهذا الاستِدلالُ لا مَحيدَ عنه، ولا مَدْفَعَ له، ومَن أعطاه حقَّه مِن التَّقريرِ والبَيانِ انتَفَعَ به غايةَ النَّفعِ، وانقادَ مِن أجْلِه للعُبوديَّةِ وأذعَنَ، ولم يَسَعْه غَيرُ التَّسليمِ للرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، والإقرارِ بالعُبوديَّةِ[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ: استُدِلَّ به على

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٦).

أنَّ الرُّوحَ بعدَ مُفارَقةِ البَدَنِ مُنَعَّمةٌ أو مُعَذَّبةٌ، وعلى أنَّ مَقَرَّ أرواحِ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ، ومَقَرَّ أرواحِ الكُفَّارِ في النَّارِ[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ جَعَل سُبحانَه تحيَّةَ المُقَرَّبينَ عندَ الوَفاةِ الرَّوحَ والرَّيحانَ والجَنَّةَ، وهذه الكَراماتُ الثَّلاثُ الَّتي يُعطَونَها بعدَ الموتِ نَظيرُ الثَّلاثِ الَّتي يُعطَونَها يومَ القيامةِ؛ فالرَّوحُ: الفَرَحُ والسُّرورُ، والابتِهاجُ ولَذَّةُ الرُّوحِ، فهي كَلِمةٌ جامِعةٌ لنَعيمِ الرُّوحِ ولَذَّتِها، وذلك قُوتُها وغِذاؤُها. والرَّيحانُ: الرِّزْقُ -على قولٍ-، وهو الأكلُ والشُّربُ. والجَنَّةُ: المَسْكَنُ الجامِعُ لذلك كلِّه؛ فيُعطَونَ هذه الثَّلاثَ في البَرزَخِ، وفي المَعادِ الثَّاني[(٢)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أنَّهم لَمَّا كانوا دونَ المُقَرَّبينَ في المَرتَبةِ، جَعَل تحيَّتَهم عندَ القُدومِ عليه السَّلامةَ مِنَ الآفاتِ والشُّرورِ الَّتي

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٤).

قال ابن القيِّم -بعدَ أن ذكر الأقوالَ في مُستقَرِّ الأرواحِ ما بيْنَ الموتِ إلى القيامةِ-، مُبينًا الرَّاجِحَ: (الأرواح مُتَفاوِتةٌ في مُستقَرِّها في البَرزَخِ أعظَمَ تَفاوُتٍ؛ فمنها أرواحٌ في أعلَى عِلِّيِّينَ في الملأِ الأعلى، وهي أرواحُ الأنبياءِ صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم، وهم مُتفاوِتون في مَنازِلِهم كما رآهم النَّبيُّ لَيلةَ الإسراءِ.

ومنها أرواحٌ في حَواصِلِ طَيرٍ خُضْرٍ تَسرَحُ في الجنَّةِ حيثُ شاءَت، وهي أرواحُ بعضِ الشُّهَداءِ لا جميعِهم، بل مِن الشُّهَداءِ مَن تُحبَسُ رُوحُه عن دُخولِ الجنَّةِ لِدَيْنٍ عليه أو غَيرِه... ومنهم مَن يكونُ مَحْبوسًا على بابِ الجنَّةِ... ومنهم مَن يكونُ محبوسًا في قبرِه... ومنهم مَن يكونُ مَقَرُّه ببابِ الجنَّةِ... ومنهم مَن يكونُ محبوسًا في الأرضِ... ومنها أرواحٌ تكونُ في تَنُّورِ الزُّناةِ والزَّواني، وأرواحٌ في نهرِ الدَّمِ تَسبَحُ فيه وتُلْقَمُ الحِجارةَ؛ فليس للأرواحِ سعيدِها وشقيِّها مُستقَرٌّ واحدٌ، بل رُوحٌ في أعلَى عِلِّيِّينَ، ورُوحٌ أرضيَّةٌ سُفليَّةٌ لا تَصعَدُ عن الأرضِ). ((الروح)) (ص: ١١٥، ١١٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٠).

تَحصُلُ للمُكذِّبينَ الضَّالِّينَ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٠- الوَجهُ في «اللَّامِ» في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ دونَ «على»: أنَّ هذا ليس سلامَ تحيَّةٍ، ولو كان تحيَّةً لَقال: «فسَلامٌ عليه»، كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ [الصافات: ٧٩]، ولكنَّ الآيةَ تضَمَّنتْ ذِكْرَ مراتبِ النَّاسِ وأقسامِهم عندَ القيامةِ الصُّغرى حالَ القُدومِ على اللهِ تعالى؛ فذَكَر أنَّهم ثلاثةُ أقسامٍ: مُقَرَّبٌ له الرَّوحُ والرَّيحانُ وجَنَّةُ النَّعيمِ، ومُقتَصِدٌ مِن أصحابِ اليَمينِ له السَّلامةُ -فوَعَدَه بالسَّلامةِ، ووَعَدَ المُقرَّبَ بالغَنيمة والفَوزِ، وإنْ كان كلٌّ منهما سالِمًا غانِمًا-؛ وظالِمٌ بتَكذيبِه وضَلالِه، فأوعَدَه بنُزُلٍ مِن حَميمٍ، وتَصليةِ جَحيمٍ، فلمَّا لم يكنِ المَقامُ مَقامَ تحيَّةٍ، وإنَّما هو مقامُ إخبارٍ عن حالِه، ذَكَر ما يَحصُلُ له مِنَ السَّلامةِ[٢].

١١- ذَكَر اللهُ تعالى أحوالَ الطَّوائِفِ الثَّلاثِ -المقَرَّبينَ، وأصحابِ اليَمينِ، والمكَذِّبينَ الضَّالِّينَ- في أوَّلِ السُّورةِ في دارِ القَرارِ، ثمَّ ذَكَر أحوالَهم في آخِرِها عندَ الاحتِضارِ والموتِ[٣].

١٢- المراتبُ ثلاثٌ؛ علمُ يقينٍ يحصلُ عن الخبرِ، ثمَّ تتجلَّى حقيقةُ المخبَرِ عنه للقلبِ أو البصرِ، حتَّى يصيرَ العِلمُ به عينَ يقينٍ، ثمَّ يباشرُه ويلابسُه فيصيرُ حقَّ يقينٍ، فعِلمُنا بالجنَّةِ والنَّارِ الآنَ عِلمُ يقينٍ، فإذا أُزلِفَت الجنَّةُ للمتَّقينَ في الموقفِ، وبُرِّزت الجحيمُ للغاوينَ، وشاهدوهما عيانًا، كان ذلك عينَ يقينٍ، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ - ٧]،

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

فإذا دخَل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، فذلك حقُّ اليقينِ، وقد مُثِّلت المراتبُ الثلاثةُ بمَن أخبَرك أنَّ عندَه عسلًا، وأنتَ لا تشكُّ في صِدقِه، ثمَّ أراك إيَّاه فازْدَدْتَ يقينًا، ثمَّ ذُقتَ منه. فالأوَّلُ: عِلمُ اليقينِ. والثَّاني: عينُ اليقينِ. والثَّالثُ: حقُّ اليقينِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ مُقْتَضَى فاءِ التَّفريعِ أنَّ الكلامَ الواقعَ بعْدَها ناشئٌ عمَّا قبْلَه على حسَبِ ترتيبِه، وإذ قد كان الكلامُ السَّابقُ إقامةَ أدلَّةٍ على أنَّ اللهَ قادرٌ على إعادةِ الحياةِ للنَّاسِ بعْدَ الموتِ، وأعقَبَ ذلك بأنَّ تلك الأدلَّةَ أيَّدَت ما جاء في القرآنِ مِن إثباتِ البعثِ، وأنْحَى عليهم أنَّهم وَضَحَت لهم الحُجَّةُ، ولكنَّهم مُكابِرونَ فيها، ومُظهِرونَ الجُحودَ وهم مُوقِنون بها في الباطنِ، وكلُّ ذلك راجعٌ إلى الاستدلالِ بقُوَّةِ قُدرةِ اللهِ على إيجادِ مَوجوداتٍ لا تَصِلُ إليها مَدارِكُ النَّاسِ -انتقَلَ الكلامُ إلى الاستدلالِ على إثباتِ البَعثِ بدَليلٍ لا مَحيصَ لهم عن الاعترافِ بدَلالتِه؛ فالتَّفريعُ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، وهو أنَّ عجْزَهم عن إرجاعِ الرُّوحِ عندَ مُفارقتِها الجسَدَ، يُنبِّهُهم على أنَّ تلك المُفارَقةَ مُقدَّرةٌ في نِظامِ الخِلْقةِ، وأنَّها لحِكمةٍ[٢].

- قولُه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ تَبكيتٌ مَبْنيٌّ على تَكذيبِهم بالقُرآنِ فيما نطَقَ به قولُه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧] إلى هُنا، مِن القوارعِ الدَّالَّةِ على كَونِهم تحتَ مَلكوتِه تعالى مِن حيثُ ذَواتُهم، ومِن حيث طَعامُهم

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ٤٦٩، ٤٧٠)، (٢/ ٣٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٢).

وشَرابُهم، وسائرُ أسبابِ مَعايشِهم[١].

- و(لولا) حرْفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ هنا في التَّعجيزِ؛ لأنَّ المحضوضَ إذا لم يَفعَلْ ما حُضَّ على فِعلِه، فقدْ أظهَرَ عجْزَه، والفعلُ المحضوضُ عليه هو ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، أي: تُحاوِلون رُجوعَها[٢].

- قولُه: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ مُقدَّمٌ عليه؛ لتَهويلِه، والتَّشويقِ إلى الفعلِ المَحضوضِ عليه[٣].

- والضَّميرُ المُستترُ في ﴿بَلَغَتِ﴾ عائدٌ على مَفهومٍ مِن العِباراتِ؛ لظُهورِ أنَّ الَّتي تَبلُغُ الحُلقومَ هي الرُّوحُ، حُذِفَ إيجازًا[٤].

- جُملةُ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿بَلَغَتِ﴾، ومَفعولُ ﴿تَنظُرُونَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: تَنظُرون صاحبَها، أي: صاحبَ الرُّوحِ؛ بقَرينةِ قولِه بعْدَه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن مَفعولِ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ المَحذوفِ، أو مُعترِضةٌ والواوُ اعتراضيَّةٌ. وأيًّا ما كانتْ فهي احتراسٌ لبَيانِ أنَّ ثَمَّةَ حُضورًا أقرَبَ مِن حُضورِهم عندَ المُحتضَرِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ وجُملةِ ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾[1] [الواقعة: ٨٦].

- ومَفعولُ ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ﴾[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ * تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- كَلمةُ (فلولا) الثَّانيةُ تأْكيدٌ لَفظيٌّ لنَظيرِها السَّابقِ، أُعِيدَ لتُبْنى عليه جُملةُ ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾؛ لطُولِ الفَصلِ[3].

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ مُعترِضةٌ، أو حالٌ مِن الواوِ في ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾، وجَوابُ شَرطِ (إنْ) مَحذوفٌ دلَّ عليه فِعلُ ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾[4].

- قيل: أُسنِدَ فِعلُ ﴿إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ إلى المُخاطَبينَ بضَميرِ المُخاطَبينَ، دونَ أنْ يَقولَ: إنْ كان النَّاسُ غيرَ مَدينِينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ همُ الَّذين مِن أجْلِ إنكارِهم البعثَ سِيقَ هذا الكلامُ، والمعْنى: لو كُنتُم أنتُم وكان النَّاسُ غيرَ مَدينِينَ، لَما أُخرِجَت الأرواحُ مِن الأجسادِ؛ إذْ لا فائدةَ تَحصُلُ مِن تَفريقِ ذَينِكَ الإلْفَينِ لولا غرَضٌ سامٍ، وهو وضْعُ كلِّ رُوحٍ فيما يَليقُ بها مِن عالَمِ الخُلودِ جَزاءً على الأعمالِ؛ ولذلك أُوثِرَ لَفظُ ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: غيرَ مَبعوثِينَ، أو غيرَ مُعادِينَ، وإنْ كان لا يَلزَمُ مِن نفْيِ الإدانةِ نفْيُ البَعثِ؛ فإنَّه يجوزُ أنْ يكونَ بعثٌ بلا جَزاءٍ، لكنْ ذلك لا يُدَّعَى؛ لأنَّه عبَثٌ؛ فقولُه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الغرَضَ مِن سَوقِ هذا الدَّليلِ إبطالُ إنكارِهم البعثَ الَّذي هو لحِكمةِ الجزاءِ. ومِن مُستتبَعاتِ هذا الكلامِ أنْ يُفيدَ الإيماءَ إلى حِكمةِ الموتِ بالنِّسبةِ للإنسانِ؛ لأنَّه لتَخليصِ الأرواحِ مِن هذه الحياةِ الزَّائلةِ المَملوءةِ باطلًا إلى الحياةِ الأبَديَّة الحقِّ الَّتي تَجْري فيها أحوالُ الأرواحِ على ما يُناسِبُ سُلوكَها في الحياةِ الدُّنيا، كما أشار إليه قولُه تَعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فيَقْتضي أنَّه لولا أنَّكم مَدِينونَ لَما انتزَعْنا الأرواحَ مِن أجسادِها بعْدَ أنْ جَعَلْناها فيها، ولَأبْقَيْناها؛ لأنَّ الرُّوحَ الإنسانيَّ ليس كالرُّوحِ الحَيوانيِّ، فتَكونُ الآيةُ مُشتمِلةً على دَليلَينِ: أحدُهما بحاقِّ التَّركيبِ، والآخَرُ بمُستتبَعاتِه الَّتي أَومَأَ إليها قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، والغرَضُ الأوَّلُ هو الَّذي ذُيِّلَ بقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[(١)].

- وقولُه: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ سَدَّ مَسدَّ الأجوبةِ والبَياناتِ الَّتي يَقْتضيها التَّحْضيضاتُ، و(إذا) مِن قولِه: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾، و(إنْ) المُتكرِّرةُ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وحمَل بعضُ القولِ بَعضًا، إيجازًا واقتضابًا[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، وعلى أن معْنى ﴿مَدِينِينَ﴾ أي: مُجازَيْنَ على أعْمالِكم يكونُ وَجْهُ إعادةِ هذا الشَّرطِ مع أنَّه ممَّا استُفيدَ بقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ هو الإيماءَ إلى فرْضِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بالنِّسبةِ لِما في نفْسِ الأمْرِ، وأنَّ الشَّرطَ في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هو فرْضٌ وتَقديرٌ -لا وُقوعَ له- نفْيِ البعثِ، وعلى أن معْنى ﴿مَدِينِينَ﴾ أي: مَرْبوبينَ يَرجِعُ قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إلى ما أفادَه التَّحضيضُ، ومَوقعُ فاءِ التَّفريعِ مِن إرادةِ أنَّ قبْضَ الأرواحِ لتَأخيرِها إلى يومِ الجزاءِ، أي: إنْ كُنتم صادِقينَ في نفْيِ البَعثِ والجزاءِ[1].

- قولُه: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه إشكالٌ في جَعْلِ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ مِن جُملةِ جَوابِ شَرطِ (إنْ)؛ إذ لا يَلزَمُ مِن عدَمِ قُدرتِهم على صَدِّ الأرواحِ عن الخروجِ أنْ يكونَ خُروجُها لإجراءِ الحسابِ. ودفْعُ هذا الإشكالِ: وُجوبُ تأْويلِ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ بمعْنى: تُحاوِلون إرجاعَها، أي: عدَمُ مُحاولتِكم إرجاعَها منذُ العصورِ الأُولى دليلٌ على تَسليمِكم بعدَمِ إمكانِ إرجاعِها، وما ذلك إلَّا لوجوبِ خُروجِها مِن حياةِ الأعمالِ إلى حَياةِ الجزاءِ، وأصلُ تَركيبِ هذه الجُملةِ: فإذا كُنتم صادقينَ في أنَّكم غيرُ مَدينِين، فلولا حاوَلْتُم عندَ كلِّ مُحتضَرٍ إذا بلَغَت الرُّوحُ الحُلْقومَ أنْ تَرجِعوها إلى مَواقعِها مِن أجزاءِ جَسَدِه، فما صَرَفَكم عن مُحاولةِ ذلك إلَّا العلمُ الضَّروريُّ بأنَّ الرُّوحَ ذاهبةٌ لا مَحالةَ. فإذا علِمْتَ هذا اتَّضَحَ لك انتظامُ الآيةِ الَّتي نُظِمَت نظْمًا بَديعًا مِن الإيجازِ، وأُدمِجَ في دَليلِها ما هو تَكملةٌ للإعجازِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، لَمَّا اقْتَضى الكلامُ بحَذافِرِه أنَّ الإنسانَ صاحبَ الرُّوحِ صائرٌ إلى الجزاءِ، فُرِّعَ عليه إجمالُ أحوالِ الجزاءِ في مَراتبِ النَّاسِ، إجمالًا لِما سبَقَ تَفصيلُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٣).

بقولِه: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ إلى قولِه: ﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٧- ٤٤]؛ لِيَكونَ هذا فَذْلَكةً[١] للسُّورةِ، ورَدًّا لعَجُزِها على صَدْرِها؛ فضَميرُ ﴿إِن كَانَ﴾ عائدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ مِن قولِه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾[٢] [الواقعة: ٨٥].

- وجَوابُ (إنْ) مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ جَوابِ (أمَّا) المذكورِ عليه، وحذْفُ جَوابِ (إنْ) شائعٌ كثيرًا[٣].

- وقد ذُكِرَ لكلِّ صِنفٍ جَزاءٌ لم يُذكَرْ له فيما تَقدَّمَ؛ ليُضَمَّ إلى ما أُعِدَّ له فيما تقدَّمَ على طَريقةِ القرآنِ في توزيعِ القصَّةِ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ فيه تَخصيصُ الرَّيحانِ بالذِّكرِ قبْلَ ذِكرِ الجنَّةِ الَّتي تَحْتوي عليه؛ للإيماءِ إلى كَرامتِهم عِندَ اللهِ سُبحانَه[٥].

- ولَمَّا كانت جِنانُ الدُّنيا قد يكونُ فيها نَكَدٌ، أضاف هذه الجَنَّةَ إلى المرادِ بهذه الجِنانِ؛ إعلامًا بأنَّها لا تَنفَكُّ عنه، فقال: ﴿نَعِيمٖ﴾، أي: ليس فيها غيرُه، بل هي مقصورةٌ عليه[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ الكلامُ إجمالٌ للتَّنويهِ بهم، وعُلوِّ مَرتبتِهم، وخَلاصِهم مِن المُكدِّراتِ؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ[٧].

---

(١) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٨).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨).

- قولُه: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ الخطابُ لكلِّ مَن هو مِن هذا الضَّرْبِ، فهو خطابٌ للجنسِ، أي: فسلامٌ لك يا مَن هو من أصحابِ اليمينِ، ولهذا أَتى بحرف «من» في قَولِه: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ حالٍ؛ أي: سلامٌ لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ(١).

وقيل: كافُ الخِطابِ في قولِه: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ مُوجَّهةٌ لغيرِ مُعيَّنٍ، أي: لكلِّ مَن يَسمَعُ هذا الخبرَ، والمعْنى: أنَّ السَّلامةَ الحاصِلةَ لأصحابِ اليمينِ تَسُرُّ مَن يَبلُغُه أمْرُها، وهذا كما يُقالُ: ناهيكَ به، وحسْبُك به. و(مِن) ابتدائيَّةٌ، واللَّفظُ جَرى مَجرَى المثَلِ؛ فطُوِيَ منه بَعضُه، وأصْلُه: فلهمُ السَّلامةُ؛ سَلامةٌ تَسُرُّ مَن بلَغَه حَديثُها.

وقيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُسَرُّ بما يَنالُه أهلُ الإسلامِ مِن الكرامةِ عندَ اللهِ، وهم ممَّن شَمِلَهم لفظُ ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾.

وقيل: الكلامُ على تَقديرِ القَولِ، أي: فيُقالُ له: سلامٌ لك، أي: تقولُ له الملائكةُ، و﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: أنت مِن أصحابِ اليمينِ، و(مِن) على هذا تَبعيضيَّةٌ؛ فهي بِشارةٌ للمُخاطَبِ عندَ البعثِ.

وقيل: الكافُ خِطابٌ لِمَن كان من أصحابِ اليمينِ على طَريقةِ الالتِفاتِ، ومُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقال: فسلامٌ له؛ فعُدِلَ إلى الخِطابِ لاستِحضارِ تلك الحالةِ الشَّريفةِ، أي: فيُسلِّمُ عليه أصحابُ اليمينِ، على نحْوِ قولِه تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ [يونس: ١٠]، أي: يُبادِرونَه بالسَّلامِ، وهذا كِنايةٌ عن كَونِه مِن أهلِ مَنزلتِهم، و(مِن) على هذا ابتدائيَّةٌ. فهذه مَحاملُ لهذه الآيةِ يُستخلَصُ مِن

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦).

مَجموعِها معْنى الرِّفعةِ والكَرامةِ[(١)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فقدَّمَ هنا (الْمُكَذِّبينَ) على (الضَّالِّينَ)، وقال في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾؛ فقدَّمَ (الضَّالُّونَ) على (الْمُكَذِّبُونَ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّهم في أوَّلِ السُّورةِ أصَرُّوا على الحِنْثِ العظيمِ، فضَلُّوا عن السَّبيلِ، ثمَّ كذَّبوا الرَّسولَ، وقالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾؛ فقُدِّمَ وصْفُ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ على وصْفِ ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾؛ مُراعاةً لتَرتيبِ الحُصولِ؛ لأنَّهم ضلُّوا عن الحقِّ فكذَّبوا بالبَعثِ؛ ليَحذَروا مِن الضَّلالِ، ويَتدبَّروا في دَلائلِ البعثِ، وذلك مُقْتضى خِطابِهم بهذا الإنذارِ بالعذابِ المُتوقَّعِ.

وأمَّا هنا في آخِرِ السُّورةِ فقدَّمَ «المكذِّبينَ» بالحَشرِ على «الضَّالِّينَ» عن طَريقِ الخَلاصِ.

أو يُقالُ: إنَّ الكلامَ في الأوَّلِ معَ الكُفَّارِ، وهم ضلُّوا أوَّلًا، وكذَّبوا ثانيًا، وفي آخِرِ السُّورةِ الكَلامُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقدَّمَ التَّكذيبَ به إظهارًا للعِنايةِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٢)].

وقيل: قُدِّمَ هنا وَصْفُ التَّكذيبِ على وصْفِ الضَّلالِ، عكْسَ ما تَقدَّمَ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١]؛ لِمُراعاةِ سَببِ ما نالَهم مِن العذابِ، وهو التَّكذيبُ؛ لأنَّ الكَلامَ هنا على عَذابٍ قد حانَ حِينُه، وفات وقْتُ الحَذَرِ منه؛ فبُيِّنَ سبَبُ عَذابِهم، وذُكِّروا بالَّذي أوْقَعَهم في سَببِه؛ ليَحصُلَ لهم ألَمُ التَّندُّمِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن =

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ النُّزُلُ: هو ما يُقدَّمُ للضَّيفِ مِن القِرَى، وإطلاقُه هنا تَهكُّمٌ. والتَّصليةُ: مَصدرُ الفعلِ (صلَّاهُ) المُشدَّدِ، إذا أحْرَقَه وشَواهُ، وهو هنا مِن الكَلامِ المُوجَّهِ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)؛ لإيهامِه أنَّه يُصلَّى له الشِّواءُ في نُزُلِه على طَريقةِ التَّهكُّمِ، أي: يُحرَّقُ بها[1].

٩- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ تَذييلٌ لجَميعِ ما اشتَمَلَت عليه السُّورةُ مِن المعاني المُثبَتةِ، والإشارةُ إلى ذلك بتأويلِ المذكورِ مِن تَحقيقِ حقٍّ، وإبطالِ باطلٍ[2].

- وأيضًا قدِ اشتَمَلَ هذا التَّذييلُ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ؛ وهي: (إنَّ)، ولامُ الابتداءِ، وضَميرُ الفصْلِ، وإضافةُ شِبهِ المُترادِفَين[3].

- وإضافةُ ﴿حَقُّ﴾ إلى ﴿الْيَقِينِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: لَهو اليقينُ الحقُّ؛ وذلك أنَّ الشَّيءَ إذا كان كاملًا في نَوعِه، وُصِفَ بأنَّه حقُّ ذلك الجنسِ، ومآلُ هذا الوصفِ إلى تَوكيدِ اليقينِ؛ فهو بمَنزلةِ ذِكرِ مُرادفِ الشَّيءِ، وإضافةُ المُترادفَينِ تُفيدُ معْنى التَّوكيدِ والمُبالَغةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الإضافةُ بَيانيَّةً على معْنى (مِن)، وحَقيقتُه على معْنى اللَّامِ، بتَقديرِ: لهو حقُّ الأمْرِ اليقينِ. وقيل: هو مِن إضافةِ الموصوفِ إلى صِفَتِه؛ جُعِلَ الحقُّ مُبايِنًا لليقينِ، أي: الثَّابتُ المُتيقَّنُ[4].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

= عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٠).

- هو تَفريعٌ على تَحقيقِ أنَّ ما ذُكِرَ هو اليقينُ حقًّا؛ فإنَّ ما ذُكِرَ يَشتمِلُ على عَظيمِ صِفاتِ اللهِ، وبَديعِ صُنْعِه وحِكمتِه وعدْلِه، ويُبشِّرُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه بمَراتبَ مِن الشَّرفِ والسَّلامةِ على مَقادير دَرجاتِهم، وبنِعمةِ النَّجاةِ ممَّا يَصيرُ إليه المُشرِكون من سُوءِ العاقبةِ؛ فلا جَرَمَ كان حَقيقًا بأنْ يُؤمَرَ بتَسبيحِ اللهِ تَسبيحًا استَحقَّه لعَظَمتِه، والتَّسبيحُ ثَناءٌ؛ فهو يَتضمَّنُ حمْدًا لِنعمتِه، وما هَدَى إليه مِن طُرقِ الخَيرِ[1].



تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحَديدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥١).



الفهرس

نسخة إلكترونية **حقوقها للناشر** لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا **(اضغط هنا)**







الفهرس

سورةُ الرَّحْمنِ

سورةُ الواقِعةِ

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠